



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة امحمد بوقرة - بومرداس
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية



كتاب جامع

للملتقى الوطني

(تحت إشراف فرقة البحث: البلاغة القرآنية وعلم التفسير)

البلاغة العربية في ضوء علوم القرآن

(حضوري وبتقنية التحاضر عن بعد)

بتاريخ: 15/14 أكتوبر 2024

الهيئة المشرفة على الملتقى:

الرئيس الشرفي للملتقى: أ/د: مصطفى يحيى (رئيس الجامعة)

المشرف العام للملتقى: أ/د: نور الدين لبصير (عميد كلية الآداب واللغات)

المنسق العام للملتقى: د/سامية بوفوروة (رئيس قسم اللغة العربية)

رئيسة الملتقى: د/نجوى مغاوي، د/أسيا نعماني



كتاب جامع لأعمال الملتقى الوطني
تحت إشراف فرقة البحث: البلاغة القرآنية وعلم التفسير

البلاغة العربية في ضوء علوم القرآن

(حضورى وبتقنية التحاضر عن بعد)

بتاريخ 15/14 أكتوبر 2024

الهيئة المشرفة على الملتقى:

الرئيس الشرفي للملتقى: أ/د: مصطفى ياحي (رئيس الجامعة).

المشرف العام للملتقى: أ/د: نور الدين لبصير (عميد كلية الآداب

واللغات).

المنسق العام للملتقى: د/سامية بوقرورة (رئيس قسم اللغة العربية)

رئيسة الملتقى: د/نجوى مغاوي، د/أسيا نعماني



النَّاشِرُ دار جودة للنشر والتوزيع
الجزائر - (باتنة)

الطبعة الأولى 1446 هـ - 2025 م

الإيداع القانوني: 01/2025

ISBN: 978-9969-00-520-2

عنوان العمل: البلاغة العربية في ضوء علوم القرآن
من إعداد: مجموعة من الباحثين
تصميم الغلاف: زكريا رقاب

الهاتف: 00213671827876

البريد الإلكتروني editionjoude@gmail.com

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للمؤلف وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن منه. ويكون الكاتب مسؤولاً عن كل تبعة أدبية أو مادية أو نظامية تنشأ عن جميع مطالب
تتعلق بمادة الكتاب أو محتوياته أو رسومه.

الديباجة:

تُعدّ علوم القرآن الكريم القاعدة التي انطلقت منها علوم اللغة، وهي مباحث تتعلّق بالقرآن من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابه وقراءته وتفسيره وإعجازه وناسخه ومنسوخه، ودفع الشُّبه عنه ونحو ذلك، وقد تزامنت حركة التأليف في علوم القرآن مع الحركة العلمية النشطة التي عرفتها اللغة العربية فامتزجت علوم القرآن مع علوم اللغة وأنتجت لنا مصنّفات لا تخلو من لطائف ونكت بلاغية أو نحوية أو صرفية أو مباحث متعلقة بعلم فقه اللغة.

والمتملّ في هذه المصنّفات يلاحظ أنّ علماء التفسير وأمثالهم من المؤلفين في علوم القرآن قد استعانوا في مواطن عدّة بمباحث وأدوات البلاغة العربية بأقسامها الثلاثة، فالبلاغة أمّدت هؤلاء العلماء بالأدوات والآليات التي تجعلنا نقول أنّ علوم القرآن اكتملت واستوت في أحضان البلاغة العربية، أمثال الإتقان في علوم القرآن للسيوطي والبرهان في علوم القرآن للزركلي.

الإشكالية:

ارتأينا من خلال طرح محاور هذا الملتقى العلمي أن نبحث في دور علوم القرآن في تأصيل الفكر البلاغي وتجديده، خاصة أنّ الكثير من مباحث البلاغة العربية ومواضيعها قد ظهرت أهميتها وفائدتها البلاغية من خلال لغة القرآن الكريم وعلومه.

ومن هذا المنطلق، يتجه هذا الملتقى للبحث في مناحي التداخل والتأثير والتأثر الحاصل بين علوم القرآن والبلاغة العربية، والإجابة عن التساؤل القائل كيف خدم كلاهما الآخر، أو بتعبير آخر كيف أثّرت علوم القرآن في مباحث وموضوعات البلاغة العربية؟ وما أكثر أقسام البلاغة العربية إفادة للمفسرين وغيرهم من المنشغلين بالقرآن الكريم؟

كيف لا، وقد كان التفسير البلاغي للقرآني أكثر أنواع التفاسير نموًا وتجددًا وتطورًا وتغيّرًا، من خلال استعمال أدوات جديدة أثّرت بدورها في مباحث البلاغة وأعطتها روحاً جديدة متجدّدة، فالمفسّر للقرآن الكريم يحسن أن يكون بلاغياً أولاً ليحيط بجميع المعاني العلمية ويقف على اللطائف والنكت وذلك لا يكون إلا بتمكّنه وتحكّمه في الجانب البلاغي.

فيؤثر في الدرس البلاغي من وجهة نظر مختلفة ويعطيه دفعا قويا لتتأصل قواعده ومفاهيمه، فما هي مظاهر التأثير والتأثر بين البلاغة وعلوم القرآن؟ وكيف أسهم علماء التفسير في إثراء المباحث البلاغية؟

محاور الملتقى:

1. مظاهر التقاطع بين البلاغة العربية وعلوم القرآن.
2. إسهامات علوم القرآن في تأصيل الدرس البلاغي العربيّ
3. دراسات تطبيقية بلاغية على كتب التفسير وعلوم القرآن.
4. البلاغة الجديدة في ضوء علم التفسير (لسانيات النصّ .التداولية).

أهداف الملتقى:

- . الوقوف على مظاهر التقاطع بين البلاغة وعلوم القرآن.
- . تبيين دور علوم القرآن في تأصيل الفكر البلاغي العربي.
- . الاستفادة من كتب التفسير وغيرها في الوقوف على أنواع الإعجاز البلاغي.
- . تحديد المباحث البلاغية التي أثمرتها علوم القرآن.
- . تعيين مواضع التجديد البلاغي على يد المفسرين.

طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

Methods of interpreting the Qur'an and their impact on rhetorical discourse

د. الجمعي شبكية

مخبر الأدب العام والمقارن

جامعة باجي مختار/ عنابة

مهّد الصّراع الذي دار حول قضايا تخصّ تفسير القرآن لتشكيل عدّة فرق دينية واضحة السمات وتممايزة المعالم الفكرية، حيث اتخذت كل فرقة رأياً وموقفا حدّد توجه كل فرقة وطبعها بطابع نظر خاص يعرف بها. وقد لعبت ثنائية النّقل والعقل المستعملة في ميدان التفسير دوراً مهماً في بقية المجالات المعرفية، إذ اشتهر عند مفسّري القرآن طريقتان؛ الأولى تكتفي بالرواية المأثورة عن مبلّغ الوحي ذاته، والثانية تفتح مجالها لاستعمال العقل وما وصل إليه من معرفة. ولعلّ الخطاب البلاغي قد تشكّل وسط تلك الصراعات الفكرية التي شهدتها الثقافة الإسلامية العربية.

Summary:

The conflict that took place over issues related to the interpretation of the Qur'an paved the way for the formation of several religious sects with clear characteristics and distinct intellectual features, as each sect took an opinion and a position that determined the orientation of each sect and imprinted it with a special viewpoint that defined it. The duality of transmission and reason used in the field of interpretation has played an important role in the rest of the fields of knowledge, as two methods were famous among the interpreters of the Qur'an: The first is satisfied with the narration narrated from the person who conveyed the revelation himself, while the second opens its scope to the use of reason and the knowledge it has attained. Perhaps the rhetorical discourse was formed amidst those intellectual conflicts that Arab Islamic culture witnessed.

مقدمة:

عُدَّ النَّصُّ الْقُرْآنِي محور المعرفة العربية الإسلامية، إذ ارتبطت مختلف العلوم في الملة الإسلامية بالنص القرآني من قريب أو من بعيد، كما صيغ العقل البلاغي والتقدي بطريقة خاصة من خلال فهم نص القرآن وتفسيره؛ بل إن افتراق الفرق الإسلامية كان عن طريقة في فهم النص القرآني وتفسيره في الحقيقة، وذلك ما أدّى إلى اختلاف الصياغة الفكرية والمقاصد المعرفية وراء المفاهيم البلاغية المستعملة في الخطاب البلاغي.

ولعلّ محاور المداخلة تسعى إلى الإجابة عن هذه الأسئلة:

ما هي الملامح الفكرية الخاصة التي كانت لعلم التفسير؟ وما هي الأسس التي قام عليها علم التفسير وامتدّت إلى علم البلاغة؟ ما أوجه العلاقة والتقابلات المنهجية بين خطاب التفسير وعلم البلاغة؟

أولاً: علم التفسير والطرق المعتمدة فيه

1- علم التفسير بين النقل والرأي:

صاغ النّقاش الدّائر حول تفسير القرآن العقل العربي إلى ثنائيات كان لها الأثر البارز في تشكيله للعلوم فيما بعد. ولعلّ خطاب التفسير جرى في طريقتين رئيسيين معروفين، وقد خاض من خلالهما العلماء تفسير القرآن، وهما الطريقتين التي لم تبق مقصورتين على حقل التفسير، وإتّما امتدّت إلى الخطاب البلاغي من حيث حقله العباري ومقاييس التعليل المعتمدة فيه.

تطرق إلى البلاغة من ساحة دراسات علوم القرآن كذلك ضروب من الاتجاهات والأراء، فقد كان المقدم على شيء من القرآن يقف بين أمرين، إما أن ينقل عن السلف عبر مروياتهم، ويقف عند ما وقفوا، ولا يتعداه إلى تغليب أو ترجيح أو ظن، وإما أن يبدل في ذلك برأيه وما حسنه له دليله وكان عليه ترجيحه، وهذا يرجع فيه إلى قسمين: "منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع وهو أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات واللغات

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

وقصص الأمم الماضية وأخبار ما هو كائن من الحوادث وأمور الحشر والمعاد، ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من الألفاظ.... وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والإعرابية لأن معناها على الأقيسة، وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والإشارات لا يمتنع استنباطها منه واستخراجها لمن له أهلية.⁽¹⁾

بل إن هذا التمييز ذاته في درجات تفسير أي القرآن وتراكيبه بين أخذ فيه وبين متوقف على الرواية هو علة، أن "كان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحيل على الاعتماد في المنقول وعلى النظر في المستنبط."⁽²⁾

وحسنت ثنائية النظر والرواية مع خطابات المذاهب الكلامية التي بحثت مختلف الجوانب العقيدية والدينية، بطريقة انفلتت بطريقة أو بأخرى من الرواية وأسست للنظر ذاته، وإن كان يميل بعضهم إلى اعتبار طريقة المتكلمين هي ذاتها ما يعتبره أهل الرواية أنفسهم، ولا يعدو الخلاف حينئذ إذن والتباين إلا في العبارة، وليس ذلك محل خلاف في أساسه يعتد به في العلم⁽³⁾.

ومن ثمّة، حسم منذ أمد مبكر على مستوى هذا الخطاب وقضي للنظر المتأخر وعبارته في المجال الذي استبدت فيه الرواية طويلا، بل إن هذا ما دعا إلى تميّز الطريقة الكلامية كطريقة في البحث والنظر. إن انتصار طريقة الناظر وفي مجالات معرفية مهمة وخطيرة على مستوى التشكييلة الخطابية، سهّل الأمر على النقاد في استعمال الأنظار

(1) - السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1394هـ/1974م، ص 558-559.

(2) - السيوطي، الإتيقان، ص 559.

(3) - ينظر عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر، ط5، 2004م، ص 451.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

ومحاولة مقارنة الخطاب البلاغي والتّقدي وتفسيره بالطريقة الكلامية ذاتها، وجعل رجال البلاغة والنقاد يقاربون الشّعْر البليغ بأذواقهم وأنظارهم الخاصة⁽¹⁾.

2- انفتاح علم التفسير على التأويل:

أخذ التأويل عند المفسرين وأهل الكلام بعدا خاصا باعتباره مظهرا من مظاهر النظر؛ إذ ارتبطت ممارسته بفئة معينة وبحسب أسس كلّ مذهب فكري، ويشير العلوي إلى أن حيطة المقاييس العقلية أولى من تعريض العبارة ذاتها إلى التأويل في حالة إذا ما بدا تعارض ظاهر، إن ذلك ما يعمّق الإحساس بأهمية تأويل العبارة ذاتها في جنب ما هي فيه من علم وسياق، مراعاة للعلم والوعي الذي يمكن أن تحمله حقيقة وصيانة له، ولعلّ هذا نفسه ما نجده عند الغزالي وابن رشد إذ لا يحفظ للعبارة حقائقها ويسعى إلى تأويلها كلّما عنّ له عدم انسجامها مع المقصد والغرض، وعلى ذلك كانت حقائق المجاز ذاتها، وأن وراءها حقيقة وأصلا دوما، ومن ثمّ فإنّه عدّ هذا من المبادئ عند كثير من البلاغيين والمتكلمين، وهي أن يحمل الكلام على المجاز إذا ما ظهر تعارض مع الظاهر⁽²⁾.

ويبدو أنّ التأويل ذاته محاولة في الفهم يسعى من خلاله إلى تطويع الحقل العباري نفسه آلية قديمة انطلقت في ميادين معرفية تتصل بالدين أولا قبل أن تتناول قضايا الخطابات المعرفية عامة، فهو سبق زمني شجّع حينئذ على ارتياده، ولعلّ المعرفة النقدية ذاتها لا تنفصل عن ذلك.

فقد حاول كل نموذج معرفي أن يقصر حقيقة البلاغة على حسب ما يكون عليه نمودجه، وبحسب ما يراعيه من مسائل في ذلك، ومارس بهذا الفعل ممارسة في الفهم والتأويل أولا، حيث قد يرد أو يقبل ما يتسلمه من مفاهيم في الوقائع النقدية والبلاغية العربية القديمة، وحاول أن يذهب بها ناحية نمودجه متأولا في كل ذلك. فكان التأويل أحد

(1) - وقد أشار الجرجاني إلى أنه أخرج هذه العلل على طريق أهل العربية.

(2) - ينظر القاضي عبد الجبار، إعجاز القرآن ضمن المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دط، دت، ج 16 ص 395..

الطرق التي تلجأ إليها الفئة العلمية حقا في الحفاظ على نموذجها وإعطائه دفعا لمواجهة كل التحديات والمشاكل التي يفرضها التقدم الزمني أو الجغرافي.

وقد ارتبط التأويل أولا بالمفاهيم الدينية بحسب الفرق الدينية التي تحاول أن تعكف الحقيقة في زاويتها ومن خلال انسجامها مع مقدماتها الفكرية التي سنتها، غير أن من يفرق بين التفسير والتأويل، فمن صور تأكيد أن التفسير غير التأويل ما أكده المستشرق الألماني هورتن من أن التأويل عند الفرق المسلمة إنما ينبي أساسا على الفهم الظاهر عند الأمة والتي تجمع عليه، ولا يعدو عند ذلك التفسير مجرد آلية في الفهم الداخلي المستوضح لبعض الأمور على وجه الدقة. وعن تفسير النصوص، يقول: "إن تفسير النص يتبع منهجية ذات توجيه داخلي محض. إن هذه المنهجية كما تتمثل في حالة تفسير القرآن الكريم، تمثل عملية تقوم من خلالها السلطة الإسلامية التي يمثلها العلماء، بتعزيز إجماع الأمة؛ لذا لا يكون غرض التأويل كما يبدو من خلال التفسير، الوصول إلى الحقيقة الخفية، بل هو فهم داخلي للحقيقة المتجلية... وهو يتطابق في هذا مع العملية الإدراكية لمعنى الأمة المشترك."⁽¹⁾

التأويل إذن آلية في الفهم وخاص بكل طبقة وفرقة، إذ هو ردّ خاص للنصوص القرآنية القاعدة المشتركة لجميع هذه الفرق وفهم منها بحسب ما تكتسبه من معارف تنطلق من أوليات لها معينة، هو ما عبّر عنه أحد الباحثين بقوله: "بما أن القاعدة المشتركة التي تستمد منها كافة الفرق- في الحكم والمعارضة- هي القرآن الكريم فطبيعي أن يجد كل فريق مبتغاه في هذا النص ويحاول جهد إمكانه أن يجتهد في تفسيره وتأويله لما لا أم موقعه."⁽²⁾ إن التأويل بهذا هو آلية لتوطين بعض الأفكار المستحدثة المتوصّل إليها، كما أن التأويل يفكّ التعارض الذي يبدو ظاهريا مع أصول معينة، إذ يختار عبر التأويل أحد المخارج الباطنة ويردّ ما كان ظاهرا.

(1) - عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، منشورات دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق/سورية، ط1، 2009م، ص67.

(2) - محمد حماد، نظرية المعنى بين الشرح والتفسير والتأويل، سلسلة الندوات، جامعة تونس1، كلية الآداب بمنوبة، مجلد8، ص144. نقلا عن عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل، ص67.

يدلنا على أن التأويل آلية دفاعية غايتها الانسجام مع مذهب كل طائفة، حتى لو أدّى ذلك إلى قسر التفسير لصالح آرائهم وما ينصرون من مبادئ تشكّل عقيدة طائفهم، "وتكمن فرادة الموروث التأويلي- في المنظور العربي الإسلامي- وميزته، في النقلة النوعية من فهم النص الديني إلى تعميم التأويل على مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية، فجعلت المذاهب المعتزلة، الأشاعرة، الشيعة، مثلاً، الدين مبرراً لفكرهم عن طريق التأويل، يعبر عن مصالحهم حتى ولو أدى بهم الأمر إلى التفسير المتعسف لبعض الآيات، وهو ما سوّغ لهم تجديد قواعد نظروا من خلالها إلى فهم النص بكيفيات متعددة..."⁽¹⁾

إن العمل التأويلي عند العرب مبني أساساً على التوفيق بين المقدمات التي ينطلق منها في ظل النص القرآني الثابت، وما قد تفصح عنه نظراتهم العقلية في النظر إلى العالم والأشياء، فإذا كان أمر الاعتقاد بالدين الإسلامي قد توكّد عند كثير من الداخلين في الدين الجديد، وأن اعتقاداتهم الدينية تركت من أجله، فإن أمر معتقدتهم في بعض الأمور الجزئية التي تخصّ الحياة وطريقة العيش ما يزال قائماً وما تزال قلوبهم له مخلصّة، خاصة في ظل ما تستمدّه حضارة من أخرى في ذلك، "والذي يدرس تاريخ الفكر العربي الإسلامي يرى مكانة التأويل بغرض أن يسهم العرب بدورهم في تفسير الكون من وجهة نظر الدين والعقل معاً، لذلك كان اهتمامهم بهذا الجانب بوازع التوفيق بين الجانب الروحي والخلقي والجانب الفلسفي من المعرفة التصورية في افتراضاتها التأويلية التي تشمل على ما يريئ الإنسان لاستخدام الترجيح العقلي فيما يصبو إليه..."⁽²⁾، ومن ثمة فالتأويل ذاته يكون أحد أهم العناصر التي تجمع أفراد فئة معرفية معينة.

إن التصنيف القديم للأفكار كان يعتبر دوماً العلم محصوراً في جهة معينة، في حين تشكّل مختلف الأفكار الشاذة والنادرة إيديولوجيا خاصة ينبغي القضاء عليها، غير أنّ الإيديولوجيا نفسها ضرورية في العلم، إذ ترتبط بها عدّة معطيات علمية إذا ما أريد تحليل وجاقتها، ومن ثمّ فلا يعوزها الانسجام المعرفي والمنطقي الخاص حينئذ. كما يبدو التأويل

(1) - عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل، ص 69.

(2) - المرجع نفسه، ص 71.

آلية خاصة في البناء المعرفي عامة والنظر خاصة، ولعلّ ظهور التأويل في أيّ ثقافة وفي أيّ مستوى من مستوياتها مؤذن بميلاد النظر والاعتبار في مختلف المستويات الأخرى. ولعلّ هذا ما جعل النقاد تنطلق من نظر خاص يحتكم إلى مرجعية معيّنة.

وفي الثقافة الإسلامية التي ظهر فيها الخطاب البلاغي فإنّ الصراع الذي دار حول قضايا تخصّ تفسير القرآن ذاته مهّد لتشكيل عدّة فرق دينية واضحة السمات وامتيازة المعالم الفكرية، حيث اتخذت كل فرقة رأياً وموقفا حدّد توجه كل فرقة وطبعها بطابع نظر خاص يعرف بها، كما أنّ منها ما اكتفى بالرواية المأثورة عن مبلّغ الوحي ذاته ومصدر المعرفة الدينية نفسها.

وحصر اتجاه الرواية الفئدة المعرفية التي ينقل عنها المعرفة وقد انطلقت كذلك من الخطاب المعرفي الديني ذاته، إذ أنّ الطريقة التي يمكن أن يؤدّي بها تفسير وتأويل القرآن ذاته يقوم على هذه الآلية، وهو كون فئة متخصصة تكون مهمتها دائما تقييد التأويلات ومختلف التفسيرات التي قد تشكّل على عامة الناس، كما كثرت الطوائف المؤولة والفرق بحسب النزعات السياسية كذلك. ومن ثمّ فلجوء الناس إلى هذه الفئات المتميزة في طلب مختلف الخبرات والمعارف التي تحوزها بفضل أوصاف معينة وخبرات ما تؤثرها تشكيلة خطابية.

فأول ما ارتبط التأويل إذن كان بآيات القرآن ذاته، وكان كباقي المجتمعات المجتمع الإسلامي يقرر الحقائق ويسنّ القوانين تعيّن قيام فئة معينة مهمتها تأويل ما يعرض من المتشابه في القرآن، مستندين إلى دعوة القرآن ذاتها في هذا التعيّن، غير أن التباين الحقيقي بين هذه الفرق كان أساسا يقوم على كيفية الفهم الخاص حقيقة للآيات المتشابهة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

يَدَّكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٢)

فهذا التحديد الديني لهذه الفئة ذاتها، "الراسخة في العلم" انطلقت كل طبقة تحاول وسعها ووكدها في الاستئثار بالحقيقة والذبّ عن مذاهبها ومبادئها التي قامت عليها، سواء سياسية أو دينية عقائدية مذهبية، كما تحدّد القول بالفئة في هذه الوظيفة والآلية، وهو ما ستستفيده تلك التعميمات الصالحة والتمثلات المعرفية المتنوعة التي يسترعها التأويل لأنه يخلصها من مأزق وتناقضات قد تقع فيها، " وهكذا أفضى الخوض في تأويل الكتاب المقدس في تاريخ الثقافة الأوروبية إلى بلورة نظرة التأويل- الهرمينوطيقا- التي تم نقلها من مجال دراسة النصوص الدينية إلى مجال دراسة النصوص الأدبية في النظرية النقدية المعاصرة." (٣)

وعلى هذا أيضا انطلق التأويل إلى جميع النصوص، ومن بينها النصوص البلاغية والشعرية، ولم يبق محصورا في المجتمع الإسلامي عند مجاله الديني، وبقي محصورا في "المحكم والمتشابه" وإنما امتد إلى كلام الناس ذاتها ونصوصهم، وهو ما أصبح يعبر عنه الأصوليون موسّعين لنشاطه ومجال اعتماله في قولهم: "النص، والظاهر، والمجمل" (٤). مع افتراض بقاء الممارسة التخصصية ذاتها، إذ إنه في جميع المجالات التي يطرقها هو معرفة متخصصة تمارسها فئة معينة ومحددة بصفات تشرطها كل طبقة.

(١) - سورة آل عمران، الآية ٥٧.

(٢) - سورة النساء، الآية ١٦٢.

(٣) - نصر حامد أبو زيد، النص- السلطة- الحقيقة، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥. نقلا عن عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل، ص ٥٢.

(٤) - ينظر الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، المستصفي من علم الأصول، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، منشورات شركة المدينة المنورة للطباعة، دط، دت، ج ٣، ص ١٥٤.

ثانياً: تأثر الخطاب البلاغي بموجّهات علم التفسير

لعلّ أوّل ما ينطلق في رصد تأثير لعلم التفسير في الخطاب البلاغي يكون من جهة الدوائر المعرفية لهذين الحقلين العلميين.

1- اتّصال البلاغيين بالمذاهب الكلامية وتأثرهم بها:

لم يكن البلاغي عنصراً حيادياً في الثقافة لا تصله أيّ علاقات بباقي الفواعل المعرفية زمنه، بل إنّ أكثر البلاغيين كانوا لغويين ونحويين وغيرهم أو علماء كلام، ومن ثمة فقد أثرت هذه الاتجاهات على النقاد أنفسهم، سواء في تعاملهم مع النصّ الشعري أو التمكين لهم في العبارة النقدية عن موضوع الشعر، ومن خلال معالجة وتصنيف مختلف الروايات والأحكام النقدية فقد برز عند هؤلاء البلاغيين انعكاس لما صدر في حقول معرفية أخرى، فقد كان هناك من اكتفى بما مدّه الأسلاف من حقل عباري نقلا وهناك من اعتدّ بالإضافة والنظر في شأن الشعر والعبارة البلاغية والنقدية⁽¹⁾.

بذلك، فإن النظر يتأسس أصلاً عند جماعة معروفة لهذا الشأن غير أنها تحقّقه لمقاصد دينية، ومن ثمّ لا يبعد حينئذ أن تستعمل هذه السمة من التفكير في تأسيس خطاب معرفي آخر؛ هو الخطاب البلاغي. ولعلّ ذلك ما يوضّحه أحد الباحثين بقوله: "وعلى الرغم من ذلك فإن التأويل لم يخرج عن نطاق تفسير الدين في بداية أمره، في تطبيقه على القرآن، أو على الكتاب المقدس، مع اختلاف وجهات النظر والكيفية"⁽²⁾.

إن الخطاب البلاغي في عمله ووظيفته على مستوى عام منسجم ومتألف غير أنّه يحتاج في إخراج عبارته إلى قدر كبير من تنظيم المفاهيم وترتيب المنطلقات النظرية المتكأ عليها، وهو ما يوجب استعمالاً للنظر واعتماده عليه من أجل الانسجام مع التشكييلة الخطابية التي ينتمي إليها، كما يقع على الاتجاه الثاني تحدّي تحقيق هذه الاستجابة

(1) - فقد عدّ ابن سلام متأثراً بعلم الحديث في تعامله مع الروايات النقدية المنقولة، كما يذكر في كتابه نفسه أهل النظر ويورد بعضاً من عباراتهم، ينظر طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر، منشورات مطبعة المدني، القاهرة/ مصر، د.ت ج 1 ص 24.

(2) - ينظر عبد القادر فيدود، إراءة التأويل، مرجع سابق، ص 51-52.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

والانسجام بما يحاوله من الوقوع على العبارة التي تمثل الحد الأقرب إلى علم البلاغة وعالم الشعر بحسب ما يقترب من الآليات التي تشتغل بها الموضوعية في كل عصر.

إن هذا يعطينا طبيعة عن منشأ التأويل المعرفي المنهج والمرسى الدعائم عند الملة الإسلامية، وأنه ارتبط بالمجال الديني، ليتوسّع فيضّم مجالات أخرى عديدة. لنرى أهمية الجهود الفكرية التي اجتهدت في تفسير القرآن في منشأ المعارف ذاتها من حيث الآليات التي عولج بها، وضمن العلوم التي أحدقت به، وأنّ التأويل والنظر الخاص

امتدّ سلطانه إلى باقي الفروع والموضوعات المعرفية بعد أن تجدّر في الخطاب الديني أولاً، ومن ثمّ سهل تلقفه في مجالات أخرى غير الخطاب الديني، وإن بقي مصدر ذلك الوهج والإشعاع الذي يمكن أن يرتد إليه أي خلاف.

ولم تكن البلاغة العربية ذاتها لتنفرد بالتأثر بالمذاهب الكلامية إذ ثبت أن تصور الدلالة والقضايا اللغوية تأثر بما كان لهؤلاء الأصوليين، أو على الأقل اختلف الأمر عندهم عن ما كان عند اللغويين وعلماء العربية. وهذا ما اطمأن إليه أحد الباحثين حيث يقول: " أكبر الظن أن المظان الكبرى للمبحث الدلالي كانت جزءاً من الإرث الفكري الذي تركه لنا المعتزلة والأشاعرة والأصوليون وليس اللغويون..."⁽¹⁾. كما أن الغاية من بحث هؤلاء لم تكن من أجل اللغة وإنما ذات هدف ديني شرعي من خلال اللغة ذاتها⁽²⁾. ويجعل أحمد أبو زيد للبلاغة وإعجاز البلاغة أصولاً فكرية في الحقيقة⁽³⁾. كما يبرز ابن رشد أن المتكلمين خاصة حينما خاضوا في التأويل، أيضاً تناولوا اللغة واستعمالها على متقاضى مذاهبهم، وبهذا يبرز اتصال العلوم وأنها لا تنفك عن تأثير بعضها في بعض.

(1) - علي حاتم الحسن، التفكير الدلالي في الفكر الإسلامي (الغزالي نموذجاً)، منشورات التنوير، بيروت/ لبنان، ط1، 2012م، ص 9.

(2) - ينظر علي حاتم الحسن، التفكير الدلالي في الفكر الإسلامي، ص 14.

(3) - وهذا ما جعله عنوان أحد كتبه، وهو "مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن".

كما أنّ الربط واضح بين التيارات الفكرية المختلفة ونصوص القرآن ذاتها، إذ يستلم علماء الكلام أدلة جاهزة من القرآن⁽¹⁾، كما أن النقاد جعلوا من مبادئهم التي ينطلقون منها في البلاغة أن القرآن دليل الفصاحة⁽²⁾، إلا أنّ تلك المقدمات التي تؤخذ عن نصوص القرآن ذاته ينبغي في مقدماته أن تكون يقينية، ولا يكون فيها الصدق إلا واحداً، لأنّها تنبئ عليها الاحتجاجات، غير أن هذه المقدمات ذاتها في الدين على المتشابه، من هنا اختلفت الفرق الكلامية من حيث هذه المقدمات، وإن كان جميعها دينياً، حتى سعى علم أصول الدين. وتتميز الفلسفة عن علم الكلام من حيث المبادئ وإن تشابها في واقع الحال من حيث التساند، فالأول مقدماته دينية متسلّمة من الشرع، في حين الثاني متسلّمة من العقل، وهذا أكبر مميز وفارق بينهما.

من هنا كان للأصوليين مقتضى خاص للخطاب الشرعي وفي الدلالة، وفي الحقيقة والمجاز، يختلف عنه عند علماء العربية، من هنا ردّ بعض علماء الدين وأصولهم قول أهل العربية بأنّ لكلّ مجاز حقيقة⁽³⁾، كما نتج عن هذا الفهم ذاته قضايا التشبيه أو التنزيه في الآيات المتشابهة.

وحدث أن كما تعلق الأصوليون بتفريع الدلالة إلى المفظوظ والمعقول والمفهوم، وقسموا الخطاب إلى نص وظاهر ومجمل، ولم يحملوا الخطاب الشرعي محملاً واحداً وكان التأويل الذي يقتضيه الشرع ذاته، "ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل..."⁽⁴⁾، كذلك

(1) - ينظر أحمد أبو زيد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، منشورات دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط/المغرب، ط1، 1409/1989م، ص 147.

(2) - ينظر السبكي، بهاء الدّين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد هنداوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/ بيروت، 1423هـ/2003م، ج 1 ص 64.

(3) - ينظر ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلّيم، كتاب الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي، عمان/الأردن، ط5، 1416هـ/1996م، ص 80.

(4) - ابن رشد، فصل المقال، دراسة وتحقيق محمد عمارة، منشورات دار المعارف، مصر، ط2، دت، ص

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

حدث أيضا أن تنزل الخطاب البلاغي في ذلك هذا المنزل، وتصدر هذه الرتبة واكتنفته التأويل. فإذا كانت الأصول الأولى والوقائع البلاغية اتفق عليها في الغالب لانتشارها واطراد الأخبار بها، فقد اختلفت أنحاء النظر والتأويل إلى الخطاب البلاغي، بحسب الآراء والاعتقادات والظنون، وكما أن القدماء لم تختلف أفهامهم فيما يراد من أحكام وطريقة الاستنباط، كان أيضا البلغاء قديما يعرفون لخطابهم منازلهم ومراتبه التي يقصدها.

واختلاف الحقل العباري المستعمل في الخطاب البلاغي راجع إلى مستوى النظر الذي تنطلق من خلاله الفئة المعرفية إلى موضوع البلاغة، وذلك بحسب الرؤية المعرفية لكل فئة، خاصة أن لتلك الفئات عناية خاصة بالقرآن الكريم ووسيلة يتدرج بها من أجل فهم أساليبه، وهو ما يجعل من دراسة تلك المقومات الدينية والمذهبية وجها جدا من أجل ترصد المستويات البعيدة التي تنبني عليها مختلف الخطابات المعرفية عامة والخطاب البلاغي بصفة خاصة. إذ ليس غريبا أن تؤثر مختلف المقولات الكلامية والمذاهب الدينية التي يميل إليها الناقد كما أثرت على المستوى نفسه التوجهات المعرفية التي يحسنها.

وقد أحسن الباحثون بعمق الأثر الذي تركه علم الكلام في الخطاب البلاغي، إذ يشير أحمد أمين إلى تأثر البلاغة بعلم الكلام بطريق مباشر وبالفلسفة بطريقة غير مباشر، ذلك أن علم الكلام تأثر بالفلسفة في النهاية⁽¹⁾.

ولعلّ تعقد العلاقة بين خطاب علم التفسير وغيره من العلوم، خاصة علم البلاغة، مما يفرض تأثير أحدهما على الآخر يأخذ مستويات عديدة وغير مباشرة، ولعلّ أهم تلك التأثيرات التشاكل من حيث طرق التعليل المعتمدة في كلّ خطاب.

2- التقابل بين علم التفسير والخطاب البلاغي في طرق التعليل:

شاع في الخطاب البلاغي من حيث طرق العبارة والتعليل فيه طريقتان، الطريقة الدوقية، والطريقة الكلامية، وبذلك، فالخطاب البلاغي يقابل خطاب علم التفسير بطريقة

(1)- ينظر أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، منشورات دار المعرفة، ط1، مصر، 1961م، ص 145.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

أو بأخرى، فأما طريقة الذوق فقابلت النّقل من خلال الوقوف عند عبارات المتقدّمين فيما أشاروا إليه من أصول بلاغية، لا يعدونها. أما الطريقة الكلامية فقابلت طريقة العقل والرأي في علم التفسير من خلال الاستعانة بما وصل إليه العقل البلاغي من علوم عربية، استعين بها على تحليل المقاييس البلاغية بصفة خاصّة.

وقد كرس استعمال النّظر والانفتاح على العقل على صياغة الخطابات المعرفية على أدلّة عقلية كليّة، ولعلّ ذلك ما أسهم في صياغة الخطاب البلاغي صياغة نهائية عبر مختلف المفاهيم المعروفة. ويمكن التمييز في الخطاب البلاغي بين نوعين من الخطاب، الخطاب البلاغي ذي النزعة الأدبية والذوق العربي الخالص. والخطاب البلاغي الذي اصطبغ صبغة منطقية خاصّة مع السّكاكي ومن جاء بعده.

وقد استعرّ الصّراع بين أنصار الذوق وأنصار التعليل الكلامي في الخطاب البلاغي، ولكلّ حججه وأدلّته في ذلك، إذ أنّ كتب البلاغة الأولى كانت تتميّز بنصاعة الأسلوب وطابعها الأدبي، بينما كانت الكتب المتأخّرة في البلاغة تعتمد إلى التقسيم الجاف الذي يفسد البيان والذوق الأدبي، لذلك رأى أحمد أمين مستندا إلى رأي السّكاكي، بأنّ الإعجاز لا يعلّل بالطريقة الكلامية التي تعتمد التقسيم والقوانين المنطقية والكلامية، بل يضعفه البصيرة عن إدراك كنهه ويحول بينها وبينه⁽¹⁾.

يمكن الإشارة إلى أنّ الخطاب البلاغي شهد نوعين من النماذج العبارية التي تعاورت على خطابه، باعتبارها نماذج معرفية تسعى إلى تقنين علم البلاغة وإعطائه تعليلا موضوعيا موفيا. حيث يمكن وصف الدّور الأوّل للبلاغة بأنّه ذوقيّ، ذلك أنّ رجال البلاغة الأوائل كانت تستشعر بلاغة الكلام بما لهم من قوّة اضطرارية نتيجة ممارستهم للكلام البليغ، وذلك عبر أحكام عامّة وانطباعية قد تحتاج إلى شرح وبسط. أما الدّور الثاني فقد استحکم في خطابه وأصوله النّظر العقلي والمنطقي، كما غلب عليه التقسيمات العقلية الكثيرة.

(1) - ينظر أمين الخولي، التجديد في النحو والبلاغة، ص 174-175.

إنّ ثنائية النّقل والعقل التي شهدها تفسير القرآن، قد تطرقت إلى حيّز الخطاب البلاغي بطريقة أو بأخرى، خاصّة ما تعلق بالنماذج العبارية المستعملة في ذلك الخطاب من حيث التعليل، ذلك أنّ أهل الذوق قدّموا إشارات وملحات عامّة عن المعرفة البلاغية التي يحدسون بها في نفوسهم، وقد جعل المتأخّرون يهتدون على ضوء تلك اللّمحات؛ بل جعلوا منها الأصول المهمّة للبلاغة العربيّة، وبنوا عليها خطابهم البلاغي الذي يعتمد على المنطق والتقسيمات العقلية الكثيرة.

يصف أحمد أمين الطريقة الأدبية بأنّها تعتمد على إيراد الأمثلة بكثرة، وأنّها تقلّ فيها التعاريف والقواعد والأقسام، فتعتمد على الذوق والجمال أكثر شيء⁽¹⁾، كما يدلي بأنّ البلاغة ابتعدت عن الذوق الوجداني والإحساس الأدبي، واقتربت من قضايا العقل وقياسات المنطق⁽²⁾. غير أنّ الخطاب البلاغي، خاصة في علم المعاني، الذي اعتمد على علم النّحو من الأمور العلمية التي تغري بعلميتها ودقّتها.

كما أثار الخطاب الديني والنزعة البحثية التي خصّبت خدمة القرآن الكريم وعلومه وبقي تأثيره فاعلا، وانتقل إلى الخطاب البلاغي ذاته فضلا عن الخطاب التقدي، وهذا ما يوضحه عثمان موافى بقوله: "وفي رأيي أن أقوى الأسباب، التي أدّت إلى حدوث هذه الظاهرة الفنية؛ أي طغيان القديم على المحدث، هو ارتباط التراث الشعري في أذهان النقاد المحافظين بالتراث الديني"⁽³⁾. وقد اعتبر بناء على ذلك مسؤولية الحفاظ على التراث الديني من مسؤولية الحفاظ على الشّعور القديم الذي يمثّل قمّة البلاغة عند النّقاد، خاصة إذا علمنا أن بعض الخطابات الدينية تجد تفسيرها في لغة العرب وأشعارها، "ومن هنا جاءت المحافظة على أصول هذا التراث القديم، واعتبارها شيئا مقدسا لا ينبغي المساس به"⁽⁴⁾.

(1) - ينظر أمين الخولي، التجديد في النحو والبلاغة، ص160.

(2) - ينظر نفسه، ص170.

(3) - عثمان موافى، الخصومة بين القدماء والمحدثين (تاريخها وقضاياها)، منشورات دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/ مصر، ط2، 2000م، ص 51.

(4) - المرجع السابق، ص ن.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

وإضافة إلى ذلك، فقد اختلف البلاغيون ودارسو الإعجاز في مبنى المزية وأساسها، فهناك من عدّ البلاغة في جهة اللفظ، كما أنّ هناك من عدّها في جهة اللفظ؛ وهي القضية التي أشار إليها أهل التفسير لما على ما يبدو.

3- الخطاب البلاغي بين تيار اللفظ وتيار المعنى:

ظهر في تاريخ النقد والبلاغة تياران متوازيان، تيار أصحاب الألفاظ وتيار أصحاب المعاني، ولا شك أنّ إيلاء المزية لأحدهما خاضع لتصورات هؤلاء الكلامية في الغالب، فإن القول بأحدهما وتصوره ينعكس على ما يكون عليه الكلام ذاته، ومن ثمّ فالصيغة النقدية لثنائية اللفظ والمعنى إنما هي في مستوى بعيد صياغة مذهبية بالأساس، إذ اختلف البلاغيون ودارسو الإعجاز في تفسير المزية بعد الاتفاق على الكلام البليغ بشكل عامّ، ويزيد حجم الاختلاف كلما كان الخطاب المعرفي المبني هناك شمولياً في نظره وعلى جميع الأصعدة، كما زادت مختلف العلوم العربيّة المتشكّلة آنئذ من أزمة ذلك الخلاف والتباين؛ إذ حاول كل فريق أن ينظر إلى البلاغة ويحوي محمولاته الخاصة من منظور علمه وخطابه المعرفي وحده، إذ إن العلوم ذاتها قدّمت أنظارا خاصة لأصحابها، من هنا تأثر النظر وتشكّل بحسب عوالم مختلفة، سواء ما انتهى منها إلى عوالم الخطابات المعرفية المدونة، أو الانتماءات المذهبية الكلامية خاصة.

ولعلّ الاختلاف في تقدير المزية في الخطاب البلاغي والنقدي أخذ الطريق نفسه الذي أخذه الأصوليون، فحجم النظر في الكلام البليغ وارد عليهم من النظر في الأصول الدينية ذاتها، لأنها تسبقها في الحقيقة، ولم يكن ليتجاسر البلاغيون على إبداع آراء من عندهم، ولا أن يجروا على ما هو لائح وبادلهم من آراء في معارف معينة، كما أنّ هذا البناء يوجبه أيضا انسجام الآراء البلاغية مع الأصول الثقافية والاعتقادية التي لأمتها، ولم يكن له أن يخرج عنها.

ومن ثمّ فتشكّل الخطاب البلاغي العربي تأثر بما هو موجود في الساحة الفكرية من تيارات واتجاهات فكرية متباينة ومختلفة تصل إلى حدّ الصراع الفكري الذي يستوجب متانة الحجة والاتساع في الطرح، "إن للقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والفرق

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

الإسلامية اليد الطولى في بواغث نشوء النقد الأدبي عند العرب، في هذه الحقبة من العصور الإسلامية." (1)

ولعلّ قضية اللفظ والمعنى في مبدئ أمرها إنما هي محمولة في البلاغة على مارسخ وثبت من الاعتقادات والظنون المذهبية، ولم تكن لتنفك عنها، وإلى هذا يشير عبد القاهر الجرجاني، ويقصد المعتزلة على وجه التأكيد: "فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات فاسدة وظنون رديّة، وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش،.." (2). وليس يتصور من هذا السبق إلا تلك القضايا الكلامية حيث كان القرآن عندهم مخلوقا. ومن ثمة جوّزوا فيه أن يكون صوتا ولفظا حادثا، ولا يتمايز عن الكلام العادي من هذه الناحية في قليل ولا كثير، فأصل قضية المعنى واللفظ إنما هو كلامي بالدرجة الأولى.

لا غرابة أن يحمل الخطاب البلاغي لكلّ بلاغي بعض محمولات المذهب الكلامي الذي يتبعه، وأن يوجّه الناقد في سبيل ذلك جهة المزية وتصوّره لها إلى جهة تتناسب قطعا مع ذلك المذهب، كما أنّ ردّ مذهب بلاغي آخر يكون عبر هذا المستوى، وإلى ما ينصرف إليه من مآلات قد يراها غير حميدة في أصل الدين ذاته.

فعبد القاهر الجرجاني يثبت المزية من خلال المعنى، إذ يستحيل بحسبه أن يتعلّق الكلام المنزل بحسب مذهبه بالأصوات والألفاظ المحدثّة، يقول: "قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية، وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويتك، وتراجع عقلك، وتستنجد في الجملة فهمك،.." (3). ولعلّ ما أدّى الناس إلى مذهب اللفظ إنما هو الجري على مقتضى ظاهر العبارة في إشارتها إلى موطن المزية، وكانت غالبا تشير إلى اللفظ، من هنا كان عبد القاهر لذلك لا يألو في إنكار هذا المذهب ويتأهب في إبطال حججه بضاوّة، حتى إنه كثيرا ما يصف ما يؤدي

(1) - هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، النظرية النقدية عند العرب، منشورات دار الرشيد، بغداد/العراق، د.ط، 1981م، ص59.

(2) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص6.

(3) - نفسه، ص64.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

إليه ذلك المذهب، بالفساد، والشناعة، وجالب الشبهة، والتسكع في الحيرة، والخروج من فاسد القول إلى مثله⁽¹⁾.

إن أهمية المنطقات التي يؤسسها الخطاب البلاغي محكومة وتنسحب بالضرورة على تفسير الخطاب الديني ذاته. ومن ثمّ تبدو وجهة إحكام هذه المنطقات وسلامتها شرطا ضروريا عند المتكلمين، ولعلّ ذلك ما ينعكس على ما مستوى تصوّرهم للكلام عامة، ومن خلال حرص كلّ بلاغي على مراقبة خطابه انسجامه مع ما ينبغي أن يعتدّ في حجّية الكلام المنزّل، ذلك أنّ إهمال ذلك قد يؤدي بالناقد إلى شناعات من القول⁽²⁾، وإلى مناقضة ما ينبغي أن يكون عليه وجه الإعجاز ذاته.

ولعلّ مذهب اللفظ وإن لم يظهر آثاره في حقل البلاغة بشدّة إلاّ أنّه يظهر حجم ما يؤدّي إليه في حقول أخرى بصورة أكبر؛ إذ ذلك المذهب يؤدي أمر خطير وغير لائق فيما يكون به القرآن معجزا، ولعلّ هذا ما يوضّح وحدة الخطابات المعرفية وتأثير بعضها في بعض لتدارك انسجام الحقل العباري. ومن هنا قد يصبح أحد الحقول المعرفية وإن كان يبدو بعيدا عن الحقل المعرفي المدروس ذا أثر في كشف زيف عبارته أو يرفع التباسها، لما يتأدى له منه معاني واضحة وآثار أضخم مما قد تبدو في اختصاصها وحقلها، حتى لا يمكن أن ترى أو تبرز⁽³⁾، ومن ثمّة فقد لا تتبدّى وجهة حقل معرفي من حيث إصابته لموضوعه أو عبارته على محيط ذلك الحقل المعرفي وفي زمنه، وإنما قد تعرف مغبّة ذلك الرأي حقول معرفية أخرى بعيدة ترتبط به، وذلك عبر أمد زمني كاف لامتداد ذلك الرأى وتجريبه على حقول أخرى.

(1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 62، 64.

(2) - ينظر نفسه، ص 522.

(3) - ويبرز هذا الأثر أيضا في كلام دي سوسير حينما أشار إلى أن الأخطاء الصغيرة في الحقل اللغوي واللساني الذي كان قبله قد أصبحت أخطاء كبيرة يمكن رؤيتها في مشاريع مجالات أخرى، وهو الأمر الذي يبرز أثر البناء المعرفي وتراكبه حقا، ينظر علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطليبي، منشورات دار آفاق عربية، بغداد، (دط)، 1985م، ص 22.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

ويتكئ عبد القاهر الجرجاني كذلك في خطابه البلاغي على أصوله الكلامية الأشعرية، ولا يدخل من المعايير إلا ما ينسجم مع هذه الأصول. ففهمه ومزية الكلام في الشعر ووجه الإعجاز لا ينفك عن تصوراته الكلامية. ويثبت ذلك أن البلاغة لم تنفك في آرائها عن الآراء الأصولية والمذهبية لفرق المتكلمين سواء في الأصول الكلية، أو في بعض التفصيلات الدقيقة في خطاب البلاغة مثل قضية اللفظ والمعنى، بهذا، تكون هذه القضية التي تتعلّق بالعبارة التي شغلت النقد القديم طبعها بالأساس قضايا مذهبية.

خاتمة:

تكشف النقاط التي تطرقنا إليها في المداخلة عمق العلاقة بين خطاب علم التفسير والخطاب البلاغي، ويمكن تسجيل النتائج التالية:

- تبرز محورية علوم القرآن بصفة عامة وعلم التفسير بصفة خاصّة وأسبقته من حيث الاهتمام من لدن العقل العربي الإسلامي، ولعلّ ذلك ما ساهم في صياغة ميكانيزمات ذلك العقل فيما بعد من حيث تأسيسه للعلوم وتفرعها.
- استحكمت النظرة الإيديولوجية المذهبية فهم النصّ القرآني وتفسيره، وذلك عند الاتجاه الذي فتح أفقه على الرأي والعقل، ولعلّ ذلك ما جعلهم في علاقة مباشرة مع مفهوم التأويل من أجل الانسجام مع أصول مذاهبهم الكلامية بصفة خاصّة.
- كان لطرق تفسير القرآن الأثر البارز في تشكيل الخطاب البلاغي وتوجّهه العباري في التعليل، خاصّة اتجاه التفسير بالرأي الذي فتح أفقه على التأويل، وهو المفهوم الذي كرّسه فيما بعد أهل البلاغة في تشكيل خطابهم.
- يبدو أنّ أبرز أثر لتطوّر العلوم هو استمداد الخطابات أنماط التعليل والعبارة من تلك العلوم، كما تبرز أهميّة العلوم التي تعلّقت بدراسة القرآن وتفسيره في الخوض في أنماط تعليلية وعبارية جديدة مبنية على النّظر وأدلة العقل بشكل أكبر.
- تأثّر الخطاب البلاغي بتصوّر العلماء للكلام عامّة والكلام المنزّل بصفة خاصّة. وقد طفق علماء الإعجاز يقارنون بين كلام البلغاء والقرآن، واستنبطوا في ذلك عدّة أحكام بلاغية مهمّة تتعلّق بالمعاني والألفاظ والأساليب. غير أنّه سرعان ما كان لذلك الكلام

البشري المقارن خاصة ما تعلق بتراكيب القدماء أثرا بالغا في تفويقه على غيره من الكلام المتأخر، وذلك ما سيساهم في تشكيل الخطاب تشكيلا خاصا بأصول معيارية في الغالب.

- استطاعت الأصول الكلامية التي وضعها المتكلمون في مختلف المجالات التي تناولوها، في الطبيعة، وقضايا الدين والعقيدة، أن تجد استعمالا خاصا ومتميزا لها من قبل البلاغيين، خاصة إذا ما عرفنا اتصال أولئك البلاغيين بالمتكلمين، أو أن أغلب البلاغيين كانوا يتسلحون بثقافة كلامية، فقد تمّ الاستفادة من بحوث المتكلمين في معالجة قضايا الطبع والتفاوت في القدرة البلاغية.

- تبدو الخطاب المعرفية مثل علم البلاغة بعيدة عن أيّ اعتبار إيديولوجي أو مذهبي، لكن سرعان ما تتكشف تلك الحمولة الدينية/المذهبية التي رقد بها كل بلاغي خطاب المعرفي ووسمه بها.

- ارتبطت العلوم العربية في نشأتها بالنصّ القرآني، ولم يختلف عن ذلك علم البلاغة الذي اهتمّ بقضية البحث عن سرّ إعجاز النصّ القرآني من جهة بلاغته. وقد بذل دارسو الإعجاز مجهودات مشهودة من أجل الوقوف على مزية القرآن البلاغية الباهرة من جهة، وتقصّي أهمّ المفاهيم البلاغية التي تبلورت في ظلّ تلك الدّراسات الإعجازية من جهة أخرى.

- كان لاشتغال العقل العربي الإسلامي بخطاب التفسير أثرا فيما بعده من الخطابات المعرفية المتشكّلة، ويعدّ خطاب البلاغة واحدا من بين تلك الخطابات المتأثّرة كما رأينا. إذ يمكن إجمال منطلقات المفسّرين إلى طريقتين؛ طريقة النّقل التي يعتمد فيها على الانتهاء إلى ما يدلّ عليه الأثر، دون الزيادة عليه. وطريقة العقل التي فتح فيها الاستدلال بالأدلة العقلية بشكل مطلق.

قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم، كتاب الإيمان، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي، عمان/ الأردن، ط5، 1416هـ/1996م.
- ابن رشد، فصل المقال، دراسة وتحقيق محمد عمارة، منشورات دار المعارف، مصر، ط2، دت.
- ابن سلاّم الجمعي، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاکر، منشورات مطبعة المدني، القاهرة/ مصر، دت.
- أحمد أبو زيد، مقدمة في الأصول الفكرية للبلاغة وإعجاز القرآن، منشورات دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط/ المغرب، ط1، 1409/1989م.
- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، منشورات دار المعرفة، ط1، مصر، 1961م.
- دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، مراجعة مالك يوسف المطليبي، منشورات دار آفاق عربية، بغداد، (د ط)، 1985م، ص 22.
- السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد هندراوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا/ بيروت، 1423هـ/2003م.
- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1394هـ/1974م.
- عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، منشورات دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق/سورية، ط1، 2009م.

د. الجمعي شبكية _____ طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي

- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر، ط5، 2004م.
- عثمان موافي، الخصومة بين القدماء والمحدثين (تاريخها وقضاياها)، منشورات دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/مصر، ط2، 2000م.
- علي حاتم الحسن، التفكير الدلالي في الفكر الإسلامي (الغزالي نموذجاً)، منشورات التنوير، بيروت/لبنان، ط1، 2012م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، المستصفى من علم الأصول، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، منشورات شركة المدينة المنورة للطباعة، دط، دت.
- القاضي عبد الجبار، إعجاز القرآن ضمن المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق أمين الخولي، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دط، دت.
- نصر حامد أبو زيد، النص-السلطة-الحقيقة، المركز الثقافي العربي، 1995. نقلا عن عبد القادر فيدوح، إراءة التأويل.
- هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، النظرية النقدية عند العرب، منشورات دار الرشيد، بغداد/العراق، دط، 1981م.

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ _____ الأتجاه البلاغي في التفسير عند أحمد سعيد
التقاوسي الجزائري (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوضُ الأزهر".

الاتجاه البلاغي في التفسير عند أحمد سعيد التقاوسي الجزائري (المتوفى
بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوضُ الأزهر".

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ

مقدِّمة:

اعتنى الباحثون الجزائريون في مختلف العصور بالقرآن الكريم تجويدا وحفظا
وتفسيرا، فعكفت نخبة منهم على سبر أغواره واستكشاف أسراره، وبيان معانيه وتقريب
مقاصده، وتوظيف ذلك لعلاج مختلف القضايا، فتنوعت بناءً على ذلك الاتجاهات والمناهج
والمدارس تبعا لتنوع الإمكانيات واختلاف المؤهلات، فلمعت أسماء أعلام ينتمون إلى مناطق
مختلفة من هذا الوطن وإن تفاوتت إسهاماتهم، ومن هؤلاء الأعلام: أحمد سعيد التقاوسي
المتوفى في القرن الثامن الهجري، الذي اتَّجه إلى بيان الجوانب البلاغية التي انطوت عليها
سورة الكوثر في كتابه: "الرَّوضُ الأزهر فيما تضمَّنته سورة الكوثر من وجوه البلاغة وفنون
الفصاحة والبراعة".

من هذا المنطلق انبثقت إشكاليَّة الموضوع المتمثِّلة في: من هو الشَّيخ أحمد
التقاوسي؟ وإلى أيِّ مدى يتجلَّى الاتجاه البلاغيُّ في تفسيره؟

وانطلاقا من هذه الإشكاليَّة أهدف من خلال هذا البحث التعريف بأحد أعلام
التفسير الجزائريين في القرن الثامن الهجري، وهو أحمد سعيد التقاوسي، وكذا التعريف
بكتابه الذي يعدُّ مغمورا لدى الباحثين، وإبراز جهوده في تفسير القرآن الكريم تفسيرا بلاغيا،
من خلال كتابه "الرَّوضُ الأزهر فيما تضمَّنته سورة الكوثر من وجوه البلاغة وفنون
الفصاحة والبراعة".

وقد استدعت سيرورة الموضوع توظيف المنهج الوصفي، مع الاستجداء بالبيات
معينة كالاستقراء والتَّحليل والاستنباط.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وتوجّيا لفلکٍ عقد إشكاليتة البحث وبلوغ أهدافه، اتّبع خطة مكوّنة من مقدّمة تتلوها ثلاثة مطالب، فأما المطلب الأوّل فأتناول فيه مفهوم الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير ونشأته وأهمّ المؤلّفات فيه. ثمّ أتناول في المطلب الثّاني التّعريف بأحمد سعيد التّقاسويّ وكتابه "الرّوض الأزهر"، وأما المطلب الأخير فخصّص لبيان مظاهر الاتّجاه البلاغيّ في كتاب "الرّوض الأزهر"، ثمّ تأتي الخاتمة لتتضمّن أهمّ النتائج والتّوصيات.

وما التّوفيق إلّا من الله ربّ العالمين.

المطلب الأوّل: الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير (مفهومه، نشأته، أهمّ المؤلّفات فيه)

إنّ البحث في أيّ علم أو فنّ يقتضي استمهاله بالتّعريف به؛ لأنّ الحكم على الشّيء فرع عن تصوّره، وبعرض لمحة موجزة عن نشأته وتطوره لفهم سياقه التّاريخيّ، وإرشاد إلى أهمّ المؤلّفات فيه لتيسير طريق الوصول إليه لطالبيه. وذلك ما سأتبعه في هذا المطلب في بيان الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير.

الفرع الأوّل: مفهوم الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير

للقوف على مفهوم الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير لابدّ أوّلاً من الوقوف على معنى البلاغة ومعنى التّفسير ومعنى الاتّجاه، وبيان ذلك فيما يلي.

أوّلاً: تعريف البلاغة

إنّ تعريف أيّ مصطلح يمرّ أوّلاً ببيان أصله اللّغويّ، ثمّ ببيان معناه عند أهل الاصطلاح، وذلك ما سيحتدى في هذه الورقة البحثيّة في تعريف المصطلحات.

1- البلاغة لغة:

جاء في مقاييس اللّغة أنّ: "الباء واللام والغين أصل واحد، وهو الوصول إلى الشّيء. تقول بلغت المكان، إذا وصلت إليه ... وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللّسان، لأنّه

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

يبلّغُ بها ما يريدُه"¹. وفي لسان العرب: "البلاغة: الفصاحة... ورجلٌ يبلِّغُ وبلِّغُ وبلِّغُ: حَسَنُ الكلام
فصيحُهُ يبلغُ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بلِّغُ، بالضمِّ، بلاغةً أي صار
بليغاً"².

2- البلاغة اصطلاحاً:

عرِّفتُ البلاغة بتعريفات مختلفة طولاً وقصراً، توسُّعاً وقصراً، ولطبيعة هذه الورقة
البحثية سأقتصر على ذكر أشهر ما درج عليه علماء اللُّغة واعتمدوه في تعريف البلاغة، وهو
تعريف الخطيب القزوينيّ (ت739هـ)، بأنّها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.³
والحال- كما ورد في تعريف القزوينيّ- أعمُّ من أن تقتصر على حال المخاطب كما
فسَّره بعض من ألَّف في اللُّغة، لمَّا عرِّفتُ البلاغة بأنّها: "مطابقة الكلام لمقتضى حال من
يُخاطَبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمَله"⁴. فيعم معنى الحال زيادةً على حال المخاطب حال
المتكلِّم وحال المخبّر عنه؛ كأن يكون المتكلِّم مستعجلاً فيقتضي الكلام بسببه الإيجاز، وقد
يُحذف المخبّر عنه إذا كان معلوماً بالضرّورة سواء أقرَّ به المخاطب أو جحده، وقد يذكر إذا
تُوهِم قصدٌ غيره.

ولمّا كانت أحوال المتكلِّم وأحوال السّامع وأحوال المخبر عنه تختلف، فمقتضى تلك
الأحوال هو المعتبر في البلاغة، فقد يكون الإيجاز بلاغةً كما قد يكون ضدُّه وهو الإطناب أو

¹ - أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللُّغة، تج: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر
للطباعة والنّشر والتّوزيع، ط2، 1399هـ/1979م، (301/1 - 302).

² - أبو الفضل، جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقيّ المصريّ، لسان العرب، دار صادر،
بيروت، (د ط ت)، (420/8).

³ - ينظر: الخطيب القزوينيّ، جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن بن عمر بن أحمد بن محمّد، الإيضاح في
علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت-
لبنان، ط1، 2003م/1424هـ، ص20. وينظر: مجدي أحمد توفيق، ما البلاغة؟ - دراسة، ص19.

⁴ - عبد الرّحمن حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، الدّار
الشّاميّة، بيروت، ط1، 1416هـ/1996م، (129/1).

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

المساواة بلاغة؛ قال القزوينيّ: "ومقتضى الحال مختلف؛ فإنّ مقامات الكلام متفاوتة،
فمقام التّنكير يباين مقام التّعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التّقيد، ومقام التّقيد
يباين مقام التّأخير، ومقام الدّكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه،
ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا
خطاب الدّكيّ يباين خطاب الغبيّ. وكذا لكلّ كلمة مع صاحبها مقام، إلى غير ذلك ... وارتفاع
شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له.
فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب"¹.

وأما معنى فصاحة الكلام: فصاحة كلماته، وعدم تعقيدها، وخلوصه من ضعف
التّأليف ومن التّنافر بينها.

ومعنى فصاحة الكلمة: خلوصها من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس
اللّغويّ، ومن الكراهة في السّمع.²

وانطلاقاً من تنوع الأحوال ومقتضياتها، ومن تعدّد شروط الفصاحة، قسّم علماء
اللّغة علوم البلاغة إلى ثلاثة أقسام هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع. وفيما يلي
بيان موجز لكلّ واحد منها.

1- علم المعاني ومباحثه:

علم المعاني هو ما يُحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وهو "علم يعرف به
أحوال اللفظ العربيّ التي بها يطابق مقتضى الحال"³. والمراد بأحوال اللفظ: الأمور العارضة
له من التّقيد والتّأخير والإثبات والحذف وغير ذلك.

ومباحث علم المعاني، أو أبوابه كما يسمّيها الخطيب القزوينيّ، تتلخّص في: أحوال
الإسناد والمسند والمسنّد إليه (وفيه: التّأكيد وعدمه، الدّكر والحذف، التّعريف والتّنكير،

¹ - القزوينيّ، الإيضاح، ص20.

² - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص13-15.

³ - - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص22، 23.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

التّقديم والتّأخير، وغيرها من المباحث)، القصر، الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز
والإطناب والمساواة.¹

2- علم البيان ومباحثه:

علم البيان هو ما يحتز به عن التّعقيد المعنويّ، وهو "علم يعرف به إيراد المعنى
الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدّلالة عليه"، ومباحث علم البيان ثلاثة: التّشبيه والمجاز
والكناية.²

3- علم البديع ومباحثه:

علم البديع هو: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى
الحال ووضوح الدّلالة"³، وأضاف إليهما القزوينيّ في موضع آخر الفصاحة⁴. والمعنى: أنّ علم
البديع الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام يأتي في المرتبة الثّالثة في بلاغة الكلام؛ بعد مراعاة
مطابقة مقتضى الحال، الذي هو علم المعاني، ومراعاة وضوح الدّلالة، الذي هو علم البيان.
ومباحث علم البديع هي محسّنات الكلام، وهي على نوعين: لفظيّة ومعنويّة. فأما
المحسّنات اللفظيّة، فمنها: الجناس والسّجع والموازنة وردّ العجز على الصّدر وغيرها⁵. وأما
المحسّنات المعنويّة، فمنها: الطّباق والمقابلة والمبالغة ومراعاة النّظير والجمع والتّفريق
والتّقسيم وغيرها⁶.

¹ - للاطلاع أكثر على هذه المباحث ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص 24 وما بعدها.

² - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص 22، 163، 164.

³ - القزوينيّ، نفسه، ص 255.

⁴ - القزوينيّ، نفسه، ص 22.

⁵ - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص 288 وما بعدها.

⁶ - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص 255 وما بعدها.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

ويحسن في هذا المقام التّنبيه إلى أنّ كثيرا من الباحثين في البلاغة يسيّي الجميع
(المعاني والبيان والبديع) علم البيان¹، ولذلك كثيرا ما يطلق اسم التّفسير البيانيّ للقرآن
ويراد به التّفسير البلاغيّ للقرآن.

ثانيا: تعريف التّفسير

عرّف العلماء التّفسير لغة واصطلاحا، وفيما يلي إيراد لأقوال بعضهم.

1- التّفسير لغة:

التّفسير: من فَسَرَ. و"الفاء والسيّن والراء كلمة واحدة تدلُّ على بيان شيء
وإيضاحه"²، والفَسْرُ: البيانُ، والفَسْرُ: كشف المغطّى، يقال: فَسَرَ السّيءَ يَفْسِرُهُ ويفسُرُهُ
فَسْرًا، وفَسْرُهُ: أبانه، والتّفسير: البيان والإبانه، والتّفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل³.
وذكر الزّركشي أنّ التّفسير: "كشف المغلق من المراد بلفظه وإطلاق للمُختبِس عن الفهم
به"⁴.

2- التّفسير اصطلاحا:

بيّن الزّركشي معنى التّفسير في استعمال العلماء فقال: "واعلم أنّ التّفسير في عرف
العلماء كشف معاني القرآن"⁵، وأما علم التّفسير فعرفه بأنّه: "علم يعرف به فهم كتاب الله
المنزّل على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"، ثمّ
أعقب التّعريف ببيان بعض ما يستمدّ منه التّفسير، فذكر منه: علم البيان⁶.

¹ - ينظر: القرويّ، الإيضاح، ص22.

² - ينظر: ابن فارس، مقاييس اللّغة، (504/4).

³ - ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (55/5).

⁴ - بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تج: أبو الفضل أحمد علي الدّمياطيّ،

دار الحديث، القاهرة، 1427هـ/2006م، ص415.

⁵ - الزّركشيّ، نفسه، ص417.

⁶ - الزّركشيّ، نفسه، ص22.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وأما الرّزقانيّ فقد عرّف علم التّفسير بأنّه: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلّالته على مراد الله تعالى بقدر الطّاقة البشريّة"¹.

ومن خلال ما سبق يمكن الوصول إلى أنّ التّفسير: بيانُ معاني القرآن الكريم واستخراج أحكامه وحكمه بقدر الطّاقة البشريّة، وأنّ علم التّفسير: هو العلم الذي يهتمُّ بذلك البيان، وله أسسه العلميّة وقواعده المنهجية؛ ولذلك لا يسعَى التّفسير بجهد علماء، والذي يفسر بناءً على أسس علميّة وقواعد منهجية صحيحة هو المفسّر والعالم بالتّفسير. وقد بيّن العلماء أنّ التّفسير أنواع بحسب استمداده أو طريق الوصول إليه، وسمّوها طرق التّفسير أو مناهج التّفسير، وهي²:

- التّفسير بالمأثور: وهو ما كان اعتماد المفسّر فيه على النّقل والرّواية.
- التّفسير بالرّأي: وهو ما كان اعتماد المفسّر فيه على غير المنقول، أي: الاجتهاد والرّأي والدرّاية.

وبناءً على ما سبق فإنّ التّفسير البلاغيّ للقرآن الكريم من التّفسير بالرّأي.

ثالثاً: تعريف الاتّجاه

لم يحض مصطلح اتّجاهات التّفسير بمحاولة دقيقة لضبط معناه من طرف الباحثين في التّفسير وعلوم القرآن - وذلك في حدود ما أطلّعت عليه-، حتّى إنّ كثيراً ممّن ألّف في اتّجاهات التّفسير خاصّة لم يعرج إلى التّعريف بالمصطلح رغم أهمّيّته، إلّا بعض المحاولات التي يمكن اعتبارها لبنات أولى في التّأسيس لهذا المصطلح، وفيما يلي محاولة لتعريف الاتّجاه في اللّغة والاصطلاح.

¹ - محمّد عبد العظيم الرّزقانيّ، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوّاز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1415/هـ، 1995/م، (6/2).

² - ينظر: مساعد بن سليمان الطيّار، فصول في أصول التّفسير، تقديم: محمّد بن صالح الفوزان، دار النّشر الدّوليّ، الرّياض، ط1، 1413/هـ، 1993/م، ص19، نور الدّين عتر، علوم القرآن الكريم، نشره شرعيّة، دار المنهاج القويم، الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، ط1، 1442/هـ، 2021/م، ص74، 85.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

1- الاتّجاه لغة:

من اتّجّه يتّجه اتّجاهًا فهو مُتّجِه، والمفعول مُتّجِه إليه، يقال: اتّجّه إلى أو نحو بمعنى
أقبل على وقصد¹.

والاتّجاه: مفرد، وهو الطّريق والسّبيل، وجمعه: اتّجاهات. والاتّجاه: مصدر اتّجّه
إلى، وهو: الميل، والّتزعة، وهو: تهيؤٌ عقليٌّ لمعالجة تجربة أو موقف من المواقف، تصحبه
عادةً استجابة خاصّة².

2- الاتّجاه اصطلاحًا:

أشار الرّزكشيّ في كلامه إلى معنى الاتّجاه دون التّصريح بلفظه، حيث قال في أثناء
حديثه عن علم التّفسير: "وقد أكثر النّاس فيه من الموضوعات، ما بين مختصر ومبسوط،
وكلّهم يقتصر على الفنّ الذي يغلب عليه فالرّجّاج والواحديّ في "البسيط" يغلب عليهما
الغريب والنّحو، والثّعلبيّ يغلب عليه القصص، والرّمخشريّ علم البيان، والإمام فخر الدّين
علم الكلام وما في معناه من العلوم العقليّة"³.

وعليه فمعنى الاتّجاه التّفسيّريّ عند الرّزكشيّ هو: الفنّ الغالب على المفسّر، الذي
يقتصر عليه في تفسيره، كالغريب والقصص والبيان وعلم الكلام ... فمرجعه إلى غلبة الفنّ
على عمل المفسّر.

¹ - ينظر: أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 1429هـ/2008م،
(2406/3).

² - ينظر: أحمد مختار وآخرون، نفسه، (2407/3).

³ - الرّزكشيّ، البرهان، ص22.

د. الطيّب صفيّة _____ الاتجاه البلاغي في التفسير عند أحمد سعيد
التقاوسي الجزائري (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

ومن التّعريفات المذكورة للاتّجاه: "هو الهدف الذي يتّجه إليه المفسّرون في
تفاسيرهم ويجعلونه نصب أعينهم وهم يكتبون ما يكتبون"¹.

وعرّفت الاتّجاهات أيضا بأنّها: "الأهداف التي يقصدها المفسّرون في تفاسيرهم"،
فمن استهدف إيضاح العقيدة من خلال آيات القرآن يسعى اتّجاهه عقدياً.²

والملاحظ على هذين التّعريفين أنّهما يعتبران الاتّجاه هدفاً للمفسّر، كأن يستهدف
المفسّر آيات الأحكام أو آيات القصص أو آيات العقائد وغيرها. فمرجع الاتّجاه إلى هدف
المفسّر.

والتّساؤل المتبادر في هذا المقام هو: هل أنّ تلك الاتّجاهات التي سلكها المفسّرون
إنّما هي من باب الأدوات والوسائل المتاحة، كلّ حسب فنّه وتخصّصه، والهدف هو التفسير
نفسه، فيظهر أثر فنّه جلياً في عمله التفسيري؟ أم أنّ تلك الاتّجاهات أهدافٌ وغايات
مقصودة لذاتها، أصلاً أو تبعاً، حيث جاءت في سياقات ظروف خاصّة: علميّة أو اجتماعيّة
أو سياسيّة أو فكريّة أو ثقافيّة، والتّفسير وسيلة لتحقيقها؟
وللإجابة عن هذا التّساؤل أستكمل استعراض بقيّة التّعريف للاتّجاهات.

• هو الوجهة التي قصدها المفسّر في تفسيره وغلبت عليه، أو كانت بارزة في تفسيره،
بحيث تميّز بها عن غيره، مثل: الاتّجاه العقديّ، والاتّجاه اللّغويّ، والاتّجاه النّحويّ،
والاتّجاه البلاغيّ.³

الملاحظ في هذا التّعريف أنّه يبيّن أنّ أصل الاتّجاه هو قصد المفسّر له، بحيث اتّخذ
هدفاله، فغلب على تفسيره بسبب ذلك. أو أنّه الميزة التي تميّز بها التفسير، نظراً لتخصّص

¹ - فهد بن عبد الرّحمن بن سليمان الرّوميّ، اتّجاهات التّفسير في القرن الرابع عشر الهجريّ، رسالة لنيل
درجة الدكتوراه، إشراف: مصطفى مسلم محمّد، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، كليّة أصول
الدّين، قسم القرآن وعلومه، العام الجامعي: 1404هـ-1405هـ، ص 18.

² - عادل بن علي الشّديّ، الاتّجاهات المنحرفة في التّفسير في العصر الحديث، سلسلة بحوث منهجيّة في
الدّراسات القرآنيّة 1، مدار الوطن للنّشر، الرياض، ط1، 1431هـ/2010م، ص 13.

³ - ينظر: مساعد الطيّار، فصول في أصول التّفسير، ص 20-21.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

المفسّر، حتّى وإن لم تكن مقصودة له. فجمع هذا التّعريف بين التّعريفين السّابقين. وهذا
الأقرب في بيان أصل الاتّجاه، بأنّه القصد أو غلبة الفنّ.

• وورد في الموقع الإلكترونيّ المسمّى (المعارف): "وأما البحث عن الاتّجاهات
والاهتمامات التّفسيّريّة، فالمراد منها المباحث التي يهتمّ بها المفسّر في تفسيره مهما كان
منهجه وطريقته في تفسير الآيات، مثلًا تارة يتّجه إلى إيضاح المادّة القرآنيّة من حيث
اللّغة، وأخرى إلى صورتها العارضة عليها من حيث الإعراب والبناء، وثالثة يتّجه إلى
الجانب البلاغيّ، ورابعة يعتني بآيات الأحكام، وخامسة يصبّ اهتمامه على الجانب
التّاريخيّ والقصصيّ، وسادسة يهتمّ بالأبحاث الأخلاقيّة، وسابعة يهتمّ بالأبحاث
الاجتماعيّة، وثامنة يهتمّ بالآيات الباحثة عن الكون وعالم الطّبيعة، وتاسعة يهتمّ
بمعارف القرآن وآياته الاعتقاديّة، وعاشرة بالجميع حسبما أوتي من المقدرة"¹.

وهذا الأخير فيه التّمييز بين الاتّجاه والمنهج، فقد يشترك مفسّران في الاتّجاه
ويختلفان في المنهج. وأما من جهة أصل الاتّجاه فهو يميل إلى القول بالقصد دون الغلبة.

والملاحظ في الاتّجاهات أنّها: إمّا أن تكون أهدافا وغايات، وإمّا أن تكون وسائل
وأدوات. فمثلا: قد يكون الاتّجاه إصلاحيّاً بأن يتّخذ المفسّر تفسير القرآن أداة ووسيلة
لتحقيق أهدافه الإصلاحيّة؛ فالاتّجاه عندئذ هدفٌ وقصدٌ، والتّفسير أداة. وقد تنصرف همّة
العالم ابتداءً لخدمة القرآن، فيسعى لتفسيره وبيان معانيه، فيبرز اتّجاهه بغلبة الفنّ،
فالتّفسير هنا هدفٌ، والاتّجاه وسيلةٌ وأداة. والطّريقة الأولى هي الأبرز عند المتأخّرين من
المفسّرين، وأما الثّانية فغالبة على تفاسير المتقدّمين.

وعليه يمكن تعريف اتّجاهات التّفسير بأنّها:

الميول والنّزعات العلميّة لدى المفسّرين التي تجعلهم ينصرفون إلى الاهتمام
والتركيز أكثر في تفاسيرهم على المباحث والجوانب المتعلّقة بتلك الميول والنّزعات العلميّة.

¹ - <https://www.almaaref.org/maarefdetails.php?id=14537>

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وأما التّفسير البلاغيّ، فقد عرّفه فاضل السّامرائيّ بعنوان التّفسير البيانيّ، بأنّه:
"التّفسير الذي يبيّن أسرار التّركيب في التّعبير القرآنيّ، فهو جزء من التّفسير العامّ تنصبّ
فيه العناية على بيان أسرار التّعبير من النّاحية الفنّيّة كالّتقديم والتّأخير، والدّكر والحذف،
واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك ممّا يتعلّق بأحوال التّعبير"¹.

وبناء على ما سبق، يمكن تصوّر مفهوم للتّفسير البلاغيّ وللاتّجاه البلاغيّ في التّفسير
كما يلي:

- التّفسير البلاغيّ: هو التّفسير الذي يولي فيه المفسّر عناية خاصّة ببلاغة القرآن
الكريم، فيوظّف قدر إمكانه مباحث علم البلاغة في الكشف عن معاني كلام الله تعالى
وإبراز صور إعجاز القرآن الكريم بلاغيّاً.
- الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير: هو التّزعة البلاغيّة لدى طائفة من المفسّرين، التي
تجعلهم يميلون في تفاسيرهم إلى الاهتمام والتّركيز أكثر على بيان بلاغة النّصّ القرآنيّ
وبيان معانيه من خلالها.

الفرع الثّاني: نشأة الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير

لاشكّ في أنّ لكلّ فيّ بواكير تعبّر عن النّشأة واللّبنات الأولى له. هذا، وإنّ من المحاولات
المبكرة المسجّلة في الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير كتابي: "معاني القرآن" للفرّاء (ت207هـ)
و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنّى (ت209هـ)، فكتاب الفرّاء من أقدم التّفاسير
اللّغويّة التي تتّضح فيها المعالجة البيانيّة في مواضع كثيرة منه، فتحدّث عن الكناية والتّشبيه
والاستعارة والمجاز والالتفات والحذف ومراعاة الفواصل، وأمّا "مجاز القرآن" لأبي عبيدة
فإنّه يقصد بالمجاز معناه اللّغويّ وهو "طرق العرب في كلامها وما أخذها من ذكر وحذف
وتشبيه وزيادة وتقديم وتأخير وإفراد وجمع وغيرها"، وقد ابنتى كتابه على اللّغة والبلاغة التي

¹ - فاضل صالح السّامرائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ، كليّة الآداب والعلوم- قسم اللّغة العربيّة وآدابها،
جامعة الشّارقة، 1423هـ/2002م، النّشر العلميّ، جامعة الشّارقة، 6، (7/1).

د. الطيّب صفيّة _____ الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

بدأت تستقرُّ مصطلحاتها وتستقلُّ بمعانها في عصره، ولذلك كان كتابه حافلاً باستعمال
مصطلحات البلاغة، من الاستعارة والكناية والتّمثيل وغيرها.

ومن أوائل أصحاب هذا الاتّجاه، ولكن في معرض بيان إعجاز القرآن والرّدّ على
الشُّبهات المثارة حوله: الجاحظ (ت255هـ)، يبرز ذلك في مؤلّفه الذي يرُدُّ فيه على شيخه
النّظام قوله بالصّرفة، بالدّفاع عن بلاغة القرآن وبيان وجوه إعجازها، وأنّه ليس في مقدور
البشر معارضتها، وسَمّى كتابه "نظم القرآن"¹ لأنّه أرجع أساس إعجاز القرآن إلى نظمه
البديع، فبيّن به فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبيّن الرّوائد والفضول والاستعارات، وتعرّض
فيه لكثير من صور بلاغة القرآن.

ثمّ جاء ابن قتيبة الدّينوريّ (ت276هـ) المتأثّر بالجاحظ، حيث نحا نحوه في الرّدّ على
شبهات المشكّكين في القرآن بتأويل مشكلاته في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، بتوظيف
مباحث البلاغة في تفسير الآي المشكّلة، من الاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار والتّكرار
والزيّادة والكناية والتّعريض وغيرها، والهدف من ذلك الإبانة عن الجانب البلاغيّ في القرآن
الكريم ووجوه الإعجاز.

وتستمرُّ حلقة الاتّجاه البلاغيّ في الدّرس القرآنيّ من باب إعجاز القرآن والرّدّ على
الشُّبهات المثارة حوله مع: الرّمانيّ (ت384هـ) في كتابه: "النُّكت في إعجاز القرآن"، حيث قسّم
البلاغة إلى ثلاث طبقات: عليا معجزة، ودنيا، ووسطى، وأنّ بلاغة القرآن من الطبقة الأولى،
وتعرّض لشرح بعض الأمثلة من القرآن، ومع: الخطّابيّ (ت386هـ أو 388هـ) في "بيان إعجاز
القرآن"، حيث أرجع أصل الإعجاز إلى البلاغة، ومع: الباقلانيّ (ت403هـ) في "إعجاز القرآن"،
يقرّر فيه وجوه بلاغة القرآن فذكر للبلاغة أقساما ومثّل لها من القرآن الكريم، ثمّ مع عبد
القاهر الجرجانيّ (ت474هـ) الذي تعرّض إلى الخصائص الدّاتيّة لتكوين الأسلوب القرآنيّ،

¹ - ذكر اسم كتابه الذي هو مفقود الآن في كتابه الحيوان.

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ _____ الأتجاه البلاغي في التفسير عند أحمد سعيد
التقاوسي الجزائري (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوضُ الأزهَر".

والإطار البلاغي للعبارة القرآنية في محاولة للكشف عن سرِّ إعجازها، وألَّف في ذلك (دلائل الإعجاز) و(الرسالة الشَّافية في الإعجاز) ليبين أنَّ مقياس بلاغة النَّصِّ هو نظم كلامه.¹
وبعد حلقة تناول بلاغة القرآن الكريم في كتب إعجاز القرآن، تأتي حلقة جديدة في فصل جديد تمثِّل الانطلاقة الرَّسميَّة للاتِّجاه البلاغي في التفسير، رائدها الرَّمخشيُّ (ت538هـ) في تفسيره الكشَّاف، حيث يعتبر الكشَّاف أوَّل تفسير بلاغيٍّ كامل للقرآن الكريم، وكلُّ من جاء بعده فمستفيد منه.

الفرع الثالث: أهمُّ التفسيرات البلاغيَّة

سأقتصر هنا- على وجه التَّمثيل والاختصار لا على سبيل الحصر- على ذكر أهمِّ التفسيرات التي اعتنت بالجانب البلاغي للقرآن الكريم بعد تفسير الرَّمخشيِّ، وهي: تفسير الرَّازيِّ (ت606هـ)، وتفسير البيضاويِّ (ت685هـ) - لخص فيه ما في الكشاف وزاد عليه-، وتفسير أبي حيان الأندلسيِّ (ت745هـ)، وتفسير البقاعيِّ (ت885هـ) في تناسب الآيات والسُّور، وتفسير أبي السُّعود (ت982هـ) الذي وصل فيه إلى أسرار بلاغيَّة لم يسبق إليها، وتفسير التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (ت1393هـ)، حيث يعتبر ابن عاشور فهم دلالة القرآن اللُّغويَّة والبلاغيَّة سبيل تبيان معانيه وما اشتمل عليه من إرشاد وهدى وآداب وإصلاح حال الأُمَّة في جماعتها وفي معاملتها مع الأمم الأخرى²، والتفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة بنت الشَّاطئ (ت1419هـ)، وعلى طريق التفسير البيانيِّ لفاضل صالح السَّمرائيِّ، والتفسير البلاغيُّ الميسَّر للدُّكتور عبد القادر حسين، وموسوعة التفسير البلاغي الصَّادرة عن مجمَّع القرآن الكريم بالشارقة الذي صدرت طبعته الأولى سنة: 1444هـ/2023م، وهو من تأليف نخبة من علماء المجمع، والمدير العلميُّ للمشروع هو الجزائريُّ أمحمد صافي المستغانيُّ.

¹ - ينظر: محي الدين بلتاجي، الاتجاهات اللُّغويَّة والبلاغيَّة في التفسير، جامعة قطر، حوليَّة كئيَّة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد السَّادس، 1408هـ/1988م، ص78-123.

² - ينظر: محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التَّحرير والتَّنوير، الدار التونسيَّة للنشر، تونس، 1984م، (70/1).

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التقاوسيّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

المطلب الثّاني: ترجمة أحمد سعيد التقاوسيّ والتّعريف بكتابه "الرّوض الأزهر"

إنّ التّعريف بالسّلف والثّناء عليهم والدّعاء لهم والاعتراف بفضلهم توجيه قرآنيّ
للأمّة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: 10).
هذا، ولكوني أتقاسم مع أحمد سعيد التقاوسيّ النّسبة إلى مدينة نقاوس، فإنّي أتشرف
بالترجمة له وبالثناء عليه والاعتراف له بفضله وبالترحم عليه، وذلك ما سأتناوله فيما يلي.

الفرع الأوّل: ترجمة أحمد سعيد التقاوسيّ

أتناول في هذا الفرع بيان اسم أحمد سعيد التقاوسيّ الكامل ومولده ونشأته وصفاته
وأخلاقه، ثمّ أعرج على ذكر أهمّ شيوخه، ثمّ بيان المكانة العلميّة التي حظي بها بعد الطّلب،
كما أذكر مؤلّفاته ممّا طبع أو ما زال مخطوطاً أو ممّا وصل إلينا خبره دون العلم بمكانه، ثمّ
اختتم بذكر تلاميذه ثمّ خبر وفاته.¹

¹ - ترجم لأحمد التقاوسيّ، وبه عُرف وعنه نقل جُلّ من ترجم له من المتقدّمين ومن المتأخّرين- وذلك في
حدود ما وقفت عليه من المصادر- عصره وجليسه في تونس وتلميذه القاضي الفقيه الكاتب الأديب خالد
البلويّ الأندلسيّ في كتابه (تاج المفرق في تحليه علماء المشرق)، الذي دوّن فيه رحلته إلى بلاد الحجاز للحجّ،
التي ابتدأها سنة (735هـ)، مقيّداً فيه الحياة الثّقافيّة والاجتماعيّة للبلاد التي مرّ بها، ذاكراً أهمّ مشاهيرها
ومفكرّيها وأعلامها ممّن التقى بهم وسمع منهم (ينظر: خالد بن عيسى البلويّ، تاج المفرق في تحلية علماء
المشرق تج: الحسن السّائح، صندوق إحياء الثّراث الإسلاميّ المشترك بين المملكة المغربيّة والإمارات العربيّة
المتّحدة، مطبوعة فضالة- المحمّديّة، المغرب، مقدّمة التّحقيق، (1/6، 7، 18، 55))، وقد دخل البلويّ تونس
مرّتين: الأولى: في طريق الدّهّاب سنة 737هـ، وغادرها في السّابع عشر من ربيع الثّاني من السنّة نفسها (ينظر:
البلويّ، تاج المفرق، (1/53)، وأبو العباس أحمد ابن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل التقاوسيّ، كتاب
الرّوض الأزهر فيما تضمّنته سورة الكوثر من وجوه البلاغة وفنون الفصاحة والبراعة، تج: عبد الله بن
سليمان السّعيد، حويّلة كليّة اللّغة العربيّة بنين بجرجا، جامعة الأزهر، العدد الرّابع والعشرون للعام
1442هـ/2020م، الجزء العاشر، مقدّمة التّحقيق، ص9867)، والثّانية: في طريق الإياب سنة 739هـ في
التّاسع من ذي القعدة، وغادرها في السّادس عشر من رمضان سنة 740هـ، ولقي التقاوسيّ في المرّتين (ينظر:

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

- 1- اسمه ونسبه ونسبته: ذكر التّقاسويّ اسمه الكامل بخط يده في كتابه (الرّوض الأزهر) بأنّه: أبو العبّاس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل¹ المعروف بالتّقاسويّ²، نسبة إلى نقاوس مدينة قديمة من مدن شمال شرق الجزائر، تابعة في التّقسيم الإداريّ الحاليّ لولاية باتنة، تقع في جنوب غرب الولاية³.
- 2- مولده ونشأته وصفاته وأخلاقه:

لم تذكر مصادر ترجمته شيئاً عن تاريخ مولده ونشأته. والمؤكّد أنّه ولد قبل الحصار الطويل الذي فرضته الدّولة الميريّنة على تلمسان عاصمة الدّولة الزيانيّة من سنة 698هـ/1299م إلى غاية سنة 706هـ/1307م⁴، حيث ذكرت مصادر ترجمته أنّه سكن

حسن حسني عبد الوهّاب، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلّفين التّونسيّين، مراجعة وإكمال: محمّد العروسي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1425هـ/2005م، مج2، القسم الأوّل، ص82، (83). وقد استعنت في تصحيح ما وقع من أخطاء الطّباعة الكثيرة في كتاب البلويّ بالمراجع التي نقلت عنه، وهي جميع ما ذكر من المراجع في ترجمته في هذه الورقة البحثيّة، فحيثما ذكرت كتاب البلويّ قارنا معه غيره فذلك يعني أنّي استعنت بالمرجع في التّصحيح.

¹ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9868، ص9871، وذكر في مصادر أخرى بأنّه بن العبّاس (عادل نويّض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر، مؤسّسة نويّض الثقافيّة، بيروت-لبنان، ط2 مزيّدة ومنقّحة، 1400هـ/1980م، ص331-332، محمّد بن رزق بن طرهوني، التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا، رسائل جامعيّة (43) دار ابن الجوزيّ، ط1، 1426هـ، (1/162-161)، والصّحيح ما أخبر به عن نفسه بخطّ يده.

² - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9868، 9873. وأمّا البلويّ فذكر أنّه التقارسيّ بالرّاء مكان الواو (البلويّ، تاج المفرّق، 1/61، 187). وذلك من أخطاء الطّباعة الكثيرة في تحقيق الكتاب، أو أنّه من تصحيح النّسخ، ويدلّ على ذلك كلام التّقاسويّ نفسه لما ذكر اسمه، وكذلك المراجع الأخرى التي نقلت عن أصل رحلة البلويّ، فذكرت أنّه التّقاسويّ على غرار: كفاية المحتاج (أحمد بابا التنيكيّ، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تح: محمّد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، 1421هـ/2000م، (1/91)، والنّفحة المسكيّة (علي بن محمّد التّمكروتيّ، النّفحة المسكيّة في السّفارة التّركيّة، تح: عبد اللّطيف الشّادليّ، المطبعة الملكيّة، الرّباط، 1423هـ/2002م، ص63.

³ - إحداثيّات مدينة نقاوس: 35.33.18 شمالاً، 5.36.38 شرقاً. (التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9864)

⁴ - لمزيد من المعلومات حول حصار تلمسان ينظر: أبو زيد وليّ الدّين عبد الرّحمن بن محمّد الإشبيليّ التّونسيّ القاهريّ المالكيّ الشّهير بابن خلدون، تاريخ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

تلمسان¹ ثمّ خرج منها قبل الحصار إلى تونس ليستقرّ بها ويطلب العلم ثمّ يشتغل فيها
مدرّسا²؛ وبناء عليه قدر محقّق (الرّوض الأزهر) أن يكون مولده نحواً من سنة 690هـ أو
قبلها بقليل أو كثير³. وقد يعضد تقديره ما ذكره حسن حسني من أنّه انتقل إلى سكنى
الحاضرة التّونسيّة وهو صغير⁴.

وأما نشأة التّقاسويّ العلميّة؛ فبعد أن ذكر التّقاسويّ عنوان كتابه (الرّوض الأزهر)،
ذكر أسفل العنوان مباشرة اسمه، وفيه أنّه: "ابن الشّيخ الفقيه الأفضل الرّئيس الأجلّ
المرحوم أبي عثمان سعيد بن إسماعيل أدام الله جماله"⁵. وبناء على ما ذكره يمكن افتراض
أن يكون لأبيه الدّور البارز في نشأته العلميّة؛ حيث إنّه كان شيخاً فقيهاً ومن أشرف القوم
إذ كانت له رئاسة.

وقد ذكر صاحبه وتلميذه الفقيه القاضي خالد البلويّ شيئاً من طباعه وصفاته
ومهاراته، فذكر أنّه كان ذكياً أمعيّاً صاحب فراسة، وأنّه كان متطليعاً إلى المعالي، نبيلاً كريماً
وفيّ المودّة، يأنس له جليسه، وأنّه لم ير أسرع من التّقاسويّ نسخاً وكتباً ولا أقرأ منه لكلّ
خطّ مهما كانت صعوبته، وذكره أيضاً بجودة الخطّ وصحّة النّقل والضبط⁶.

والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، تح: أبو صهيب الكرّم، بيت الأفكار الدّولية، ص:
1856-1857، 1937.

¹ - ذهب بعض المصادر إلى أنّه ولد بتلمسان (حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص81)،
فتكون التّقاسويّ وفقاً لذلك نسبة أبيه أو جدّه، والواقع أنّ المصادر لم تنقل عنه ولا ذكر هو عن نفسه أنّه
تلمسانيّ.

² - البلويّ، تاج المفرق، (187/1-188)، بن طرهوني، التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا، (161/1-162)،
نويّض، معجم أعلام الجزائر، ص331-332.

³ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص986.

⁴ - حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص81.

⁵ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص987.

⁶ - التّبكيّ، كفاية المحتاج، (91/1-92).

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

3- شيوخه:

تلمذ التّقاسويّ على يد ثلثة من علماء عصره، نصّ على ثلاثة منهم في كتابه (الرّوض
الأزهر)، وذكرهم غيره، وهم:

- العالّمة البجائيّ الفقيه المالكيّ ناصر الدّين أبو عليّ منصور بن أحمد بن عبد الحقيّ
المشدّاليّ (631-731هـ)، قال التّقاسويّ: "قرأت عليه كثيرا من الموطأ أو أكثره رواية يحيى
بن يحيى، وسَمَّعت عليه كثيرا من الحاصل من المحصول تفقّها ومن مختصر ابن
الحاجب"¹، وقال أيضا: "أنشدني الشّيخ الإمام الأوحّد ناصر الدّين أبو عليّ منصور بن
عبد الحقّ المشدّاليّ رحمه الله ..."²، وذكر حسن حسني أنّه قرأ عليه بتلمسان³.
- العالّمة الفقيه المالكيّ أبو عبد الله محمّد بن راشد البكريّ القفصيّ (ت736هـ)، أخذ
منه بتونس وممّن في طبقته من العلماء⁴، قال التّقاسويّ: "قرأت عليه جملة من مختصر
ابن الحاجب في الفقه تفقّها، وقرأت عليه أكثر مختصره للمحصل"⁵. وقال أيضا:
"أنشدني الشّيخ الإمام الأوحّد أبو عبد الله محمّد بن راشد، رحمه الله تعالى ..."⁶.
- العالّمة خطيب بجاية أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن محمّد بن غزّيون الأنصاريّ
البجائيّ (ت731هـ)، قال التّقاسويّ: "لقيته ببجاية سنة (ستّ وعشرين ومئة)⁷ وناولني
فهرسته الكبرى"⁸.

¹ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9865. ونصّ عليه البلويّ في تاج المفرق، (البلويّ، تاج المفرق، 1/190).

² - البلويّ، تاج المفرق، (1/190)، التّمكروتيّ، النّفحة المسكيّة، ص61. وأنّه هنا إلى حصول خلط في ترتيب
صفحات ترجمته في هذا الكتاب، فهي تبدأ من الصّفحة رقم 59 وليس من الصّفحة رقم 63.

³ - حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص81.

⁴ - حسن حسني، نفسه.

⁵ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9865، البلويّ، تاج المفرق، (1/190).

⁶ - البلويّ، نفسه، (1/190).

⁷ - كذا جاءت، ويبدو أنّ الصّحيح ستّ وعشرون وسبع مئة (627هـ): لأنّ وفاة بن غزّيون كانت سنة: 731هـ.

⁸ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9865.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

4- مكانته العلميّة:

التّقاسويّ فقيه مالكيّ¹، وأحد المدرّسين الأعلام الذين تعيّنوا لتدريس النّحو والعربيّة بإحدى المدارس الحفصيّة²، وقد نوّه البلويّ بمكانته العلميّة، فوصفه بأنّه فقيه عالم حافظ ناقد، أحد المدرّسين الأعلام الذين درّسوا بتونس، بارع في علم البيان وعلم الكلام؛ فهو أديب عصره ونحويّه وبيانّيّه وعروضيّّه، وحكيمه ومنطقيّّه، وأصوليّّه وجدليّّه، وعدديّّه وفرضيّّه، وأرتماطيقيّّه³، عالم باللّغات، محيط بعلم التّفسير وعلم الحديث، مطالع مذاكر في القديم والحديث، عالم بالفروع والأصول⁴. وللتّقاسويّ تصانيف في مختلف العلوم والفنون، وفيما يلي ذكر بعضها.

5- مؤلّفاته:

نصّ التّقاسويّ في إجازته لبعض طلابه، التي كتبها في آخر كتابه (الرّوض الأزهر)، على بعض مؤلّفاته، بلغ عددها اثني عشر مؤلّفًا⁵، وهي في علوم وفنون مختلفة على النّحو الآتي:

- في النّحو: تقييد على جمل الرّجّاجيّ، وتلخيص الفصول، واختصار الجدل النّحويّ لابن الأنباري⁶.

¹ - التّقاسويّ، نفسه، ص9866، نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص331.

² - حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص81.

³ - ارتماطيقي: علم الحساب النّظريّ. (محمّد علي الثّمانويّ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تج: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، ط1، 1996م، 140/1).

⁴ - البلويّ، تاج المفرق، (1/188)، وأحمد بابا التّنبيكيّ، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، تج: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، طرابلس، ط2، طرابلس-ليبيا، ص95، والتّنبيكيّ، كفاية المحتاج (91/1)، وابن طرهوني، التّفسير والمفسّرون في غرب افريقيا، (1/161-162).

⁵ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9867-9868.

⁶ - كتاب أبو البركات الأنباريّ (ت577هـ) في الجدل النّحويّ مطبوع بعنوان: "الإغراب في جدل الأعراب".

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

- في علم البلاغة: ضياء الإصباح في شرح المصباح لابن مالك، وحديقة النّاطر في اختصار المثل السّائر¹، والوشي المنمنم في البديع، والرّوض المربّع فيما تضمّنه قصيدة الشّقراطيّ² من البديع.
- في الحديث وعلومه: تلخيص مشكل الحديث لابن فورك.
- في القرآن وعلومه: الكتاب المختار من كتاب الانتصار للفاضل أبي بكر بن الطيّب الباقلانيّ الأشعريّ، والتّنبية على ما أغفله الفقيه أبو محمّد المكيّ في اختصار كتاب نظم القرآن للجرجانيّ.
- في الشّعور والعروض: شرح القصيد المسّعى بالقصد (المقصد) الجليل في علم الخليل لأبي عمرو عثمان بن الحاجب³، والرّوض الأريض في علم القريضيّ.
وذكر له البلويّ كتاباً آخر في الأدب، كتبه له التّقاسويّ بخطّ يده، لخصّ فيه رسالة إحكام صنعة الكلام من إنشاء الوزير الكاتب الأندلسيّ أبي عبد الله ابن عبد الغفور.⁴

¹ - في تاج المفرق (1/189)، ونيل الابتهاج (ص95)، وكتاب العمر (مج2، ق1، ص82) بعنوان: "حديقة النّاطر في تلخيص المثل السّائر".

² - القصيدة الشّقراطية في مدح المصطفى خير البريّة صلّى الله عليه وسلّم، نظم الفقيه أبي محمد عبد الله التّوزريّ المشهور بالشّقراطيّ (ت 466هـ).

³ - الكتاب مخطوط، وهو بدار الكتب المصريّة بالقاهرة، بعنوان: "إيضاح السّبيل إلى المقصد الجليل في علم الخليل"، رقم الحفظ: 229/2. (ينظر: خزانة الثّراث، النّسخة الرّقميّة على برنامج المكتبة الشّاملة، إصدار: شوال 1444هـ، 86/71، الرّقم التّسلسليّ: 71935). وذكر حسن حسني أنّ رقمها هناك (3 مجاميع ش)، تاريخ نسخها: 11 رمضان سنة 1036 (حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص83)، وذكر باسم: "إيضاح السّبيل إلى القصد الجليل" في علم الخليل ("التّبكيّ، نيل الابتهاج، ص95)، وباسمه المختصر "إيضاح السّبيل" (ينظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، نقله إلى العربيّة عبد الحليم النّجّار، دار المعارف، القاهرة، ط5، 5/332). وباسم: "إيضاح السّبيل والقصد الجليل في علم الخليل" (البلويّ، تاج المفرق، (1/189)).

⁴ - البلويّ، نفسه، (1/189).

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وله أيضاً في علوم القرآن: (الرّوض الأزهر)، وهو موضوع هذه الورقة البحثيّة، وهو
في تفسير سورة الكوثر، انتهى التّقاسويّ من تأليفه في 26 جمادى الأولى 747هـ¹. فمجموع ما
ذكر لنا من مؤلّفاته أربعة عشر مؤلّفاً.

ووصف البلويّ كتب التّقاسويّ بعد أن ذكر بعضها- بقوله: "وله تأليف غيرها ممّا
عرف بحمد الله قدرها، واشتهر على الألسنة ذكرها، *وسارت مسير الشّمس في كلّ بلدة ...
وهبّت هبوب الرّيح في البرّ والبحر*" ². وللتّقاسويّ تلاميذ أخذوا عنه وقرأوا عليه كتبه، وفيما
يلي ذكر بعضهم.

6- تلاميذه:

لا شكّ في أنّ اشتغال التّقاسويّ بالتّدريس جعل له تلاميذ كثرًا، وللأسف لم تذكر
مصادر ترجمته من تلاميذه سوى أنّه كتب إجازة لاثنين من طلبته- هكذا مهمين- في آخر
كتابه الرّوض الأزهر³. كما صرّح خالد البلويّ باستفادته منه فقال: "أمّا الفروع والأصول فبه
كنت فيهما أصول"، وقال: "ويفيدني بأجلّ الفوائد، ويأتي من مرسوم فضائله بالزّوائد
الخارقة للعوائد"، كما صرّح بأنّه قرأ عليه الرّوض الأريض في علم القريض، وتلخيص رسالة
إحكام صنعة الكلام للوزير الكاتب أبي عبد الله ابن عبد الغفور، وأنّ التّقاسويّ أجاز له
جميع كتبه ومروياته⁴.

ويحسن التّنبيه إلى أنّ أحمد التّقاسويّ موضوع هذه الورقة البحثيّة ليس هو أحمد
التّقاسويّ (ت: 810هـ) شيخ المفسّر عبد الرّحمن الثّعالبّيّ؛ فالأوّل هو ابن سعيد بن إسماعيل
والآخر هو ابن أبي زيد عبد الرّحمن⁵.

¹ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9868-9869.

² - البلويّ، تاج المفرق، (1/189).

³ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9868.

⁴ - البلويّ، تاج المفرق، (1/188-189).

⁵ - ينظر: نويّض، معجم أعلام الجزائر، ص 332، والتّبكيّ، نيل الابتهاج، ص 96.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

7- وفاته:

لم تنصّ مصادر ترجمة التّقاسويّ على سنة وفاته -رحمه الله تعالى-، فقدّرت بعض
المراجع أن تكون وفاته في أواسط القرن الثّامن¹ بعد سنة (765هـ/1364م) باعتبار أنّ البلويّ
لقيه قبل تلك السنّة²، والمؤكّد أنّ البلويّ لقيه قبل ربيع الثّاني من سنة 737هـ وقت خروج
البلويّ من تونس ومفارقتها له³، وكذلك لقيه في رحلة العودة قبل أن يغادرها في رمضان من
سنة 740هـ⁴؛ فتكون وفاة التّقاسويّ بعد هذه السنّة يقينا. وكذلك كان التّقاسويّ حيا سنة
(747هـ/1346م) سنة انتهائه من تأليف الرّوض الأزهر.

الفرع الثّاني: التّعريف بكتاب "الرّوض الأزهر"

عنوان الكتاب كاملا: "الرّوض الأزهر فيما تضمّنته سورة الكوثر من وجوه البلاغة
وفنون الفصاحة والبراعة"، كتبه التّقاسويّ بخطّ يده⁵، وقال في آخره: "قال هذا كلّه وكتبه
بخطّ يده الفانية العبيد المعترف بذنبه الرّاجي سعة رحمة ربّه أحمد سعيد إسماعيل
المعروف بالتّقاسويّ وفقّه الله لما يحبّه ويرضاه، وذلك في السّادس والعشرين من جمادى
الأولى، من عام سبعة وأربعين وسبع مئة"⁶، وطبع الكتاب ضمن حوليّة كليّة اللّغة العربيّة
بنين بجرجا بجامعة الأزهر، بتحقيق الدّكتور عبد الله بن سليمان السّعيد، عام:
1442هـ/2020م⁷.

¹ - حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص82.

² - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص9867، عادل نويّض، معجم المفسّرين، 758/2، نويّض، معجم أعلام
الجزائر، ص331-332، بن طرهوني، التّفسير والمفسّرون في غرب إفريقيا، (162/1).

³ - التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، مقدّمة التّحقيق، ص9867. وينظر: البلويّ، تاج المفرق، (53/1).

⁴ - حسن حسني، كتاب العمر، مج2، القسم الأوّل، ص82، 83.

⁵ - النّسخة محفوظة بمكتبة برنستون بالولايات المتّحدة الأمريكيّة برقم: (430)، ورمز حفظها: (1824).
التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص(9871).

⁶ - التّقاسويّ، نفسه، ص9868-9869، 9873.

⁷ - العدد الرّابع والعشرون للعام 1442هـ / 2020م، الجزء العاشر.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد النّقاوسيّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وأما موضوع الكتاب ومضمونه: فقال النّقاوسيّ في افتتاح كتابه: "هذه وفّقني الله وإيّاك لطاعته نكت من علوم التّنزيل وعيون التّأويل في تفسير سورة الكوثر وبيان ما فيها من وجوه البلاغة وفنون الفصاحة والبراعة، ضمّنتها هذا الكتاب"¹. وسورة الكوثر ثلاث آيات قصيرة فقط، استفتح النّقاوسيّ عمله بذكر ثلاث لطائف للسّورة ككلّ، قبل أن يعقبها بذكر الفوائد من كلّ آية على حدة؛ فاستنبط من الآية الأولى سبعا وعشرين فائدة، ومن التّانية اثنتين وثلاثين فائدة، ومن الأخيرة إحدى وعشرين فائدة؛ فمجموع فوائد السّورة ثلاث وثمانون فائدة. وبعد أن أتمّ النّقاوسيّ ذكر ما استنبطه من الفوائد، نبّه القارئ إلى عدم استكثارها فلعلّ ما تركه أكثر بأضعاف مضاعفة.

وأما مقصد المؤلف من تأليفه، فبيّن أنّه²:

- بيان بعض وجوه إعجاز القرآن ممّا اشتملت عليه السّورة.
 - تقديم نموذج تطبيقيّ في علم البلاغة والفصاحة وبيان كميّة التّدرب فيه.
 - بيان أهمّيّة علم البلاغة والفصاحة في فهم كلام الله تعالى وأنّه أولى العلوم للمفسّر بعد علم الأصول.
 - الكشف عن الأسرار المتضمّنة في القرآن والدّلالة على جلالها وجمال مرتبتها وعلوّ طبقتها في الإعجاز.
 - الدّلالة على حكمة واضع تلك الأسرار وعلى شرف علم البلاغة والفصاحة وقدره والحثّ على تدبّره.
- هذا، وبعد التّعريف بالايّجاه البلاغيّ في التّفسير والتّعريف بالنّقاوسيّ وكتابه، يأتي المطلب التّالي لاستجلاء مظاهر الايّجاه البلاغيّ في الرّوض الأزهر.

¹ - النّقاوسيّ، الرّوض الأزهر، ص 9877.

² - ينظر: النّقاوسيّ، نفسه، ص 9913.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسيّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

المطلب الثّالث: مظاهر الاتّجاه البلاغيّ في كتاب "الرّوض الأزهر"

لمّا كانت علوم البلاغة ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فإنّ استجلاء مظاهر الاتّجاه
البلاغيّ في الرّوض الأزهر سيكون من خلال استجلاء مباحث تلك العلوم فيه، وذلك على
التّحو الآتي:

الفرع الأوّل: مباحث علم المعاني في الرّوض الأزهر

من مباحث علم المعاني التي تناولها التّقاسيّ في الرّوض الأزهر ما يلي:

1- بلاغة الإيجاز:

أوّل ما استفتح بذكره التّقاسيّ من عمله التّدبيريّ البلاغيّ في السّورة واستنباط
فوائدها مندرج ضمن قسم علم المعاني، ألا وهو الإيجاز، وبين أنّه في غاية الإعجاز؛ فالسّورة
ككلّ على كثرة إيجازها تشير إلى أكثر معاني القرآن الكريم، وهي ستّة أقسام: تعريف المدعوّ
إليه، وهو الله تعالى، بذكر ذاته وصفاته وأفعاله، وتعريف الطّريق الموصلة إليه، وهي
التّبئّل إليه بأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وتعريف الحال عند الوصول إليه، وهي
أحوال الآخرة، وهذه الثّلاثة أصول أشارت السّورة إلى جميعها، وأمّا الثّلاثة الأخرى ففروع
وهي: تعريف أحوال السّالكين والتّاكفين ترغيباً وترهيباً، ومحاجّة الكافرين بالبرهان المبين،
وتعريف عمارة منازل الطّريق إلى الله. وقد أشارت السّورة إلى الفرعين الأوّل والثّالث، ولعلّ
عجز الكافرين عن معارضة مثل هذه السّورة القصيرة من أدلّة الفرع الثّاني.¹

فالملاحظ في عمل التّقاسيّ أنّ توظيف النّظرة التّدبيريّة البلاغيّة عنده كشف عن
معان ما كانت لتظهر بدونها، كما أنّها جلّت كمال الإعجاز القرآنيّ في نهاية الإيجاز؛ إذ عجز
الخلق عن معارضة أقصر سورة منه، فعجزهم عمّا هو أكثر منها من باب الأوّل.²

¹ - ينظر: التّقاسيّ، الرّوض الأزهر، ص 9877 – 9879.

² - ينظر: التّقاسيّ، نفسه، ص 9913.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وذكر التّقاسويّ من الإيجاز الواقع في السّورة الّذي هو في أعلى مقامات الإعجاز، ما

يلي:

- أنّ السّورة على قلّة عدد كلماتها اشتملت على أكثر حروف المعجم، وفيما ذكر من الحروف إشارة إلى أجناسها ودلالة على ما لم يذكر منها.¹
- الاختصار في قوله تعالى في صدر السّورة: (إِنَّا)، عوض (إِننَا)، ففيه من البلاغة مطابقة مقتضى حال إيجاز السّورة، ومن فوائده تحقيق التّجانس بينه وبين أعطينا. ومن الاختصار أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ بدل (إِنَّا نحن أعطيناك).²
- التّغليب الّذي هو من وجوه الإيجاز: باختيار صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾، الّتي تفيد تنزيل غير الواقع منزلة الواقع للقطع بوقوعه لاستناده إلى خبر الصّادق، فكأنّه ماض.³
- حذف موصوف الكوثر، وفيه: مبالغة لا تكون مع النّكر، فالحذف يفتح باب تأويله بوجوه كثيرة كما هو الحال مع معاني الكوثر.⁴
- الإيجاز بطريق الكناية وجوامع الكلم: حيث جوّز التّقاسويّ أن يكون الكوثر كناية عن نعم كثيرة، فيكون ذلك من باب الوحي والإشارة والاختصار بطريق الكناية، وأنّ ذلك من جوامع الكلم في القرآن الكريم⁵، ومن جوامع الكلم الدّالة على الإيجاز الدّم ب (الأبتر)؛ فهي عبارة عن جميع المذامح، ذلك أنّ كلّ من انقطع أثره من الخير فهو أبتر⁶.
- الإيجاز بطريق اضممار اسم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثِرَ﴾ عوض أن يقال: أعطينا الرّسول الكوثر؛ ففيه حسن البيان مع الإيجاز، ومن

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9881.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9882.

³ - ينظر: التّقاسويّ نفسه، ص 9886.

⁴ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9892.

⁵ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9894.

⁶ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9908.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيحاء البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

بلاغة هذه الصّورة من الإيجاز: رفع إيهام الإيهام في المعطى؛ فلو قيل: (أعطينا الرّسول)،
احتمل ذلك إيهام الرّسول. ومن بلاغته أيضا: زيادة التّشريف للرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بخطاب الله تعالى له مباشرة دون واسطة. وفيه أيضا: بيان أنّ هذا الإعطاء ليس رعاية
لوصف الرّسالة، وإنّما هو لمجرّد الإنعام. وفيه أيضا: احتراز عن تنافر النّظم المخالف
للفصاحة المشتركة في الكلام البليغ.¹

● الإيجاز بطريق العدول:

○ ومنه: اختيار كلمة (أَعْطَيْنَاكَ) دون (آتَيْنَاكَ)، حيث يرى التّقاسويّ أنّ من أسرار
هذا العدول اللّفظيّ إثارة الإيجاز لبناء السّورة عليه، ووجه الإيجاز فيه: أنّ حرف
المدّ في (آتى) فيه مطل للصدوت قائم مقام زيادة حركة أو حرف وحركة، خلافا
لحرف العين في أعطيناك فلا مدّ فيه.²

○ ومنه: العدول عن تصدير السّورة بالبداء بقوله: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ) مطابقة لما بنيت عليه
السّورة من الإيجاز. ومن بلاغته الإشعار بأنّ تلك العطيّة تفضّل من الله تعالى لا
أنّها معلّلة بوصف التّبوءة والرّسالة. وفيه أيضا: مراعاة الفصاحة المشتركة في
الكلام البليغ؛ فلو صدّرت بالبداء لما ناسب ذلك نظم السّورة، ولما يفيد التّصدير
ب (إنّا) من معنى إظهار العظمة والكبرياء.³

○ ومنه: العدول عن قول (لتصليّ) إلى (فصلّ)، ويبيّن التّقاسويّ أنّ غاية هذا الإيجاز
الأنزل الكلام عن رتبة الإعجاز، وفيه الاحتراس من فهم أنّ الإعطاء لم يكن ابتداء
إنعام وتفضّل وإنّما لأجل أن يصليّ.⁴

● الإيجاز بالتّخصيص: يرى التّقاسويّ أنّ تخصيص الصّلاة والنّحر بالذكّر في قوله تعالى:
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ إيجاز، ووصفه بأنّه أعجوبة وبرهان لإشارته إلى جميع الطّاعات:

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9895.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9883- 9884.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9887.

⁴ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9896.

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ _____ الأَجْهَاءُ البَلَاغِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عِنْدَ أَحْمَدَ سَعِيدِ
التَّقَاوِسِيِّ الجَزَائِرِيِّ (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوْضُ الأَزْهَرُ".

فَالطَّاعَةُ نوعان: بَدَنِيَّةٌ وَقَلْبِيَّةٌ، وَأَصْلُ البَدَنِيَّةِ: الصَّلَاةُ وَالرِّكَاءَةُ، وَأَمَّا القَلْبِيَّةُ فَقصِدَ اللهُ
تَعَالَى¹، وَأَنَّ فِي تَخْصِيصِ الصَّلَاةِ بِالدِّكْرِ إِيمَاءٌ إِلَى تَلَوِّهَا وَهِيَ الرِّكَاءَةُ، وَمَعَ هَذَا الإِجْازَ تَنْبِيَهُ
الآيَةُ عَلَى المِكانَةِ الخَاصَّةِ لِلصَّلَاةِ وَالتَّحَرُّعِ عِنْدَ الرَّسُولِ الكَرِيمِ، حَيْثُ جَعَلَتِ الصَّلَاةَ قَرَّةً
عَيْنِهِ، وَكَانَتِ لِهَمَّتِهِ فِي نَحْرِ البُذُنِ قُوَّةً².

- إِجْازُ الحِذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ حَرَّ﴾، فَأَصْلُ الكَلَامِ (وَإِنْ حَرَّ لِرَبِّكَ)، فَحِذْفُ (لِرَبِّكَ)
اِكْتِفَاءً بِمَا تَقَدَّمَ تَجَنُّبًا لِلتِّكْرارِ، وَذَهَابًا إِلَى أَنَّ هَذَا الفِعْلَ فِي الأَسَاسِ لا يَصْلِحُ لغيرِ اللهِ
تَعَالَى، لِذَلِكَ اسْتَغْنَى عَنِ ذِكْرِ اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاجْتَمَعَ مَعَهُ مِنَ البَدِيعِ رِعايَةُ الفاصِلَةِ³.
- إِجْازُ الحِذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ حَرَّ﴾، حَيْثُ حِذْفُ المَفْعُولِ وَهُوَ البَدَنُ أَوْ نَحْوَهُ
لِدلالةِ لَفْظِ التَّحَرُّعِ عَلَيْهِ، أَوْ لِتَنْبِيهِ عَلَى أَنَّ المَطْلُوبَ هُوَ نَفْسُ الفِعْلِ دُونَ تَحديدِ لِنوعِ
المَفْعُولِ بِهِ. وَاجْتَمَعَ مَعَهُ مِنَ البَدِيعِ مِراعاةُ الفِواصِلِ⁴.

2- التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ:

ذَكَرَ التَّقَاوِسِيُّ أَنَّ فِي تَقْدِيمِ الأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَى الأَمْرِ بِالتَّحَرُّعِ إِشارةً إِلَى المِكانَةِ العَظِيمَةِ
لِلصَّلَاةِ، وَتَنْبِيهاً عَلَى أَهَمِّيَّتِهَا، وَأَنَّها مِفْتابُ الخِيارِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَفِيهِ أَيْضاً دِلالةٌ عَلَى
تَقْدِيمِ الصَّلَاةِ عَلَى التَّحَرُّعِ⁵.

وَأَمَّا العَدُولُ عَنِ تَقْدِيمِ المَجْرورِ المَفِيدِ لِلإِختِصاصِ وَتأكيدِ مَعْنَى الإِخْلاصِ فِي قَوْلِهِ:
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ بِدَلِّ: فَلِرَبِّكَ فَصَلِّ، فَ"تَنْبِيهاً عَلَى أَنَّ طاعةَ القَلْبِ لا تَحْصِلُ إِلاَّ بَعْدَ طاعةِ
البَدَنِ"، قالَ التَّقَاوِسِيُّ: وَفِي هَذَا القَوْلِ نَظَرٌ. وَنَقَلَ قَوْلًا آخَرَ وَلَمْ يَتَعَقَّبْهُ وَهُوَ أَنَّ فِي ذَلِكَ تَنْبِيهاً
عَلَى أَنَّ العَبْدَ لا يَسْتَغْنَى بِطاعةِ قَلْبِهِ عَنِ طاعةِ جِوارِحِهِ⁶.

¹ - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، الرَّوْضُ الأَزْهَرُ، ص 9905.

² - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9903.

³ - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9905.

⁴ - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9905.

⁵ - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9898، ص 9904.

⁶ - يَنْظُرُ: التَّقَاوِسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9898.

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ _____ الأَجْهَاءُ البَلَاغِيَّةُ فِي التَّفْسِيرِ عِنْدَ أَحْمَدَ سَعِيدِ
النَّقَاسِيَّ الْجَزَائِرِيِّ (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوْضُ الْأَزْهَرُ".

3- التَّعْرِيفُ وَالتَّنْكِيرُ:

يرى النَّقَاسِيُّ أَنَّ تَعْرِيفَ (الكَوْثَرِ) لِإِفَادَةِ كِمَالِ الصِّفَةِ وَشُمُولِيَّتِهَا لِلْمَوْصُوفِ،
وَإِفَادَةِ الْعُمُومِ (المفرد المعرّف بالألأم) أَي جَمِيعِ خِيَرَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.¹

4- الخَبَرُ وَالْإِنْشَاءُ:

تَحَدَّثَ النَّقَاسِيُّ عَنِ بَلَاغَةِ الْجُمْلَةِ الثَّلَاثِ فِي السُّورَةِ، وَذَلِكَ كَمَا يَلِي:

- جَمَلَةٌ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) جَمَلَةٌ خَبَرِيَّةٌ، وَمِنْ بَلَاغَتِهَا:²
 - الإِيمَاءُ إِلَى تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِابْتِدَاءِ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِالْعَطَاءِ الْكَرِيمِ مِنْ غَيْرِ سَوْأَلٍ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ بِابْتِدَاءِ السُّورَةِ بِإِنَّ الْمُقْتَضِيَةَ لِلِاسْتِنَافِ.
 - الدَّلَالَةُ عَلَى تَأْكِيدِ إِسْنَادِ الْاِخْتِصَاصِ إِلَيْهِ تَعَالَى لَا إِلَى غَيْرِهِ، وَذَلِكَ بِإِفْتِتَاحِ السُّورَةِ بِالتَّوَكُّيدِ ب (إِنَّا)، وَفِيهِ عَزٌّ وَتَثْبِيتٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- جَمَلَةٌ (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) جَمَلَةٌ إِشْنَائِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ، وَمِنْ بَلَاغَتِهَا أَنَّ الْأَمْرَ يَفِيدُ الْوَجُوبَ أَي وَجُوبَ شُكْرِ الْمُنْعَمِ وَتَكَرُّرِ الشُّكْرِ مَدَّةَ الْعُمُرِ لِتَكَرُّبِ عِلَّتِهِ.³
- جَمَلَةٌ: (إِنَّ شَأْنِيكَ هُوَ الْأَيْتَرُ) جَمَلَةٌ خَبَرِيَّةٌ، فِيهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ:
 - الدَّلَالَةُ عَلَى مَزِيدِ تَكَرُّمٍ وَتَعْظِيمٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجَابَ عَنْهُ لَمَّا شَتَمَهُ الْكُفَّارُ جَوَابًا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ.⁴
 - "زِيَادَةُ ذِمٍّ وَوَعِيدٌ لِمُرْتَكِبِي عِدَاوَتِهِ بِطَرِيقِ الْاِخْتِصَاصِ وَالتَّوَكُّيدِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ:"
 - أَنَّ الْمَشْدَدَةَ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الْإِثْبَاتُ لَمَّا يَأْتِي بَعْدَهَا.
 - إِفَادَةُ تَكَرُّبِ الضَّمِيرِ مَزِيدَ التَّقْرِيرِ.

¹ - ينظر: النَّقَاسِيُّ، الرَّوْضُ الْأَزْهَرُ، ص 9893، 9894.

² - ينظر: النَّقَاسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9882.

³ - ينظر: النَّقَاسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9899.

⁴ - ينظر: النَّقَاسِيُّ، نَفْسُهُ، ص 9910.

د. الطَّيِّبِ صَفِيَّةٌ _____ الأَجَاهِ البَلَاغِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عِنْدَ أَحْمَدَ سَعِيدِ
التَّقَاوِسِيِّ الجَزَائِرِيِّ (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرَّوْضُ الأَزْهَرُ".

- تعريف الخبر وإفادته اختصاص المتَّصِف به بكونه أبتَر، ولو نُكِّر لصلح أن يقع على غيره لشيوع النَّكْرَة.
- لفظ (أفعل) الَّذِي من شأنه التَّفْضِيل.
- اقتضاء لفظ (الأبتر) معنى الدَّم.
- ما في الاستئناف من معنى التَّوْكِيد، ولذلك لم توصل هذه الآية بما قبلها بحرف العطف.¹

ووضَّح التَّقَاوِسِيُّ أَنَّ قَصْرَ وصف الأبتَر على شأنِ الرَّسُولِ واختصاصه به إنَّما هو من باب المبالغة، بمعنى أَنَّهُ لا يعتدُّ بمن وجد بهذه الصِّفَة في جنب ما حصل لمبغض الرَّسُولِ من التَّمْكِينِ فِيهَا والرُّسُوخِ.²

○ في الآية إخبار بالغيب، وذلك من وجوه الإعجاز ومن دلائل نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذلك أَنَّ الأبتَر هو الَّذِي لا عقب له، وقد قيل: لم يولد للعاص بعد ذلك، ولا أحد يقوم بدينه ولا أحد يذكره بخير³، فطابق الخبر الحال.

5- الإظهار والإضمار:

قال يحيى بن حمزة العلوي: "واعلم أَنَّ هذا -يعني الإظهار في موضع الإضمار- وإن كان معدودا من علم الإعراب لكن له تعلق بعلم المعاني، وذلك أَنَّ الإفصاح بإظهاره في موضع الإضمار له موقع عظيم وفائدة جزلة"⁴.

¹ - ينظر: التَّقَاوِسِيُّ، الرَّوْضُ الأَزْهَرُ، ص 9906.

² - ينظر: التَّقَاوِسِيُّ، نفسه، ص 9909.

³ - ينظر: التَّقَاوِسِيُّ، نفسه، ص 9909.

⁴ - يحيى بن حمزة بن علي ابن إبراهيم العلوي اليميني، الطَّرَازُ لِأَسْرَارِ البَلَاغَةِ وعلوم حقائق الإعجاز، تج: عبد الحميد هندواي، المكتبة العصريَّة، صيدا-بيروت، ط1، 1423/1423هـ/2002م، (79/2).

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وقد نبّه التّقاسويّ إلى ما في السّورة من الإضمار والإظهار في ذكر اسم الله تعالى وذكر
رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وذكر -حائثاً على تدبّره- أنّه ينطوي على أسرار لا يحيط
بتفاصيلها إلا الله تعالى¹، وحاول الكشف عن بعض تلك الأسرار، فمن ذلك:

✓ بناء فعل الإعطاء (أَعْطَيْنَاكَ) على المضمر، فيه من المعاني²:

- الدّلالة على خصوصيّة الفعل بأنّه لا يمكن أن يصدر عن غير الله تعالى، وفيه
تعظيم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم ووعد له بما أظهره من نصره وتثبيت له.
- تعظيم للعطيّة لإسنادها إلى معط كريم، وفيه أيضاً: زيادة اعتناء بالمعطى عليه
الصّلاة والسّلام.

✓ اختير إظهار اسم الرّبوبيّة (لِرَبِّكَ) دون إضماره بأن يقال (لنا) لمعنى لا يؤدّيه الأخير
وهو³:

- الإيماء إلى سبب الأمر بالصّلاة، فالمعنى "فصلٍ للمنعم عليك الذي لا تحقّ العبادة
إلّا له".

○ تأكيد لما دلّ عليه قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ ودلّت عليه الفاء الفصيحة، أي:
فلأنا أنعمنا عليك بالكوثر صلّ لنا.

- إظهار العظمة والكبرياء (عظمة الرّبوبيّة).

✓ إضمار اسم الرّسول عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ﴾ عوض أن
يقال: (أعطينا الرّسول الكوثر)؛ فيه حسن البيان مع الإيجاز، وقد سبق التّنبيه إليه
وبيان بلاغته في بلاغة الإيجاز.⁴

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9881.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9885.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9901، 9902.

⁴ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9895.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد النّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

6- التّكرار:

يرى النّقاسويّ أنّ تكرار ذكر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم خمس مرّات في السّورة موافق لعدد أسمائه الخمس المعروفة في الكتب السّمائيّة المتقدّمة، وعند علماء الأمم السّابقة، والمذكورة في حديث النّبّي صلّى الله عليه وسلّم.¹

7- بلاغة اختيار الألفاظ ومناسبتها للنّظم:

تقع البلاغة وصفا للكلام وللمتكلم، ولا تقع وصفا للكلمة المفردة²، إلّا أنّها قد يوصف بها اللفظ في حالة واحدة وهي باعتبار إفادته المعنى عند التّركيب³، فالكلمة لا توصف بالبلاغة إلّا في سياق النّظم. ويوجّه ابن عطية بلاغة الكلمة بقوله: "كتاب الله لو نزع منه لفظة ثمّ أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"⁴.

وأما أبو سليمان الخطّابيّ فيرى أنّ وضع الألفاظ عمود البلاغة، فقال: "اعلم أنّ عمود هذه البلاغة ... هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهب الرّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أنّ في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر النّاس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة، والحمد والشّكر، والبخل والشّحّ .. والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللّغة بخلاف ذلك؛ لأنّ لكلّ لفظة منها خاصيّة تميّز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها"⁵.

¹ - ينظر: النّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9881.

² - ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص 13.

³ - ينظر: القزوينيّ، نفسه، ص 20.

⁴ - أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسيّ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تج: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط 1، 1422هـ/2001م، (52/1).

⁵ - الرّمّانيّ والخطّابيّ وعبد القاهر الجرجانيّ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تج: محمّد خلف الله أحمد ومحمّد زغلول سلام، ذخائر العرب (16)، دار المعارف، مصر، ط 3، 1976م، ص 29.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

ولم يغفل التّقاسويّ في تدبّره البلاغيّ للسّورة الكشف عن وجوه البلاغة في اختيار
ألفاظها لتناسب مع نظم السّورة، وقد توصّل إلى ما يلي:

• بلاغة اختيار لفظة (أَعْطَيْنَاكَ):

بحث التّقاسويّ سرّاً اختيار كلمة (أَعْطَيْنَاكَ) دون (آتيناك) المشتركة معها في المعنى،
فذكر فيه ثلاثة أوجه هي:

✓ إيثاراً للإيجاز لبناء السّورة عليه، وقد سبق الحديث عنه في مبحث الإيجاز.
✓ لمّا كان الإيتاء في القرآن يستعمل في مقام التّعظيم والتّكثير، والإعطاء يستعمل في الكثير
والقليل والعظيم والحقير، أوتر التّعبير عن العطاء الجزيل باللفظ المقتضي للتّقليل
إظهاراً لعظمة الرّبوبيّة والكبرياء، بأنّ ذلك لا يعدُّ شيئاً أمام عظمة الله تعالى وعظيم
ملكه.

✓ في إيثار التّعبير عن العطاء الجزيل باللفظ المقتضي للتّقليل زيادةً تكريم للرّسول صلّى
الله عليه وسلّم وبيان لعظيم منزلته عند ربّه، بأنّ ذلك العطاء وإن كان عظيماً فهو قليل
في جانب تعظيم قدره وعلوّ منزلته عند ربّه.¹

كما بحث التّقاسويّ في بلاغة صيغة الكلمة وما لحق بها من الضّمائر، فكشف عن
سرّ إيثار الجمع (نا) دون الإفراد والتّثنية بأنّه: إظهار تعظيم المنعم، كما كشف عن سرّ
توجيه الخطاب للنّبويّ صلّى الله عليه وسلّم (ك) بأنّ في ذلك إكراماً له وإعظاماً لكرامته.²
وأما العدول عن تعظيم المخاطب بأن يقال: (أعطيناكم)، فرفعا لإيهام الاشتراك في ذلك
العطاء، والاكتفاء بتعظيمه بإعطاء الكوثر لتناوله جميع الفضائل، وذلك غاية التّكريم
ونهاية التّعظيم، ولمّا كانت الشّركة فيه لا تتوهّم بحالٍ، عدل عن التّصريح باختصاص النّبويّ
صلّى الله عليه وسلّم بالكوثر، كأن يقال: إيّاك أعطينا الكوثر.³

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9883-9885.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9885، 9886.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9894.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

وأما سرُّ اختيار صيغة الماضي في الفعل، فأرجعه لأربعة أسباب: الأوّل: أنّه من باب التّغليب الّذي هو أحد وجوه الإيجاز، وقد سبق بيانه في بلاغة الإيجاز. الثّاني: التّنبيه إلى أنّه إعطاء في العاجلة كما يكون في الأجلة. الثّالث: أنّه عطاءً حُكِمَ به في الأوّل. الرّابع: لاستعمال الكلمة في الحقيقة والمجاز معاً، عند من يقول بإمكان اجتماعهما.¹

• بلاغة اختيار لفظة (الكوثر):

وضّح التّقاسويّ أنّ كلمة "الكوثر" أفادت زيادة المبالغة في الكثرة، وذلك باجتماع معنيي المبالغة في الكثرة: بما تدلُّ عليه حروفها، وبدلالة صيغتها، حيث جاءت على وزن فوعل، كما بيّن اجتماع أربع مبالغات في الكلمة: حذف الموصوف، ودلالة حروف الكلمة، وبنائها للمبالغة، ودخول اللّام عليها.²

• بلاغة اختيار كلمة (فصل):

نظر التّقاسويّ في فاء التّعقيب وقال إنّها استعيرت ههنا للتّسبيب، بمعنى: الأمر بجعل ذلك الإنعام الكثير سبباً للقيام بشكر المنعم وعبادته، فترجّح عنده أن يكون معنى الأمر بالصّلاة التّنبيه على سائر العبادات؛ إذ لا وجه لتخصيص بعض الصّلوات دون بعض، وفي ذلك الأمر التّنبيه على ترك المبالاة بقول العدو³، ففي لفظة (فصل) اتّسع⁴.

كما نبّه التّقاسويّ إلى نكتة سرّيّة في العدول عن توكيد الأمر بالنّون أو باللّام (فصليّن أو فلتصلي)، وهي: "أنّ المطلوب إذا كان محبوباً للمخاطب كان مجرّد ذكره باعثاً له عليه، فكيف إذا أمر به ... فلم يُحتج في الأمر بها إلى تأكيد"⁵.

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9887.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9889، 9893.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9895-9897.

⁴ - التّقاسويّ، نفسه، 9899.

⁵ - التّقاسويّ، نفسه، ص 9896.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيَّاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

• بلاغة اختيار كلمة (لِرَبِّكَ):

نقل التّقاسويّ قول من قال: إنّ سرّاً يثار كلمة (لِرَبِّكَ) دون (لخالقك) ونحوها، راجع إلى الكمال والتّمّام في التّعظيم لله تعالى؛ لاشتمال الرّبوبيّة على ما لا يمكن الإحاطة به من صنوف الإنعام، كما أفادت الكلمة التّعظيم والدّلالة على مزيد التّشريف والتّكريم في المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾¹.

• بلاغة اختيار كلمة (وَإِنْحَرْ):

يرى التّقاسويّ أنّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْحَرْ﴾ اتّساعاً، وذلك من وجوه البلاغة وفنون الفصاحة والبراعة. ولمّا كانت الإبّل أعزّ الأموال عند العرب، نبّه الأمر بنحرها على قطع العلائق النّفسيّة من شهوات الدّنيا وملذّاتها. كما تضمّنت الكلمة إشارة وبشارة بأنّه صلّى الله عليه وسلّم سيصير بعد الفقر إلى الغنى، بمعنى أنّه سيكون له مال وإبل ينحر منها، وفي ذلك تأكيد لمدلول قوله تعالى: ﴿أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفْرَ﴾. ولمّا وقع ذلك وزال عنه الفقر كان إخباراً بالغيّب، وذلك من وجوه الإعجاز.²

• بلاغة اختيار كلمة (شَانِيكَ):

أرجعها التّقاسويّ إلى ثلاثة أوجه:

- ✓ وصفه بالشّانئ لبيان أنّه لم يتوجّه بقلبه إلى الصّدق، ولم يقصد الإفصاح عن الحقّ، وذلك لبغيه وحسده، فوصفه بما ينبئ عن المقت الأشدّ.
- ✓ فيها إيحاء إلى سبب وصفه بأنّه الأبتّر بأنّه عداوته لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.
- ✓ إيهام من نزلت فيه هذه السّورة وذكره بالوصف (الشّانئ) ليتناول الوصف كلّ من شاركه فيه، فيكون عامّاً في كلّ متّصف بوصف الشّانئ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.³

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9901، 9902.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9904 - 9905.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9907 - 9909.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

• بلاغة اختيار كلمة (الأبتر):

أرجعها التّقاسويّ إلى ثلاثة أوجه:

✓ الدّمُّ بها للمشكلة والمحاذاة لقول العاص أو غيره: إنّ محمّداً أبتر، ومن لم ينفعه عقبه لعدم إيمانه بمنزلة من لا عقب له.

✓ الإنصاف والعدول، فقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ "يجوز أن يكون هذا الأسلوب من الكلام المنصف، وذلك أنّه سلك به سبيل الإنصاف، فلم يُعدّل عن هذا اللفظ إلى غيره، ولمشاكلته لما وقع هذا الكلام جواباً له... وفيه تنبيه على نفي الاشتراك".

✓ الدّمُّ بها ورد بطريق التّنبيه بالأدنى على الأعلى، فوصفه بكونه أبتر تفريط في الوصف في جنب ما يستأهله، وذلك الغاية في الدّمّ، فالإفراط في وصف ما لا يحيط الوصف بحقيقته تفريط، مثل وصف الجنّة والنّار.¹

الفرع الثّاني: مباحث علم البديع في الرّوض الأزهر

كشف التّقاسويّ عن المحسّنات المعنويّة والمحسّنات اللفظيّة.

1- المحسّنات المعنويّة:

من المحسّنات المعنويّة الواردة في السّورة التي نبّه إليها التّقاسويّ ما يلي.

أ- المقابلة:

✓ نقل التّقاسويّ ما قيل في مناسبة السّورة لما قبلها، بأنّها كالمقابلة للسّورة التي قبلها وهي سورة الماعون، والمقابلة من بديع كلام العرب الدّال على بلاغته؛ فقوبلت أربع صفات للمنافق في سورة الماعون بأربع صفات للمؤمن: البخل بكثرة الإعطاء، وترك الصّلاة والرياء بالصّلاة والإخلاص، ومنع الرّكّاة بالنّحر.²

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9908، 9909، 9911.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9879 - 9881.

د. الطيّب صفيّة _____ الأيّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

✓ وضّح التّقاسويّ أنّه لمّا وُصف من وصف النّبّيّ بأنّه أبتّر، قابل الله تعالى بوصف حال
الشّانئ بأنّه هو الأبتّر وليس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتولّى الله تبارك وتعالى هذه
المقابلة بنفسه جزاء لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين تولّى بنفسه نصر دين الله
تعالى والدّبّ عنه.¹

ب- براعة الاستهلال:

وقف التّقاسويّ عند محبّين براعة الاستهلال أو حسن الابتداء، وبين أنّه - في هذه
السّورة - يتجلّى في ابتدائها بذكر اسم الله تعالى بالضّمير الدّالّ على التّعظيم، وهو ما يدلّ
على المعنى الأساس الّذي جاءت لأجله السّورة وهو تعظيم الله تعالى.²

ج- حسن الختام:

لمّا ورد في السّورة الثّناء على الرّسول الكريم باختصاصه بالكوثر، كرّر في خاتمتها الثّناء
عليه بذخ مبغضه ووصفه بذلك الوصف القبيح، فتناسب المطلع والمقطع في زيادة التّشريف
والتّعظيم للنّبّيّ الكريم.³

د- حسن التّخلّص:

قال التّقاسويّ: "هو من وجوه الفصاحة، وهو الخروج من معنى إلى آخر بلطفية تلائم
بينهما، وفي تصدير هذه الآية ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ بحرف الاستئناف أبرع تخلّص وأحسن
خروج، وعدّ هذا النوع بعض علماء الأدب والكلام من إعجاز القرآن، ذاهبا إلى أنّه من
خصائص التّنزيل"، فعده التّقاسويّ حقيقة الإعجاز فقال: "فكان الإعجاز في الحقيقة
مقصورا عليه، لكونه غير مستطاع، بخلاف غيره ممّا ليس من الأسلوب والنّظم المخالف
لعاداتهم".⁴

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9911.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9883.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9912.

⁴ - التّقاسويّ، نفسه، ص 9910.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد
التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

2- المحسّنات اللفظيّة:

من المحسّنات اللفظيّة التي نبّه إليها التّقاسويّ: رعاية الفاصلة (الكوثر، وانحر، الأبتري)، من خلال الحذف مرّتين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَرَّ﴾، فأصل الكلام: (وانحر البدن لربّك)، فحذف المفعول والجار والمجرور رعاية للفاصلة، مع ما يقترن بها من أغراض بلاغيّة أخرى سبق التّنبيه إليها.¹

الفرع الثالث: مباحث علم البيان في الرّوض الأزهر

من مباحث علم البيان التي تناولها التّقاسويّ في الرّوض الأزهر ما يلي:

1- الكناية:

جوّز التّقاسويّ—وقد سبق التّنبيه إليه في مبحث الإيجاز— أن يكون الكوثر كناية عن نعم كثيرة، فيكون ذلك من باب الوحي والإشارة والاختصار بطريق الكناية، وأنّ ذلك من جوامع الكلم في القرآن الكريم²، كما جوّز أن يكون قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ كناية عن ترك المبالاة بالعدوّ، أي: لا يحزنك قول شائتك، وأقبل على ما هو دأبك من إخلاص العبادة لنا.³

2- التّعريض:

يرى التّقاسويّ أنّ اللّام في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ تفيد التّعريض بدين العاص بن وائل وأشياعه ممّن يعبد غير الله تعالى، وأنّ في ذلك تثبيتها لرسوله الكريم على صراطه المستقيم.⁴

الخاتمة:

بما أنّ البدايات تفضي إلى النّهيات، والتي بدورها تفسح عن التّنائج والتّوصيات، فإنّ هذا البحث الموسوم ب: (الاتّجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد التّقاسويّ الجزائريّ

¹ - ينظر: التّقاسويّ، الرّوض الأزهر، ص 9905.

² - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9894.

³ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9899.

⁴ - ينظر: التّقاسويّ، نفسه، ص 9902.

د. الطيّب صفيّة _____ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير عند أحمد سعيد التّقاسويّ الجزائريّ (المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر".

(المتوفّي بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأزهر" انتهى إلى ضميمه من التّنائج، نصوغ أهمّها فيما يلي:

✓ الأتجاه البلاغيّ في التّفسير قديم في المغرب العربيّ وعند علماء الجزائر بالتّحديد، وعمل التّقاسويّ في القرن الثّامن الهجريّ يدلّ على ذلك.

✓ أحمد سعيد التّقاسويّ من علماء الجزائر الّذين لم تنصفهم البحوث والدراسات.

✓ يتجلّى الأتجاه البلاغيّ في التّفسير بوضوح وبدقّة عالية في كتاب الرّوض الأزهر.

✓ وظّف التّقاسويّ علوم البلاغة من المعاني والبيان والبديع في الكشف عن أسرار

المعاني في القرآن الكريم، وأيضا وظّفها في استجلاء إعجاز القرآن الكريم بلاغيّاً.

✓ الارتباط بين البلاغة وعلوم القرآن وثيق جدّاً؛ من خلال ارتباط البلاغة بالتّفسير وبإعجاز القرآن.

وأما أهمّ توصيات هذه الدراسة فهي:

✓ تشجيع الباحثين على إنجاز دراسات بلاغيّة تطبيقيّة في جميع سور القرآن الكريم، لما لذلك من فوائد جليّة في خدمة القرآن واستكشاف أسرار معانيه.

✓ الالتفات إلى جهود علماء الجزائر المغمورين في درس القرآن الكريم بمختلف المناهج والاتّجاهات، الّذين غمرتهم مختلف الطّروف السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة وغيرها، فلم تمكّنهم من نشر علومهم واستفادة النّاس منها.

وأخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المسائل البلاغية في -كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

سامية بن زروق

جامعة أمحمد بوقرة -بومرداس البلد: الجزائر

أستاذة محاضرة "أ"

البريد الإلكتروني: s.benzerroug@univ-boumerdes.dz

الملخص:

ترك لنا علماؤنا الأجلاء على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم تراثاً بلاغياً لا يكاد ينضب، ولعلّ من أكثر العلماء اهتماماً بمسائل علم البلاغة علماء الإعجاز؛ هؤلاء الذين تيقنوا بأنّ تبيان إعجاز القرآن الكريم مرتبط أشدّ الارتباط بعلم البلاغة؛ كيف لا وهو البلاغة في حدّ ذاتها، ومن ثم فلا غرابة أن يُخصّص "الباقلاني" في مؤلّفه "إعجاز القرآن" قسماً كبيراً يتحدّث فيه عن ضروب البيان، ووجوه البلاغة في القرآن، الأمر الذي قادنا في هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن أهمّ المسائل البلاغية التي تعرّض إليها هذا العالم الجليل في محاولة منه لإبراز بلاغة القرآن الحكيم وأوجه إعجازه، ومن ثمّ تبيان منهج "الباقلاني" في الدرس البلاغي. وبناء على ما سبق جاءت إشكالية البحث كالتّالي:

- ماهي أهمّ المسائل البلاغية التي تعرّض إليها "الباقلاني" في مؤلّفه "إعجاز القرآن"؟

وما منهجه في الدرس البلاغي؟

الكلمات المفتاحية: القضايا- البلاغة، الباقلاني، القرآن، الإعجاز.

مقدّمة:

القرآن الكريم كيانٌ لغويٌّ اجتمعت فيه سمات اللّغة العربيّة وجمالياتها نحواً وصرفاً، ودلالةً، وبلاغةً، وقد ربّغت بطريقة معجزة؛ حتّى يبقى خالداً على مرّ العصور والأزمنة إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها، يأتي جيلاً من النّاس ويمضي وهو باق بحقائقه وإعجازه وجمالياته ثابت لا تشوبه شائبة، ولا غرابة في ذلك ما دام أنه كلام الخالق -عزّ وجلّ-

وهو الكلام الذي التّفّ حوله جهابذة العرب وأفذاذهم في محاولة منهم لبيان إعجازه من جهة، وتفسير مصدر هذا الإعجاز من جهة أخرى؛ الأمر الذي أدّى إلى نشوء دراسات لغوية عربية نحوية وصرفية وصوتية وبلاغية... إلخ ظلّت متّصلةً به خدمة له.

ولعلّ من أكثر علوم اللّغة ارتباطاً بالقرآن الكريم وتفسيره "علم البلاغة"؛ بل إنّ جلّ علماء العرب يتّفقون على ضرورة تمكّن علماء الأصول والتّفسير والإعجاز من ناصية البلاغة وفروعها (علم المعاني، والبيان، والبديع) أولاً حتّى يتسنى لهم تفسير آيات الدّكر الحكيم على أحسن وجه؛ بحيث أخذ علم البلاغة بنصيب الأسد من اهتمام هؤلاء العلماء بل أنّهم أجمعوا جميعهم على دوره وفضله في الكشف عن أوجه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، واعتبرت البلاغة أمراً لا مناص منه لكل من يلجأ إلى دراسة الكتاب الحكيم، ذلك أنّها آلة فهمه وملاذ تدبره. الأمر الذي جعل علماء الإعجاز والأصول والتّفسير ينافسون علماء البلاغة في الدّرس البلاغي، وهذا ما يفسّر تعرّضهم للعديد من المسائل البلاغية في خضمّ دراستهم للقرآن الكريم.

ولهذا ستحاول ورقتنا البحثية هذه أن تقف عند واحد من هؤلاء، ويتعلّق الأمر بـ "الباقلاني" هذا الأخير الذي نجده يتناول مسائل بلاغية كثيرة في مؤلّفه "إعجاز القرآن"؛ بحيث سنبين أهمّ المسائل البلاغية التي تعرّض إليها "الباقلاني" في مؤلّفه، ومنهجه في ذلك. وبناء على ذلك جاءت إشكالية البحث كالتّالي:

- ما هي أهمّ المسائل البلاغية التي تعرّض إليها "الباقلاني" في مؤلّفه "إعجاز القرآن"؟

وما منهجه في الدّرس البلاغي؟

1- علاقة علم البلاغة بعلوم القرآن الكريم:

لا يختلف اثنان على العلاقة بين علم البلاغة وعلوم القرآن الكريم من تفسير وأصول وإعجاز، ودورها (البلاغة) في الكشف عن أسرار القرآن الكريم، وبيان إعجازه؛ بل وجب على كلّ دارسٍ للذّكر الحكيم أن يكون مالكاً لناصية البلاغة عارفاً بقضاياها؛ بحيث نجد جلّ علماء العرب على اختلاف مشاربهم يؤكّدون ذلك، فهذا هو "ابن عاشور" يتحدّث عن أهميتها في قوله: "بهذا العلم يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النّفس لها، وبه يترجّح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن"¹.

كما نجد "أبو حيان الأندلسي" يشير إلى أهمية علمي البيان والبديع في تفسير الذّكر الحكيم، بل جعلهما شرطاً أساساً في ذلك؛ إذ لا يجوز لأيّ مفسّر أن يذهب إلى تفسير القرآن الكريم دون تمكّنه من فروع علم البلاغة، وهذا ما يتجلّى في قوله: "ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التّفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلّا من كان متبحراً في علم اللّسان، مرتقياً منه إلى رتبة الإحسان، وقد جبل طبعه على إنشاء النثر والنّظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبداع صورة وأجمل جلاب، واستفرغ في ذلك زمانه النّفيس، وهجر الأهل والولد والأنيس"².

وفي ذات الصّد يقول "الزركشي" عن أهمية البلاغة في تفسير كتاب الله: "وهذا العلم - أي علم البيان والبديع - أعظم أركان المفسر، فإنّه لا بدّ من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النّظم، وأن يؤاخى بين الموارد، ويعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر، وغير ذلك"³، فلقد اعتبر الزركشي البلاغة "عمدة التّفسير لا يجوز لأيّ مفسّر جهلها.

¹ محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر، 1984م 1/ 21.

² أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، 1/ 17.²
الزركشي البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 137هـ- 1957م، 1/ 311.

ولهذا نجد "السكاكي" يحذّر من عواقب جهل علماء التفسير لعلم البلاغة، في قوله: " وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين المعاني والبيان أشدّ الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير، وهو فيهما راجل¹، إنّ هذا القول يكشف لا محالة عن أهمية بل ضرورة تمكّن علماء التفسير لهذا العلم، وخطورة الجهل بها، لأنّ ذلك من شأنه أن يؤدّي إلى تحريف كلام الله تعالى، والرأي ذاته نجده عند شيخ البلاغة" عبد القاهر الجرجاني " حين حديثه عن جهل المفسّر في تمييزه بين الاستعارة المكنية والتصريحية؛ لأنّ ذلك قد " قد يصير سبباً إلى أن يقع قوم في التشبيه... حتى يفضي بهم إلى الضلال البعيد، وارتكاب ما يقدر في التوحيد، ونعوذ بالله من الخذلان"². واشترط "العسكري" ضرورة معرفة البلاغة العربية وتعلّمها للتدبّر في الإعجاز البلاغي القرآني، حتّى يستطيع المرء أن يميز بين مراتب الكلام، ولهذا وضع كتابه ليزل به من تلك الصعاب. قال: " فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع علم البلاغة من الفضل، ومكانه من الشرف والنبيل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة. فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نثره ونظمه ويستعمل في محلولة ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار"³.

لقد جعل "العسكري" معرفة البلاغة سبباً في إدراك إعجاز القرآن والوصول إلى خصائصه ومميزاته، للوقوف على حدود النصّ القرآني وتجلياته، كما عدّها وسيلة للكشف عن وجوه البديع وصور البيان ووسيلة لإدراك حسن النظم والتأليف؛ ذلك أنّ تعلّم البلاغة من شأنه أن يكون لديهم الدّوق والفهم الذين يساعدهما على إدراك الإعجاز ومواطنه في

¹ السكاكي، مفتاح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1987م، ص 162.

² عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ط1، 1991، ص 50.

³ ينظر: محمّد تحريشي: النقد والإعجاز، منشورات اتحاد العرب الكتاب، دمشق، سوريا، على شبكة الإنترنت، ص25.

القرآن الكريم.

وهو ما جعل علماء الأصول والتفسير والإعجاز ينافسون علماء البلاغة في علمهم وفي التعرض للعديد من المسائل البلاغية، بل إننا نجدهم أحياناً يتفوقون عليهم، وليس أدل على ذلك من شيخنا "الباقلاني" الذي كانت له آراء بلاغية لا يستهان بها؛ ولهذا سنحاول فيما يلي الوقوف عند أهمها.

2- اتجاهات الدارسين في بيان إعجاز القرآن:

انقسم العلماء العرب في تبيان إعجاز القرآن الكريم إلى اتجاهات وفرق للوقوف في وجه أعداء الإسلام الملحدين؛ الأمر الذي أثمر عن إنتاج عددٍ لا يُستهان به من المؤلفات في باب الإعجاز؛ بحيث نجد الاتجاه القائل: بالصرفة ومن رواد هذا الاتجاه "إبراهيم بن سيار النظام".

كما نجد -الاتجاه الذي انطلق من بلاغة القرآن لإثبات إعجازه حيث؛ "اهتم رجال هذا الاتجاه بالناحية البلاغية في القرآن الكريم لاعتقادهم أنّ البلاغة القرآنية هي أساس الإعجاز. فقد درس "ابن قتيبة" الصّور البيانية في القرآن الكريم، وقال بالتفاوت بين قصائد الشاعر الواحد، وبالتفاوت بين الشعراء، غير أنّ القرآن غير متفاوت الإعجاز. وعلل هذا الإعجاز عن طريق البديع، وقد ألمّ برأيه هذا، وبطريقته هذه في الدراسة في كتابه تأويل مشكل القرآن، فبلاغة القرآن تعتمد على دقة التعبير والإجادة في الوصف بألفاظ قليلة وتوسع في الدلالة. "قال عن القرآن وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه"¹، ومن أهم رواد هذا الاتجاه ابن قتيبة، والرّمانى والباقلاني.

أمّا الاتجاه الثالث فهو الاتجاه القائل بأنّ "القرآن معجز بنظمه": ومن أهم رواد هذا الاتجاه الجاحظ والخطابي هذا الأخير الذي قسّم الكلام إلى ثلاثة أقسام: الرّصين الجزل، الفصيح القريب السهل، الجائر المطلق المرسل، وذهب إلى هذه أقسام الكلام الفاضل

¹ ينظر: محمد تحريشي: النقد والإعجاز، ص 14-15-16 .

المحمود، فالأول أعلاها والثاني أوسطها، والثالث أدناها وأقربها¹.

ثم جاء الباقلاني واستقرأ جلّ الدراسات التي سبقته في هذا المضمون في كتابه

"إعجاز

القرآن"؛ حيث أثرى هذا الاتجاه، فقد اختار هذا الباحث النظم لإثبات الإعجاز، وقال بعدم التفاوت في القرآن الكريم بخلاف الأدب. وليس انعدام التفاوت وحده الدال على إعجاز القرآن؛ بل هناك أمران آخران: أولهما: الطول الذي استوعبه ذلك النظم دون تفاوت. وثانيهما أنّ هذا النظم قد ورد على غير المعهود من نظم الكلام جميعه عند العرب. وعرض نماذج من نثر البلغاء وشعر الشعراء لإدراك التفاوت. وبين أنّ ما استأثر بتفصيل النقاد في الشعر لا يبلغ شيئاً بجانب بلاغة القرآن؛ ولذلك درس قصيدة لامرئ القيس، وأخرى للبحري، ثم سورة من القرآن الكريم ليفصح عن رأيه السابق الذكر. وهذا الذي ميّزه عن غيره من الدارسين، فقد وازن بين المعجز من كلام الخالق، وبين الرائع من كلام المخلوق. وقد كان معجباً بكل كلمة ومعنى وأسلوب في القرآن وقف عنده، ونعت ذلك بنعوت المفاضلة دون الإشارة إلى مواطن الفصاحة ولا إلى مواطن الروعة والجمال².

3- لمحة عن حياة الباقلاني:

هو أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم، البصري البغدادي، ابن الباقلاني، ولد بالبصرة سنة 328هـ ونشأ بها، ثم انتقل إلى بغداد طلباً للعلم وهو واحد من أئمة المسلمين، وعالم من علماء الأصول، صاحب التصانيف البديعة، " هو الملقب بسيف الستة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريق أبي الحسن، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته"³، وقد اختصر "الذهبي" -سيرته؛ بقوله هو: "الإمام العلامة، أوجد المتكلمين، مقدم الأصوليين، القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر

¹ ينظر: المرجع السابق، ص 15-16

² ينظر: المرجع نفسه، ص 17.

³ ابن العماد دمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الرناؤوط، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ج 4، ص 169، ط 1، 1993هـ..

بن قاسم البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، صاحب التصانيف، وكان يضرب المثل بفهمه، وذكائه ... وكان ثقة إماماً بارعاً، صُتِّف في الردّ على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق، فإنّه من نظرائه، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه" ¹.

وعُرف "الباقلاني" بذكائه الحاد وسرعة بديهته، وقوّة لسانه وحجّته في الردّ على الخصم، وليس أدلّ من ذلك تلك المناظرة التي جرت بينه وبين قس (بطريق) الروم عندما أرسل في مهمّة رسمية من طرف عضد الدّولة إلى ملك الروم عام 371هـ: حيث افتتح الباقلاني كلامه بالسؤال عن الأهل والأولاد قائلاً: "كيف أنت وكيف الأهل والاولاد؟ فتعجب البابا وقال له: ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة، أتك لسان الأمة، ومتقدّم على علماء الملة. أما علمت أنّ المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد؟ فأجابه الباقلاني: رأيناكم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والأولاد. فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه؟ فأراد كبير الروم أن يخزي القاضي الباقلاني، فقال له: أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها؟ فأجابه: هما اثنتان قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا ومريم أم المسيح، فأما زوج نبينا فلم تلد. وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وقد برأهما الله مما رميتا به. فانقطع الرومي ولم يحرج جواباً" ².

ولقد أسهم في نشأته العلمية ثلّة من شيوخ العرب الأجلّاء، وفي مقدّماتهم "ابن مجاهد الطائي" الذي علّمه فنون الكلام، والفقه المالكي، في حين أخذ عنه علم الأشاعرة عن "الشيخ الصالح أبي الحسن الباهلي"، كما تتلمذ على يد كلّ من: "أبي بكر بن مالك"، و"أبي محمّد بن ماسي"، و"الحسن النيسابوري" وغيرهم ممن كان لهم الفضل في تكوين هذه الشّخصية الفدّة.

¹ - وفيات الاعيان، لابن خلكان 4 دار صادر، بيروت- لبنان، مج4، ص239.

² ابن خلكان: وفيات الاعيان، مج، 4، ص ٢٦٩ وانظر ايضا قصته مع ملك الروم، تاريخ بغداد، مج، 2، ص.27، وينظر أيضا «الباقلاني» إعجاز القرآن، ص.32.

كما أسهم "الباقلاني" بدوره في تدريس وتكوين خيرة علماء العرب ومن هؤلاء نذكر "أبو عبد الله الأردني" وأبو طاهر البغدادي".

وتوفي "الباقلاني" -رحمه الله- في ذي القعدة، 407هـ ببغداد، حيث شيع في جنازة مهيبة، تاركاً لنا مؤلفات كثيرة نذكر منها: إعجاز القرآن وهداية المرشدين، تمهيد الدلائل، الانتصار لصحبة أهل القرآن، البيان عن الفرق، وغيرها من الكتب القيّمة التي أثرت المكتبة العربية.

4- الدرس البلاغي في فكر الباقلاني من خلال كتابه دلائل الإعجاز: (المسائل البلاغية):

لا ينبغي بأي حال أن ننسى فضل "الباقلاني" على الدرس البلاغي، من خلال أبحاثه القيّمة في باب حديثه عن الإعجاز القرآني، وإن لم يكن هو القصد من دراسته؛ بل كان بغرض الدفاع عن القرآن الكريم وردّ أباطيل الملحدّين، هذا الأخير الذي وجد ضالّته في القرآن الكريم؛ لإعجاز مثل هؤلاء بفصاحة القراءان وبلاغته وبراعة نظمه التي تعدّ أقوى حجّة على ربّانية القرآن؛ ذلك أنّ القرآن الكريم معجزة في حدّ ذاته؛ لأنّه أجاد استعمال خصائص اللّغة العربيّة، ووصل بها إلى القمّة التي تُدرك من قبل البشر، على الرّغم من تمتّع العرب آنذاك بحاسة بلاغية تجعلهم يميزون بين كلام الله وكلام البشر، إلّا أنّهم لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن.¹

لقد أسهم "الباقلاني" اسهاماً واضحاً في التأسيس للدرس البلاغي وتحديد مساره؛ من خلال تعرّضه للعديد من المسائل البلاغية بغرض تبيان إعجاز بلاغة القرآن الكريم؛ بحيث تناول في مؤلّفه "إعجاز القرآن" القضايا التي تدلّ، وتؤكّد على إعجاز القرآن الكريم، وكان من أهم القضايا التي تناولها قضية البديع من الكلام، وهو يتحدّث عن وجوه الإعجاز التي هي عنده ثلاثة؛ يتمثّل الوجه الأوّل في مسألة "إخبار الصادق عن الغيب" ممّا يؤكّد أنّ

¹ ينظر: محمد تحريشي: التّقد والاعجاز، منشورات اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الانترنت، دمشق، سوريا، ص14.

القرآن الكريم ليس بكلام بشر، في حين يتمثل الوجه الثاني في قضية "معرفته وإخباره عن قصص الأقسام الغابرة"، بينما رأى أن الوجه الثالث من أوجه إعجاز القرآن الكريم يكمن في "أسلوب نظمه البديع المعجز بلفظه ومعناه، والذي أهر العرب وأعجزهم على الإتيان بآية من مثله وهم أرباب فصاحة وبيان وبلاغة.

ولهذا نجد "الباقلاني" قد ركّز واشتغل على هذا الوجه أكثر من الوجهين السابقين لتبيان إعجاز القرآن الكريم من ناحية بلاغة الذكر الحكيم وبديع نظمه الفريد الذي لا مثيل له، هذا الأخير الذي يُعدّ في حدّ ذاته حجة دامغة على ربانيته أمام كلّ المشكّكين، والملحدّين الذين حاولوا أن يثبتوا عكس ذلك.¹

إذ يقول في ذات الصّدّد: "«فالقُرآن معجَزٌ في أسلوبه الذي يسير على سنن ونمط متجانس، دونما اختلال أو اضطراب، أو تفاوت بين سورة وسورة، أو آية وآية، أو موضوع وموضوع، فهو على الدوام منفرد بذلك الأسلوب»⁽⁰⁵⁾.

غير أن الجدير بالذكر هنا أنّه لم ينهج سبيل غيره ممّن عاصروه في إثبات وجه بلاغة القرآن انطلاقاً من استخراج ما فيه من صنوف البلاغة من بيان وبديع؛ كاستخراج أمثلة من الصّور البيانية والمحسنات البديعية بمختلف أنواعها. بل إنّه كان رافضاً لذلك مادام أنّ مثل هذه الأمثلة هي موجودة أيضاً في أشعار العرب وتعبيراتهم؛ إذ يقول في ذات الصّدّد: "لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع، الذي أدّعوه في الشّعر ووصفوه فيه، وذلك أنّ هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف؛ بل يمكن استدراكه بالتعلّم، والتدرّب به، والتصنّع له كقول الشّعر ووصف الخطب وصناعة الرّسالة والحدق في البلاغة، وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقي فيه إليه"².

وإنّما كان نهجه في ذلك هو البحث عن مواطن الاختلاف بين بلاغة البشر وبلاغة الله - سبحانه وتعالى- في نظم الكلام ووصفه. حيث كان العرب لكي يصلوا إلى ذروة البلاغة لا بدّ

¹ أبو بكر محمّد بن الطيّب الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 5ط، (دت)، ص76..

² ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص230.

لهم من توظيف الكذب واستعمال البديء من الكلام والتعابير، وقد ذكر ذلك "حسن بن ثابت" شاعر الرسول -صلى الله عليه وسلم- حينما قال لهم أحدهم: "لأنَّ شعركُ أو هِرم شعركُ في الإسلام يا أبا الحسام. فقال للقائل: يا بن أخي، إنَّ الإسلام يحجز عن الكذب، أو يمنع من الكذب، وإنَّ الشَّعْرِيْنَ الكذب، يعنى إنَّ شأن التَّجويد في الشَّعر الإفراط في الوصف والتزيين بغير الحقِّ، وذلك كلُّه كذب¹:"

في حين أن كلام الله تعالى كلام غاية في البلاغة والفصاحة لا تشوبه شائبة؛ ذلك أنَّه ليس من جنس كلام العرب، حتى وإن نظم من حروفهم وتعابيرهم المألوفة في شعرهم ونثرهم، وخطبهم، وهذا الاختلاف مردّه أن صاحب الكلام هو الله الذي ليس كمثله شيء.

-ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام أنَّ لفظ البديع عند الباقلاني هو لفظ شاملٌ يشملُ علوم البلاغة الثلاثة؛ ذلك أنَّ البلاغة في عهده لم تكن قد صُنِّفت بعد إلى علم البديع والبيان، والمعاني، وهذا ما يبرِّز وصف الاستعارة والتَّشبيه والمجاز وغيرها بصنوف البديع.

وقد خصَّص "الباقلاني" الجزء الأخير من الكتاب لحديثه عن وصف أوجه البلاغة؛ حيث استهلَّ هذا الباب بذكر قول "الرَّماني" الذي يرى بأنَّ للبلاغة عشر أقسام: الإيجاز، والتَّشبيه والاستعارة، والتَّلاؤم والفواصل، والتَّجانس والتَّصريف، والتَّضمين والمبالغة، وحسن البيان² متعرِّضاً في ذلك إلى أهم المسائل البلاغية، نلخصها فيما يلي:

1-مسألة الإيجاز: حيث تحدّث عن الإيجاز وأقسامه:

والإيجاز عنده: «هو ما يحسُنُ مع ترك الإخلال باللقظ والمعنى فيأتي بالقليل الشَّامل لأُمور كثيرة»⁽³⁾، وهو عنده نوعان: أحدهما إيجاز بالحذف وهو ما يكون بحذف جزء من الكلام، كالحرف أو الكلمة أو الجملة، ويأتي لغرض التَّخفيف؛ وقد مثل لذلك بالآية 82 من سورة "يوسف" في قوله عزَّ وجلَّ: { واسال القرية } وبالآية الواحدة والعشرين من سورة

¹ ديوان حسان بن ثابت، ص 309.

² الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 262 .

³ - نفسه ص 262 .

"محمد" في قوله تعالى: {طاعة وقولٌ معروفٌ}، وحذف الجواب وقد مثل بالآية الكريمة التي يقول فيها - عز وجل- {وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ أَمْوَاتٌ} بحيث حذفت جملة " لكان هذا القرآن"¹.

ويرى "الباقلاني" أنّ الحذف أبلغ من الدّكر؛ ذلك أنّ هذه الظّاهرة الأسلوبية في التّعبير تثير مخيّلّة القارئ أو الدّارس، وتدفعه إلى التأمّل والتعمّق لإدراك المحذوف وتقديره حتى يتناسق الكلام ويكتمل، ويعرف الوظيفة الفنّية أو الدّينية التي يؤدّيها من خلال الاعتماد عليه في أداء المعاني"²، وقد ورد هذا النوع بكثرة في آيات الدّعاء.

أمّا النّوع الثّاني من الإيجاز فهو إيجازٌ بالقصر، وقد مثل "الباقلاني" لذلك بالآية الثّانية من سورة البقرة، والآية الرّابعة من سورة "المنافقون"، والآية الثالثة والعشرين من سورة "يونس"، والآية الثالثة والأربعين من سورة "فاطر"؛ حيث بيّن من خلاصه مواطن الحذف بالقصر، وبلاغتهم³.

2-الاطناب والفرق بينه وبين التّطويل:

تحدّث "الباقلاني" من خلال هذا العنصر عن الفرق بين الإطناب والتّطويل بغرض إزالة اللبس بينهما؛ ذلك أنّه قد يتشابه الأمر بينهما عند البعض، فقال: "الإطناب فيه بلاغة والتّطويل فيه عي"⁴

ولقد اختصر "الباقلاني" بهذا القول الموجز الكثير من المعاني، واشترط أنّ تحصل الفائدة من الكلام الرّائد، وهذا ما ذهب إليه "ابن الأثير" في قوله: «هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة»⁵، فالشرط الرّئيس فيه هو أنّ تُحقّق الزّيادة فائدة جديدة على المعنى، وهذا الذي يميز الإطناب عن غيره.

¹ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص262.

² - عبد السلام أحمد الراغب: أدراسة الأدبية التّظرية والتّطبيق، ص50.

³ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص263.

⁴ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص263.

⁵ - ابن الأثير: المثل السائر، تحقيق كامل محمّد عويضة، دار الكتب العلمية 12998، ص109.

3-التشبيه:

ومن المسائل البلاغية التي تحدّث عنها "الباقلاني" في مؤلفه " إعجاز القرآن " التشبيه؛ حيث عرفه بأنه: " العقد على أنّ أحد الشئيين يسدّ مسدّ الآخر في حسّي أو عقل"¹ وقد مثل لذلك بعدة آيات من الذكر الحكيم مبينا مواطن الإعجاز فيها وسرّ بلاغة التشبيه، نذكر منها قوله عزّ وجلّ في سورة النور:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور، 39)، وقوله تعالى في سورة القمر: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٨﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ} (القمر 18-20)

وغيرها من الآيات التي ورد فيها التشبيه.

4-الاستعارة:

انتقل "الباقلاني" مباشرة بعد تعرّضه للتشبيه إلى الاستعارة مبينا الفرق بينها وبين التشبيه؛ فيها هو يقول في ذات الصّدّد: " ومن ذلك باب الاستعارة وذلك يباين التشبيه"²، وحتى يوضّح ذلك ساق جملة من آيات القرآن الكريم تحتوي على استعارات نذكر منها:

كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾^(٥) .
 /وكقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٦) .
 وكقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾^(٧) .
 وقوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾^(٨) .

وكان كثيراً ما يستعين برأي "الزّمني" في جلّ المسائل البلاغية، ومن ذلك شرحه للاستعارات الواردة في القرآن الكريم، ومن ذلك ما نجده في تفسير سورة الحجر، يقول وقال

¹ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص-263.264

² المرجع نفسه، ص266.

الرّماني: " حقيقته بلّغ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأنّ الصّدع بالأمر لا بدّ له من تأثير كتأثير صدع الرّجاجة، والتبليغ قد يضعف حتّى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع، والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أنّ الإيصال الذي له تأثير كصدع الرّجاجة أبلغ".¹

5- التلاؤم وأضرابه والفرق بينه وبين التنافر:

ويعرّف "الباقلاني" التلاؤم بأنّه: " تعديل الحروف في التّأليف، وهو نقيض التّنافر"² وهو عنده ضربان: تلاؤم في الطبقة الوسطى، وهو غالب في الشّعر، وتلاؤم في الطبقة العليا نجده في القرآن كلّّه، كما بيّن الفرق بينه وبين التّنافر؛ إذ يقول: " والتلاؤم حسن الكلام في السّمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب، وذلك كالخطّ الحسن والبيان الشّافي، والمتنافر كالخطّ القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان، وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الاعجاز لمن كان جيّد الطّبع، وبصيراً بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشّعر"³، ثمّ يضيف قائلاً في ذات الصّدّد: " والمتنافر ذهب الخليل: إلى أنّه من بعد شديد، أو قرب شديد، فإذا بعد فهو كالطّفّر، وإذا قرب جدّاً كان بمنزلة مشي المقيد، ويبيّن بقرب مخارج الحروف وتباعدها"⁴.

6- الفواصل والفرق بينها وبين الأسجاع:

والفواصل عند "الباقلاني" هي حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والأسجاع عيب؛ لأنّ السّجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني⁵. بحيث ميّز الباقلاني بين الفاصلة والسّجع والفرق بينهما.

¹ الباقلاني: إعجاز القرآن، هامش ص266.

² المرجع نفسه، ص269.

³ المرجع نفسه، ص270.

⁴ المرجع نفسه، ص270.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص270.

7-التجانس ووجوهه:

في هذا الباب يتحدث "الباقلاني" عن التجانس وضرابه؛ فيرى بأنه: بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد، وهو يأتي على وجهين: إما مزوجة وإما مناسبة، وقد مثل للوجه الأول بقوله -عز وجل- في سورة "البقرة": " {فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} (البقرة-194)، وسورة "آل عمران" في قوله-عز وجل-: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ} (آل عمران54)، في حين لم يمثل للوجه الثاني منه.

8-المناسبة:

لم يُعرف "الباقلاني" المناسبة لكنه مثل لها مباشرة بأمثلة من القرآن الكريم،

فقال:

~ ~ ~

وأما «المناسبة» ، فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾⁽¹⁾
وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾⁽²⁾

لكنه استعان برأي "الزّماني" في شرح الآيتين وتبيان موطن المناسبة فيهما، فما هو يقول عن الآية الأولى (الآية 127 من سورة التوبة): "وقال الزّماني "...والثاني من التجانس وهو من المناسبة وهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد، فمن ذلك قوله: {ثم انصرفوا} فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد، وهو الذهاب عن الشيء، أما هم فذهبوا عن الذكر، وأما قلوبهم فذهبت عنها الخير"¹.

في حين يقول "الزّماني" عن الآية الثانية (الآية 37 من سورة النور) "فجونس بقلوب التقلّب، والأصل واحد؛ فالقلوب تتقلّب بالخواطر، والأبصار تتقلّب بالمنظر. والأصل التّصرف"².

¹الباقلاني: إعجاز القرآن، ص272، وأيضاً الزّماني: النكت، ص22.

²الباقلاني: المرجع نفسه، ص272.

9-التصريف:

يُعرف "الباقلاني" التصريف بأنه: "تصريف الكلام في المعاني، كتصريفه في الدلالات المختلفة، كتصريف "الملك" في معاني الصفات، فصُرف في معنى "مالك" و"كلك" و"ذي الملكوت"، و"المليك"، وفي معنى "التَمْلِك" و"التَمَلُّك" و"الإملاك"، وتصريف المعنى في الدلالات المختلفة، كما كرر في قصّة "موسى" في مواضع".¹

وعلى غرار المسائل البلاغية السابقة يعقّب الباقلاني تعريفه هذا برأي الرّماني وذلك دأبه في الكتاب؛ بحيث نجده لا يكتفي برأيه فقط بل إنّه كان يعزّز رأيه برأي الرّماني في جلّ المسائل البلاغية حتى لكأنك تحسبه كتاباً مشتركاً بينه وبين الرّماني.

10-التّضمين ووجوهه:

أمّا التّضمين فهو عند "الباقلاني" حصول معنّى فيه من غير ذكره له باسم أو صفة هي عبارة عنه " وهو نوعان:

أولاً: تضمينٌ توجبه البنية، وقد مثل على ذلك بصفة "معلوم"؛ حيث يرى بأنّ هذه الصّفة توجب وجود " صفة "عالم".

ثانياً: تضمين يوجبه معنى العبارة: التي لا يصحّ إلا به، وقد مثل لذلك بصفة ضارب على مضروب.²

واعتبر "الباقلاني" التّضمين شكل من أشكال الإيجاز؛ وقد مثل لذلك بقول الله تعالى: {بسم الله الرحمن الرحيم} فيها هو يقول³.

¹ الباقلاني: إعجاز القرآن، ص272.

² ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص273

³ المرجع نفسه، ص2732.

وذكر : أن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من باب التضمين ؛ لأنه/تضمن ٤١٤
تعليم الاستفتاح في الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى ، أو التبرك
باسمه (٣) .

11-المبالغة ووجوهها:

لينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن المبالغة، وهي عنده "الدلالة على كثرة المعنى
وغزارته، وهي تحمل أوجه عديدة؛ كالمبالغة في الصفة المبيّنة، ومن أمثلته في القرآن الكريمة
لفظ "رحمان" التي هي معدولة من لفظ "راحم" بغرض المبالغة في المعنى، وغفّار التي هي على
وزن "فعّال"، وشكور، وغفور التي على وزن "فعول" ورحيم وقدير وهما على وزن "فعليل".
وقد يبالي باللفظة التي هي صفة عامة وقد مثل لذلك بآيات من القرآن الكريم نذكر
منها قوله تعالى: {خالق كل شيء} (الزمر62)، وقوله عزّ وجلّ: {فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ}
(النحل 26)

12-البيان و أقسامه والفرق بينه وبين العي:

وعند تعرّض "الباقلاني" لقضية "حسنُ البيان" لم يفصل الحديث عنه؛ بل إنّه دخل
مباشرة في عرض أقسامه الأربعة وهي على النحو التالي عنده: (كلامٌ وحالٌ، وإشارةٌ، وعلامةٌ).
وقد بيّن في هذا المقام الفرق بين بيان الكلام العادي (كلام البشر)، وبيان القرآن
الكريم؛ إذ يقول: "والقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه،
وطرقه وأبوابه من تعديل النّظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السّمع،
وسهولته على اللسان، ووقوعه في النّفس موقع القبول وتصوره تصوّر المشاهد، وتشكله على
جهته حتّى يحلّ محلّ البرهان، ودلالة التّأليف، ممّا لا ينحصر حسناً وبهجة، وسناء ورفعة"¹.
كما تعرّض الباقلاني إلى بعض المسائل البلاغية عند حديثه عن علاقة الإعجاز بالبيان.

¹ ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 274

² ينظر: المرجع نفسه، ص 277..

خاتمة:

حاولنا انطلاقاً من هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على واحدٍ من أهمّ علماء العرب الأجلّاء، يتعلّق الأمر بصاحب التصانيف البديعية القاضي "أبو بكر الباقلاني" عالم من علماء الأصول، بغية الكشف عن إسهاماته القيّمة في مجال الدّرس البلاغي، يمكن أن نجمل أهمّها فيما يلي:

- ارتبط الدّرس البلاغي عند العرب بمباحث الإعجاز في القرآن الكريم، بل كان شرطاً ضرورياً لكلّ دارس وباحث في القرآن الكريم.
- تميز "الباقلاني" بفكره البلاغي الثّاقب الذي استخدمه كوسيلة لفهم البيان القرآني، وتبيان إعجازه، كما تميّز بمنهجه الخاص في استخراج الصّور البيانية، وأوجه البلاغة، انطلاقاً من تحديد الفروق بين بلاغة كلام البشر وبلاغة كلام الله تعالى.
- استطاع "الباقلاني" أن يقدّم لنا عملاً دقيقاً جمع فيه آراء البلاغيين والمفسّرين؛ لا سيما آراء الرّماني، وإن لم يكن غرضه من ذلك هو التّأسيس لدّرس بلاغي؛ بل كان لغرض أسعى من ذلك ألا وهو تبيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم؛ ومن ثمّ دحض مزاعم الملحدّين وأكاذيبهم؛ فكان موفقاً إلى حدّ بعيد في ذلك.
- لفظ البديع عند "الباقلاني" هو لفظ شاملٌ يشمل علوم البلاغة الثّلاثة؛ ذلك أنّ البلاغة في عهده لم تكن قد صنّفت بعد إلى علم البديع والبيان، والمعاني.
- تمكّن "الباقلاني" من إثراء الدّرس البلاغي بأفكاره النّيرة؛ لا سيما وأنّه قد ساق الكثير من الشّواهد والأمثلة الأدبية من شعر العرب ونثرهم، وضمّنه ذوقه الخاص وتطبيقاته الرّفيعة.
- خصّص "الباقلاني" الجزء الأخير من مؤلّفه للحديث عن وجوه فن البلاغة؛ فتعرض إلى أهمّها كالإيجاز والإطناب، التّشبيه والاستعارة، والفاصلة والسّجع، وغيرها، وكان في كلّ مرة يحدّد الفروق بين المتشابهات.

- استعان "الباقلاني" في كتابه في عرض القضايا البلاغية بأراء معاصريه ومن سبقوه في الدرس البلاغي؛ وهو دأبه حيث كان يعزّز رأيه بأرائهم؛ ممّا أضفى على عمله الجدّية والموضوعية.

قائمة المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1. ابن خلكان: وفيات الاعيان، مج، 4، ص، 269 وانظر ايضا قصته مع ملك الروم، تاريخ بغداد، مج، 2.
2. أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني: إعجاز القرآن، تحقيق: السيّد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، (دت).
3. ابن الأثير: المثل السائر، تحقيق كامل محمد عويضة، دار الكتب العلمية 1998.
4. عبد السلام أحمد الراغب: الدراسة الأدبية النظرية والتطبيق. نصوص قرآنية، دار القلم العربي، حلب، سوريا. 'دط)، (دت).
5. محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التّحرير والتّنوير الدّار التّونسية للنّشر، 1984م، 1 / 21.
6. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، 1 / 17.
7. ابن العماد دمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الارناؤوط، دار ابن كثير للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، ج4، ط1، 1993.
8. الزركشي البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 137هـ. 1957م، 1 / 311.
9. السّكاكي، مفتاح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1987م.

⁸ - ينظر البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة 1423 هـ/1968م، ج 1 ص 91.

سامية بن زروق _____ المسائل البلاغية في -كتاب إعجاز القرآن للباقلاني

10. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ط1، 1991.

11. محمد تحريشي: النقد والإعجاز، منشورات اتحاد العرب الكتاب، دمشق، سوريا، على شبكة الإنترنت.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم -عرض نماذج مختارة"

"الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم -عرض نماذج مختارة"

أ.د/ غنية بوحوش

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل

البريد الإلكتروني: gbouhouche@gmail.com

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين، وبعد.

فللقرآن الكريم الفضل في نشأة وتطور علوم الشريعة بأنواعها: علوم القرآن والتفسير والعقيدة والفقه وأصوله، وله الفضل كذلك في نشأة وتطور علوم العربية بأنواعها: النحو والصرف وعلم الأصوات والبلاغة.

ولئن كان التكامل والتداخل المعرفي بين العلوم والمعارف طبيعة فيها، فإنه أظهر ما يكون بين علوم القرآن وعلوم اللسان العربي، فالتعاليق والتواشج والتخادم بينهما عظيم جدا، بل إن العلماء جعلوا إتقان العربية شرطا من شروط القارئ والمفسر والفقهاء والأصوليين...

ومن التواشج بين علوم القرآن وعلوم العربية، الصلة بين علوم القرآن وعلوم البلاغة العربية.

ويأتي هذا الملتقى لتأكيد هذه الحقيقة الغراء، وأشرف بالمشاركة فيه بورقة عنوانها:

"الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم -عرض نماذج مختارة-".

وأحاول من خلالها الإجابة عن سؤال رئيس:

هل للاختلاف في الوقف والابتداء أثر في إبراز جوانب من بلاغة القرآن الكريم؟

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

واخترت الكتابة في الوقف والابتداء لما له من الأهمية في بيان معاني القرآن الكريم،
ولكون معرفة انتقاء مواضع الفصل والوصل جانبا عظيما من جوانب البلاغة¹.

ووظفت الاستقراء والتحليل، وقد انتظمت الورقة في مبحثين:

الأول: التعريف بالوقف والابتداء.

الثاني: عرض نماذج مظهرية للبلاغة القرآنية.

وفيما يلي بسط المقال فيهما:

المبحث الأول: التعريف بالوقف والابتداء

الوقف والابتداء علم من علوم القراءات في جانب الدراية منها، وهو علم جليل القدر
عظيم النفع، فهو صنو التجويد وشرط الترتيل، لا يجاز طالب القرآن إلا بعد اختبار إتقانه.

تعريف الوقف والابتداء

لغة: الوقف من مادة (و، ق، ف)، ويدور معناها حول²:

- ◀ القيام، ضد الجلوس.
 - ◀ السكون ضد الحركة.
 - ◀ السكوت ضد الكلام.
 - ◀ الحبس، تقول: وقفت المدرسة لطلبة العلم. أي: نقلت الانتفاع بها إليهم،
وحصرته (الانتفاع) عليهم.
 - ◀ التبين، تقول: وقفت على الحقيقة، تبينتها.
 - ◀ المعاينة، تقول: وقف على الأمر، عاينه.
- والابتداء لغة: من مادة (ب، د، أ)، وتعني فعل الشيء أول³.

¹ - ينظر لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، مجلد 6، ج 52، ص 4898.

² - ينظر لسان العرب، ابن منظور، مجلد 1، ج 03، ص 223.

³ - النشر في القراءات العشر، محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، سنة 2002، ج 1، ص

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

اصطلاحاً:

فأما الوقف فقد عرفه ابن الجزري بقوله:

"قطع الصوت على الكلمة زمنياً يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة إما بما يلي الحرف الموقوف عليه أو بما قبله كما تقدم جوازه في أقسامه الثلاثة لا بنية الإعراض"¹.

وخرج بضابط "التنفس" السكت؛ إذ هو وقيفة، لا تنفس معها. وخرج بضابط "استئناف القراءة" القطع الذي هو إنهاء القراءة، والانصراف إلى عمل آخر².

ويحسن عدم استعمال لفظ الإعراض عن القراءة؛ لما يحمله من معنى غير مرغوب، وإن كان غير مقصود من ابن الجزري رحمه الله تعالى.

وأما الابتداء فهو:

الشروع في القراءة بعد قطع، أو استئنافها بعد وقف³.

أقسام الوقف والابتداء⁴:

أولاً: أقسام الوقف

الوقف أربعة أقسام:

اختياري: وهم ما يقف عليه القارئ باختياره من دون أن تدعو إليه ضرورة وغيرها، وهو على قسمين:

¹ - ينظر الفرق بين الوقف والسكت والقطع بتوسع في النشر، ابن الجزري، ج1، ص188 وما بعدها.

² - ينظر الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، سنة 1427هـ/2006م، ص19.

³ - ينظر المكتفى في الوقف والابتداء، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، سنة 1422هـ/2001م، ص7. والوقف والابتداء، عبد الكريم صالح، ص39، وما بعدها.

⁴ - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط2 سنة 1972م، ج1 ص343.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

جائز: وهو ثلاثة أقسام:

✓ تام: وهو الوقف على كلام تام في ذاته غير متعلق بما بعده لا معنى ولا لفظا، وسُي تاما لتمام الكلام به واستغنائه عما بعده، فيجوز الوقف عليه والابتداء بما بعده، ومثاله: الوقف على أواخر السور والآيات-غالبا- وأواخر القصص وغيرها وذلك نحو الوقف على ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة من الآية 5].

✓ كاف: وهو الوقف على كلام تام في ذاته متعلق بما بعده معنى ولا لفظا، وسُي كافيا للاكتفاء به عما بعده واستغنائه عما بعده لفظا، ويجوز الوقف عليه والابتداء بما بعده، ومثاله: الوقف على: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة البقرة من الآية 3]، و﴿هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [سورة البقرة من الآية 5].

✓ حسن: وهو الوقف على كلام تام في ذاته متعلق بما بعده معنى ولفظا وسُي حسنا لأنه في نفسه حسن مفيد، فيجوز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده إلا أن يكون آخر آية، فحينها يجوز عليه والابتداء بما بعده لأنه سنة لما ثبت عن أم سلمة من أن النبي ﷺ كان يقطع سورة الفاتحة آية آية، ومثاله الوقف على ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة من الآية 2].

ممنوع: ويسمى "قبيحا" وهو الوقف على كلام غير تام في ذاته كالوقف بين الفعل والفاعل نحو: "ضرب" من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ [سورة النحل من الآية 75]، وبين المبتدأ والخبر نحو: "الحمد" من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة من الآية 2]. وقد يكون الوقف أقبح إذا أوهم بمعنى فاسد أو غير مراد، ومثاله الوقف على: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [سورة النساء الآية 11]، أو على ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ﴾ [سورة يوسف الآية 17]، و أقبح الجميع إن أدى الوقف إلى معنى غير لائق بالذات الإلهية وشريعته، ومثاله الوقف على ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [سورة البقرة من الآية 26]، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ [سورة الأحقاف من الآية 10]، و﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾ [سورة النساء الآية 43]، و﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [سورة الماعون الآية 4]..

ملحوظة:

❖ يختلف تمام الوقف وكفايته وحسنه باختلاف القراءات واختلاف الإعراب واختلاف التفسير واختلاف المذهب العقدي والفقهي، قال الزركشي: "وهذا الفن معرفته تحتاج إلى علوم كثيرة قال أبو بكر بن مجاهد لا يقوم بالتمام في الوقف إلا نحوي عالم بالقراءات عالم بالتفسير والقصص وتلخيص بعضها من بعض عالم باللغة التي نزل بها القرآن وقال غيره وكذا علم الفقه"¹.

❖ يتفاضل التمام والكفاية والحسن أحيانا، فيكون تاما في موضع وأتم في آخر، وكافيا في موضع وأكفى في آخر، وحسنا في موضع وأحسن في آخر.

◀ اختباري: ما كان من المعلم للمتعلم على سبيل الاختبار.

◀ اضطراري: ما دعت إليه ضرورة كضيق نفس، أو سعال، ونحوه.

◀ انتظاري: ما كان حال جمع القراءات، والانتقال من وجه قرائي إلى آخر.

وأما الابتداء فلا يكون إلا اختياريا -غالبا-، إذ لا تدعو إليه ضرورة كالوقف.

ثانيا: أقسام الابتداء

الابتداء قسمان:

الأول: اختياري: ولا يكون الابتداء إلا اختياريا، إذ لا تلجئ إليه ضرورة كما في الوقف من مثل السعال وغيره.

وهو على ضربين: جائز وممنوع، فأما الجائز فالابتداء بكلام منفصل عما قبله لفظا ومعنى، وهذا الابتداء التام، أو منفصل عما قبله لفظا لا معنى، وهذا الابتداء الكافي.

ومثال التام: الابتداء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة الآية 6] بعد الوقف على قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة البقرة من الآية 5].

¹ - السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تج محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ط3 سنة 1424 هـ /2003م، ج3 ص170.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم- عرض نماذج مختارة"

ومثال الكافي: الابتداء بقوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [سورة البقرة من الآية 7] بعد الوقف على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة الآية 6].

وأما الممنوع فالابتداء بكلام متصل بما قبله لفظاً ومعنى، وذلك مما لا يفيد معنى أصلاً، أو مما يفيد معنى على غير مراد القرآن الكريم ومقصده، ولو ابتداء برأس آية. ومثاله الابتداء بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَتَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء الآية 102]، أو الابتداء بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء الآية 40].

الثاني: اختياري: ما كان من المعلم للمتعلم على سبيل الاختبار، لينظر المعلم كيف يبتدئ المتعلم بنحو الهمزات مثلاً.
فائدة معرفة الوقف والابتداء:

لمعرفة الوقف والابتداء فوائد عظيمة، فهو واحد من علوم القراءات في جانب الدراية منها، وهو صنو التجويد وشرط الترتيل، ولا يجاز طالب القراءات إلا بعد اختبار إتقانه هذا الباب. وبه تصان معاني القرآن الكريم، وأحكامه وحكمه وهداياته.

وقد سبق الصحابة الكرام -عليهم الرضوان- إلى العناية بهذا العلم الجليل، قال ابن عمر -رضي الله عنهما-: "لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلُ السُّورَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَجْرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْيَوْمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَجْرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فَيَنْتَثِرُهُ نَثْرَ الدَّقْلِ"¹.

¹ - وساق هذا الأثر -عن علي رضي الله عنه- في موضع لاحق بلفظ قريب فقال: "الترتيل معرفة الوقوف وتحقيق الحروف". الكامل في القراءات الخمسين، أبو القاسم يوسف بن علي الهذلي، تج جمال بن السيد الشايب، مؤسسة سما للنشر والتوزيع، ط1 سنة 2007م، ص 132.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم - عرض نماذج مختارة"

ويروى أن علياً بن أبي طالب -رضي الله عنه- سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [سورة المزمل من الآية 04]، فقال: "معرفة الوقوف وتجويد الحروف"¹. وقد انفرد أبو القاسم الهذلي -رحمه الله- بنقل هذا الأثر عن علي رضي الله عنه، ونقله عنه سائر العلماء من بعده. ولئن صححت هذه النسبة إليه فهي واحدة من بلاغاته -رضي الله عنه، إذ جمع في عبارة وجيزة رشيقة عميقة حقيقة الترتيل، وهي عبارة استغرق وتطلب تفسيرها وتفصيلها من العلماء مجلدات ذوات العدد. وعناية الصحابة بالوقف مرده لمعرفة بأسرار البلاغة ومقتضيات المعنى، فيروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه سأل رجلاً معه ناقة: "أتبعيها؟"، فقال: لا عافاك الله، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: لا تقل هكذا، ولكن قل: لا وعافاك الله"²، ووجه اعتراض أبي بكر رضي الله عنه ثم تصويبه: أن كلام الرجل دون وقف، ودون فاصل يفيد الدعاء بنفي معافاة الله تعالى، فهو بذلك دعاء على أبي بكر رضي الله عنه، وهو أراد الدعاء له.

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل: «فُؤْمُ أَوْ أَذْهَبُ فَبِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ»⁴ لما سمعه يقول:

"مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى"، لكنه وقف على من يعصمها ثم ابتداء فقد غوى مفصولة عما قبلها، وهذا يصبح المعنى: الرشاد لمن أطاع الله ورسوله ولمن عصاهما كذلك، وأمثال هؤلاء لا يستحقون مقام الخطابة في الناس، لعدم تمكنهم من ناصية البلاغة، ولما يمكن أن يثوّه في الناس من فاسد المعاني.

وأما الهذلي فقد وصف الوقف بكلام جميل يحسن نقله -بل ونقله عنه سائر العلماء من مثل ابن الجزري وغيره-، فقال: "اعلم أن المقاطع والمبادئ علم مفتقر إليه به

¹ - ينظر الكامل، الهذلي، ص 93.

² - القطع والائتناف، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس، تج عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب - المملكة العربية السعودية، ط1، سنة 1413 هـ - 1992 م، ص 17.

³ - أخرجه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين، تج مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 سنة 1411 هـ / 1990 م، ج 1 ص 426.

⁴ - الكامل، الهذلي، ص 131.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

الفرق بين المعنيين المختلفين، والقصتين المتنافيتين، والآيتين المتضادتين، والحكمين المتقاربين، وبين الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمفسر، والمحكم والمتشابه، ويميز الحلال والحرام، وبين ما يقتضي الرحمة والعذاب [...] والوقف أدب القرآن ويميز به بين الساكن والمتحرك"¹.

وأضاف في موضع لاحق: "وهذا القرآن نزل باللغة العربية والوقف والقطع من حليتها فأداء الوقف حلية التلاوة وتحلية الدراية، وزينة القارئ، وبلاغة التالي، وفهم المستمع، وفخر للعالم فلا بد من معرفة ما يبتدأ به ويوقف عليه"². و"من لم يعلم الوقف لم يعلم ما يقرأ"³. والخلاصة أن إتقان الوقف والابتداء لا يقل أهمية عن إتقان تجويد الحروف، فكل منهما يعمل على حفظ كلام الله تعالى من التحريف، ويمكن تسمية الوقف بتجويد الجملة.

المبحث الثاني: عرض نماذج مُظْهَرة لبلاغة القرآنية

أنزل الله عز وجل القرآن الكريم هدى للعالمين. هدايات عامة شاملة، لا يوقف عليها إلا بالتدبر بحضور القلب وإعمال الفكر، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء الآية 82]. وقال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص الآية 29].

ومما يعين القارئ على التدبر وتلمس معاني القرآن الكريم وبلاغاته حسن⁴ الوقف والابتداء، وثمة علاقة تآثر وتأثير بين التدبر وحسن الوقف والابتداء، فالوقف الحسن يستفز التدبر، والتدبر وتأمل المعاني يهديان لمحاسن الوقوف.

¹ - المرجع نفسه، ص 132.

² - المرجع نفسه، والصفحة نفسها، والكلام أسنده الهذلي لأبي حاتم.

³ - عنيت بالحسن هنا مطلق الصواب والاستقامة. ولم أقصد به نوعا مخصوصا من أوقاف القرآن مما اصطلح عليه العلماء.

⁴ - ينظر أثر الوقف في تعدد المعنى بين الفخر الرازي والهبطي -دراسة موازنة-، محمد صحراوي، وجميلة بوسعيد، مجلة اللغة العربية، المجلد 24 العدد 2 سنة 2024، ص 49.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

وفيما يلي عرضُ بعض الشواهد القرآنية التي يسهم فيها الوقف في تجلية بلاغة

القرآن العظيم:

﴿النموذج الأول: قوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة الآية 185].

وقف جمهور القراء والمفسرين على كلمة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

وساق الرازي هذا الوقف ووجهه، ثم ذكر وقفاً آخر—ولعله انفراد به¹، وهو الوقف

على كلمة ﴿رَبِّهِ﴾.

والمعنى على الوقف الأول بين لا لبس فيه، وهو الإقرار بإيمان الرسول ﷺ والمؤمنين

وتأكيد.

وأما المعنى على الوقف الثاني فيفيد معنى أبلغ، وهو أن إيمان الرسول ﷺ بالله تعالى

وملائكته ورسوله وكتبه كان حاصلًا قبل نزول القرآن الكريم، وبهذا الاختيار يُفضّل إيمان

الرسول ﷺ عن إيمان سائر المؤمنين، واحتج الرازي لهذا الرأي بنزول عيسى عليه السلام

من بطن أمه مؤمناً، فكيف لا يكون ذلك لرسول الله محمد ﷺ، وهو خير خلق الله تعالى².

﴿النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا

يُنصَرُونَ﴾ [سورة آل عمران الآية 111].

وصل بعضهم ﴿الأذبار﴾ بما بعدها، واختار بعضهم الوقف عليها، ووجهه أن في

الكلام شرطاً وجوابه، وينتهيان عند ﴿الأذبار﴾ فحسن الوقف عليها، والابتداء بما بعدها،

كما أن الوقف والاستئناف يفيد معنى لطيفاً، وهو ديمومة هزيمة الأعداء، قال الزمخشري:

"فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى

¹ - ينظر مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التبيعي الرازي

الملقب بفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 3 سنة 1420 هـ، ج 7، ص 107.

² - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت

دار الكتاب العربي - بيروت، ط 3، سنة 1407 هـ، ج 1، ص 401.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم - عرض نماذج مختارة"

حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأبي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار. وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأبشركم بها - بعد التولية - أنهم مخذولون، منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر. وكان كما أخبر من حال بني قريظة، والنضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر¹. وقال أبو حيان: "ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ: هَذَا اسْتِثْنَاءٌ إِخْبَارٌ أَنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ أَبَدًا. وَلَمْ يُشْرِكْ فِي الْجَزَاءِ فَيَجْزَمُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُرْتَبًّا عَلَى الشَّرْطِ، بَلِ التَّوْلِيَةُ مُرْتَبَّةٌ عَلَى الْمُقَاتَلَةِ. وَالنَّصْرُ مَنْفِيٌّ عَنْهُمْ أَبَدًا سَوَاءً قَاتَلُوا أَمْ لَمْ يُقَاتِلُوا، إِذْ مَنَعَ النَّصْرُ سَبَبَهُ الْكُفْرُ"².

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة الأعراف الآية 34]. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة يونس من الآية 49] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَّ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة النحل الآية 61].
وقف بعضهم على ﴿سَاعَةً﴾ ووصلها آخرون بـ: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة تفيد تحديد الله عز وجل لأجال الخلق، وأنه سبحانه متوفهم في تلكم الأجال من دون تأخير قدر ساعة ولا تقديم، وفي بيان معناها قال محمد الطاهر بن عاشور: "والمعنى أنهم لا يتجاوزونه بتأخير ولا يتعجلونه بتقديم، والمقصود أنهم لا يؤخرون عنه، فعطف ولا يستقدمون تميم لبيان أن ما علمه الله وقدره على وفق علمه لا يقدر أحد على تغييره وصرفه، فكان قوله: ولا يستقدمون لا تعلق له بغرض التهديد، وقريب من هذا قول أبي الشيص:

¹ - البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تح صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط سنة 1420 هـ، ج3 ص304.

² - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، دط سنة 1984 م، ج7 ص105-106.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

"وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم"

وكل ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلص من وعيد أو نحوه بهيئة

من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء¹.

وذكر أيمن رشدي سويد لطيفة بلاغية يظهرها الوقف، وهي أنّ طلب تأخير الأجل

ممن حضره ممكن عقلا وواقعا، وأما طلب تقديم الأجل حال حضوره فغير ممكن لا عقلا

ولا واقعا لأن التقديم سيكون لما مضى وانقضى، لذا كان الوقف للتنبيه على محذوف مقدر

هو: "وإذا لم يحضر أجلبهم" ليصير الكلام: "وإذا لم يحضر أجلبهم لا يستقدمون"، ونبه إلى

أن بعض المصاحف أثبتت علامة "صلى" وتعني جواز الوقف والوصل أولى، وهو يرى أن تثبت

ههنا علامة "قل" وتعني جواز الوصل والوقف أولى للدلالة على ذلك المعنى اللطيف².

ويلحظ أيضا أن الله عزو وجل قدم طلب التأخير وأخر طلب التقديم؛ لأن الأصل في

الناس الرغبة في مدّ الأجل لا في تقصيره، والله أعلم.

﴿النموذج الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف الآية 24].

وقف بعضهم على ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ووصلها آخرون بـ: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

رَبِّهِ﴾، وفي الوصل إيهام باستواء الفعلين من امرأة العزيز ومن يوسف عليه السلام

—وحاشاهـ. وأما الوقف ففيه إظهار بلاغة القرآن الكريم، وبراءة يوسف عليه

السلام، فأما بلاغة القرآن الكريم فهو لون من ألوان البلاغة وهو المشاكلة، إذ يؤتى بالفعل

نفسه لفاعلين ولمعنيين مختلفين³، فالهمم الحاصل من امرأة العزيز همّ بالسوء والفحش،

وأما همّ نبيّ الله وعبيده المخلص —بفتح اللام وبكسرهما— فهمّ بالصدّ بدفع ونحوه.

¹ - أخذ كلامه من تسجيل منشور على موقع يوتيوب عبر رابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=3XNOCG-d0oI>، وكانت الزيارة بتاريخ 27 ماي 2024 في

الساعة: 18:18.

² - ينظر منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الأشموني

المصري الشافعي، تج عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث - القاهرة، مصر، سنة 2008، ج 1 ص 362.

³ - الكشف، الزمخشري، ج 2 ص 733.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

فهذا فرق مهم بين الهمّين يتناسب بين المصدرين والمقامين، وثمة فرق آخر، وهو أن همّ يوسف عليه السلام -بالمعنى اللائق به- لم يحدث ولم يقع أوقفته العصمة الإلهية، ذلك أنّ الهمّ بمعنى الصّدّ بدفع ونحوه لا يليق بمقام نبيّ إذ هو في الواقع عدوان على امرأة لا يليق بمقام النبوة بصرف النظر عن المقصد الحسن، وهو في حقه نوع من السوء والفحشاء التي صرفهما الله عنه -عليه السلام-، ولا يلتفت لما قاله كثير من المفسرين الذين خاضوا في تفسير هذه الآية الكريمة على غير مقتضى مقام النبوة، ذلك أن شناعة الزنى بمحصنة من جهة وبما يشبه المحارم (امرأة تربي في حجرها وحجر زوجها) من جهة أخرى، يعافه صغار المؤمنين فكيف بنبيّ مخلص سليل ثلاثة أنبياء؟ !!!

﴿النموذج الخامس: قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْكُفُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [سورة الكهف الآية 63].

وقف بعضهم على كلمة ﴿الْبَحْرِ﴾ ووصلها آخرون بـ: ﴿عَجَبًا﴾. فمن وصل جعل الكلام كله لصاحب موسى عليه السلام ذاكرا القصة متعجبا من نسيانها ومن الحدث نفسه، قال الزمخشري: "قال: عجا في آخر كلامه، تعجبا من حاله في رؤية تلك العجيبة ونسيانها لها أو مما رأى من المعجزتين"¹.

ومن وقف جعل الكلام لموسى عليه السلام إظهارا للعجب والفرح معا إذ هو أمانة موضع لقيا الرجل الصالح.

وفي الوقف على ﴿الْبَحْرِ﴾ والابتداء بـ: ﴿عَجَبًا﴾ فرصة وقفة تدبر لإظهار العجب من كل من تلا وسمع، والله أعلم.

﴿النموذج السادس: قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَّا سَقَيْتَ﴾ [سورة القصص من الآية 25].

وقف بعضهم على ﴿تَمْشِي﴾ ووصلها القراء والمفسرون بما بعدها، والوقف يخص الاستحياء بالقول، أي تكلمت في حياء، والوصل يربط الاستحياء بالمشي، -بيانا لحال عام

¹ - كذا في النص، بتحقيق محيي الدين رمضان، و"كان" بتحقيق يوسف مرعشلي، ولعل الصواب: لكن.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم - عرض نماذج مختارة"

يدخل معه القول تبعاً. وأما جعل الاستحياء متعلقاً بالقول حصراً ففيه تقديم وتأخير، ولا يصح ذلك إلا بحجة قائمة. قال الداني: "وقال قائل: الوقف على قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي﴾ [ثم يبتدأ] ﴿عَلَى اسْتِحْيَاء﴾ أي: قالت على استحياء من موسى فتتعلق ﴿عَلَى اسْتِحْيَاء﴾ بـ ﴿قَالَتْ﴾ على التقديم والتأخير. والوجه الظاهر أن يتعلق بـ ﴿تَمْشِي﴾ من حيث كان المعنى بإجماع من أهل التأويل: فجاءته إحدهما تمشي مستترة، قيل: بكم قميصها. وقيل: بدرعها. وكان¹ التقديم والتأخير لا يصح إلا بتوقيف أو بدليل قاطع. وإذا كان كذلك لم يوقف على قوله ﴿تَمْشِي﴾ ولا يبتدأ بـ ﴿عَلَى اسْتِحْيَاء﴾².

ويلحظ أن الداني ردّ الوقف على ﴿تَمْشِي﴾ لكلفته وغرابته البيّنة موظفاً الإجماع التفسيري وجانباً من جوانب البلاغة (التقديم والتأخير)، مؤكداً قوة الترابط بين علوم القرآن (التفسير) وعلوم البلاغة.

﴿النموذج السابع: قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [سورة الشورى من الآية 45].

اختلف في قوله تعالى: ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ بماذا يتعلق؟ فإن علق بـ ﴿خَاشِعِينَ﴾، كأنك قلت: من الذل خاشعين، كان الوقف على ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾، وإن علق بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾، كأنك قلت: من الذل ينظرون، كان الوقف على ﴿خَاشِعِينَ﴾، ثم تبتدئ: ﴿مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾³، وعلى هذا الوقف والابتداء يفيد معنى بليغاً ويصور حالة التناهي في الذل حتى لكأنك تراهم على تلکم الحال رأي العين.

قال الزمخشري: "خَاشِعِينَ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم مِنَ الذَّلِيلِ وقد يعلق ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾، ويوقف على ﴿خَاشِعِينَ﴾، ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف. وهكذا نظر الناظر إلى المكاره:

¹ - المكتفى، الداني، ص 156-157.

² - ينظر منار الهدى، الأشموني، ج 2 ص 246.

³ - الكشف، الزمخشري، ج 4 ص 231.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم - عرض نماذج مختارة"

لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملاً عينيه منها"¹.
النموذج الثامن: قوله تعالى: ﴿أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [سورة الذاريات الآيات
16-17-18].

وصل جمهور القراء والمفسرين كلمة ﴿قَلِيلًا﴾ بما بعدها ووقف عليها بعضهم.
فعلى الوقف يكون المراد بالقلة قلة عدد المحسنين، ونفي منامهم بالليل. وردّه كثير
من النحويين والمفسرين، واحتجوا بـ:

- الوقف على قليلا يلزم منه إعمال ما بعد ما فيما قبلها، وهذا ممنوع عند أهل
الصنعة (النحوية)²، وأما نفي النوم كله فتأباه الطبيعة (البشرية)³، وإن حصل من
بعضهم - على سبيل الندرة الشديدة - فعمل على غير هدي سنة في شيء، لقوله ﷺ
للهط الذين سألو عن عبادته عليه الصلاة والسلام ثم كأنهم تقالوها (عدّوها
قليلة): «أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأُخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمُ لَهُ، لِكَيْتِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي
وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»⁴.
- ما ذكر من قلة النوم والاستغفار جاء على سبيل بيان طبيعة إحسان المحسنين لا
ليبين عددهم قلة أو كثرة⁵.
- إنما مدح المحسنين كان لقلة نومهم لا لقلّة عددهم⁶.

¹ - ينظر الكشاف، الزمخشري، ج4، ص399، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب
الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح أحمد محمد الخراط، دار القلم،
دمشق، ج10، ص45.

² - ينظر الدر المصون، السمين الحلبي، ج10، ص45.

³ - أخرجه البخاري في الصحيح المسند، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تح مصطفى ديب البغا،
دار ابن كثير، دمشق ط5، سنة 1414 هـ / 1993 م، ج5 ص1944.

⁴ - ينظر مفاتيح الغيب، الرازي، ج28، ص166.

⁵ - ينظر منار الهدى، الأشموني، ج2، ص294.

⁶ - ينظر المرجع نفسه، ج28، ص168.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

- استغفارهم بالأسحار الذي جعلوه كالاعتذار عن بعض نومهم بالليل¹.

فائدة بلاغية:

أضاف الرازي لطيفة بلاغية في وجه تقديم ﴿قَلِيلًا﴾ بأنه ليس من باب مراعاة السجع، وإنما لفائدتين²:

الأولى: الهجوع راحة فقدم عليه وصفه بالقلة ليكون أول ما يتلقاه السامع ويستقر في ذهنه، لتمام تأكيد محل المدح.

الثانية: تخصيص قلة الهجوع بالليل، لأن قلة النوم بالنهار حاصلة من أي أحد، وأما قلة النوم ليلاً فهو محل التضحية لأجل الطاعة والقربة.

خاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية انتهت الورقة البحثية إلى بعض النتائج والتوصيات:

أ- النتائج

أولاً: تأكيد وجوب العناية بالوقف والابتداء تعلماً وتعليماً وحسن أداء، لكونه طريقاً لحفظ معاني القرآن الكريم، وتبليغها، ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وعقيدة وشريعة وعبادة، ويجب الحرص على التلاوة التي تكتمل معها المعاني الشرعية، وليس اللغوية فحسب.

ثانياً: تأكيد وجوب العناية بالتدبر، والتفسير، لأنهما السبيل لفهم معاني القرآن الكريم وإظهار بلاغة القرآن، ومنه لمعرفة محاسن الوقوف والابتداء، الحافظة للمعاني.

ثالثاً: ثمة علاقة تأثر وتأثير بين التدبر وحسن الوقوف والابتداء، فالوقف والابتداء الحسن يستفز التدبر، والتدبر وتأمّل المعاني يهديان لمحاسن الوقوف والابتداء.

¹ - ينظر المرجع السابق، ج28، ص167.

² البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1964، مطابع دار التضامن، بغداد، ص99.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

رابعاً: تختلف أحكام الوقف والابتداء باختلاف القراءات، والإعراب، والتفسير، والمذهب العقدي والفقهي، ما يؤكد وثيق الصلة بين القرآن وعلومه وبين العربية وعلومها، ما يستوجب إتقانها جميعاً، والدعوة ملحة لاستحداث برامج ومناهج تعليمية مدرسية وجامعية تجمع بين علوم القرآن وعلوم العربية بكل أنواعها، وبكافة مستوياتها.

خامساً: يقال: التفسير بحر لا ساحل له، ويلزم منه تعدد الوقوف تبعاً لذلك، ما يسهم في تجدد إظهار بلاغات القرآن الكريم غير المنتهية تأكيداً لإعجازه الخالد.

ب- التوصيات:

- تدعو الورقة الجهات الإسلامية العالمية المخولة إلى تجديد علامات الوقف في المصاحف وفق ما يترجح وجهه من الوقوف من دون تعصب لمذهب وقفي معين، أو نبد آخر.
 - دعوة الطلبة والباحثة إلى إنجاز دراسات معمقة في الوقف والابتداء من زوايا متعددة.
 - دعوة الجهات المعنية إلى استحداث برامج ومناهج تعليمية مدرسية وجامعية تجمع بين علوم القرآن وعلوم العربية بكل أنواعها، وبكافة مستوياتها.
- هذا، وصل اللهم على محمد وآل محمد والحمد لله رب العالمين.

مراجع الورقة:

أولاً: القرآن الكريم

المصحف الرقي برواية حفص عن عاصم، بالعد الكوفي، وعدد الآي على طريقته ست وثلاثون، ومائتان، وستة آلاف آية: (6236).

ثانياً: كتب السنة الشريفة

1. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تح محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 3 سنة 1424 هـ / 2003 م.
2. الصحيح المسند، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تح مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط 5، سنة 1414 هـ / 1993 م.
3. المستدرک علی الصحيحین، بو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1 سنة 1411 هـ / 1990 م.

ثالثاً: الكتب

1. البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، تح صديقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط سنة 1420 هـ.
2. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط 2 سنة 1972 م.
3. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، سنة 1423 هـ / 1968 م.
4. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، دط سنة 1984 م.
5. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تح أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم - عرض نماذج مختارة"

6. القطع والانتناف، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النَّحَّاس، تح عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب - المملكة العربية السعودية، ط1، سنة 1413هـ - 1992 م.

7. الكامل في القراءات الخمسين، أبو القاسم يوسف بن علي الهذلي، تح جمال بن السيد الشايب، مؤسسة سما للنشر والتوزيع، ط1 سنة 2007م.

8. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت دار الكتاب العربي - بيروت، ط3، سنة 1407هـ

9. لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، دط، دت.

10. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط3 سنة 1420 هـ

11. المكتفى في الوقف والابتداء، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، سنة 1422هـ/2001م.

12. منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الأشموني المصري الشافعي، تح عبد الرحيم الطرهوني، دار الحديث - القاهرة، مصر، سنة 2008.

13. النشر في القراءات العشر، محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، سنة 2002.

14. الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، سنة 1427هـ/2006م.

أ.د/ غنية بوحوش — "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم-عرض نماذج مختارة"

ثالثا: المقالات

أثر الوقف في تعدد المعنى بين الفخر الرازي والهبطي —دراسة موازنة-، محمد صحراوي،
وجميلة بوسعيد، مجلة اللغة العربية، المجلد 24 العدد 2 سنة 2024.

رابعا: المواقع الإلكترونية

<https://www.youtube.com/watch?v=3XNOCG-d0ol>

المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة السيوطي (ت911هـ)

ط د جمال بوراس

جامعة أحمد درايعية أدرار(الجزائر)، djamal.bouras@univ-adrar.edu.dz

الملخص:

إن من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية أن خصهم بخير نبي أرسل وخير كتاب أنزل وأفضل منهاج شرع، فليس هناك كتاب على وجه الأرض لقي من الاهتمام ما لقيه القرآن العظيم، ففيه نبأ ما كان قبلنا وخبر ما بعدنا وحكم ما بيننا، لذلك فقد كان محط أنظار الدارسين وقبلة المتعلمين ونزهة الفصحاء والبلاغيين، لا يزال يهرق قراءه بألفاظه ومعانيه وقوة نظمه ومبانيه، فأعجز العقول على أن تأتي بمثله أو بسورة منه، لذلك فقد شغلت دلائل إعجازه وأسرار بلاغته علماء اللغة قديما وحديثا، فصنّفوا في علومه المصنّفات واستعانوا بكل وسيلة تقرّبهم إلى استخراج مكنونه والغوص في أعماقه للكشف عن دره وياقوته، ومن بين الوسائل التي استعين بها في علوم القرآن علم البلاغة بأقسامه الثلاثة، وممن ضرب فيه بسهم وافر العلامة السيوطي (ت911هـ) من خلال مؤلفاته العديدة في علوم القرآن ومنها "معتك الأقران في إعجاز القرآن"، وميزة هذا الكتاب عن غيره من الكتب كالإتيقان مثلا أنه خصه بالإعجاز القرآني، ومن ذلك وجوه الإعجاز في البلاغة، ولا يخفى أن بيان وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن هو المحرك الأساسي لعلم البلاغة، لذلك فقد كان الداعي لاختيار هذا الكتاب هو بيان نوع العلاقة بين علوم القرآن وعلم البلاغة، وذلك من خلال طرح التساؤلات التالية: كيف استفاد المصنّفون في علوم القرآن من البلاغة؟ وما هي المباحث البلاغية التي احتواها الكتاب لإبراز وجوه الإعجاز في القرآن؟ وإلى أي مدى أثرت علوم القرآن في الدرس البلاغي العربي؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة، علوم القرآن، الإعجاز، معترك الأقران

مقدمة:

تعددت وسائل خدمة القرآن العظيم وتنوعت، وما ذاك إلا لشدة اهتمام العلماء بكلام الله سبحانه وتعالى واحتفائهم به إذ هو المعجز بجودة نظمه والمهبر ببلاغة آيه وفصاحة لفظه، فذهبوا في استقصاء علومه كل مذهب، فصارت علومه على قسمين: علوم مقاصد وهي الغايات التي يدرس لأجلها كلام الله، فيُفهم عنه الأمر والنهي، وتدرک الحكمة من الخلق ووظيفة المخلوق في هذه الحياة الدنيا، وما أعده الله لعباده الطائعين في الدنيا والآخرة وما توعد به العاصين كذلك، وعلوم وسائل؛ وهي التي تكون بمثابة الآلة التي توصل إلى القسم الأول، ولا شك أن علوم الوسائل لها حكم المقاصد من حيث المكانة والشرف، وإنما شرفت علوم المقاصد لشرف المعلوم وهو كلام الله جل وعلا، لذلك فقد كانت خدمة القرآن الكريم من أجل المطالب، فصنفت علوم القرآن واستقصيت وجوه الإعجاز والبيان فنالت بذلك البلاغة القدح الأعلى والمقام الأسنى من الإعجاز القرآني.

ومن أجل بيان العلاقة الوطيدة بين علم البلاغة وعلوم القرآن وما لأحدهما من الأثر الحسن على الآخر وقع الاختيار على كتاب يعد من أهم ما صنفت في علوم القرآن وبيان إعجازه، وهو كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله، ولا يخفى ما للسيوطي من مصنفات قد فاق بها أقرانه في هذا الميدان، إلا أن فائدة هذا البحث هو تسليط الضوء على المباحث البلاغية ضمن علوم القرآن وما مدى إسهام البلاغة في بيان وجوه الإعجاز القرآني وإسهام الإعجاز في تطور الدرس البلاغي، وقد انتظم البحث في مقدمة وثلاثة مباحث: المبحث الأول وفيه نبذة عن نشأة البلاغة وتطورها، والمبحث الثاني وفيه عرض لحياة السيوطي وأهم مصنفاته في البلاغة وعلوم القرآن، والمبحث الثالث وخصص للمباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران" دراسة تطبيقية من خلال التعريف بالكتاب ومضمونه، والهدف منه ثم استخراج المباحث والمصطلحات البلاغية من وجوه

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معتزك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

الإعجاز القرآني والتي لها تعلق وصله مباشرة بالبلاغة، وفي الأخير ذُكر خاتمة احتوت على
أهم نتائج البحث.

المبحث الأول: نبذة عن نشأة البلاغة وتطورها.

لم يدم تربع القرشيين على عرش البلاغة والفصاحة طويلاً بعد نزول الوحي، فبعد
أن كانت تحتكم القبائل العربية إليهم في التدقيق اللغوي والذوق البياني ولّت وجهها شطر
هذا النبي الأمي وأرعت سمعها لما يتلوه من كلام عربي مبین، لا عهد لهم به ولا قوة لهم
بمعارضته، وبعد أن أعجزهم على أن يأتوا بسورة مثله ما كان منهم إلا التسليم والانقياد لما
احتواه هذا الكتاب من وجوه الإعجاز وصدق في الأقوال وعدل في الأحكام.

وقد شكل مبحث الإعجاز الشغل الشاغل لكثير من العلماء والنقاد، فظهرت
مؤلفات في البلاغة وتشاغل الناس بها على مختلف تخصصاتهم ومشاربهم، «وقد أثرت في
نشأة البلاغة وتطورها عوامل كثيرة منها: القرآن الكريم والمفسرون والأصوليون والرواة
واللغويون والنحاة والشعراء والكتاب والمعلمون والمتكلمون. وكان لكل من هذه العوامل تأثير
واضح لا سيما القرآن، والفلسفة وعلم الكلام... فقد كان من بين أعلام البلاغة: المفسرون
والكتاب والشعراء واللغويون والنحاة والمتكلمون، وكانت آثار ثقافة هؤلاء الرجال واضحة في
كتابتهم واتجاهاتهم البلاغية... ثم بدأت مسائل البلاغة تظهر لأول مرة في كتب النحو
وتفسير القرآن... وكان للكتب التي تبحث في إعجاز القرآن الكريم أثر كبير في نشأة البلاغة
وتطورها، لأن القرآن كان من أهم العوامل التي دفعت الناس إلى الكتابة في البلاغة.»¹

¹ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، ت محمد أبو الفضل براهيم، دار إحياء
الكتب العربية، مصر، ط1، 1387هـ، ج1، ص335

المبحث الثاني: حياة السيوطي ومؤلفاته في البلاغة وعلوم القرآن.

المطلب الأول: حياة السيوطي.

1- اسمه ونسبه وكنيته:

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى الأسيوطي¹، ولد بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة (849هـ) بالقاهرة، وكان يلقب بابن الكتب أيضاً، وكانه شيخه قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكنانى لما عرض عليه، وقال له: ما كنيته؟ فقال: لا كنية لي، فقال: أبو الفضل، وكتبه بخطه.²

2- نشأته وملامح من حياته:

نشأ السيوطي نشأة علمية، فأبوه كان من أهل العلم، وقد حفظ القرآن دون سن الثامنة³، وحفظ كثيراً من المتون دون سن البلوغ، ثم بدأ بطلب الفقه والتفسير وهو في سن الخامسة عشرة، ويقول عن نفسه: «وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين، وعقدت إمامة الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين، ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة»⁴.

¹ النور السافر في أخبار القرن العاشر، محي الدين عبد القادر العيدروس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405هـ، ص51

² حسن المحاضرة، ج1، 336.

³ نفسه، ص336.

⁴ نفسه، ص339.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب " معترك الأقران في إعجاز القرآن " للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

3- شيوخه:

كان للسيوطي رحمه الله مشايخ كثر في الرواية سماعا وإجازة، وقد أفرد لهم معجما
خاصا، وعددهم نحو مائة وخمسين، ولم يكثر من سماع الرواية على حد قوله لاشتغاله بما
هو أهم وهو قراءة الدراية.¹

4- وفاته:

توفي السيوطي رحمه الله سحر ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الأولى من سنة
إحدى عشر وتسعمائة في منزله بروضة المقياس بعد أن تمرّض سبعة أيام بورم شديد في
ذراعه الأيسر عن إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما، ودفن في حوش
قوصون خارج باب القرافة.²

5- مؤلفاته في البلاغة وعلوم القرآن:

اشتهر الإمام السيوطي بتفننه في العلوم، فقد ضرب بسهم في كل فن بين مقل
ومستكثر من التأليف فيه إلا أن تأليفه في البلاغة لم يكن بقدر تأليفه في باقي العلوم، لذلك
فإن من تناول السيوطي بالدراسة فقد تناوله: مفسرا، محدثا، نحويا، أديبا... وقليل ممن
تناوله بلاغيا³، وهذا راجع إلى قلة المصنفات البلاغية للسيوطي في مقابل مصنفاته في العلوم
الأخرى، فقد ذكر من عدّ له مصنفاته في البلاغة (9) مصنفات فقط من مجموع (1194)
مصنفا⁴، ولكن هذا لا يمنع في الحقيقة أن يكون بلاغيا لأمرين اثنين:

¹ ينظر، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري(1089هـ)، ت محمود الأرنؤوط، دار
ابن كثير، دمشق، ط1، 1406هـ، ج10، ص79، 78.

² ينظر، مؤلفات السيوطي في علم البلاغة، نجاح بنت أحمد الظهار، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة
واللغة العربية وآدابها، ج16، ع28، شوال 1424 هـ، ص871.

³ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (معلمة العلوم الإسلامية)، ص405 .

⁴ مؤلفات السيوطي في علم البلاغة، ص871.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

1/ العبرة ليست بكثرة المصنفات فهناك من ألف مصنفين فقط أو ثلاثة وهو معدود في البلاغيين، بل إن هناك من تعرض لها في مباحث فقط في كتبه كما فعل الجاحظ مثلا ولم يفرد لها مصنفا وهو من هو في البلاغة¹.

2/ الذين عدوا مؤلفات السيوطي في البلاغة إنما تحدثوا عن المؤلفات التي أفردت لهذا الفن وكانت عناوينها مطابقة له، أما الكتب التي ألفت في علوم أخرى واحتوت على مباحث بلاغية فلم يعدوها من كتب البلاغة كما هو الشأن بالنسبة لكتب الإعجاز القرآني فإن البلاغة قد أخذت حظها من الإعجاز كما سنذكر في الكتاب المدروس.

ومن الكتب التي ألفها السيوطي في علم البلاغة نذكر ما يلي²:

1. نكت على التلخيص سماه "الإفصاح".

2. شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان.

3. شرح أبيات "تلخيص المفتاح" ومختصره.

4. نكت على "حاشية المطول" للفنزي.

5. نظم البديع في مدح خير شفيع وشرحه،

6. اللطائف المصاغة في الفصاحة والبلاغة.

7. الجمع والتفريق في أنواع البديع.

8. جنى الجناس.

أما مصنفاه في علوم القرآن والإعجاز فهي كثيرة أيضا، منها المختصر والمطول، ونكتفي بذكر المشهور منها فقط وهي³:

1- التعبير في علم التفسير، وذكر فيه مائة واثنين نوعا من أنواع علوم القرآن.

¹ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (معلمة العلوم الإسلامية)، ص211.

² ينظر، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (معلمة العلوم الإسلامية)، ص113.

³ ينظر، بحوث بلاغية، أحمد مطلوب، بغداد، 1996، ص293، 294.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

2- الإتقان في علوم القرآن، وهو أشهرها على الإطلاق، وذكر فيه ثمانين نوعاً من أنواع
علوم القرآن.

3- النقاية وقد ألفه للمبتدئين لذلك اقتصر فيه على خمسة وخمسين نوعاً فقط من
علوم القرآن.

4- معتك الأقران في إعجاز القرآن، وسيأتي التعريف به.

5- مُفجّمات الأقران في مُهمّات القرآن، وخصّصه لإيضاح المهمّات في القرآن.

وتتمثل هذه الكتب منهجين مختلفين في دراسة البلاغة¹:

الأول: دراسة البلاغة في كتب علوم القرآن وإعجازه من غير تقسيمها إلى علومها
الثلاثة المعروفة، ويدخل ضمنها كتاب "معتك الأقران" موضوع البحث.

الثاني: دراسة البلاغة من خلال منهج السكاكي الذي أرساه الخطيب القزويني
(739هـ) بتلخيصه للقسم الثالث من "مفتاح العلوم" وبشرحه الذي سماه "الإيضاح"، وهو
منهج يقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع، ومثله منظومة عقود الجمان
وشرحها.

المبحث الثالث: المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران" دراسة تطبيقية.

1- التعريف بكتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن"

1.1- اسم الكتاب:

يتكون عنوان الكتاب من شقين أساسيين، صدره وهو "معتك الأقران" وبهذا اشتهر،
والعجز الذي هو "في إعجاز القرآن" وقد وقع الخلاف فيه عند من ترجم للسيوطي وذكره
ضمن مؤلفاته رحمه الله، فالمشهور عند من ذكر هذا المؤلف هو "معتك الأقران في مشترك
القرآن"²، وذلك لورود هذا العنوان صريحاً عند المؤلف في تعداده لكتبه التي ألفها ضمن

¹ ينظر، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، 1946 م، ج2،
ص1731.

² التحدث بنعمة الله، جلال الدين السيوطي، ص105، 111.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

كتابه "التحدث بنعمة الله"¹، وقد يكون هذا الاسم في المرحلة الأولى من تأليف الكتاب ثم أضاف إليه مباحث في الإعجاز كما أشار إلى ذلك صاحب رسالة (كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدين السيوطي منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز دراسة نقدية ومقارنة)²، ليعيد تسمية الكتاب بعد ذلك بـ "معترك الأقران في إعجاز القرآن" على أن يكون المشترك اللفظي الوارد في القرآن واحدا من وجوه الإعجاز القرآني وهو الوجه الخامس والثلاثون، وقد كان له النصيب الأوفر في الكتاب إذ أخذ أكثر من ثلثيه وهما الجزء الثاني والثالث، ومما يقوي هذه التسمية ورودها في المخطوطتين التين اعتمد عليهما محقق الكتاب علي محمد البجاوي حيث يقول: «سي هذا الكتاب في المخطوطتين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، وكذلك ورد اسمه في بعض الكتب التي ترجمت للسيوطي، وقد جاء في ص 170 من المخطوطة الثانية، إعجاز القرآن ومعترك الأقران، أما في الإتيان فقد أشار إلى هذا الكتاب وسماه، معترك الأقران في مشترك القرآن. وقد اعتمدنا الاسم الأول لوروده في المخطوطتين من غير اختلاف أو زيادة أو نقص»³.

وعلى هذا فقد وقع الاختيار على عنوان الكتاب كالتالي: "معترك الأقران في إعجاز القرآن".

أما بالنسبة لمعنى عنوان الكتاب، فالمعنى يتكون من شقين كذلك وهما:

1/ **معترك الأقران**: والمعترك هو مكان العراك أو المعركة، والأقران جمع قرن بفتح القاف وكسرهما، وهو المساوي لك في السن أو الشجاعة والقوة أو العلم⁴.

¹ كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدين السيوطي منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز دراسة نقدية ومقارنة (رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى)، محمد بن حسن بن عقيل موسى، 1996، ص 273، 277.

² معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ت علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط1، د، ت، ج1، ص ف.

³ ينظر، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ، ص 1223.

⁴ هكذا وردت وهو تصحيف، والصحيح ابن عسكر.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

ولا أظن أن السيوطي رحمه الله يريد وقوع معارك في هذا الكتاب إلا إذا كان يقصد بالمعتك ما ينقله من الأقوال المختلفة للعلماء وآرائهم في أوجه الإعجاز فكأن هذه الأقوال في ساحة معركة علمية بحيث يسعى كل قول منها لإظهار قوته على باقي الأقوال في بيان الوجه الإعجازي لمختلف الآيات الواردة في الكتاب، أو أن السيوطي رحمه الله بهذا العنوان "معتك الأقران" يدعو غيره ممن هم أقرانه في العلم والطلب إلى دخول هذا المعتك في الإعجاز القرآني لإثبات ما عندهم من العلم وهذا في ظني -والله أعلم- أراد به أن يثبت عكس ما شاع عنه من أنه مجرد جماع وحاطب ليل! فألف هذا الكتاب ليثبت أنه عالم متفنن ومحقق مدقق ويكون هذا الكتاب خير شاهد له على ذلك، ومثله ربما في فحوى العنوان كتاب "مُفحِّمَات الأقران في مَهِّمَات القرآن" وهو ضمن علوم القرآن أيضا، حيث يقول في مقدمته: «فإن من علوم القرآن التي يجب الاعتناء بها معرفة مهماته، وقد هتف ابن العساكر¹ بكتابه المسمى بـ (التكميل والإتمام)، وجمع القاضي بينهما القاضي بدر الدين ابن جماعة في كتاب سماه (التبيان في مهمات القرآن)، وهذا كتاب يفوق الكتب الثلاثة بما حوى من الفوائد والزوائد، وحسن الإيجاز، وعزو كل قول إلى من قاله، مخرجا من كتب الحديث والتفاسير المسندة»²، فكما يظهر هنا أن السيوطي يريد أن يثبت أن كتبه تتفوق على غيرها مما كُتِب في موضوعها، بل ويفهم غيره بقوة الفوائد وحسن التصنيف الذي هو معتك الأقران.

2/ إعجاز القرآن:

اختلفت أقوال العلماء في بيان وجه الإعجاز في القرآن الكريم وما هو المراد بإعجاز القرآن، إلا أن أبرز وجوه إعجازه والتي لا يمكن القدح فيها هو أسرار بلاغته، لذلك فهناك من اكتفى بهذا الوجه فقط كما ذكر صاحب الكليات أن: «إعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأى الصَّحِيح، لَا الإِخْتِبَار

¹ مفحّمات الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ت مصطفى ديب البغا، مؤسسة علوم القرآن، ط1، 1982، ص7.

² الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي، ت عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص149.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

عَن المَغِيْبَات، وَلاَ عَدَم التَّنَاقُضِ وَالِإِخْتِلَافِ، وَلاَ الأَسْلُوبِ الأَخَاصِ، وَلاَ صَرَفِ العُقُولِ عَن
المُعَارِضَةِ»¹، وَلاَ يَعْنِي هَذَا أَنَّ الإِعْجَازَ فِي البَلَاغَةِ وَحِدهَا بَلْ إِنَّه بَاقٍ عَلى عَمومِهِ فِي كَلِّ مَا
يَمكُن أَن يَكُون مَعجِزًا سِوَا عَرَفْنَا وَجِهَ الإِعْجَازِ فِيهِ أَمْ لاَ، وَعَلى هَذَا فإِعْجَازِ القُرْآنِ يَكُونُ
بِمَعْنَى إِعْجَازِهِ حَلَقَ اللهُ عَن الإِتْيَانِ بِمَا تَحَدَاهُم بِهِ.²

3- هَدَفُ الكِتَابِ وَقِيمَتُهُ العِلْمِيَّة:

هَدَفُ الكِتَابِ يَظْهَرُ مِنْ عَنوانِهِ « فَقد جَمع فِيهِ السِيوطِي آراءً وَأقوالاً مَسْتفِيضَةً
حَولَ إِعْجَازِ القُرْآنِ وَعِلومِهِ المِخْتَلِفَةِ، وَالكِتَابِ مِليءٍ بِالمَعَارِفِ وَالتَّوجِهاَتِ العِلْمِيَّةِ، فَهوَ
بِحَقِّ سَفَرٍ مِنْ أَسْفَارِ الدِّرَاسَاتِ القُرْآنِيَّةِ الجَادَةِ»³ وَيَذْكَرُ السِيوطِي سَبباً آخَرَ فِي تَأْلِيفِ
الكِتَابِ وَهُوَ بَيانُ الأَلْفَازِ المُشْتَرَكَةِ حَيْثُ يَقُولُ: « وَقَد مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا فِي جُلْبِ بَعْضِ الأَلْفَازِ فِي
هَذَا المَعْنَى، وَكانَ هُوَ السَّبَبُ فِي هَذَا المَبْنَى، فَاشْهَدْ بِكَلَّتَا يَدَيْكَ عَلى هَذَا الكِتَابِ المُسَمَّى
بِإِعْجَازِ القُرْآنِ وَمَعْتَرِكِ الأَقْرانِ»⁴ وَلَعَلَّ هَذَا السَّبَبُ كانَ فِي بَدَايَةِ تَأْلِيفِ الكِتَابِ ثَمَّ ظَهَرَ لَهُ
أَن يَجْمَعُ لَهُ بَاقِي وَجوهِ الإِعْجَازِ كَمَا بَيَّنَّاهُ سَابِقاً.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلقِيمَةِ العِلْمِيَّةِ لَلكِتابِ فَإِنَّ السِيوطِي بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ صَنَفِ فِي حُرُوفِ
المَعانِي أَبانَ عَن قِيمَةِ كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: « وَأَنْفَعُها هَذَا الكِتَابُ البَدِيعُ المِثَالُ، المَنْعِيقُ المِقْالُ، بَنِيَتُ
لَكَ مِصاعِدُ تَرْتِقي عَلِمِها إِلى مِقاوِدِ، وَتَطَّلَعُ فِيهِ عَلى فَهْمِ الكِتَابِ المَنْزَلِ، وَفَتَحْتَ لَكَ مِنْ كَنْوَزِهِ
كُلِّ بابٍ مَقْفَلٌ»⁵

¹ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، ج2، ص331.

² خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1413هـ، ج1، ص152.

³ معترك الأقران، ج1، ص388.

⁴ نفسه، ص390.

⁵ ينظر، نفسه، ج1، ص3.

4- مضمون كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن".

يعد كتاب "معترك الأقران" من الأسفار الجامعة، فقد رام فيه صاحبه الإحاطة بجميع وجوه الإعجاز التي ذكرت قبله بالإضافة إلى ما زاده من الوجوه، فجاء كتابا حافلا لا يدانيه كتاب من حيث الجمع والنقد والترتيب، فقد حوى شيئا كثيرا من علوم القرآن وما يتصل بها من علوم كالفقه والتفسير والبلاغة وغيرها.

وقد استهله السيوطي رحمه الله بمقدمة أبان فيها عن فضل هذه الأمة المحمدية والتي جُعِلت معجزتها عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم وفضلهم على من تقدمهم، بخلاف الأمم السابقة التي بعث فيها أنبياءها بالمعجزات الحسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم.¹

وبعد أن حمد الله على نعمة بعثة الرسول المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه وأنه هو المُبَيَّن عن الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: 44)، فأعانه الله على هذا البيان والتبليغ فلم يقدر أحد منهم على معارضته أو الإتيان بسورة مثله مع أنهم أهل الفصاحة والبلاغة، فعلم أن هذا الكتاب معجزة خالدة لا تفتى بفسادها من أُرْسِل بها، وهذا فارق ما بينه وبين الأنبياء من قبله فإن معجزاتهم انتهت بانتهاء حياتهم.

ثم إن السيوطي ذكر من ألف قبله من العلماء في الإعجاز القرآني كالرمانى والخطابى والرَّمْلُكَّانِي وغيرهم وعددوا وجوها كثيرة للإعجاز أنها بعضهم إلى الثمانين، إلا أنه رجح أن وجوه الإعجاز لا حصر لها مستدلا بقول السكاكي في المفتاح: «اعلم أن إعجاز القرآن يُدْرِك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها كالملاحة».²

ثم يشير السيوطي رحمه الله إلى مسألة مهمة جدا وهي العلاقة بين علوم القرآن وعلوم البلاغة، وأن سبيل إماطة اللثام حتى ينكشف شيء من الإعجاز هو علم البلاغة بشقيه النظري والتطبيقي، فيقول مواصلا الحديث عن مُدْرِك الإعجاز: «وكما يُدْرِك طيب

¹ مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، ت نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1407هـ،

ج1، ص416.

² معترك الأقران، ج1، ص5.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

النغم العارض لهذا الصوت؛ ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان علي المعاني والبيان والتمرين فهما¹، ولعل هذا الذي ذكره هو الذي يحدو بنا إلى الكشف عن وجوه الإعجاز البلاغية في القرآن التي ذكرت في كتاب "معتك الأقران" ومدى تعلق علم البلاغة بهذا العلم الشريف الذي اقترن اسمه باسم كلام الله سبحانه وتعالى.

5- المباحث البلاغية في الكتاب وذكر أهم مصادره:

ذكر السيوطي في كتاب "معتك الأقران" خمسة وثلاثين وجها من وجوه الإعجاز، إلا أن الوجوه التي لها صلة مباشرة بالبلاغة والتي احتوت تقعيديا للدرس البلاغي مع ضرب الأمثلة التطبيقية في الكتاب ثمانية أوجه، ولو تتبعنا باقي الوجوه باعتبار ما ذكر فيها من نكات ولطائف بلاغية لم يخرج الكتاب بأكمله عن البلاغة، وهذا يفيد فائدة وهي تأثر علوم القرآن بالبلاغة لدرجة أنه لم يخدمها من العلوم مثلما خدمتها البلاغة فأنت لا تكاد تجد كتابا من علوم القرآن يخلو من المباحث البلاغية.

ويجدر التنبيه هنا قبل ذكر المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران" على أن السيوطي رحمه الله سار على وفق المدرسة الأدبية في ذكر هذه المباحث معتمدا على الشواهد القرآنية وبعيدا عن التقسيمات والألغاز الفلسفية والكلامية، وهي التي يسميها طريقة العرب والبلغاء خصوصا وأن الكتاب في إعجاز القرآن وليس في البلاغة، خلافا للمدرسة الكلامية والتي يسميها طريقة العجم وأهل الفلسفة²، ويظهر هذا أيضا من نقولاته الكثيرة عن علمين من أعلام هذه المدرسة وهما: ابن المعتز (296هـ) من خلال كتابه "البديع" وكذلك ابن أبي الإصبع (654هـ) من خلال كتابيه "بديع القرآن" و"تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن"، ومع ذلك فإن السيوطي لم يسلم من آراء وتقسيمات المدرسة الكلامية خصوصا لكثرة نقله عن السبكي من خلال كتابه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح"³، وتعد هذه الكتب الثلاثة من أهم مصادر "معتك الأقران" للسيوطي.

¹ ينظر، حسن المحاضرة، ج1، ص338.

² ينظر، البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، 1964، ص106، 110.

³ معتك الأقران، ج1، ص23.

والمباحث البلاغية المذكورة في وجوه الإعجاز القرآني من خلال كتاب "معتك

الأقران" هي:

1- النظم وانتلاف الفواصل: ويظهر في «حُسْن تَأْلِيْفِهِ، وَالتَّنَام كَلِمِهِ وَفَصَاحَتِهَا، وَوَجْوه إِيْجَازِهِ وَبِلَاغَتِهِ الْخَارِقَةِ عَادَةً الْعَرَبِ الَّذِيْنَ هُمْ فَرَسَانُ الْكَلَامِ وَأَرْبَابُ هَذَا الشَّأْنِ. فَجَاءَ نَطْقُهُ الْعَجِيْبُ، وَأَسْلُوبُهُ الْغَرِيْبُ مَخَالِفًا لِأَسَالِيْبِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَمَنْهَاجِ نَظْمِهَا وَنَثْرِهَا الَّذِي جَاءَتْ عَلَيْهِ، وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ مَقَاطِعُ آيَاتِهِ، وَانْتَهَتْ إِلَيْهِ فَوَاصِلُ كَلِمَاتِهِ، وَلَمْ يَوْجَدْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ نَظِيْرٌ لَهُ.»¹، ويراد بفواصل الآيات أن الكلام ينفصل عندها، فينفصل ما بينها وبين ما بعدها أخذاً من قوله تعالى: ﴿كُتِبَ فَصِّلْتُ آيَاتِهِ﴾ (فصلت: 3)، وهل تسمى سجعا أم لا؟ خلاف بين العلماء، وترك هذه التسمية أولى لما فيها من تشبيه كلام الله بما كان يعرف بسجع الكهان، والمقصود أنه إذا كانت الفواصل أو السجع غير مقصود لذاته وإنما هو تبع للمعنى صحَّ بخلاف ما إذا كان مقصوداً لذاته والمعنى تبع له كما هو في كلام غالب البشر فإنه لا يصح، ثم نقل أنواع الفواصل عن ابن أبي الإصبع بقوله: لا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء²:

1.1- التمكين: ويسمى انتلاف القافية، بأن يمهد النائر للقريئة أو الشاعر للقافية تمهيداً تأتي به القافية أو القريئة متمكنة في أماكنها مستقرة في قرارها...ومتعلقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً، بحيث لو طُرِحَتْ لاختل المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سكت عنها كمله السامع بطبعه، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، لمَّا تقدم في الآية ذكر العبادة وتلاه ذكر التصرف في الأموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ لأن الحلم يناسب العبادات، والرشد يناسب الأموال.

¹ ينظر، معتك الأقران، ص32، 31.

² ينظر، البديع في البديع، عبد الله بن محمد المعتز بالله، دار الجيل، ط1، 1410هـ، ص140.

2.1- التصدير: وهو أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية، ويسمى أيضاً رد العجز

على الصدر، وقال ابن المعتز هو ثلاثة أقسام¹:

الأول: أن يوافق آخرُ الفاصلة آخر كلمة في الصدر، نحو قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. (النساء: 66).

والثاني: أن يوافق أول كلمة منه، نحو: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾
(آل عمران: 8).

الثالث: أن يوافق بعض كلماته، نحو: ﴿وَلَقَدْ اسْتَمْتَرْنَا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ
سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 10).

3.1- التوشيح: وهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية، والفرق بينه وبين التصدير

أن هذا دلالاته معنوية وذلك لفظية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ...﴾ (آل
عمران: 33) الآية، فإن اصطفي يدلُّ على أن الفاصلة "العالمين" لا باللفظ، لأن
"العالمين" غير لفظ "اصطفى"، ولكن بالمعنى لأنه يعلم أن من لوازم اصطفاء شيء أن
يكون مختاراً على جنسه، وجنس هؤلاء المصطفين "العالمين".

4.1- المتماثل: أن يتساويا في الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية

نحو: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)﴾.
فالكتاب والصراط متوازنان، وكذا المستبين والمستقيم، واختلفا في الحرف الأخير.

2- التقديم والتأخير: بمعنى «تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع إما لكون السياق في

كل موضع يقتضي ما وقع، كما تقدمت الإشارة إليه، وإما لقصد البدأة والختم به
للاعتناء بشأنه كما في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾. وإما لقصد التفتن في الفصاحة
وإخراج الكلام على عدة أساليب كما في قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾

(البقرة: 58). وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ (الأعراف: 161)²

¹ معترك الأقران، ص 128.

² نفسه، ص 131.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة السيوطي (ت911هـ)

والحكمة العامة في التقديم والتأخير هي الاهتمام والعناية باللفظ المقدم، فقد يراد به الاختصاص أو القصر والحصر أو التشويق للمتأخر وكل هذه المعاني داخلة في الاهتمام، أما عن أسباب التقديم والتأخير في القرآن فقد عدها السيوطي عشرة أسباب وهي على سبيل الاختصار¹:

الأول: التبرك، كتقديم اسم الله في الأمور ذوات الشأن ومنه قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾.

الثاني: التعظيم، كقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

الثالث: التشريف، كتقديم الذكر على الأنثى في نحو: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾، والحي في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

الرابع: المناسبة، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ قدّم نفي السرف، لأن السرف في الإنفاق.

الخامس: الحث عليه والحض على القيام به حذراً من التهاون به، كتقديم الوصية على الدين في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾، مع أن الدين مقدم عليها شرعاً.

السادس: السبق، وهو إما في الزمان باعتبار الإيجاد، كتقديم الليل على النهار، والظلمات على النور، وآدم على نوح... أو باعتبار الإنزال، كقوله: ﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، أو باعتبار الوجوب والتكليف، نحو: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أو بالذات، نحو: ﴿مَثَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ﴾.

السابع: السببية، كتقديم العزيز على الحكيم، لأنه عزّ فحكم، والعليم عليه، لأن الإحكام والإتقان ناشئ عن العلم.

الثامن: الكثرة، كقوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، لأن الكفار أكثر وقوله: ﴿فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ قدّم الظالم لكثيرته ثم المقتصد ثم السابق.

¹ الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، ت محمد أبو الفضل براهيم، دار الفكر العربي القاهرة، 3، ج3، 1417، ص70.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معتك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

التاسع: الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، كقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ﴾. بدأ بالأدنى لغرض الترقّي، لأن اليد أشرف من الرجل، والعين أشرف من اليد،
والسمع أشرف من البصر.

العاشر: التدلّي من الأعلى إلى الأدنى. وخرّج عليه قوله: ﴿لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾.
(الكهف: 49). وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

3- التشبيه والاستعارة: وقد ذكرهما السيوطي في الوجه الرابع والعشرين من وجوه
الإعجاز، وذكر أنهما من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها، بل ذكر أن التشبيه أكثر كلام
العرب كما قال المبرد في الكامل: «لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد»¹.

1.3- التشبيه: وفي تعريفه والغرض منه قال السيوطي: «وهو أن تثبت للمشبّه حكما من
أحكام المشبّه به، والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جليّ، وإدناؤه
البعيد من القريب ليفيد بيانا»².

وأدواته حروف وأسماء وأفعال:

فالحروف: الكاف نحو ﴿كَرَمَادٍ﴾، وكانّ نحو: ﴿كَانَتْ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

والأسماء: مثل، وشبه، ونحوهما مما يشتق من المماثلة والمشابهة.

قال الطيبي: ولا تستعمل مثل إلا في حال أو صفة لها شأن وفيها غرابة، نحو: ﴿مَثَلُ
مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾.

والأفعال: نحو: ﴿يَخْسَبُهُ الظَّلْمَانُ مَاءً﴾ وقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.

¹ معتك الأقران، ص203.

² نفسه، ج1، ص204.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

ثم ذكر أقسام التشبيه بعدة اعتبارات، نختار منها الاعتبار الأول وهو انقسامه
باعتبار طرفيه إلى أربعة أقسام¹، لأنهما إما حسيّان، أو عقليّان، أو المشبه به حسي والمشبه
عقلي، أو عكسه.

مثال الأول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

ومثال الثاني: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

ومثال الثالث: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍ﴾.

ومثال الرابع لم يقع في القرآن، بل منعه الإمام أصلاً، لأن العقل مستفاد من الحس،
فالمحسوس أصل للمعقول، وتشبيهه به يستلزم جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً، وهو غير
جائز.

2.3- الاستعارة: ذكر السيوطي مبدأ الاستعارة وعلاقتها بالتشبيه وأنها تولدت من تزويج
المجاز بالتشبيه، فهي مجاز علاقته المشابهة، أما في تعريفها فيقول: «اللفظ المستعمل
فيما شبه بمعناه الأصلي»².

والغرض منها:

1/ إظهار الخفي: مثاله قوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ) فإن حقيقته وإنه في أصل

الكتاب، فاستعير لفظ الأم للأصل، لأن الأولاد تنشأ من الأم كما تنشأ الفروع من الأصول.

والغرض من ذلك تمثيل ما ليس بمرئي حتى يصير مرئياً، فينتقل السامع من حد

السمع إلى حد العيان، وذلك أبلغ في البيان.

¹ ينظر، معترك الأقران، ج 1، ص 208.

² نفسه، ص 209.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

2/ إيضاح ما ليس بجلي ليصير جلياً؛ ومثاله قوله تعالى: (واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ)، فإن المراد أمر الولد بالذل لوالديه رحمة، فاستعير للذل أولاً جانب ثم للجانب
جناحاً، وتقدير الاستعارة القريبة: واخفض لها جناح الذل، أي اخفض جانبك ذلاً.
والغرض منها في هذا جعل ما ليس بمرئي مرئياً لأجل حسن البيان.

3/ المبالغة: ومثاله قوله تعالى: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) . وحقيقته: وفجرنا عيون
الأرض، ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما في الأول المشعر بأن الأرض كلها صارت
عيوناً.

1.2.3- أركان الاستعارة وأقسامها:

وتنقسم إلى ثلاثة أركان:

1. مستعار: وهو اللفظ المشبه به.
2. مستعار منه: وهو اللفظ المشبه.
3. مستعار له: وهو المعنى الجامع.

وأقسامها كثيرة باعتبارات، فتنقسم باعتبار الأركان الثلاثة إلى خمسة أقسام:

أحدها: استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس، نحو: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ
شَيْبًا﴾، فالمستعار منه هو النار، والمستعار له الشيب، والوجه هو الانبساط ومشابهة ضوء
النار لبياض الشيب، وكل ذلك محسوس، وهو أبلغ مما لو قيل: اشتعل شيب الرأس،
لإفادته عموم الشيب لجميع الرأس.

الثاني: استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي، قال ابن أبي الإصبع: وهي أطف
من الأولى، نحو: ﴿وَأَيُّ لَهْمٍ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾. فالمستعار منه السلخ الذي هو كشط
الجلد عن الشاة، والمستعار له كشف الضوء عن مكان الليل، وهما حسيان، والجامع ما

¹ ينظر، معترك الأقران، ج1، ص216.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب " معترك الأقران في إعجاز القرآن " للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

يعقل من ترتب أمر على آخر وحصوله عقب حصوله، كترتب ظهور اللحم على الكشط،
وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل، والترتب أمر عقلي.

الثالث: استعارة معقول لمعقول بوجه عقلي.

قال ابن أبي الإصبع: وهي أطف الاستعارات، نحو: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقِدِنَا﴾.

المستعار منه الرقاد، أي النوم، والمستعار له الموت، والجامع عدم ظهور الفعل،
والكل عقلي.

الرابع: استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي أيضاً، نحو: ﴿مَسَّهْمُ الْبِأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ﴾.

استعير المس، وهو حقيقة في الأجسام، وهو محسوس، لمقاساة الشدة، والجامع
للحوق، وهما عقليان.

الخامس: استعارة معقول لمحسوس، والجامع عقلي أيضاً، نحو: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ
حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾، المستعار منه التكبر وهو عقلي، والمستعار له كثرة الماء وهو حسي،
والجامع الاستعلاء وهو عقلي أيضاً.

وتنقسم باعتبار اللفظ إلى: أصلية، وهي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس كآبة:
﴿بحبل الله﴾. ﴿من الظلمات إلى النور﴾. ﴿في كل وادٍ﴾. وتبعية، وهي ما كان اللفظ فيها غير
اسم جنس، كالفعل والمشتقات.

وتنقسم باعتبار آخر إلى مرشحة، ومجرّدة، ومطلّقة.

وتنقسم باعتبار آخر إلى: تحقيقية، وتخيلية، ومكنية، وتصريحية.

وهكذا نجد السيوطي يذكر التقسيمات مع الأمثلة والشرح والتوضيح، والكتاب في
علوم القرآن وليس في البلاغة وكأنه يريد أن يقول: إن كُلاً من العُلَمين خادم للأخر لا يستغني
عنه بل لو قلنا إن البلاغة داخله في كل وجه من وجوه الإعجاز لما كان ذلك بعيداً عن
الصواب، فإن الإعجاز القرآني هو المحرك الأساسي للدرس البلاغي.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

4- الكناية والتعريض: والكناية أبلغ من التصريح، وهي من أنواع البلاغة وأساليب
الفصاحة، وعرفها أهل البيان بأنها لفظ أريد به لازم معناه، وللكناية أسباب أوصلها
السيوطي إلى ستة نذكر منها:

أحدها: التنبيه على عظم القدرة، نحو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾،
كناية عن آدم.

وثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجل، نحو: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي
نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، فكنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك، لأن ترك التصريح بذكر المرأة
أجل منه.

ثالثها: أن يكون الصريح مما يستقبح ذكره، ككناية الله عن الجماع بالملامسة
والمباشرة، والإفشاء والرفث، والدخول والسر في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُمْ سِرًّا﴾
والغشيان في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: المباشرة الجماع، ولكن الله يكي.
وأخرج عنه، قال: إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يَكْنِي مَا شَاءَ، وَإِنَّ الرَّفْثَ هُوَ الْجَمَاعُ.

من أنواع البديع التي تشبه الكناية الإرداف، وهو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه
بلفظه الموضوع له، ولا بدلالة الإشارة، بل بلفظ يرادفه، كقوله: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾،
أي عفيفات، وعدل عنه للدلالة على أنهن مع العفة لا تطمح أعينهن إلى غير أزواجهن، ولا
يشتهين غيرهم، ولا يؤخذ ذلك من لفظ العفة.

ومن أمثله أيضاً: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى (31)﴾.

عدل في الجملة الأولى عن قوله "بالسوءى" مع أن فيه مطابقة كالجملة الثانية إلى
"بما عملوا" تأدباً أن يُضَافَ السوء إلى الله تعالى.

¹ المهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث، ج2، ص133.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

5- الإيجاز والإطناب: وهما من أعظم أنواع البلاغة، والإيجاز قسمان: إيجاز قصر، وإيجاز
حذف.

أ- إيجاز القصر: وهو أن يُقصر اللفظ على معناه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ
وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ (31)﴾ (النمل).

جمع في أحرف: العنوان والكتاب والحاجة.

ب- إيجاز الحذف: وهو «ما قصد فيه إلى إكثار المعنى، مع حذف شيء من التركيب،
ودلالة القرينة عليه»¹، وله عدة أسباب منها²:

- مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره.
- التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يُفضي إلى
تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء، وقد اجتمعا في قوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقْيَاهَا﴾، فناقة الله تحذير بتقدير ذُرُوا، وسقياها إغراء بتقدير الزموا.
- وقد راح السيوطي يتتبع أسباب الحذف وأنواعه إلى أن أوصلها إلى واحد وعشرين
نوعاً، وقد أطل في هذا النوع النفس كأنك تقرأ كتاباً من كتب البلاغة التطبيقية.

6- أنواع البديع: وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح
الدلالة³، وقد عد منه السيوطي الفواصل والمناسبات وفواتح السور وخواتمها، وذكر أن
بعضهم قد أوصلها إلى مائتي نوع، وقد ذكر منها أنواعاً أوصلها إلى أربعين نوعاً، ذكر منها⁴:
الإيهام (التورية)، الالتفات، الاطراد، الانسجام، الافتتان،... الخ.

7- الخبر والإنشاء: وهو مبحث يخص علم المعاني، والكلام العربي لا يخرج عن هذين
القسمين لأن الكلام إما أن يحتمل التصديق والتكذيب لذاته فهو الخبر أو لا يحتملها

¹ ينظر، معترك الأقران، ج 1، ص 231.

² نفسه، ص 283.

³ ينظر، نفسه، ص 283 وما بعدها.

⁴ ينظر، نفسه، ص 320.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

وهو الإنشاء، ثم الإنشاء ينقسم إلى طلبي إذا أريد به إيقاع حدث بعد الكلام أو غير طلبي
إذا لم يرد ذلك.

وقد يرد الخبر بمعنى الأمر، نحو: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وبمعنى النهي نحو:
﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وبمعنى الدعاء نحو: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾¹.

ورجح السيوطي أن التعجب من أقسام الخبر وذكر له عدة تعريفات منها: أنه خروج
الشيء عن نظائره وأن يكون سببه خفياً²، وله صيغتان قياسيتان من لفظه وهما: ما أفعل
وأفعل به كقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، وقد يأتي من
غير لفظه نحو قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾.
ثم ذكر أقسام الخبر ومنها: الوعد والوعيد، والنفي وهو شطر الكلام كله.

وأقسام الإنشاء ومنها: الاستفهام، وهو طلب الفهم، وأدواته: الهمزة، وهل، وما، ومَنْ،
وأي، وكم، وكيف، وأين، وأتى، ومتى، وأيان، ثم ذكر أن الاستفهام يخرج إلى معان أخرى
أوصلها إلى اثنين وثلاثين نوعاً، نذكر منها³:

الأول: الإنكار، والمعنى فيه على النفي، وما بعده منفي، ولذلك تصحبه "إلا"، كقوله:
﴿فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾.

الثاني: التوبيخ، وجعله بعضهم من قبيل الإنكار، إلا أن الأول إنكار إبطال، وهذا
الإنكار توبيخ.

والمعنى أن ما بعده واقع جدير بأن يُنفي، فالنفي هنا قصدي، والإثبات قصدي،
عكس ما تقدم، ويعبر عن ذلك بالتقريع أيضاً، نحو: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ
مَا تَنْجُتُونَ﴾.

¹ معترك الأقران، ص 321.

² ينظر، نفسه، ص 328، 329، 330.

³ نفسه، ص 335، 336.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

الثالث: التقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده،
وأداته الهمزة كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وقد يكون بـ"هل" على خلاف بين
العلماء نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.
الرابع: التعجب أو التعجيب، نحو: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا لِي لَا أَرَى
الْهُدَى﴾.

وقد اجتمع هذا القسم وسابقاه في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.
قال الزمخشري: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم.
ومن أقسام الإنشاء الأمر: وهو طلب فعل غير كف، وصيغته افعلْ وليفعل، وهي
حقيقة في الإيجاب، نحو قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقوله: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾.
وترد مجازاً لمعان آخر، أوصلها إلى عشرين نوعاً نذكر منها¹:

الندب: نحو: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾، والإباحة، نحو:
﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، نصّ الشافعي على أن الأمر فيه للإباحة، والدعاء من السافل للعالي، نحو:
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾، والتهديد، نحو: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إذ ليس المراد الأمر بكل عمل شاءوا،
والإهانة، نحو: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

ومن أقسامه النهي: وهو طلب الكف عن فعل، وصيغته "لا تفعل"، وهي حقيقة في
التحريم، وترد مجازاً لمعان تسعة منها²:

الكرهية: نحو: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾، والدعاء نحو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، والإرشاد نحو: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾.

¹ معترك الأقران، 336، 337.

² جنى الجناس، جلال الدين السيوطي، ت محمد علي رزق الخفاجي، دار الفنية للطباعة والنشر، ص 11.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

ومن أقسامه: النداء: وهو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرفٍ نائبٍ منابٍ أدعو،
ويصحب في الأكثر الأمر والنهي، والغالب تقدمه نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، وقد
يتأخر نحو: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومن أقسامه: القسم، وذكر السيوطي أن القرآني قد نقل الإجماع على أنه إنشاء،
وفائدته تأكيد الجملة الخبرية وتحقيقها عند السامع، وقد جعله السيوطي الوجه الثامن
والعشرين من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو (إقسامه تعالى في مواضع لإقامة الحجة
وتأكيدها)، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع منها: قوله: ﴿قُلْ إِي
رَبِّي﴾. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيَاطِينَ﴾، والباقي كله قَسَمَ بمخلوقاته، كقوله:
﴿وَالْتِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾، ﴿وَاللَّيْلُ﴾، ﴿وَالصَّافَّاتُ﴾.

وأخر أقسام الإنشاء وهو الشرط ولم يمثل له، وهو كثير في القرآن.

8- الألفاظ المشتركة: «وهذا الوجه داخل في صميم البلاغة، لأنَّ الألفاظ المشتركة تدخل
عند الاستعمال في فن الجنس، فكثير من المشترك أمثلة في (الجناس التام المفرد)، وهو
نوع مفضل عند كثير من البلاغيين على غيره من الأنواع»¹، وقد عدّه السيوطي رحمه الله
من أعظم أوجه إعجاز القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً،
وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر²، أمّا عن ترتيب الكلمات المشتركة فإنَّ
السيوطي لم يرتبه ترتيباً هجائياً أو أبجدياً، أو بحسب المخارج كما صنع الخليل بن أحمد
الفراهيدي في كتابه العين³، ولم يرتبه كذلك على النظام المشرقي أو المغربي⁴.

¹ معترك الأقران، ج 1، ص 387.

² مؤلفات السيوطي في البلاغة، ص 33.

³ رسالة دكتوراه، ص 411.

⁴ معترك الأقران، ص 303.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

ثم إن السيوطي قد أورد كثيرا من الكلمات التي لا تمت للمشترك اللفظي بصلة، منها
ذكر الحروف ومعانيها، وذكر أسماء الأنبياء الأعجمية، وكثير من الألفاظ التي شرحها بمعنى
واحد فقط مثل: (أقل) غاب، (أكابر) عظماء، (بَعْلًا): ربًّا، بلغة اليمن.

كما أنه لم يراع أصول الكلمات أيضا في الترتيب وإنما كان يأتي بالكلمة بحسب نطقها
في المصحف، وهذا -والله أعلم- أيسر على عامة الناس في البحث عنها ضمن هذا المعجم،
ومثال ذلك: (تَلَقَّى آدَمُ)، أي أخذ وقيل، (تَهَوَّى أَنْفُسَكُمْ) أي تميل، (الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ): بَيَاض
النهار.

وما يهمننا هنا هو ذكر الجناس والذي هو تَشَابُه اللفظين في اللفظ، ووروده في باب
المشترك، فإن السيوطي قد أوضح فائدته كما نقل عن صاحب كنز البراعة قوله: «وفائدته
الميل إلى الإصغاء إليه، فإن مناسبة الألفاظ تُجَدِّدُ مِيلًا وإِصْغَاءً إليها، ولأن اللفظ المشترك
إذا حُمِلَ على معنى، ثم جاء والمراد به آخر، كان للنفس تشوق إليه»¹. وحمل المشترك على
معنى ثم مجيئه بمعنى آخر هو الجناس التام حيث تتوافق اللفظتان في عدد الحروف
 وأنواعها وهيئتها ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ
سَاعَةٍ﴾، فالمراد بالساعة الأولى يوم القيامة، وبالساعة الثانية المدة من الزمان، وكقوله
أيضا: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ(43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي
الْأَبْصَارِ(44)﴾، ف"الأبصار" الأولى بمعنى البصر، والثانية بمعنى العقول.

خاتمة:

من خلال ما تم إيرادها في هذا البحث، وبالرجوع إلى أهم ما جاء في طياته يمكننا أن
نخلص إلى ما يلي:

¹ ابن الانباري، الزاهر في معاني كلام الناس، تج: عبد السلام هارون، المؤسسة الرسالة، ط1، ج2، 1412هـ،
ص151.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب " معترك الأقران في إعجاز القرآن " للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

- كتاب " معترك الأقران في إعجاز القرآن " للسيوطي هو كتاب في علوم القرآن، وقد ضمنه صاحبه مباحث بلاغية كثيرة تدخل كلها في الإعجاز القرآني.
- تُعدُّ قضية الإعجاز القرآني أهمَّ باعثٍ للتأليف في كتب البلاغة وعلوم القرآن.
- يمثل الإعجاز البلاغي أهمَّ وجوه الإعجاز في القرآن.
- يعتبر كتاب " معترك الأقران " مرجعا مهما في البلاغة التطبيقية، وذلك لكثرة الشواهد والأمثلة القرآنية فيه.
- علوم القرآن هي من أهم العلوم التي احتضنت البلاغة وساعدت في نشأتها وتطويرها.
- يمتاز الكتاب بكثرة النقول عن العلماء مع النقد والتوجيه والتصويب.
- كتاب معترك الأقران يعد معجما حقيقيا للمشترك اللفظي الوارد في القرآن وقد أخذ أكثر من ثلثي الكتاب، غير أن صاحبه لم يتبع فيه طريقة معينة في ترتيب الألفاظ المشتركة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- البديع في البديع، عبد الله بن محمد المعتز بالله، دار الجيل، ط1، 1410هـ.
- 2- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، 1964..
- 3- البلاغة عند السكاكي، أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1964.
- 4- التحدث بنعمة الله، جلال الدين السيوطي.
- 5- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، ت محمد أبو الفضل براهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1387هـ.
- 6- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1426هـ.
- 7- الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، ت محمد أبو الفضل براهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ط3.
- 8- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي، ت عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ط د جمال بوراس ————— المباحث البلاغية في كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة
السيوطي (ت911هـ)

- 9- المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.
- 10- النور السافر في أخبار القرن العاشر، محي الدين عبد القادر العيدروس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ
- 11- بحوث بلاغية، أحمد مطلوب، بغداد، 1996،
- 12- جنى الجناس، جلال الدين السيوطي، ت محمد علي رزق الخفاجي، الدار الفنية للطباعة والنشر.
- 13- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1413هـ
- 14- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري (1089هـ)، ت محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1406هـ
- 15- كتاب "معترك الأقران في إعجاز القرآن" للإمام جلال الدين السيوطي منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز دراسة نقدية ومقارنة (رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى)، محمد بن حسن بن عقيل موسى، 1996،
- 16- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، 1946م.
- 17- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ت علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، ط1، د.ت.
- 18- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر السكاكي، ت نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
- 19- مفحمت الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ت مصطفى ديب البغا، مؤسسة علوم القرآن، ط1.
- 20- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3.
- 21- مؤلفات السيوطي في علم البلاغة، نجاح بنت أحمد الظهار، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية.

مَلامح نظريّة السِّيَاقِ في الفكر البلاغي العربي القديم

وتطبيقاتها العمليّة عند المفسرين

حبيبة زغلامي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان - الجزائر

البريد الإلكتروني: Zogbiba@gmail.com

الملخص:

يعدُّ السِّيَاق فكرة قديمة الأصول في علوم العربيّة حديثة الظهور في علم اللُّغة، عبّر عنها القدماء بطرق مُختلفة وصارت في العصر الحديث نظريّةً ومنهجًا في التَّحليل اللُّغوي والدَّلالي منه على وجه الخصوص. فالنَّاطُرُ بعين البصيرة في الدَّرس اللُّغوي والبلاغي العربي القديم يتحسَّس سبقه لمسألة السِّيَاق وتوظيفه له بمسميات مختلفة ومصطلحات أخرى للدَّلالة عليه مثل: الحال، المقام، مقتضى الحال، الحال المشاهدة، القرينة، المساق... الخ، كما أَعتمد بشكل جليّ في مؤلِّفات كل من المفسِّرين والأصوليّين وغيرهما.

ولقد اهتمَّ البلاغيون بالسِّيَاق اهتماما كبيرا إلى درجة أنَّهم جعلوا السِّيَاق هو البلاغة ذاتها حين عرَّفوا البلاغة بأنَّها (مُطابقة الكلام لمقتضى الحال)، وفي إطار معالجتهم لفكرة (لكلِّ مقام مقال) تعرَّضوا لشقِّي السِّيَاق؛ السِّيَاق اللُّغوي والسِّيَاق غير اللُّغوي.

تسعى هذه الدِّراسة إلى تسليط الضوء على ملامح النُّظريّة السِّيَاقية في تراثنا العربي القديم، وإقرار أنَّ مصطلح السِّيَاق في علم اللِّسان الحديث مسبوق إلى مفهومه ألف سنة أو ما فوقها، وأنَّ نظريّة السِّيَاق ما هي إلاَّ ثمرة من ثمار الدِّراسات البلاغيّة. وذلك بعرض جُملة نقاط تتعلّق بمعرفة المصطلحات المرادفة لمصطلح السِّيَاق في عرف البلاغيّين العرب الأوائل والتي تداولت عندهم في دراساتهم البلاغيّة، والتطرُّق لشقي السِّيَاق، السِّيَاق اللُّغوي وسِّيَاق الحال ومدى عناية البلاغيّين بهما. ثمَّ الإشارة إلى أهمية السِّيَاق لدى المفسِّرين بعديّه

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
اللبنية الأساس في قواعد التفسير للقرآن الكريم، واستعانتم به كوسيلة مهمة من وسائل
الكشف عن المعنى في تفسير القرآن.

كلمات مفتاحية: السياق، سياق الحال، السياق اللغوي، الدرس البلاغي، القرآن
الكريم.

تمهيد:

إنَّ المحور الذي بنيت عليه علوم البلاغة أبحاثها وأفكارها ونظرياتها ومُصطلحاتها،
هو تأدية المعنى المعتمَل في النَّفس إلى المتلقِّي وتوصيله، وأنَّ هذا المعنى المتضمن في الألفاظ،
هو روح عملية التَّوصيل، التي ركَّزت عليها البلاغة، من خلال مُطابَقة المقال لمقتضى الحال.
وتركيز البلاغة على مُقتضى الحال يُقصد منه مُراعاة المنشئ الدِّقة فيما ينقل من معانٍ
مختزنة في نفسه إلى المتلقِّي، والمقامات التي تكتنف الموقف الذي تمَّ فيه التَّوصيل، فيراعي
الظُّروف المحيطة، والعلاقات الاجتماعية وأحداث الماضي والحاضر، واستشراف
المستقبل، كما يُراعي العادات والتقاليد والقيم والمعتقدات، وطبقة المخاطب ومركزه
الاجتماعي والرَّسسي، وثقافته ومواقفه، فيخضع هذه المعطيات والمؤثِّرات جميعها للمعنى،
ليقتنص فهم المتلقِّي والتأثير فيه⁽¹⁾.

لقد انتصَب اهتمامُ البلاغيِّين منذ القديم على مقولتين تُعدَّان من أعمدة البلاغة
ومن أوضح ما قالوه في السِّياق؛ ألا وهما: (لكلِّ مقامٍ مقال) و(مُطابَقة الكلام لمقتضى الحال).
يقول الدكتور تَمَّام حَسَّان: « وحين قال البلاغيُّون (لكلِّ مقامٍ مقال) و (لكلِّ كلمة مع
صاحبها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كلِّ اللُّغات
لا في العربيَّة المُصحَّح فقط، وتصلحان للتَّطبيق في إطار كلِّ الثقافات على حدِّ السَّواء، ولم
يكن (مالينوفسكي) وهو يَصُوغ مصطلحه الشَّهير سياق الحال "context of situation" يعلم
أنَّه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح ألف سنة أو ما فوقها»⁽²⁾. فنظرية السِّياق ليست إلاَّ
ثمرة من ثمار الدِّراسات البلاغيَّة. وقد كانت شأخصه بشكل جليِّ في ثرائنا البلاغيِّ القديم
فيما عُرف عندهم بمقتضى الحال وقولهم لكلِّ مقامٍ مقال.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
وبالنظر إلى كتب التفسير وعلوم القرآن نجد أن المفسرين والأصوليين وغيرهما
اهتموا بالسياق واستعانوا به وسيلة مهمة من وسائل الكشف عن المعنى في تفسير القرآن،
وعُدَّوه «اللَبنة الأساس في قواعد التفسير لكتاب الله العزيز، إذ تدور جميع العلوم الشرعية
بتفرعاتها ضمن السياقات على اختلافها، سواء أكانت نصوصاً أم مفردات. ويدور السياق
حول معاني ألفاظ هذه العلوم، باحثاً عن استنتاجات من خلال التفكير والتدبر العميق،
ليصل إلى أهداف موضوعية تجاه الإنسانية»⁽³⁾.

أولاً: علاقة مفهوم البلاغة بالسياق

عُرِّفَت البلاغة عند علمائنا الأوائل بأنَّها: «إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن صورة
من اللفظ»⁽⁴⁾. ويعرِّفها أبو الهلال العسكري (ت 395 هـ) بقوله: «البلاغة كل ما تبلغ به المعنى
قلب السامع فتمكِّنه في نفسه كتمكِّنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن»⁽⁵⁾.

فلا يُعدُّ بلاغة كل إيصال دون صورة مقبولة، وعرض حسن للفظ في عرف البلاغيين.
أمَّا الخطيب القزويني فقد اقترب كثيراً إلى ما يُعرف حديثاً بالسياق حين تعرِّفه لبلاغة الكلام
في قوله: «بلاغة الكلام هي: مُطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتِهِ، ومقتضى الحال مُختلف
فإنَّ مقامات الحال متفاوتة، فمقام التَّنكير يُباين مقام التَّعريف، ومقام الإطلاق يُباين مقام
التقييد، ومقام التَّقديم يُباين مقام التَّأخير ومقام الذِّكر يُباين مقام الحذف، وكذا مقام
الذِّكي يُباين مقام الغبي»⁽⁶⁾. فالبلاغة عنده ليست فقط إيصال المعنى بكلام حسن مقبول،
بل تعدَّى ذلك إلى مُطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته.

هكذا إلى أن استقرَّ مفهوم البلاغة عند علمائنا العرب بعد ذلك على أنَّها الاختيار
الأمثل للمعطيات اللغوية من جانب المستعمل للغة، وبالنظر إلى الإمكانيات اللانهائية التي
تتيحها اللغة في جميع مستوياتها، الصَّوتي والمعجمي والصَّرفي والتَّركيبي... ولا يكفي التَّوسع
في العربية وحده دون الإلمام بوجوه الاستعمال لها، ولا يغني العلم بالألفاظ متخيرها وردئها،
إن لم يُنصَف إليه معرفة المقامات وما يصلح في كل واحد من الكلام... وهذا هو لبُّ البلاغة
الذي عبَّر عنه البلاغيون بعد ذلك بقولهم: " لكلِّ مقامٍ مقالٍ " ⁽⁷⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

من خلال ما سبق نلاحظ أنّ البلاغة تقوم على ثلاثة جوانب مجتمعة: الدلالة (المعنى)، والمقال؛ أي (الكلام مع فصاحته وجماليته)، والمقام؛ (التمثّل في الحال أو مقتضى الحال). فيتطلّب السياق في البلاغة «تعبيراً مُناسباً، بحيث يحقّق هذا التعبير بعدين أساسيين: بعد المعنى الذي يفهم المتلقي، وبعد التأثير الذي يتحقّق من طريقة التّشكيل اللّغوي، والتّصوير الفنّي. ولاشكّ في أنّ مناسبة التّعبير للسياق تقتضي طريقة تشكيل معيّنة فإذا وقعت اللفظة في سياقها حسنت، وإذا لم تأتلف مع السياق قبحت، ومفهوم الحسن، والقبح، أو الجودة والرّداءة، أحكام بلاغيّة، وهي كذلك تعني مفاهيم نقدية»⁽⁸⁾.

من البلاغيين الأوائل الذين أولوا السياق أهميّة كبيرة، وأكثر من هذا خصّصوا أبواباً في كتبهم للحديث عن هذا المنهج في تحليل النّصوص الأدبيّة "الجاحظ"، يقول الدكتور صلاح الدين زرال: «إنّ هذه الفكرة بدأت عند الجاحظ بعدّه من أوائل الذين أسّسوا لفكرة مقتضى الحال، فقد أراد الجاحظ للغة القرآن بالدّرجة الأولى أن ترتقي من خلال القراءة السياقيّة التي تربط بين المقولات والمقامات»⁽⁹⁾. ومن بين مقولات الجاحظ التي دعا فيها إلى ربط المقال بالمقام في أثناء العمليّة الكلاميّة، ومراعاة ما يُرافق هذه العمليّة من عناصر لغويّة وغير لغويّة، قوله: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقةٍ من ذلك كلاماً، ولكلّ حالةٍ من ذلك مقاماً، حتّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»⁽¹⁰⁾.

هكذا، فقد اهتمّ البلاغيون بالسياق اهتماماً كبيراً إلى درجة أنّهم جعلوا السياق هو البلاغة ذاتها حين عرّفوا البلاغة بأنّها مُطابقة الكلام لمقتضى الحال. وفي إطار معالجتهم لفكرة "لكلّ مقام مقال" تعرّضوا لشقّي السياق، السياق اللّغوي والسياق غير اللّغوي، وهذا ما سنتطرّق إليه، لكن قبل ذلك يجدر بنا معرفة المصطلحات المرادفة لمصطلح السياق في عرف البلاغيّين العرب الأوائل والتي تداولت عندهم في دراساتهم البلاغيّة.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

ثانياً: المصطلح والملاح عند البلاغيين

البلاغيين -كغيرهم من اللغويين والنحاة العرب- لم يشيروا إلى لفظة (سياق) بصريح العبارة، ولكن استخدموا له ألفاظاً أخرى في أغلب استعمالاتها مرادفة لمفهوم السياق في الدراسات اللسانية والدلالية الحديثة، ومن بين تلك الألفاظ التي تداولت في مؤلفاتهم للدلالة على السياق، وشققيه السياق اللفظي وغير اللفظي، ما يأتي:

1/- الحال ومقتضى الحال:

"الحال" عند البلاغيين وصف عام يشمل: حال الكلام (مقاماته)، وحال المتكلم، وحال المستمعين، والفكرة أو الغرض الذي تعبر عنه اللغة⁽¹¹⁾. يقول "محمد سالم صالح" موضحاً ذلك يرى التهاوني أن « الحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص - أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال. مثلاً كون المخاطب منكرًا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها... وعلى هذا النحو قولهم (علم المعاني) علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معللة بالأحوال»⁽¹²⁾. إذن ف (الحال) في اصطلاح علم المعاني يعدل (مقتضى الحال).

قد فرّق الباحث "فريد عوض حيدر" بين مصطلح (مقتضى الحال) عند علماء المعاني العرب، ومصطلح (سياق الحال) عند علماء علم اللغة الحديث في قوله: « هذين المصطلحين يتفقان في أهم خاصية؛ وهي أنّهما يمثلان ظاهرة واحدة، أو جانباً واحداً، اتفق عليه علماء علم المعاني وعلماء علم اللغة الحديث، هذا الجانب هو أنّهما جميعاً يشيران إلى شيء زائد، وخارج نطاق اللغة "paralinguistic" وهو الجانب الاجتماعي المرتبط بالمتكلم والسامع وغيرهما من عناصر سياق الحال»⁽¹³⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

2- /المقام:

أمّا مصطلح "المقام" عند البلاغيين يُرادف في أغلب استعمالاته مُصطلح "الحال"، وكلا من المصطلحين يُقصد بهما: مجموع الاعتبارات، والظُرُوف، والملابسات التي تُصاحب النِّشَاط اللُّغوي ويكون لها تأثيرها في ذلك النِّشَاط من خارجه، بحيث لا تتحدّد دلالة الكلمة، أو تتجلّى مزايها إلاّ في ظلّها، وفي ضوء ارتباطها بها⁽¹⁴⁾. وبالتالي فمصطلح "المقام" يُرادف أيضاً المصطلح الحديث "سياق الحال" يقول "تمّام حسان": «أجد لفظ المقام أصلح ما عُيِّر به عمّا أفهمه من المصطلح الحديث: سياق الحال الذي يستعمله اللِّسانيون المحدثون»⁽¹⁵⁾.

3- /المقال:

"المقال" مُصطلح بلاغي نجده مُقابلاً لمصطلح "المقام" وهو «الكلام أيّاً كان نمطه أو وظيفته أو الوسيلة التي استخدمت في إيصاله»⁽¹⁶⁾.

كما نجد أنّ مصطلح المقال يرادف في الدِّراسات اللُّغويّة الحديثة مصطلح السِّياق اللُّغوي. وقد اهتمّ البلاغيُّون اهتماماً خاصّاً بالمقام بأن جعلوا فصاحة الكلمة مُرتبطة بسياقها اللُّغوي؛ أي ما يسبقها وما يليها من كلام ومعاني، يقول "عبد القاهر الجرجاني": «وجملَةُ الأمر أنّ لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلّقة معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" [مريم: 4] أنّها في أعلى رتبة من الفصاحة، لم تُوجِب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها (الرأس) معرّفاً بالألف واللام ومقروناً إليها (الشيب) مُنكّراً منصوباً»⁽¹⁷⁾.

4- /الحيّز:

إنّ متصقح كتاب دلائل الإعجاز لـ "عبد القاهر الجرجاني" (ت471هـ) يلحظ أنّ مفهوم السِّياق حاضر في كلّ صفحة من صفحاته، غير أنّه لم يستخدم مُصطلح "سياق"، بل استخدم مصطلح "حيّز"⁽¹⁸⁾، ومن ذلك قوله: «واعلم أنّه ليس التّأثير لما ذكرنا من إعمال الفعل وترك إعماله على الحقيقة. وإنما التّأثير لأمرٍ آخر وهو دُخول كلّ في حيّز النّفي»⁽¹⁹⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

ثالثاً: السياق اللغوي عند البلاغيين

يتجلى اهتمام البلاغيين بالسياق اللغوي من خلال: «دراستهم للأساليب والجمل، فقد راعوا القرائن والتمسوا من خلالها دلالات الكلام ومعانيه وأغراضه»⁽²⁰⁾. وأكدوا على وجوب مراعاة السياق اللغوي بدقة وصولاً إلى الدلالة المنشودة، ولا سيما في النص القرآني الذي أعجزت العرب⁽²¹⁾ «مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثل، ومساق كلِّ خير وصورة كل عظة وتنبية وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلِّ حجة وبرهان»⁽²²⁾.

لقد أولى البلاغيون السياق اللغوي -أو ما يعرف عندهم بالمقال- اهتماماً كبيراً، فهذا عبد القاهر الجرجاني يؤكد على أن لا معنى لفصاحة الكلمة إلا إذا رُبِطت بسياقها اللغوي وتركيبها النحوي الذي قيلت فيه، وبملاءمة معناها لمعنى ما يسبقها وما يليها من ألفاظ، حيث يقول: «فقد اتضح أيضاً حالاً يدع للشكِّ مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كليم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو أشبه ذلك ممّا تعلّق له بصريح اللفظ»⁽²³⁾.

من البلاغيين العرب يُعدُّ عبد القاهر الجرجاني خير من مثّل السياق اللغوي عندهم، وذلك من خلال نظريته في النظم؛ فقد عني بتعبير "النظم" «ما عناه المحدثين بالسياق اللغوي، فإذا كان السياق اللغوي يتمثل في الأصوات والكلمات والجمل كما تتابع في حدث كلامي معيّن أو نص لغويّ فإنَّ عبد القاهر الجرجاني يوضّح النظم بقوله: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً لا يعترضه الشكُّ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك هذا ما لا يجمله عاقل ولا يخفى على أحد من النَّاس»⁽²⁴⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

أمّا طريقة نَظْم الكلم كما عبّر عنها عبد القاهر هي «أن تَقْتفي في نَظْمها آثارَ المعاني وتَرتيبها على حَسب تَرتُّب المعاني في النَّفس، فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النَّظْم" الذي معناه ضَمُّ السَّيء إلى السَّيء كيف جاء واثَّفَق»⁽²⁵⁾. فالجرجاني هنا يدعو إلى تَرتيب ألفاظ الكلام على تَرتيب المعاني في النَّفس وعلى حسب الأغراض التي يُساق بها الكلام، إذن فنظرية النَّظْم تعدُّ مجالاً تطبيقياً رحباً تقوم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

من التَّطبيقات العملية لهذه النَّظريَّة ما «تجلَّت خصوصاً في مباحث علم المعاني، كنوع الجملة وما يحدث بين عَنصرها من حذف وذكر وتقديم وتأخير... فالجملة الاسميَّة مثلاً: تُفيد بأصل وَضعها ثُبوت الحكم، بلا نظر إلى تجدُّد ولا استمرار ولكن قد تحفُّ بها قرائن أخرى تُستفاد من سياق الكلام، فتفيد الدَّوام والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّنَ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: 4]، فساق الحديث في مَعرض المدح دالٌّ على إفادة الاستمرار والدَّوام. وكذلك ألفاظُ الاستفهام قد تَخْرُج من دلالتها الأصليَّة لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام كخروج معنى الاستفهام للدَّلالة على التَّعجب والتَّنبيه والتَّقدير وغير ذلك»⁽²⁶⁾.

رابعاً: سياق الحال عند البلاغيين

لقد تَفَطَّن البلاغيُّون العرب إلى سياق الحال أو ما يُطلق عليه "المقام" أو "مقتضى الحال"، وأولوه عناية كبيرة. ومفهوم المقام عند البلاغيين «يشارك مع مفهوم سياق الموقف عند الغربيين في أنَّهما يدرسان أثر العناصر غير اللُّغويَّة مثل المتكلم وهيئته ومكانته وصفاته أو عاداته، وردُّ فعل المتلقِّي ومكانته أيضاً لدى محلِّ النَّص، والملابسات والظُّروف التي يُقال فيها الحديث، وغرض المتكلم، وزمان تلك المحادثة ومكانتها، وغيرها ممَّا لها تأثير بيِّن على مَجْرى الدَّلالة»⁽²⁷⁾، ولكنَّ هناك فرق جوهريٌّ بينهما يتمثَّل في اشتراط البلاغيين في النُّصوص المحكيَّة أو المكتوبة أن تكون نُصوصاً فصيحة يكون فيها منسئ النَّص متخيراً لألفاظه وتراكيبه⁽²⁸⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
بينما في النظرية السياقية أصحابها يبحثون عن الدلالة الكامنة في النصوص اللغوية
بغض النظر عن فصاحتها أم لا، يقول الدكتور "عبد النعيم خليل": لقد «كانت نظرية
السياق بكل عناصرها وليدة البحث عن المعنى أو الدلالة بينما أخذ البلاغيون فكرة المقام
في اعتبارهم بهدف الوصول إلى أعلى مستوى بلاغي للنص»⁽²⁹⁾.

إن المتطلع على مؤلفات علمائنا البلاغيين يجد "سياق الموقف" واضحاً فيها بل ويُعدُّ
من أهم الأسس التي قامت عليها البلاغة عند العرب، والذي عبّروا عنه بقولهم: "لكلِّ مقام
مقال".

ومن التّماذج التي تُؤكّد اهتمام البلاغيين بالمقام وعناصره، ما ذهب إليه "بشر بن
المعتمر" (ت 210هـ) - فيما نقله عنه الجاحظ - إلى أن: « المعنى ليس يَشْرَفُ بأن يكونَ من
معاني الخاصّة، وكذلك ليس يتَضَعُ بأن يكونَ من معاني العامّة، وإنّما مدّارُ الشَّرْفِ على
الصَّوابِ وإحرازِ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلِّ مقامٍ من مقال»⁽³⁰⁾، فبشر هنا
يقرّر أنّ لا بلاغة للكلام إلاّ بمراعاة المقام في المقال، وكذا مراعاة الموافقة والتّناسب بينهما.
فيراعي المتكلّم كلامه حتّى يتلاءم مع طبيعة المتلقّي وأحواله.

يُعدُّ الجاحظ (ت 255هـ) أكثر البلاغيين العرب اقتراباً من نظرية سياق الحال في
مؤلفاته، بحيث تحتوي هذه الأخيرة « مجموعة من الحقائق العلميّة التي تتعلّق بموضوع
مناسبة اللّغة للمقام على نحو يُشبه فكرة "سياق الموقف" التي أوردتها المعاصر
(مالينوفسكي)، فمداد الأمر عند الجاحظ أنّ "لكلِّ ضرب من الحديث ضرب من اللّفظ،
وكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسّخيف للسّخيف والخفيف للخفيف، والجزل
للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح"»⁽³¹⁾.

لقد تفتّن الجاحظ إلى عناصر السياق بعدّها أصناف الدلالات على المعاني من لفظ
وغير لفظ وهي خمسة «أولها: اللّفظ، ثمّ الإشارة ثمّ العقد ثمّ الخطّ ثمّ الحال وتسمّى
نصبه»⁽³²⁾، ومن هذه الأصناف ما يمكن عدّه من عناصر السياق غير اللّغوي: "الإشارة"
و"النّصبة" لما لهما من علاقة مباشرة بالموقف أو الحال التي يكون فيها الخطاب. يقول
الجاحظ في الإشارة: « فأما الإشارة فباليد، وبالرأس وبالعين، والحاجب والمنكب إذا تباعد

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين الشَّخصان وبالتَّوب والسَّيف. وقد يتهدَّد رافع السَّيف والسَّوط فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً، ويكون وعيدا وتحذيراً والإشارة واللَّفْظ شريكاً، ونعم العون هي له، ونعم التُّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللَّفْظ وما تغني عن الخِطِّ»⁽³³⁾، فالإشارة مهما كان نوعها حين تُصاحب الحدث الكلامي قد تنوب اللَّفْظ من تَوْضيح وإبراز للدَّلالة وإفصاح عنها.

أما التَّصبة عند الجاحظ فهي: «الحال النَّاطقة بغير اللَّفْظ والمشييرة بغير اليَد، وذلك ظاهر في خلق السَّمَاوات والأرض وفي كلِّ صامت وناطق وجامد... فالصَّامت ناطق من جهة الدَّلالة، والعجماء معرَّبة من جهة البُرهان، ولذلك قال الفضل بن عيسى بن أيان: "سل الأرض فقل: من أجرى أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً"»⁽³⁴⁾. فأی شيء في هذا الكون يحمل في ذاته دلالة، وبإمكانه أن يقوم مقام الكلمات في الإبانة عن ذاته، فالجاحظ في كلامه هذا عبَّر بدقَّة عمَّا قصده اللُّغويُّون المحدثون بـ"سياق الحال"، وما أشار إليه القُدماء بقولهم "لكلِّ مقام مقال".

خامساً: التطبيقات العملية لنظرية السياق عند المفسرين

مُنذ عهد مبكر جدًّا تنبَّه العرب إلى أهميَّة السِّياق في فهم النَّصِّ القُرْآني وتعيين الدَّلالة المقصودة منه، فقد رُوِيَ أنَّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ الآية: [38 من سورة المائدة] هكذا: { والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقطَعُوا أيديهمَا جَزَاءً بما كَسَبَا نكالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }، فقال الأعرابيُّ ما هذا كلام فصيح ف قيل له ليس التَّلَاوة كذلك، وإنَّما هي: { اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } فقال: " يَخ يَخ عَزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ " فقد اهتدى هذا الأعرابيُّ إلى صحَّة الآية احتكاماً إلى السِّياق والمعنى⁽³⁵⁾.

وقد جاء الاهتمام بالسِّياق عند العلماء المسلمين لخدمة القُرْآن الكريم وإدراك معانيه، فنال حظاً وافراً في دراساتٍ عديدةٍ ومتنوعةٍ منها ما هو متعلِّق بالتَّفْسِير ومنها ما هو متعلِّق بأصول الفقه وغيرهما من العُلوم والدراسات المتَّصلة بالقُرْآن والحديث النَّبوي الشَّريف.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
أولى المفسرون عناية بالغة بالسياق بصنفيه اللغوي وغير اللغوي، واستعانوا به في
تحديد المعنى، وهذا واضح من خلال تعريفهم للتفسير في حد ذاته، وكذا من خلال الشروط
التي اشترطوها في من يقوم بتفسير القرآن الحكيم.

فقد عرّفوا التفسير على أنه: «العلم الذي يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزّل على
نبيّه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو
والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والنسخ
والمسنوخ»⁽³⁶⁾. وذكر "السُّيوطي" أنّ «التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء
أكان معاني لغوية أو شرعية بالوضع أو بقرائن الأحوال ومَعونة المقام»⁽³⁷⁾. فمن خلال هذين
التعريفين نلاحظ أنّ التفسير يستعين بقرائن حالية وأخرى مقالبة لاستنباط المعنى من
النص القرآني وهذا ما يتعلّق بالسياق، إضافة إلى ذلك فالتفسير «يلتقي بعلم الدلالة "
السيمانتيك" في أنّ كلاهما، يحاول الكشف عن المعنى بشئى الوسائل التي تعين على ذلك...
ومن هنا فقد كان هناك ارتباط في منهج البحث بين كلا العلمين»⁽³⁸⁾.

أمّا في ما يخصّ الشروط التي وضعوها في من يقوم بتفسير القرآن الكريم، فمنها ما
يتعلّق بالجانب اللغوي، ومنها ما يتعلّق بالجانب المقامي؛ تتمثّل في إتقانه لمجموعة من العلوم
أشبه ما تكون بمراحل التحليل في النظرية السياقية⁽³⁹⁾ « فمن اشتراطهم أن يكون المفسّر
عالماً بالقراءات، وهو الجانب الصوتي في الأداء الذي يرجّحه كل قارئ في بعض الوجوه
المحتملة، ولا بدّ من إتقانه لعلم التصريف والاشتقاق، وعلم النحو والمعاني، والمعجم وما
يتّصل به من علم اللغة أو معرفة متنها، وبها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها»⁽⁴⁰⁾.
وغير ذلك مما يدخل في الجانب اللغوي، أمّا ما يتعلّق بالجانب المقامي يمكن أن نلخصها في
النقاط الآتية⁽⁴¹⁾:

1- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

2- ألا يغفل عن السنة في تفسيره.

3- أن يعرف أسباب نزول الآيات.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

4- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

إذن فهذه إسهامات نظرية تبرز اهتمام المفسرين بالسياق بكل عناصره الداخلية والخارجية، والتعويل عليه في توجيه المعاني في القرآن الكريم.

ومن الإسهامات التطبيقية التي تبرز اهتمام المفسرين بالسياق بكل عناصره الداخلية والخارجية، والتعويل عليه في توجيه المعاني في القرآن الكريم. ما يأتي:

1- إعمال السياق اللغوي عند المفسرين

إذا كان المفهوم العام للسياق اللغوي في الدراسات اللسانية الحديثة، هو أن تستمدّ الوحدة اللغوية معناها أو جزءا منه من الوحدات الأخرى التي تجاورها (تسبقها أو تلحقها)، ولا تقتصر على الجملة أو العبارة بل تتعدى ذلك إلى الفقرة كاملة أو الكتاب. فإن علماء القرآن قد اهتموا إلى ذلك أيضا حينما أشاروا إلى أن أفضل طريقة لتفسير القرآن الكريم هي تفسير القرآن بالقرآن. «إذ نظروا إلى الآية القرآنية أو مجموعة الآيات على أنها جزءا من نص متكامل هو القرآن، ومعنى ذلك أنهم لا يعتمدون على السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة أو مجموع الآيات المعزولة عن سياقها الكلي»⁽⁴²⁾، يقول ابن تيمية (ت728هـ): «إن أصح الطرق في ذلك (أي في التفسير) أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه فُسر في موضع آخر، وما أختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر»⁽⁴³⁾.

من مؤلفات الأصوليين تعدّ "رسالة" الشافعي (ت204هـ) أوّل كتاب دُوّن في أصول الفقه وبه بدأت الإشارة للسياق، وقد عقد الشافعي فيه بابا عنونه بـ "الصنف الذي يبين سياقه معناه" استرشد بدلالة السياق في فهم معاني آيات من القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163]، بين الشافعي أنّ السياق هو الذي أرشد إلى أنّ المراد أهلها لا القرية نفسها قال: «ابتدأ جلّ ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ دلّ على أنّه إنّما أراد أهل القرية»⁽⁴⁴⁾

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
فهو بهذا استعان "بالسياق اللغوي" ما يسبق الآية وما يليها من آيات أخرى لاستجلاء
الدلالة وتحديد المعنى المراد والمقصود من الآية كلها.

اتضح لدى المفسرين وعي كبير بقضية السياق اللغوي وتطبيق له بجلّ أبعاده
وعناصره، وقد كان "الطبري" (ت204هـ) من أبرز المفسرين احتكاما للسياق في ترجيح الآراء
والتوجهات النحويّة. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَرَي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ
عَلَيْكَ زُطْبًا﴾ [مريم: 24] في قراءة من فتح الميم في "من" والتاء في "تحتمها"؛ حيث ذهب
المفسرون في تأويل ذلك إلى قولين: الأوّل أنّه جبريل عليه السّلام، والثاني أنّه عيسى عليه
السّلام، وقد رجّح الطبري القول بأنّ الاسم الموصول عائد على عيسى استدلالا بسياق ما
قبله وما بعده⁽⁴⁵⁾، قال الطبري: «ألا ترى أنّها في سياق قوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ [مريم: 22] يعني به: فحملت عيسى
فانتبذت/به. ثمّ قيل: فنأداها نسقا على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه»⁽⁴⁶⁾.

2/ إعمال سياق الحال عند المفسرين

لقد عرفنا أنّ الظروف والمواقف والملابسات المحيطة بالخطاب تُشكّل ما يسمّى
"سياق الحال أو المقام" في النظريّة الغربيّة الحديثة، أمّا في الدّراسات القرآنيّة فتعرف بـ
"القرائن الحاليّة" «وتبدو في أقوال الصّحابة في التّفسير؛ لأنّهم شاهدوا القرائن
والأحوال»⁽⁴⁷⁾. وقد درس علماء القرآن «السياق المقامي في ضوء ظروف التّنزيل، بوصفها
الوعاء الذي يصبّ فيه النّص، أو المجرى الذي يتنزّل فيه، وليست هذه الظروف -في
جوهرها- إلّا العناصر التي تشكّل السياق الخارجي للخطاب القرآني»⁽⁴⁸⁾.

بالآليّ لتفت الأصوليون والمفسرون إلى أهميّة سياق الحال في تفسير القرآن الكريم
وهو يتمثّل عندهم فيما أطلقوا عليه "أسباب النّزول" ويقصدون بها "الأحداث والوقائع
الملابسة للنّص القرآني"؛ إذ أنّها تمثّل علاقة النّص بالواقع، فهي تزودنا من خلال الحقائق
التي تطرحها علينا بمادّة جديدة ترى النّص استجابة للواقع تأييدا أو رفضا وتؤكّد علاقة
الحوار والجدل بين النّص والواقع⁽⁴⁹⁾.

حبيبة زغلامي — ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
 في ثنايا كتبهم نجد المفسرين يبدؤون بذكر أسباب التزول عند تفسير الآيات،
 وحددوا وظائفها وفوائدها المتمثلة في الوقوف على المعنى فقد ذكر الواحدي (468هـ) أنه لا
 يمكن "تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"، وهي كذلك لها
 أهمية كبيرة في رفع الإشكال ودفع التناقضات⁽⁵⁰⁾، وتحديد المعنى الدقيق والمراد من الآية
 وقد قال ابن تيمية (728هـ): إن « معرفة سبب التزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم
 بالسبب يورث العلم بالمسبب⁽⁵¹⁾ ». ويقول السيوطي (ت991هـ): «بيان سبب التزول طريق
 قوي في فهم معاني القرآن»⁽⁵²⁾.

يعدُّ " محمد رشيد رضا " من المفسرين - المحدثين - الذين اهتموا بالسياق المقامي
 وعناصره في مؤلفه "تفسير المنار"، فقد تحدت في مواضع متفرقة منه عن « أساليب القرآن
 وتنوعها بحسب المقام، وحال المخاطب والمتكلم عنه، فحيث يكون المخاطبون من العرب
 وبخاصة أهل قريش يأتي الكلام موجزا وحين يخاطب اليهود يأتي الكلام مسهبا مفصلا،
 وأشار كذلك إلى الفرق بين أسلوب القرآن المكي والقرآن المدني نظرا لاختلاف الموضوعات
 والمخاطبين وبخاصة حين يكون المخاطبون في القرآن المدني هم اليهود»⁽⁵³⁾.

من الأمثلة التي تبين اهتمامه بدلالة سياق المقام في "تفسير المنار" تفسيره لقوله
 تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ
 يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
 عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 140]، بين أن الاستفهام هنا للإنكار عليهم إذ طلبوا منه أن يجعل لهم
 إليها، وبين الشيخ كيف تدرج موسى عليه السلام في مخاطبتهم وإقناعهم، فقد بدأ بإنكار ما
 طلبوا، وأثبت جهلهم برهيم وبأنفسهم، وبين فساد مطلبهم، وأنه عرضة للزوال وباطل لا
 يصلح وفي كلامه تبين فساد الطالب والمطلوب، ثم أيد الإنكار عليهم بما يعرفون من آيات
 الله ونعمهم عليهم إذ فضّلهم على أهل زمانهم، وهذا البيان من الشيخ يظهر مراعاة المتكلم
 حال المخاطب ولجونه إلى تلوين الأساليب بغية إقناعه وردعه⁽⁵⁴⁾.

الخاتمة:

أخيراً نستنتج ممّا سبق ما يأتي:

إنّ فكرة السياق بأبعادها وعناصرها تواجده عند البلاغيين والمفسرين، وتداولوها في نُصوصهم، وعبروا عنها بمصطلحات مُختلفة، لكن ما يتقصها هو أنّها تفتقر إلى نظرية متكاملة، شأنها شأن الأفكار الأخرى في التراث العربي، فقد يمتد لم يكن هدف اللغويين والبلاغيين إنشاء نظريات وإنّما كانت غاياتهم الوصول إلى مقاصد النصوص ومدلولاتها والحكم عليها بالصحة والحسن والفصاحة.

تتجلّى عناية البلاغيين بالسياق اللغوي في دراستهم "للنظم" أو التركيب، بأنّ لا ميزة للكلمة ولا قيمة لها في حالة أفرادها، وإنما تتحدّد دلالتها وقيمتها في نظمها. كما تتضح عنايتهم بسياق الحال بتأكيدهم على ضرورة مراعاة البليغ لمقتضيات الأحوال والمقامات، مثل: حال المتكلم، والمخاطب، والظروف الاجتماعية والنفسية والزمانية والمكانية المحيطة بهما.

على خلاف اللغويين والبلاغيين، نجد مصطلح السياق بصريح لفظه ومصطلحات أخرى قريبة من مفهومه، مثل: المساق والقرينة وردت في مؤلفات المفسرين في مواضع عدّة، غير أنّهم لم يصرحوا بمفهومه كما جاء في البحوث اللغوية الحديثة.

المفسرون والأصوليون وعلماء علوم القرآن قد أولوا السياق بشقّبه أهميّة خاصّة في مؤلّفاتهم، ونال السياق عندهم من حظّ وفير، بإدراكهم لوظيفته وأثره الدلالي.

حضور السياق واعتباره في دراسات علمائنا المسلمين الأوائل؛ فقد استعملوا مصطلح السياق وعناصره بصريح العبارة، وأشاروا إلى وظيفته وأهميته، وأصلوا لقواعده وضوابطه، ضف إلى ذلك إعمال دلالته في المجال التطبيقي.

حبيبة زغلامي - ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

الهوامش:

- (1) - ينظر: صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، (ط1)، 1429هـ- 2008م. ص: 422.
- (2) - تمام حسان: اللغة العربية معناه ومبناها. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1994م، ص: 372.
- (3) - وضاح كافي حلومي محمد العزاوي: أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني. الجامعة الإسلامية. ص: 89.
- (4) - الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى): النكت في إعجاز القرآن. صححه عبد العليم. مكتبة الجامعة المليية الإسلامية دهلي، ص: 75-76.
- (5) - أبو الهلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل): كتاب الصناعتين. ط1، 1320هـ، ص: 6.
- (6) - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، دط، دت، ص: 11-12.
- (7) - ينظر: مسعود بودوخة: السياق والدلالة. بيت الحكمة، العلمة - الجزائر، (ط1)، 2012م، ص: 102.
- (8) - محمود محمد عيسى: السياق الأدبي- دراسة نقدية تطبيقية. جامعة المنصورة، كلية التربية بدمياط، (دط)، 2004م، ص: 8.
- (9) - صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية. ص 436.
- (10) - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1419- 1998، ص: 138-139.

حبيبة زغلامي - ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

(11) - ينظر: ردة الله الطلحي: دلالة السياق. - أصل الكتاب رسالة دكتوراه، سلسلة الرسائل العلمية (33)، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (ط1)، 1424 هـ. ص: 96.

(12) - محمد سالم صالح: الدلالة والتفعيد النحوي. دراسة في فكر سيبويه. دار غريب، القاهرة، ط1، 2006 م. ص: 372.

(13) - فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط3، 2011 م، ص: 127-128.

(14) - ينظر: أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 57.

(15) - تمام حسّان: الأصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1982، ص: 339.

(16) - أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 58.

(17) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه: أبو فهد محمد شاکر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004 م، ص: 402-403.

(18) - ينظر: أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 68.

(19) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 283.

(20) - فضيلة عظيمي: أثر السياق في التركيب القرآني. ص: 37.

(21) - ينظر: هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي. ص: 284.

(22) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 50. وانظر: المرجع السابق. ص: 284.

(23) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 92.

- حبيبة زغلامي – ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين
- (24) - عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. دراسة لغوية نحوية دلالية. دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2007م. ص: 171.
- (25) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 49.
- (26) - فضيلة عظيمي: أثر السياق في التركيب القرآني. ص: 38.
- (27) - عرفات فيصل المتاع: السياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي. مؤسسة السياب للطباعة والنشر، لندن، ط1، 2013م.. ص: 67- 68.
- (28) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 68.
- (29) - عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 166-167.
- (30) - الجاحظ: البيان والتبيين. ص 136.
- (31) - هادي نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب. دروب للنشر، عمان- الأردن، ط4، 2011، ص: 182-183.
- (32) - الجاحظ: البيان والتبيين. ص: 76.
- (33) - المصدر نفسه. ص: 77-78.
- (34) - المصدر نفسه. ص: 81.
- (35) - ينظر: مصطفى أحمد عبد العليم: العلاقات النصية في القرآن الكريم – دراسة نحوية لجهود المفسرين. جامعة القاهرة – كلية دار العلوم، ص: 18.
- (36) - مسعود بودوخة: السياق والدلالة. ص: 127.
- (37) - التعبير في علم التفسير: ص 38. نقلا عن: ردة الله الطلحي: دلالة السياق، ص: 105.
- (38) - عبد النعيم خليل: نظرية الساق بين القدماء والمحدثين. ص: 196.
- (39) - ينظر: فضيلة بلعالم: السياق وأثره في المعنى عند سيد قطب في ظلال القرآن نموذجا. مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2004-2005، ص: 18.
- (40) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى. ص: 440.

حبيبة زغلامي - ملامح نظرية السياق في الفكر البلاغي العربي القديم وتطبيقاتها العملية عند المفسرين

- (41) - ينظر: مختاريتة بن قبلية: أثر السياق اللغوي في تفسير الرازي. ص: 17.
- (42) - محمد سالم صالح: الدلالة والتفعيد النحوي - دراسة في فكر سيبويه. ص: 375.
- (43) - ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم): مقدّمة في أصول التفسير. تحقيق: عدنان زرزور. ط2، 1392هـ/1972 م، ص: 93.
- (44) - الشافعي (محمد بن إدريس): الرسالة. تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، (دط)، (دت)، ص: 62 - 63.
- (45) - ينظر: مصطفى أحمد عبد العليم: العلاقات النصية في القرآن الكريم. ص: 19.
- (46) - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن. 505/15.
- (47) - ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق. ص: 106.
- (48) - قطب الريدوني: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر. ص: 86.
- (49) - ينظر: أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 29-30.
- (50) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 29-30.
- (51) - ابن تيمية: مقدّمة في أصول التفسير. ص: 47.
- (52) - السيوطي (جلال الدين أبي عبد الرحمن): لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط1، 1422 - 2002 م، ص: 7.
- (53) - فوزية جميل عبد الكريم داود: البحث الدلالي عند محمد رشيد رضا في تفسير المنار للقرآن الكريم. ماجستير، جامعة آل بيت، كلية الآداب والعلوم، الأردن، 2000-2001م، ص 216.
- (54) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 220.

جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

حسين سياسي

جامعة محمد البشير الإبراهيمي / برج بوغريريج.

البريد الإلكتروني: motassem641@gmail.com

المحور الثالث: دراسات بلاغية تطبيقية على كتب التفسير وعلوم القرآن.

الملخص.

ترتبط علوم البلاغة بالقرآن ارتباطا وثيقا، ذلك أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وتحدى أساطين العربية في بلاغتها. فأدرك بلغاؤهم أنه لا عهد لهم بهذا الأسلوب الفني. ولا قبل لهم بهذا المستوى البلاغي.

وإذا كان القرآن كتاب هداية في المقام الأول، وكتاب تشريع في المقام الثاني فإن ما ورد فيه من أحكام تشريعية وقوانين تنظيمية لا يخلوا من القيم الجمالية والأساليب البلاغية والتصويرية التي خالف بها القرآن النظم التشريعية التي تركز على الدلالة أكثر من اهتمامها بالجوانب الفنية والجمالية.

ويأتي المجاز في القرآن كآلية من آليات التصوير، حيث ينقل المعنويات في صورة المحسوسات ويعنى بالجانب الفني والجمالي كعنايته بالجانب الدلالي، غير أن قضية المجاز في القرآن الكريم أسالت الكثير من الحبر، ففي الوقت الذي يثبت جمهور العلماء والمفسرين وجود المجاز في القرآن باعتبار القرآن نزل بلسان عربي مبين، ينكر بعض العلماء وجود المجاز في القرآن مبررين مذهبهم بمبررات يرددها العشرات بل المئات من النصوص القرآنية التي لا يمكن إنكار وجود المجاز فيها.

وهذه الورقة تحاول الوقوف على جدلية المجاز في القرآن الكريم، مع أمثلة ونماذج من مما ورد من المجاز اللغوي في القرآن الكريم.

مقدمة.

إذا كانت اللغة أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم فإن مستويات التعبير تختلف باختلاف المخاطبين والمخاطبين، فهناك المستوى الوظيفي الذي يؤدي أغراضا تواصلية بحتة، وهناك المستوى الفني الذي يتجاوز حدود اللغة البسيطة موظفا أساليب تعبيرية تعتمد على التصوير الفني من خلال مجموعات من الأليات اللغوية والتصويرية بما يمتلكه المخاطب من قدرات لغوية وطاقات تعبيرية ومستويات خيالية تختلف من شخص لآخر. ويعد المجاز بأنواعه أحد أبرز هذه الطاقات التعبيرية التي تتجاوز الجانب الوظيفي للغة. لتنتقل بالمتلقي إلى مستوى فني جمالي قائم على تجاوز الظواهر اللغوية العامة إلى مستوى الإيحاء والتصوير.

وإذا كان القرآن نصا لغويا باعتباره نزل بلسان عربي مبين فقد كان للنص القرآني خصوصية تشريعية بما تضمنه من التشريعات والقوانين الربانية، وما يمنح النص القرآني هذه الخصوصية أن لغته التشريعية راعت في خطاها تلك الجوانب الفنية والجمالية ضمن أنساق تعبيرية فاقت كل مستويات التعبير والتصوير.

وقد تضمن القرآن الكريم الكثير من ألوان البيان بأسلوب سلس عفوي غير متكلف، ففيه التشبيه بألوانه، وفيه الاستعارات والكناية على اختلاف أنواعها، وفيه ألوان من المجاز الذي ينتقل بالقارئ من الصور المعنوية الغامضة أحيانا إلى صور حسية تزيد من قيمته الفنية والدلالية.

غير أن علماءنا قديما وحديثا - لأسباب دينية وعقائدية - اختلفوا في وجود المجاز في القرآن فمنهم من أثبته بإطلاق، ومنهم من نفاه بإطلاق، ومنهم من أثبته في مواطن ونفاه في مواطن أخرى.

فإلى أي مدى وُظف المجاز في القرآن الكريم؟ وعلى أي أساس اختلف العلماء في إثبات المجاز أو نفيه؟

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

تأتي هذه الورقة محاولة لمناقشة قضية المجاز في القرآن إثباتا أو نفيًا من خلال ثلاثة محاور.

المحور الأول: مفاهيم اصطلاحية.

المحور الثاني: إثبات المجاز في القرآن.

المحور الثالث: نفي المجاز في القرآن.

المحور الرابع: نماذج تطبيقية من المجاز اللغوي في القرآن.

1- مفاهيم اصطلاحية.

يستمد لفظ المجاز دلالاته الاصطلاحية من دلالاته اللغوية، من خلال ما قرره علماء المصطلح من ضرورة وجود علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

فالمجاز في اللغة مرده إلى الفعل الثلاثي (جوز) أو من الرباعي (جاوز). يقول ابن فارس: " الجيم والواو والزاي أصلان ... والأصل الآخر: جرت الموضع؛ سرت فيه، وأجزته؛ خلفته وقطعته"¹

ولا يبعد هذا على ما جاء في لسان العرب، إلا أنه يصرح بالمجاز في دلالاته اللغوية، يقول ابن منظور في مادة (جوز) " جرت الطريق، وجاز الموضع جوزا وجؤوزا وجوازا ومجازا"² وعموم المعاجم والقواميس العربية لا تخرج عن هذا المعنى في تعريف المجاز، فهي تدور حول تجاوز الشيء إلى ما بعده سواء كان هذا التجاوز حسيا أو معنويا.

ولأن المعنى اللغوي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى الاصطلاحي فإن مصطلح المجاز عند البلاغيين يدل على "كلام أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب... إفادة المعنى يتناول الحقيقة والمجاز، أما غير المصطلح عليه في وقت التخاطب فهو الفاصل بين الحقيقة والمجاز. فقولنا: أسد نريد به الرجل الشجاع فهو مجاز، لأن المعنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب"³

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

ويعرف علماء البلاغة المعاصرون المجاز تعريفا بسيطا فيقولون: " هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. والقرينة قد تكون لفظية وقد تكون حالية"⁴

وللمجاز أنواع كثيرة ذكرها علماء البلاغة، وهي مبسطة في كتب البلاغة غير أن المقام لا يسمح بذكرها بتفاصيلها، ومن أنواعه، المجاز اللغوي والمجاز العقلي وغير ذلك.

2.- القائلون بالمجاز في القرآن.

نزل القرآن بلسان عربي مبين، وجاءت ألفاظه وتراكيبه على وفق ما ألفه العرب، بل كانت عباراته منظومة في غاية الروعة والجمال تركيبا وتصويرا. وكان المجاز من ضمن آليات التعبير التي اعتمدها القرآن الكريم. غير أن بعض العلماء أنكروا وجوده في القرآن خلافا لجماهير العلماء من المفسرين وعلماء البلاغة.

وأشهر القائلين بوجود المجاز في القرآن بإطلاق علماء المعتزلة من الأصوليين والبلاغيين والمفسرين، وأشهرهم الزمخشري في كتابه الكشاف. وأثبت علماء السنة بتحفظ، حيث أنكروا وجود المجاز في باب الأسماء والصفات.

وممن ذهب إلى هذا الرأي الإمام اللغوي والأصولي والفقهاء ابن حزم الظاهري والإمام الشاطبي في الموافقات، وابن تيمية وتلميذه ابن القيم⁵ وكان ابن تيمية وتلميذه ابن القيم أكثر تشددا في إنكار المجاز في القرآن، وألف ابن القيم كتابه الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعطلة، رد فيه على من يدعي المجاز في باب الأسماء والصفات.

وحجة القائلين بالمجاز أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، كما أشار القرآن إلى ذلك في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء، 195] والعرب في فنونها البلاغية توظف المجاز كآلية من آليات التصوير، حيث تنقل المعنى من صورته التجريدية إلى صورة حسية تزيد المعنى دقة ووضوحا، فالقرآن - إذن- يندسج على منوال أساليب العرب في كلامها، ولو خالف أساليب العرب لما صح أن يوصف بأنه نزل بلسان عربي مبين.

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

وللشافعي رحمه الله عبارة جميلة يدرك القارئ عند تأملها أن الشافعي من أوائل العلماء القائلين بالمجاز وإن لم يصح بذلك. يقول الشافعي: " فإنما خاطب بكتابه العرب بلسانها على ما تعرفه من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرتها أن تخاطب الشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص، وعاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره"⁶

إن المتأمل في عبارة الشافعي يجد فيها إشارات إلى المجاز وإن لم يصح بذلك؛ فالعام الذي يراد به الخاص مجاز تدل عليه القرينة وإن أنكره ابن القيم، والعام الذي يراد به غير ظاهره هو من المجاز.

ويمثل المثبتون للمجاز في القرآن الكريم بأمثلة كثيرة من أبرزها قول الله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف، 82] وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ [الكهف، 77] فالأولى فيها مجاز بالحذف، لأن المراد أهل القرية لاستحالة سؤال القرية والعير والبهائم، والثانية من باب الاستعارة لتعذر الإرادة من الجدار، والاستعارة من المجاز.⁷

ومن النكت التي سمعناها في هذا المجال أن الإمام عبد العزيز بن باز تناظر مع أحد العلماء في إثبات المجاز في القرآن، وكان الشيخ بن باز ينكر وجود المجاز في القرآن، فاحتج عليه مناظره بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72] فالآية قطعا لا يراد منها ظاهرها، وإلا فكل أعمى في الدنيا سيكون أعمى في الآخرة، فلم يجز ابن باز جوابا.

ومن أعلام أهل السنة القائلين بوجود المجاز في القرآن الإمام القرطبي صاحب التفسير (الجامع لأحكام القرآن) حيث يفسر قول الله تعالى: (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه فيقول: " وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فهي استعارة [والاستعارة نوع من المجاز] أي لو كان مكانها إنسان لكان ممثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير"⁸

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

وكلام القرطبي يمكن اعتماده قاعدة في هذا الباب، ويحمل على هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 18] فقد أُسند فعل التنفس إلى الصبح وهو مما لا يعقل، فهو من باب الاستعارة المكنية. ويقاس على هذا أيضا كل الآيات التي أُسند فيها الفعل إلى غير العاقل.

3- المنكرون للمجاز في القرآن.

ذهب جمع من العلماء إلى إنكار وجود المجاز في القرآن، ويحمل لواء هذا المذهب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. وحجتهم أن القول بوجود المجاز في القرآن يؤدي إلى نفي الأسماء والصفات أو تعطيلها فصفة السمع والبصر واليد والوجه ونحوها من الصفات الذاتية أو الفعلية لا يمكن القول بأنها مجاز، لأن ذلك يؤدي إلى تعطيل الله تعالى عن صفاته، ويؤول القائلون بالمجاز هذه الصفات ويرون أن إثباتها تشبيهه لله بخلقه. وهذا مبحث واسع في باب العقيدة سال فيه كثير من الحبر والكل فيه بين غلو وإجحاف.

وحتى لا يطول البحث يكفي أن نشير إلى بعض آراء ابن تيمية وتلميذه ابن القيم باعتبارهما الأكثر تشددا في إنكار المجاز، وسوف نتناول ذلك في مجموعة من النقاط.

أ- يشترط ابن تيمية للقول بالمجاز في اللغة والقرآن ضرورة تحديد المراد بالمجاز، فإن أراد المنكرون للمجاز في مثل قوله تعالى: (واسأل القرية) أسأل الجدران والهائم فقد أخطأوا، وإن قصدوا أن المجاز في القرآن هو المبالغة الشديدة التي ينزه عنها القرآن فلا مانع من إنكاره في القرآن.⁹

ب- القول بتقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز وقع في كلام المتأخرين ولم يتكلم به أحد من المتقدمين لا من الصحابة ولا من التابعين، وما تكلم به أحد من أهل اللغة كالخليل وسيبويه¹⁰

وهذا القول مردود على ابن تيمية، فليس مهما أن يرد لفظ المجاز بعينه عند السلف، لأن اللفظ مجرد اصطلاح، والمصطلح غالبا ما يكون متأخرا في الظهور عن موضوع الفن، وخير مثال على ذلك رأي الشافعي؛ فربما لم يستخدم لفظ المجاز كمصطلح، أما معنى

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

المجاز فقد أورده الشافعي في الرسالة، " فعبارة العام الذي يراد به العموم ويدخله الخصوص هو من المجاز، والعام الذي يراد به الخاص من المجاز، والظاهر الذي يراد به غير ظاهره هو أيضا من المجاز"¹¹

ج - أن المجاز نتيجة حتمية لعجز المتكلم عن الإلمام باللغة مما يفرض على المتكلم الوقوع في دائرة استعارة ألفاظ محل ألفاظ أخرى حتى يؤدي المعنى المراد، والله منزه عن العجز، وكلامه منزه عن المجاز الذي سببه العجز عن التعبير بالحقيقة.¹²

وقد أشار إلى هذا الإمام الزركشي في ثنانيا حديثه عن حجج المنكرين للمجاز في القرآن الكريم حيث يقول: " إن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وهذا محال على الله تعالى، ثم رد هذه المقالة بقوله: وهذا باطل، فلو وجب خلو القرآن من المجاز لوجب خلوه من التوكيد والحذف ... ولو سقط المجاز من القرآن لسقط جزء من الحد"¹³

د - المجاز في باب الأسماء والصفات: من بين أهم الأسباب التي أدت إلى إنكار المجاز في القرآن ذلك أن بعض الفرق توسلت بالمجاز لتعطيل الصفات الذاتية والفعلية التي تليق بجلال الله وعظمته، فقد أنكر ابن تيمية وتلميذه بن القيم المجاز في القرآن، لأن ذلك يؤدي إلى تعطيل الأسماء والصفات أو تحريفها عن المعنى المراد منها، وما زالت آثار المعارك التي خاضها ابن تيمية في هذا الميدان باقية إلى يومنا هذا، وقد أجرى ابن تيمية وغيره من الحنابلة الأسماء والصفات على ظاهرها من غير تمثيل ودون نفي لمعناها اللغوي خلافا لمذهب المعتزلة، والجهمية في بعض الصفات وقصدهم في ذلك تنزيه الله عن الصفات التي ظاهرها النقص، كصفة النزول والمجيء والتعجب والضحك والحب وغير ذلك من الصفات التي ظاهرها تشبيهه لله بخلقه¹⁴

يقول ابن تيمية رحمه الله: " ونحن لا ننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن في هذا كله، لكن المتأولين لصفات الله حرفوا الكلم عن مواضعه، وألحدوا في صفات الله وآياته"¹⁵

وينقل ابن تيمية إجماع أهل السنة على حمل الأسماء والصفات على حقيقتها من غير تكييف ولا تعطيل فيقول: " وأهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

القرآن والسنة والإيمان بها وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إلا أنهم لا يكتفون شيئا من ذلك ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ويزعمون أن من أقر بها فهو المشبه¹⁶

وعلى مذهب شيخه سار ابن قيم الجوزية، وبالغ في إنكار المجاز حتى عدّه طاغوتا كما في كتابه (الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة) حيث عقد فيه بابا لإنكار وجود المجاز في القرآن، والذي يعد في نظره وسيلة لإنكار الصفات أو تأويلها عن ظواهرها، يقول ابن القيم في كتابه: " الفصل الرابع والعشرون في ذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين، وانتهكوا بها حرمة القرآن ومحو بها رسوم الإيمان"¹⁷

وسمى الطاغوت الثالث من هذه الطواغيت بطاغوت المجاز حيث يقول: " فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء والصفات وهو طاغوت المجاز"¹⁸

وبعد مناقشته لمفهوم المجاز والوضع والاستعمال رد مذهب أصحاب هذا الطاغوت بأكثر من خمسين وجها، كما رد عبارة الشافعي السابقة حيث يقول: " ... وإذا حُصِّن من العموم شيء لم يصر اللفظ مجازا فيما بقي، وقالت المعتزلة يصير مجازا...ولا نزاع بين المتقدمين أن العامَّ المخصوص حقيقة"¹⁹

وخلاصة القول فإن مذهب ابن القيم كمذهب شيخه في باب المجاز عموما، وفي الأسماء والصفات خصوصا، فإنه تمحل في إنكار المجاز في القرآن، لأن إثباته طريق إلى نفي الصفات أو تعطيلها، وهذا القول مجاني للحقيقة، فإن المجاز يصح القول به فيما يجوز فيه المجاز الذي دلت عليه القرائن والسياقات العامة للنص، أما الأسماء والصفات فالمشهور عند أهل السنة والجماعة إثباتها كما وردت من غير تحريف ولا تعطيل، ودون تكييف أو تمثيل. والقاعدة في هذا الباب قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] حيث نفى عن ذاته مماثلته لخلقه ثم أثبت لنفسه صفتي السمع والبصر.

4 - نماذج قرآنية من المجاز اللغوي.

سبق التعريف بمصطلح المجاز بمفهومه العام، وأما المجاز اللغوي " فهو الذي يكون التجوز فيه باستعمال الألفاظ في غير معانيها اللغوية سواء بالحذف منها أو الزيادة أو غير ذلك"²⁰ ويكون المجاز اللغوي في اللفظ المفرد المستعمل في غير ما وضع له، كالأسد للرجل الشجاع واليد للإنعام ويستعمل في المركب، وهو اللفظ المركب المستعمل في غير المعنى الذي وضع له لعلاقة ما، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، كقولنا: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، تعبيرا عن التردد"²¹

وفي القرآن الكريم ألوان من المجاز اللغوي سواء في صورة اللفظ المفرد أو المركب، ونحن نمثل ببعض النماذج التي وُظِّفَ فيها المجاز توظيفا جماليا زاد من جمالية ودلالة النص القرآني.

فمن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿هُدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة، 6] حيث تجاوز اللفظ القرآني الصورة المعنوية والتي هي دين الإسلام إلى صورة حسية وهي الطريق الواضح وتصوير شريعة الإسلام [معنوي] في صورة طريق واضح بيّن [حسي] يراد منه بيان حقيقة الإسلام في وضوح أحكامه واستقامتها ودلائمها على الخير دلالة واضحة تشبه دلالة الصراط المستقيم الموصل إلى الغاية المقصودة، حيث لا اعوجاج فيه ولا خوف ولا معوقات.

"والعرب لا تطلق وصف (صراط) على الطريق إلا إذا اجتمعت فيه خمسة أوصاف؛ أن يكون طريقا مستقيما، سهلا، مسلوكا، واسعا، موصلا إلى المقصود"²² والإسلام جمع كل هذه الصفات وزاد عليها، فهو الطريق الذي يحقق سعادة الإنسان في الدنيا والنجاة في الآخرة.

وفي مطلع سورة البقرة ألوان من المجاز اللغوي الذي يأتي عن طريق الاستعارة التصريحية، وهي من المجاز اللغوي. ففي قوله تعالى: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] لا يقصد منه الختم الحقيقي، وإنما

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

شبه قلوبهم لتأنيها عن الحق وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه، المسدود منافذه المغشَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه، واستعار لفظ الختم والغشاوة بطريق الاستعارة التصريحية²³

وأسلوب المجاز في هذه الآية حقق أغراضا دلالية وجمالية لا تتأتى مع توظيف الحقيقة، حيث صور بُعد قلوبهم عن الهداية بهذه الصورة الحسية التي يمكن للقارئ أن يتلمس ملامحها الجمالية ويقف على الحقيقة مجسدة تجسيدا حسياً.

ومن أساليب المجاز في صورته الاستعارية التمثيلية ما جاء في قوله تعالى في شأن المنافقين وتعاملهم مع دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9] فالله تعالى لا يخدع ولا يخادع، وإنما "شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها، واستعير اسم المشبه به للمشبهه بطريق الاستعارة التمثيلية"²⁴

ومن روائع المجاز في القرآن الكريم استعمال لفظ الحياة والموت في صورتها المعنوية للدلالة على صورة حسية تعبيراً مجازياً للدلالة على انعدام الفائدة فيما يمثل له كإنعدامها في الميت سواء بسواء. ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9] "فقد استعار لفظ (ميت) للتعبير به عن الخلو من النبات، وشبه خلو البلد من النبات بالموت، واستعار وصف (ميت) على سبيل الاستعارة التصريحية، والجامع بينهما عدم الفائدة في كل من الميت والخلو من النبات"²⁵

وكما يستعير وصف الموت للدلالة على انعدام الفائدة بطريق مجازي، يستعمل - أيضاً - صفة الحياة للدلالة على عكس ما دلت عليه صفة الموت، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 164] "حيث استعار لفظ الحياة [وهو لفظ يدل على وجود الروح في الجسد] للإنبات، واشتق من الإحياء لفظ (أحيا) بمعنى أنبته، فالاستعارة تصريحية تبعية لجريانها في الفعل، فالعنى - إذن - : فأنبت النبات في الأرض بعد يبوسها أو خلوها منه"²⁶

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

وفي سورة الأعراف يصور القرآن استدراج الله لعباده وتوسيع أبواب النعم عليهم تصويرا مجازيا رائعا، حيث يظن هؤلاء أن توسيع الله لهم هو إحسان إليهم، بينما هو في الحقيقة إمهال لهم واستدراج، يقول الله عز وجل: ﴿وَأْمُلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183] " ففي هذه الآية مجاز مرسل، حيث سعى إمهاله إياهم ومرادفة النعم والآلاء عليهم كيدا لأنه سبب الهلاك، وحقيقة الكيد ضرب من الاحتيال [والله منزه عن ذلك] والاحتيال أن تفعل ما هو حسن في الظاهر وأنت تريد ضده، وما حصل لهم من سعة أرزاقهم وطول أعمارهم هو في ظاهره إحسان، لكن المقصود منه الضرر والهلكة"²⁷

ومن الآيات الواضحة في دلالتها على وجود المجاز بصورة فنية وجمالية قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعْوُهُمْ لِيَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْصَمُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7] فالذي يرفض سماع الشيء لا يضع إصبعه كلها في أذنه، وإنما يضع جزءا من إصبعه وهو أسلوب يزيد في قوة المعنى، ويصور شدة رفض هؤلاء للحق، فكانه يقول: إنهم يضعون أناملهم، ولو استطاعوا وضع أصابعهم كلها لوضعوها.

ونختم بنموذج أخير نبين من خلاله ما سبقت الإشارة إليه، وهو إطلاق الخاص وإرادة العام، أو إطلاق العام وإرادة الخاص ونحو ذلك مما أشار إليه الشافعي في عبارته السابقة والتي رفضها ابن القيم كما ذكرنا، ونقصد بهذا النموذج " أن يرد لفظ خاص ويراد به المعنى العام، وهو أسلوب من أساليب المجاز اللغوي، حيث يستعمل اللفظ في غير المراد من ظاهره. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 70] فالخطاب في ظاهره للنبي وحده، لكن المراد هو أمته، وإنما ذكر النبي بشخصه لأنه المكلف بتبليغ ما أوحى إليه. ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73] فالخطاب للنبي ويدخل فيه أمته من بعده على سبيل إطلاق الخاص وإرادة العام"²⁸

ومن هذا الباب إطلاق اللفظ العام وإرادة المعنى الخاص، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ﴿ آل عمران: 173 ﴾ فكلمة (الناس) الأولى ليست على عمومها، وإنما أريد بها معنى خاص والثانية كذلك. وتوضيح ذلك أن (الناس) الأولى يقصد بها نعيم بن مسعود، [أخبر النبي يوم أحد أن قريشا يريدون العودة للقضاء على المسلمين] و(الناس) الثانية يقصد بها أبو سفيان [وهو قائد المشركين يوم أحد] وهذا مجاز مشهور²⁹

والأمثلة على مجاز القرآن كثيرة، غير أننا نكتفي بما ذكرنا من النماذج الصريحة في ذلك، حيث يكتسي النص القرآني في صورته المجازية قيمة تعبيرية ودلالية تزيد من جماله وقوة دلالاته.

خاتمة.

يعد المجاز بأنواعه أحد أبرز آليات التعبير في القرآن الكريم، ووجوده يضيف على النص القرآني مزيدا من الدلالة والجمال، حيث ينتقل بالسامع من عالم المعنويات إلى عالم المحسوسات، ولأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين فإنه ينسج على منوال أساليب العرب، ويوظف أدوات لغوية وتصويرية تمنح النص المزيد من الدلالة.

وإن إنكار المجاز في القرآن بحجة أن المجاز يدل على عجز المتكلم عن أداء المعنى بأسلوب الحقيقة هي حجة واهية، فإن الله تعالى في كلامه منزّه عن العجز، وإذا كانت صفة العجز واردة في كلام البشر فإنها ليست كذلك في كلام رب البشر، وحتى في كلام البشر لا يمكن تبرير استعمال المجاز بالعجز بل هو دليل على اقتدار المتكلم وسعة خياله وبراعة أسلوبه في إيراد المعاني وبناء الصور الفنية التي ترفع من القيمة البلاغية والجمالية لكلامه.

والشواهد القرآنية التي مثلنا بها خير دليل على وجود المجاز في القرآن، وهي حجة للقائلين بالمجاز في القرآن وحجة على غيرهم، والأمثلة في القرآن كثيرة جدا، غير أن احتجاج المنكرين للمجاز بأنه وسيلة لنفي الصفات أو تأويلها لا يصح، فإنما يستعمل المجاز في الأشياء المتشابهة في الوصف، أما صفات الله تعالى فلا تشبه صفات خلقه، ولا يصح حملها على المجاز، بل نؤمن بها كما وردت، من غير تحريف ولا تعطيل، ودون تكليف أو تمثيل.

مراجع البحث.

- 1 - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399 هـ 1979 م.
- 2 - إبراهيم بن منصور التركي: إنكار المجاز عند ابن تيمية، دار كنوز إشبيليا، ط2، 1438 هـ 2018 م.
- 3 - ابن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز.
- 4 - ابن قيم الجوزية.
- أ - الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418 هـ.
- ب - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1412 هـ، 1992 م.
- 5 - أبو بكر البيهقي: مناقب الشافعي، تحقيق: السيد أحمد سقر، مكتبة دار التراث، القاهرة ط1، 1970.
- 6 - أبو حفص عمر بن علي النعماني: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ، 1998 م.
- 7 - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- 8 - أحمد حمد حسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 2017.
- 9 - البخاري السباعي: المجاز في القرآن بين المثبتين والمنكرين، مجلة الباحث، مخبر اللغة العربية جامعة الأغواط، العدد 10، أوت 2012.

حسين سياسي - _____ جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا.

10 - بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957م.

11 - ذياب بن مدحل العلوي: الصراط وما ورد فيه في ضوء نصوص القرآن والسنة، حوليات كلية أصول الدين، المنوفية، جامعة الأزهر، العدد36، 1438هـ، 2017م.

12 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية. أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم دمشق ط1، 1416هـ، 1996م.

13 - محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1996.

14 - محمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوي، إبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964.

15 - محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، القاهرة. محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3.

16 - محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط4، 1402هـ 1981م.

17 - محمد مختار: حقيقة المجاز بين المنع والجواز في الخطاب القرآني، رسالة ماجستير، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2011-2012.

18 - محيي الدين درويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار الإرشاد، حمص، سورية، ط3 1412هـ 1992م.

19 - معتوقة بنت حسن الحساني: المجاز في القرآن الكريم - دراسة تأصيلية - مجلة الجامعة العراقية، العدد48، ج1.

21 - يحيى بن حمزة المطلي؛ المؤيد بالله: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط3، 1426هـ.

- ¹ عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، ج1، ص494. أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق:
- ² محمد بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، ج5، ص326.
- ³ يحيى بن حمزة المطليبي؛ المؤيد بالله: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط3، 1426هـ، ج1، ص36.
- ⁴ أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص249.
- ⁵ محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996، ج10، ص239.
- ⁶ أبو بكر البيهقي: مناقب الشافعي، تحقيق: السيد أحمد سقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط1، 1970، ج1، ص376.
- ⁷ البخاري السباعي: المجاز في القرآن بين المثبتين والمنكرين، مجلة الباحث، مخبر اللغة العربية، جامعة الأغواط، العدد 10، أوت 2012، ص72.
- ⁸ محمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوي، إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ج11، ص25.
- ⁹ ينظر: إبراهيم بن منصور التركي: إنكار المجاز عند ابن تيمية، دار كنوز إشبيلية، ط2، 1438هـ، 2018م، ص63.
- ¹⁰ ينظر: أحمد حمد حسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2017، ص148.
- ¹¹ محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: أحمد شاکر، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص52 بتصرف.
- ¹² معتوقة بنت حسن الحساني: المجاز في القرآن الكريم - دراسة تأصيلية - مجلة الجامعة العراقية، العدد48، ج1، ص73.
- ¹³ بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957م، ج2، ص255.
- ¹⁴ محمد مختار: حقيقة المجاز بين المنع والجواز في الخطاب القرآني، رسالة ماجستير، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2011-2012، ص39 وما بعدها.
- ¹⁵ ابن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز، ج6، ص364.
- ¹⁶ المصدر نفسه: ص198.

¹⁷ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ، ج3، ص795.

¹⁸ ابن قيم الجوزية: مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1412هـ، 1992م، ص251.
¹⁹ المصدر نفسه، ص302.

²⁰ عبد الرحمن حسن حبتكه الميداني: البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط1، 1416هـ، 1996م، ج2، ص218.
²¹ المصدر السابق، ص223.

²² ذياب بن مدحل العلوي: الصراط وما ورد فيه في ضوء نصوص القرآن والسنة، حوليات كلية أصول الدين، المنوفية، جامعة الأزهر، العدد36، 1438هـ، 2017م، ص8.

²³ ط4، 1402هـ، 1981م، ج1، ص33. محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان،
²⁴ المصدر نفسه، ص38.

أحمد محمد حسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن، ص310.²⁵

²⁶ المصدر نفسه.

²⁷ محيي الدين درويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار الإرشاد، حمص، سورية، ط3، 1412هـ، 1992م، المجلد10، ص186.

أحمد حمد حسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم، ص487، 488 بتصرف.²⁸

أبو حفص عمر بن علي النعماني: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1998م، ج3، ص429.²⁹

الحجاج اللغوي في القرآن الكريم

- آيات قرآنية مختارة أنموذجا-

Linguistic Argumentation in the Holy Qur'an: - A Case Study of Selected Qur'anic Verses-

نعيمة حمو

hammou.naima1981@gmail.com

جامعة أمحمد بوقرة بودواو- بومرداس-

الملخص:

نسعى من خلال هذا البحث إلى دراسة نظرية الحجاج في مجال البلاغة الجديدة والتي تعتبر علما جديدا، بسبب التّحول من مفهوم البلاغة التّراثية، القائمة على دراسة الأساليب والصّور البيانية، إلى منظور جديد يدخل في الإطار التّداولي، أي الجانب التّواصلية للغة. فنبيّن هذه الدّراسة في القرآن الكريم الذي يحوي نظرية الحجاج في الخطابات القرآنية التي تهدف إلى الإقناع والتأثير في المتلقي، فكانت هذه الدّراسة أيضا لغرض الانفتاح على النظريات والمناهج الغربية، الذي أدّى بدوره إلى تطوير الدّرس البلاغي العربي. فإلى أي مدى استعمل القرآن الكريم الأساليب الحجاجية في تقرير المسائل الدينية؟

الكلمات المفتاحية: البلاغة الجديدة، الحجاج، الخطاب القرآني، علم المعاني.

Abstract:

This study aims to explore argumentation theory within the framework of new rhetoric, which is considered an emerging field of study. It represents a shift from the traditional concept of rhetorical heritage—focused primarily on style and metaphor—towards a new perspective grounded in a pragmatic framework, emphasizing the communicative aspects of language.

The study examines Qur'anic verses that incorporate argumentation theory within the Qur'anic discourse, designed to persuade and influence tbridge Arabic rhetorical studies with Western theories and methodologies, fostering their development and modernization.

The central question this study addresses is: To what extent does the Qur'an employ argumentation techniques to address and convey religious issues?

Keywords: New rhetoric, argumentation, Qur'anic discourse, semantics

مقدمة:

يعتبر الحجاج اللغوي من المواضيع الأكثر اهتماما ودقة في الدّراسات القديمة والحديثة، فبعدما كانت البلاغة مقتصرة على علم المعاني والصّور البيانية، أصبحت في عصرنا الحالي متجهة نحو تصورات جديدة أدّت إلى إدماج نتائج اللّسانيات الحديثة في الدّرس البلاغي، فتخلصت البلاغة في هذا التّصور من تبعيتها التّاريخية للخطابة، والتّأثير في عاطفة المتلقي، فتحررت من صرامة الاستدلال؛ لتتخذ مكانها بين الخطابة والجدل، وبهذا نجد الحجاج يكتسي أهمية في الحياة اليومية فهو يستعمل للإقناع وتأكيد المقاصد بين المتكلم والمتلقي في محاور التداولية، وهذا باستعمال الأدلة والبراهين في عملية التّواصل. ففي القرآن الكريم نجد أنّ الأسلوب الحجاجي متنوع بتنوع الأساليب اللّغوية، وغايتها التّبليغ.

سنحاول من خلال بحثنا هذا أن نقف على تمظهرات الحجاج في نصوص القرآن

الكريم وهذا من خلال الطّريقة الحوارية القائمة في النّص القرآني.

1- مفهوم الحجاج:

لغة: تأتي الكلمة من الفعل "حج" بمعنى قصد أو عزم، ومنها جاءت كلمة حجة التي تعني البرهان، والدليل الذي يستخدم لإثبات صحة رأي ما أو تنفيذ رأي آخر. يقول ابن فارس: " الحاء والجيم أصول أربعة، فالأول القصد وكل قصد حج... ومن باب المحجة، وهي جادة الطريق وممكن أن تكون الحجة مشتقة من هذا، لأنها تقصد، وبها يقصد الحق المطلوب يقال حاججت فلانا فحاججته، أي غلبته بالحجة، وكذلك الظفر يكون عند الخصومة والجمع حجج، والمصدر الحجاج"¹، فنستنتج من خلاله أنّ الحجاج في اللغة العربية هو فن الإقناع أو التأثير في الأشخاص أثناء عملية التّواصل، وذلك بإعطاء أمثلة وشواهد مقنعة للمخاطب للتأثير عليه. وبدل الحجاج بمفهومه الاصطلاحي في القرآن الكريم على الحوار والخطاب الذي يراد به إبانة الحقائق الإيمانية، وإبلاغها بالأساليب الإقناعية، التي ترشد إلى الهداية باستمالة قلب المخاطب إلى الحق

فالمفهوم الاصطلاحي إذن يكاد يتماشى مع معناه اللغوي، وإن تعددت حقول استعماله حيث ينظر إليه على أنّه " جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيًا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"²، بمعنى أنّ الحجاج خطاب كان لغرض إقناع المتلقي والتأثير فيه.

2- الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية:

تتمثل في العناصر اللغوية الخاصة بالحجاج، والتي تربط بين الأقوال أو بين الحجج، أو بين حجة ونتيجة، مثل الأدوات التالية: لكن، إذن، بل لأنّ، حتى... مثل قولنا: زيد يحسن إلى التّاس، إذن سيحبه التّاس، فالرابط الحجاجي (إذن) يربط بين الحجة: (زيد يحسن إلى التّاس) والنتيجة: (سيحبه الناس) أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط كما هو الحال في الروابط الحجاجية بين الحجج، أو بين حجة ونتيجة، ولكنها تقيد الإمكانيات الحجاجية لقول ما، بواسطة أدوات لغوية، كأدوات القصر، مثل: (ما، إلّا،...) وأدوات أخرى، مثل: ربما، كاد، تقريبا، وهذا مثل:

1- بلغت حرارة الطفل 38°

2- ما بلغت حرارة الطفل إلا 38°.

فالملفوظ الأول تتعدد إمكانته الحجاجية، وتعدد التتائج التي يؤدي إليها، فقد تكون الحرارة في نظر القائل مرتفعة، مما يعني في ملفوظه دعوة إلى أخذ الإسراع بالطفل إلى المستشفى كما يحتمل أن يكون الملفوظ فيه دعوة لعدم التسرع في أخذ الطفل إلى المستشفى، وذلك بسبب دخول العامل الحجاجي (ما...إلا) وهذان النوعان يحققان ما يسمى بالعلاقة الحجاجية، وهي تختلف عن علاقة الاستلزام المنطقي، لأن ما يحقق هذه العلاقة هي المكونات اللغوية.

ولقد عرفها أبو بكر العزاوي بقوله: "الروابط التي تربط بين القولين، أو بين حجتين أو أكثر وتسد لكل قول دورا محددًا داخل الاستراتيجية العامة"³، وعليه نقول إن هذه الروابط الحجاجية اقترنت في البداية بالأدوات النحوية.

ومظاهر الحجاج وطبيعته في الخطاب القرآني "تختلف من سورة إلى أخرى، وهذا بالنظر إلى عدد الروابط، ونوع العلاقات المنطقية التي تشتمل عليها السورة، ثم إن بعض السور القرآنية لها طابع حجاجي قوي، وهذا في تناسب وانسجام تام مع المضمون العام للسور"⁴، إذن فالقرآن الكريم لم يقتصر في الإقناع بحجته بطريقة واحدة، بل تنوعت طرقه في عرضها.

3- العلاقات الحجاجية:

إن النص الحجاجي علاقات وتفاعل، وليس مجرد حجج يصرّف بعضها إلى جانب بعض بغير ارتباط أو انسجام، فالنص الحجاجي إذن بناء تتسق عناصره، وتربط في داخله الحجج، تحقيقا لقصدية صاحبه، والعلاقات الحجاجية إنما هي نتاج الروابط الحجاجية، والتي تتمثل كما قلنا سابقا في الأدوات اللغوية التي يعتمد عليها صاحب النص، في بناء الربط بين أجزاء نصه، لينشئ العلاقات الحجاجية التي تتعدد بتعدد الخطابات، وتختلف

نعيمة حمو- _____ الحجاج اللغوي في القرآن الكريم - آيات قرآنية مختارة أنموذجا-

باختلاف المتلقي. وأهم العلاقات الحجاجية: العلاقة السببية، علاقة التتابع، علاقة الاقتضاء، الاستنتاج، وعلاقة عدم الاتفاق.

4- تحليل ظاهرة الحجاج في القرآن الكريم:

نسعى في هذا الجزء التطبيقي إلى تحليل بعض النصوص القرآنية، الموجهة إلى أهل الكتاب تحليلاً بلاغياً، من وجهة نظر البلاغة الجديدة، ينصبّ فيه الاهتمام خاصة على ما يحدثه الخطاب من تأثير في المتلقي، باعتباره الهدف الأسمى الذي نزل القرآن لأجله، وعلى رصد ما يتضمنه النص من حجج.

1- أسلوب النداء: سورة آل عمران

1- يقول الله تعالى: "وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ" سورة آل عمران، الآية: 69.

2- "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ" الآية: 70

الأبعاد الحجاجية:

في الآية 01: الخطاب موجّه من الله تعالى إلى محمد (ص) وإلى الفئة المؤمنة معه عبر الوحي، الذي نزل به جبريل عليه السلام.

الآية رقم 02: الخطاب موجّه إلى أهل الكتاب، وهم أهل التوراة من اليهود، وأهل الإنجيل من النصارى، فالنداء فيه شدّ الانتباه، وفيه إبلاغ وتوصيل الرسالة، فأسلوب النداء هنا هو من الإنشاء الطلبي، والحجاج في صلبه طلب صريح.

وأهل الكتاب: استعمال للقب هو صفة من الصفات التي يمكن للمرسل أن يحاجج من خلالها إضافة إلى دلالتها على التضمين الذي مفاده: إنكم تعلمون الكتاب، وتدركون الحق فيه، وإنكم أهله، وأولى الناس باتّباع ما جاء فيه،... فوصفهم بهذه المتضمنات علامة على معرفتهم بالحق وليس هذا فحسب، بل ليؤسس عليها فعلاً حجاجياً، إضافة إلى أنّها حجة في ذاتها، وهذا ما يثري دلالات الخطاب في الحجاج، إذ لا يخلو اختيار اللقب أو إطلاقه من قصد حجاجي، إذ لا يقصد به تصنيف الموصوف بالنظر إلى السمات التي تشركه مع

نعيمة حمو- _____ الحجاج اللغوي في القرآن الكريم - آيات قرآنية مختارة أنموذجا-

العناصر التي ينتهي إليها فحسب ولكنه يعبر غالبا عن تحديد موقفه منه، وطريقة الحكم عليه ومعالجته.

2- أسلوب الاستفهام: سورة الكهف:

الاستفهام من الأفعال اللغوية التي تندرج ضمن مباحث علم المعاني، وهو من الأساليب الإنشائية التي: "هي الجمل والأقوال التي لا تصف أي واقع في العالم الخارجي، فلا يمكن أن يقال عنها صادقة (مطابقة لواقع ما) أو كاذبة (غير مطابقة له) ولكن مجرد النطق بها يشكل في حد ذاته فعلا معيناً"⁵، فالاستفهام إذن من الأساليب اللغوية التي تحقق أغراضا تواصلية وتأثيرية.

وقد ورد الاستفهام في سورة الكهف في قوله تعالى: " قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ " (الكهف: الآية 72) فهو استفهام بالهمزة تقريرية يتضمن قوة حجاجية تتمثل في أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنبيه موسى- عليه السلام- وللبشر من بعده أن علم الإنسان يبقى محدودا، وذلك من خلال إرساله إلى العبد الصالح "الخضر" وهبه الله علما يفوق علم بقية البشر، فلم يستطع موسى الالتزام بالصبر أمام أمور عجيبة قام بها الخضر، ولم يكن هو يعلم تأويلها.

وكذلك نجد الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا" (الكهف: 09)، فهذا الاشتغال يشتمل على قوة حجاجية تتمثل في أن الله عز وجل أراد أن يلفت انتباه السائلين إلى أن قصة أصحاب الكهف والرقيم ليست بأعجب آية، بل هناك آيات أعجب منها، مثل: خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر،...

ولقد أشارت هذه الآية إلى قصة أصحاب الكهف كإحدى الحجج التي تثبت صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين -عليه السلام-

وفي قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ لِيَتَسْأَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

نعيمة حمو- _____ الحجاج اللغوي في القرآن الكريم - آيات قرآنية مختارة أنموذجا-

فَلْيَنْظُرْ أَهْمُهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا" (الكهف:19)، تتضمن هذه الآية الكريمة استفهاما إنكاريا في قوله تعالى: (كم لبثتم) وتبرز قوته الحجاجية في استنكار أصحاب الكهف من أنفسهم طول رقودهم، لأن دخولهم إلى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان في آخره.

كما نجد في القرآن الأسلوب الاستفهامي التوبيخي في قوله تعالى: "أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ" ففي هذه الآية نجد قوة حجاجية تكمن في إنكار موسى-عليه السلام- على العبد الصالح قتله لغلام صغير لم يقترف ذنبا في حياته، فالخضر حسبه، قام بعمل سيء تنكره العقول وتنفر منه النفوس، لأن هذه الحادثة لا يمكن تغييرها، ولا إصلاحها حسب رأي موسى - عليه السلام- الذي لم يكن يعلم تأويل هذه الحوادث.

وفي قوله تعالى: " فَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" تتضمن هذه الآية قوة حجاجية تظهر في إنكار أصحاب الكهف على أهلهم عبادتهم للآلهة متعددة من دون الله الواحد الأحد، ولم يستطيعوا أن يأتوا بحجة أو برهان على صحة اعتقادهم، فقد كذبوا على الله في ذلك، إذ أثبتوا له صفة مخالفة للواقع، وكذلك ظلموا أنفسهم بعنادهم، ومعارضتهم لعقيدة التوحيد.

3- أسلوب القسم: سورة الشمس

1- يقول تعالى: "وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا" الآية: 05 والمقصود: أقسم بالسَّمَاءِ وبنفسه.

فالقسم نوع من أنواع الفعل الكلامي، وهو أحد أساليب التوكيد، إذ يستعمل عند الحاجة إلى توثيق الكلام، والأخبار، أو الوعود،... وغير ذلك مما يستلزم توكيد الأمر، فأسلوب القسم يكون لإثبات القول، ويوجهه يجعل في الوقت نفسه الحجة على المخاطب، ويلزمه بها. ففي قسمه بالسَّمَاءِ أضاف لنا الله سبحانه، وما بناها، فعلق لفظ القسم بالسَّمَاءِ، ليثبت سبحانه عظمته في بنائه لها حتى يكون مدعاة للتأمل، والنظر في مخلوقات الله.

نعيمة حمو- الحجاج اللغوي في القرآن الكريم - آيات قرآنية مختارة أنموذجا-

فإنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر القسم لكَمالِ الحجة، وتأكيدِها، وذلك أنَّ الحكم يفصل باثنين، إمَّا بالشَّهادة، وإمَّا بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة" ⁶
- يقول تعالى: " وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا... " ففي تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى بسبع آيات كونية هي: الشمس، القمر، الليل، النهار، السماء، والأرض، والنفس البشرية، مع حالة لكل مقسم به وذلك على شيء واحد، وهو: فلاح من زكى تلك النفس، وخيبة من دساها، وجواب القسم في قوله قد أفلح.

الخاتمة:

وفي الأخير نقول: إنَّ القرآن الكريم من الخطابات التي يتجلى فيها حضور الحجاج كآلية تعبيرية إقناعية، فهو خطاب إلهي موجَّه إلى البشرية جمعاء، وهو أيضا خطاب يقوم على الحجج والأدلة والبراهين، التي يستخدمها للتأثير في جمهور السامعين والمتلقين على اختلاف مشاربهم وتواجدهم عبر الزَّمان والمكان، كما يحاول استمالة عقولهم وتوجيه نفوسهم وهدايتهم إلى الحق.

- خلص البحث إلى إثبات أنَّ لغة القرآن الكريم لغة تواصل وحجاج، تمتاز عن غيرها من اللغات بدقة.
- تنوع الأساليب اللغوية الحجاجية في القرآن الكريم، من أسلوب القسم، الاستفهام النداء،...، والغاية منها هو إثبات وتوثيق الكلام، والإقناع.
- تختلف مظاهر الحجاج وطبيعته في القرآن الكريم من سورة إلى أخرى، وهذا بالنظر إلى عدد الروابط، ونوع العلاقات المنطقية التي تشتمل عليها السور.

الهوامش:

- 1 - ابن فارس أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح، عبد السلام محمد هارون، مصر، ط 2، 1966، ج 2، ص 29.
- 2 - محمد العبد، النَّص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول للكتاب، القاهرة، 2002 ع 60، ص 44
- 3 - أبو بكر العزاوي، اللُّغة والحجاج، الرباط، ط 1، 2005، ص 16
- 4 - أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، الدَّار البيضاء، ط 1، 2007، ص 58.
- 5 - المرجع نفسه، ص 54.
- 6 - السيوطي أبو الفضل، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ط 1، 2006، ص 133.

المراجع:

- 1- ابن فارس أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، مصر، ط 2، 1966، ج 2.
- 2- أبو بكر العزاوي، اللُّغة والحجاج، الرباط، ط 1، 2005.
- 3- _____، الخطاب والحجاج، الدَّار البيضاء، ط 1، 2007.
- 4- السيوطي أبو الفضل، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ط 1، 2006.
- 5- محمد العبد، النَّص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول للكتاب، القاهرة، 2002 ع 60.

تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

يعددها الأستاذان: هدية جيلي: أستاذ محاضر "أ"

h.djili@univ-boumerdes.dz جامعة بومرداس

رضا زلاقي: أستاذ التعليم العالي

r.zellagui@univ-boumerdes.dz جامعة بومرداس

ملخص المداخلة:

إن المناهج الحديثة في دراسة الخطاب ومختلف الجوانب المتعلقة به، قد أثبتت جدواها وفعاليتها في الوصول إلى تحليل عميق يسبر مختلف نواحي الخطاب وخلفياته، وهو ما يعطينا صورة واضحة جلية عنه غاية الوضوح والجلاء.

وتأويل الخطاب وتفسيره -مهما كان- فهو غير نهائي، ويبقى كل خطاب في حاجة إلى إعادة قراءة، وربما تأتي القراءات المستجدة للخطاب بما لم تأت به القراءات السابقة. والخطاب القرآني، باعتباره نصا مركزيا في الثقافة العربية الإسلامية، يحتاج إلى إعادة قراءة هو الآخر بين فترة زمنية وأخرى، وهذا ليس بدعا، فلطالما فعل المفسرون ذلك عبر تاريخ التفسير الطويل.

لكن لا ينبغي عند تأويل الخطاب القرآني وإعادة قراءته أن نغفل عن خصوصياته، فهو أولا وأخيرا مناهج دين في العقيدة والشريعة، لذا فإن إعادة تفسيره يجب أن تكون متماشية مع الأصول العامة التي أقرها بنفسه، ولا تصطدم مع حقائقه وقواعده التي هي محل اتفاق بين أكثر أتباع الديانة الإسلامية.

ومن المهم جدا مناقشة صلاحية المناهج المعاصرة وأدواتها -كالتداولية مثلا- لدراسة الخطاب القرآني، إذ أنها وضعت أساسا لدراسة خطابات بشرية مفتقرة لصفة القدسية والإطلاق. لذلك لا بد من محاولة السعي إلى إيجاد ملامح منهج قد يصلح أن يكون خطوة

هدية جبلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

بسيطة لقراءات تفسيرية أخرى متنوعة وثرية للخطاب القرآني، قد يكون لها أثر في تغير تصوراتنا حول القرآن وفهم مواضيعه فهما جديدا من خلال وضعها في سياقاتها: الزمانية والمكانية والثقافية والاجتماعية والمقامية، ولعل هذا من السبل الكفيلة التي بها يُفتح الباب لإعادة قراءة الخطاب القرآني وتأويله.

ويمكن القول أخيرا أن المداخلة تحاول الإجابة عن السؤال الآتي:

إلى حد يمكن تناول الخطاب القرآني تفسيريا باستعمال المناهج الحديثة؟ وما محاذير ذلك وعواقبه؟ وهل من ضرورة لإيجاد منهج حديث خاص لتفسير القرآن؟ وما ملامح هذا المنهج؟

1- تمهيد:

لعلّه ليس من الغلوّ في شيء، إذا ذهبنا إلى أنّ الخطاب القرآني كان بالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية العامل الأساسي الذي وجّه الفكر ورسم آفاقه؛ وبسببه نشأت جملة من العلوم التي تدور في فلكه، مثل التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والفقه وأصوله وعلم الكلام... وكذلك العلوم التي تدور في الظاهر بعيدا عنه مثل علم اللغة والنحو وخاصة البلاغة.

لذلك فقد حظي الخطاب القرآني بالكثير من البحث والدراسة بغرض فهمه واستخراج الأحكام المختلفة من متنه بداية، فنشأت جملة من العلوم لهذا الغرض وخاصة منها التفسير الذي اعتمد في بيان معاني القرآن على البنى اللغوية المختلفة، ولم يلبث الأمر طويلا على هذه الحال حتى ظهر علماء الإعجاز القرآني الذين أخذوا منعى آخر في بحث هذا الخطاب. فهل تكفي هذه القراءات السابقة (اللغوية والإعجازية) للخطاب القرآني في تمثّل غاياته وأهدافه؟ أم أن هذا الخطاب في حاجة إلى قراءات أخرى معاصرة وبأدوات جديدة مختلفة؟

2- مركزية الخطاب القرآني في الحضارة العربية:

إنّ الخطاب القرآني قد مثل بالنسبة إلى الثقافة العربية كلّها الأفق البياني المستحيل الذي لا يسع أيّ بليغ إدراكه، فقد ارتقى في بيانه وحسنه المرتبة التي تنحسر دونها الهمم،

هدية جيلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

وتنقطع الرقاب؛ ذلك أنّ محاكاته خرجت عن الوسع، وعباراته أدركت المستوى الذي فارق قدرة البشر مما دفع إلى معرفة أسرار إعجازه، والاستدلال على الأسباب التي جعلته خارجًا عن طاقة البشر.¹

وقد جاء التحدي والإعجاز البلاغي في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷻ: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾⁽²⁾، وقوله كذلك ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾⁽³⁾، فالأسلوب القرآني خارق للعادة، وخارج عن مألوف العرب.

ومن أبرز النظريات التي ركز عليها العلماء أبحاثهم ودراساتهم اللغوية الخاصة بإعجاز القرآن الكريم^(*) نجد جملة من النظريات تترتب حسب الأسبقية في الظهور زمانيا على النحو التالي:

1. نظرية الإعجاز اللفظي. " الجاحظ
2. نظرية إعجاز البلاغة. الباقلاني
3. نظرية إعجاز النظم. الجرجاني
4. نظرية إعجاز الإيقاع النغمي الرافي
5. نظرية إعجاز التصوير الفني^(*) " سيد قطب

إنّ تبني قضية الإعجاز اللغوي كمسئلة ثابتة بالنسبة لخصوصية المعجزة القرآنية ليس تعبيرًا عن قناعة شخصية بالمزة- وحتى وإن كان ذلك كذلك- ولكنه يلخص النتيجة العامة التي يؤكدتها استقراء الأبحاث المتخصصة لإعجاز القرآن، بإجماع غالبية العلماء المتخصصين في الدراسات القرآنية واللغوية... إلا أنّ الأمر الذي قد يحير الباحث في تناول هذا الموضوع، هو ذلك المصير الذي آلت إليه الأبحاث اللغوية الخاصة بالإعجاز القرآني من تنوع في النظريات وتعدد في الآراء، حتى جاز لنا - على حدّ تعبير عيسى بن سديرة-

هدية جبلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

الحديث هذه المرة عن أوجه متعددة داخل نطاق الإعجاز اللغوي ذاته، وهو ما يستشف الإعجاز اللغوي إلى مواضيع خاصة بالألفاظ المفردة أو الأنساق والتراكيب المنتظمة أو البلاغة أو الإيقاع وما إلى ذلك.⁴

3- حاجة الخطاب القرآني لمناهج تحليل جديدة:

لمّا كان الأمر كذلك، كان حريا بالباحثين أن يفيدوا الدرس القرآني بآليات اللسانيات والتداولية وغيرها؛ باعتباره يحتوي على مضامين الحياة والواقع بشتى طروحاته المعرفية المتعددة والمتجددة، في الوقت نفسه لم يكن مخصوصاً بالبيئة العربية القديمة؛ بل كان ولا يزال يضم رمزيات الواقع ومكوناته باعتبار الشمولية المؤسسة فيه؛ لأنه محكوم في جوهره بمنهجية معرفية من شأنها أن تستوعب كلّ ما جدّ واستحدث، لذلك يستحيل تقييده في إطار زمن محدد، أمّا التناول الحديث للنص القرآني، فإنّ الأمر في معظمه لم يتجاوز ترديد ما ذكرته تفاسير الأقدمين، وذلك بإعادة صياغتها دون سعي جليّ وواضح في التطوير- إلاّ بنسب قليلة- فنصّنا اليوم في رحاب العولمة الثقافية والتثقاف هو في حاجة ماسة إلى ضرورة مواصلة دراسته وفق الخصوصيات الحديثة ككل بالاستفادة ممّا درّ به الفكر المعرفي المعاصر، وبخاصة تلك الحقول العلمية التي اهتمت بـ "اللغة"، وطالما أنّ القرآن الكريم هو تعاقب لغوي بدرجة أولى فحري بنا أن نطوّر الدراسات القرآنية بالاستفادة من معطيات النظرية اللسانية عامة.

إنّ مواصلة المسار الإبداعي في دراسة القرآن الكريم شيء حتمي تفرضه ضرورات الوجود الإسلامي ذي الطابع الكوني الذي يهدف في جوهره إلى استقطاب النماذج البشرية ككلّ، صحيح أنّ القرآن الكريم معجز ببيانه وبلاغته، لكن لازلنا نقول- والقول لعبد الحليم بن عيسى- إنّ الإعجاز لا يعني التعجيز؛ بل إنّّه يفتح المجال أكثر من أجل استمرارية ومداومة التجديد وفق ما تمليه الضرورات الزمنية المتعاقبة*.⁵

وعلى محلل الخطاب القرآني أن يهتمّ بضبط العائد المعرفي للمفردة القرآنية، على سبيل المثال، بدقة الاستعمال اللغوي في الخطاب القرآني من جهة، وقيمة العلاقة المرهونة بين اللفظ والمعنى في كل سياق لغوي من جهة ثانية، وهذا ما جعل "أبا القاسم حاج حمد"

هدية جيلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

يؤكد على أنّ التحليل الدقيق للقرآن الكريم يتطلب قاموساً قرآنياً جديداً يعتمد في فكرته على تحديد معاني المفردات كما يحددها القرآن نفسه، وكما يستخدمها، فهناك فارق دقيق بين شاعرية العرب اللغوية مع تفرد لها اللساني، ودقة التوظيف القرآني لهذه اللغة، إنّ هذا القاموس سيكشف عن استخدامات قرآنية للمفردات قلّ أن فكّر فيها العرب أنفسهم، وسيساعد في جلاء مفهوميات كثيرة ظلت مكنونة في القرآن.⁶

وعليه فالتمييز بين التوظيف القرآني للغة والتوظيف العربي-بتعبير حاج حمد- واجب لا محالة لمعالجة الخطاب القرآني؛ ذلك أنّ الاستخدام القرآني للمفردة استخدام مميز يرقى بالمفردة إلى مستوى المصطلح يتعارض مع ما وثّقه العرب في لسانهم البلاغي ويصطدم كذلك بمرجعية الموروث لأنّ القرآن الكريم ارتقى بكلمات التميز والتفرد في خصائص الكلمات، فما من كلمة إلاّ ولها معناها المحدد الذي لا يحتمل- كنفسية العربي تماماً- أيّ تماثل أو تطابق مع كلمة أخرى.

4- نحودراسات متفردة للنص القرآني:

من المؤكّد أن تفسير القرآن من أدقّ العمليات اللغوية الحضارية التي يعرفها تاريخ اللغات والثقافات في العالم، فما من كلمة فيه إلاّ ولها دلالتها المتميزة ولو بدت مترادفة أو متشابهة، غير أنّ معرفة اللغة العربية وحدها لا تكفي في الفهم الدقيق لبعض خفايا الكتاب، فالقرآن ليس عربياً فقط باعتباره متنزلاً بلغة العرب، ولكنه كبناء إلهي ضمن هذه اللغة استوعب مفردات اللغة نفسها ضمن استخدامات دقيقة للغاية، قلّ أن فطن إليها أهل اللغة أنفسهم.⁷

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول أنّ الاعتماد على مخرجات اللسانيات في التحليل -بمختلف مناهجها ومدارسها- وبناتجها القيمة والمتنوعة داع إلى تناول الخطاب القرآني باعتباره معطًى لغوياً بدرجة أولى، يعد في جوهره منهجية علمية من شأنها أن تزج الكثير من الإشكاليات المعرفية المتنوعة التي كانت تصادف الدارسين؛ بل إنها ستساعدنا من أجل التبصّر في المنهج القرآني الكلّي الذي يحكم تنظيم هذا الكون؛ قلنا - والقول لعبد الحليم بن عيسى- "المنهج القرآني": "لأنّ الإعجاز القرآني ليس مرتبطاً بالمبنى اللساني فقط،

هدية جيلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

بل هو على صلة أيضاً بالمعنى المنهجي الدقيق الذي يحكم هذا المبنى، كما أنّ الارتكاز على بعض مباحث علم اللغة لم يكن وليد هذا العصر؛ بل لقد أثبت النحو بقواعده التقليدية جدارته في الكشف عن الأحكام الشرعية في القرآن الكريم، كونه يعد في جوهره الآلية التي نفهم من خلالها علائق التركيب اللغوي.

ولذلك اعتُبر النحو من الأساسيات القاعدية في تتبع الأحكام الفقهية واللسانيات باعتبارها منهجية أوسع تأخذ بكل المكونات المحققة للغة ستسهم بفعالية أكثر في إثراء الدراسات القرآنية، وهنا نشير كذلك إلى أنّ الخطاب يمكن أن يقدم لللسانيات عينات وشرائح لغوية متنوعة للتحليل اللغوي، فحريٌّ بالباحثين إذًا أن يهتموا بالخطاب القرآني ويكتشفوا دراستهم وتحليلهم له فيسهموا من ثمّ إلى إثبات العالمية فيه درسًا ودراسة.⁸

من ذلك مثلا، الاعتماد على اللسانيات النصية في دراسة الخطاب القرآني، وهو ذلك الفرع من فروع اللسانيات الذي يهتم بدراسة الخطاب باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة؛ أهمها الترابط، التماسك ووسائله وأنواعه والإحالة أو المرجعية وأنواعها، والسياق النصي.. ودور المشاركين في الخطاب (المرسل والمستقبل)، وهذه الدراسة تتضمن الخطاب المنطوق والمكتوب على حدّ سواء.⁹ وغيرها من المباحث التي أنتجتها اللسانيات الحديثة.

5- جدوى تحليل الخطاب القرآني باستعمال الأنساق التداولية

نتطرق -بداية- إلى تعريف التداولية وأهم مفاهيمها وأنساقها الإجرائية قبل أن نعالج مدى صلاحيتها لتحليل الخطاب القرآني ومحاذير ذلك.

التداولية كمصطلح عربي ترجمة للمصطلحين *Pragmatic* الانجليزي، و*Pragmatique* الفرنسي. وقد عُرّف مصطلح التداولية تعريفات عديدة منذ ظهوره لأول مرة، فقد أخذ مصطلح *Pragmatique* بدايةً من الأصل اليوناني "*pragma*" الذي يعني: «العمل، ومنه اشتقت الصفة اليونانية: *Pragmatikos* التي تحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل: *Action*»¹⁰.

هدية جبلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

وقد عرف مصطلح التداولية تعريفات اصطلاحية عدة منها: «التداولية هي علم يعالج علاقة العلامات بمؤوليها»¹¹. فالتداولية -حسب هذا التعريف- هي العلم الذي يعالج علاقة العلامات بمؤوليها، والعلامات هنا لفظ عام يندرج تحته العلامات اللغوية والعلامات غير اللغوية، هذه العلامات التي يمكن أن تصنع الدلالة بطرق مختلفة وبوسائط متنوعة، والتداولية تتصدى لدراسة العلاقات بين هذه العلامات والمعاني التي أنتجتها.

أما تعريف موريس "Mourice" للتداولية فقد جاء فيه: «التداولية هي العلاقات بين العلامات ومستخدميها»¹². يمكن أن نلاحظ أن هذا التعريف يختلف عن سابقه، فالتداولية عند موريس تختص بدراسة العلاقات بين العلامات لغوية كانت أم غير لغوية وبين مستخدميها، ومستخدمو العلامات هم المرسلون لها والمتقبلون لها، فالمستخدم الذي يرسل العلامة يفعل ذلك بكيفية محددة منضبطة بضوابط الدلالة أساسا، أما المتلقي للعلامة فليس بالضرورة أن تكون الدلالة الناشئة عنده مكافئة للدلالة التي أراد المرسل إبلاغها، وهذا الكل من العلامات ودلالاتها ومستخدميها والعلاقات القائمة بين هذه الأطراف يحللها البحث التداولي.

يقول جاك موشر "J. Moeschler" في "المعجم الموسوعي للتداولية" الذي اهتم فيه بالعلامات اللغوية خاصة: « نستطيع تعريف التداولية، بصفة عامة، بأنها دراسة استعمال اللغة، وذلك في مقابل دراسة نسق اللسان الذي يعد الموضوع الحقيقي للسانيات»¹³.

فهذا التعريف يحدد التداولية بأنها الاستعمال اللغوي، وهو بذلك يستثني كل العلامات غير اللغوية كما أنه يستثني من الدراسة ما يعرف بالوضع اللغوي الذي تدرسه اللسانيات، لأنه لا يقدم للبحث الدلالي الشيء الكثير، فالتداولية بهذا المفهوم تدرس الخطاب اللغوي الفعلي الذي أنتج في سياق معين، والخطاب ما هو إلا استعمال فعلي للغة. وباعتبار أن التداولية قد نشأت نشأة فلسفية على يد جون أوستين J. Austin في النصف الثاني من القرن العشرين فأنها لم تلبث بعد تشكلها أن تأخذ منحى لغويا لسانيا،

هدية جيلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

وهذا ما أدى إلى تغير في تعريفات التداولية التي بدأت تركز شيئا فشيئا على العلامات اللغوية دون سائر العلامات على اعتبار أنها أكثر العلامات شيوعا في التواصل بين بني البشر.

ويعد اكتشاف التداولية اللغوية فتحا كبيرا، إذ أثارت هذه التداولية أسئلة جديدة، وأولت اهتماما بكل ما يتعلق بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم وظروف الاستعمال اللغوي والأفعال اللغوية.

ومن المهم أن نشير إلى أن الباحثين التداوليين قد اختلفوا في المنهج الذي بواسطته تحلل الخطابات المختلفة، ونشأت عن ذلك نظريات متعددة حسب رؤية كل باحث، منها مثلا، نظرية أفعال الكلام التي لاقت قبولا ورواجا واسعين، إضافة إلى نظرية الحجاج التي استحوذت على أعمال الكثير من الباحثين التداوليين هذه الأيام.

لكن التساؤل الذي يطرح بإلحاح في هذا السياق: إلى أي مدى تصلح الأنساق التداولية المختلفة أداة لتحليل الخطاب القرآني في ظل خصوصياته عند العرب والمسلمين؟ نشير -بداية- إلى بعض الملاحظات المهمة حول تصور التداوليين للخطاب وأطرافه وسياقاته وطبيعة التواصل الحاصل، والتي يمكن أن تثير إشكاليات متعددة عند تحليل الخطاب القرآني باستعمالها:

- إن هذه النظريات وُضعت لدراسة التواصل البشري، فهي تفترض -غالبا- أن المرسل والمتلقي شخصان طبيعيين محكومان ببيئة لغوية محددة وسياقات معلومة تضبط عملية إنتاج الخطاب. وفي ضوء ذلك، تدرس التداولية مدى نجاح التواصل من عدمه، فهي دائما تنظر بعين ناقدة للخطاب وللتواصل وكفاءته، ومدى نجاح أطرافه في تحقيق مقاصده وضبط تأويلاته. ولعل هذا لا ينطبق على الخطاب القرآني المرسل من لدن الله تعالى، ومتلقيه البشرية جمعاء في كل زمان ومكان، وسياقاته التزامنية مفتوحة غير محدودة. ولو تم تحليل الخطاب القرآني وفق الأنساق التداولية بحذافيرها فإن النتائج ستكون مختلفة مناقضة لما جرى عليه العرف في فهم القرآن وتفسيره.

• تربط التداولية كل سياق تخاطبي بموقف تواصلية معين بذاته، وبالتالي تربط صلاحية الخطاب ونجاعته التواصلية بذلك الموقف، أي أن كل خطاب إنما ينتج تبعاً لسياق معين وتحدد بذلك جدواه التواصلية. ومن هذا المنظور، فإن الخطاب القرآني يجب ربطه بسياقه الذي وجد في والذي لا يمكن تجاوزه إلى غيره من السياقات الأخرى، وهذا ما يتنافى وفكرة صلاحية الخطاب القرآني لكل زمان ومكان وسياق ومتلق.

• المناهج والأنساق التداولية نسبية غير مطلقة، وهي دائماً عرضة للنقد والبحث وإعادة النظر، فقد يكون من غير المناسب تحليل المطلق القطعي (القرآن) بالإجراء الظني النسبي، إذ أن النتائج المترتبة عن ذلك ستتسم حتما بالنسبية، وقد تتنافى وطبيعة المعتقد الراسخ حول القرآن الكريم خاصة إذا ما تبين قصور بعض الأدوات التداولية التحليلية في سبر الخطاب وكشف بواطنه.

• واضعو المناهج والأنساق التداولية لا يفترضون قداصة أي نص، وهم يعاملون النص الذي يوصف بهذا الوصف بعدّه نصاً بشرياً – صراحة أو تلميحاً- يمكن أن يُنسب إلى مجهول، أنتج في سياق تاريخي بذاته لا يمكن أن يتجاوزه، وهو بهذا المنظور لا يلزم أحداً اعتقاداً وتشريعاً، وهذا ما يتنافى ومعتقد المسلم في قرآنه.

وعلى هذا، فإن تحليل الخطاب القرآني بهذه المناهج كما هي موصوفة، يشوبه الكثير من التحفظات والإشكالات، إذ أن المحلل سيصل إلى نتائج وأحكام تنافي أو تناقض ما يعتقد في الخطاب القرآني، خاصة إذا ابتعد عن المصادر الأصيلة والتفاسير الموثوقة التي تناولت الخطاب القرآني بحثاً ودراسة، وبُني عليها ما بُني من عقائد وعبادات وأحكام ومعاملات.

لعل المجدي في هذا الصدد أن يحلل الخطاب القرآني بمنهج يناسب خصوصياته التي ذكرت دون مساس بجوهر قداسته ولا كماله وتعالیه على سائر أصناف الخطاب الأخرى، والأخذ بعين الاعتبار كمال الذات الإلهية المرسله بكل أوصافها، وتمكن الخطاب القرآني من مرسله الممتدين زماناً ومكاناً، وتداعي سياقاته لتحتوي كل السياقات الممكنة

هدية جبلي / رضا زلاقي ——— تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا

المشابهة. ولا يتأتى ذلك إلا بالنظر في المقومات النظرية للمنهج الذي يُحلل به والذي يجب أن يراعي خصوصيات الخطاب المقدس ويعامله بما يليق به من إجلال واحترام.

ولذلك، ونظرا لدقة استعمال اللفظ والتركييب القرآني، وتماشيا مع ما يتطلبه العصر، وخصائص الإنسان الاجتماعية والثقافية المتنوعة والمعقدة، لا يكفي أن نتناوله تناولاً لغوياً جامداً، ولا بلاغياً مقنناً، بل يجب أن يتماشى التحليل ومتطلبات العصر والواقع سواء بالنسبة المتلقي العربي المسلم، أو المسلم الآخر غير العربي الذي يجب أن تُنقل له هذه المعاني والمقاصد المحدثة بما يناسب حاله وسياقه المعاصر.

ولا بد من التخصص والتفرد بوضع تصورات نظرية ذات طابع تداولي تتناسب والخصوصية القرآنية، لا نقل المناهج الأخرى الموضوعية للتواصل الخطابي العادي، ثم استعمالها في التحليل بتؤدة وتأن كاملين حتى يظل الخطاب القرآني سامياً متعالياً مقدساً ملزماً محققاً لحاجات الإنسانية المختلفة عبر الأزمنة والعصور المتعاقبة.

6- خاتمة:

في الختام لا يمكن لأحد أن ينكر الجهد الكبير الذي قدمه الأوائل في تحليل الخطاب القرآني سواء أكانوا فقهاء أو لغويين أو بلاغيين أو باحثين في الإعجاز إلا أنه —وكما تقدم— لا يمكن الاكتفاء في العصر الحديث بما قدمه هؤلاء على عظم جهودهم، بل يتطلب الأمر النظر الحصيف فيما أنتجته اللسانيات الحديثة والتداوليات من أدوات وآليات لتحليل النصوص والخطابات، بغرض استعمال المناسب منها في تحليل الخطاب القرآني قصد اكتشاف المزيد من أسراره الكامنة.

الهوامش:

1- محمد النويري، علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع- صفاقس، ط1، 2001م، ص، 7-8.

2- الإسراء، 88.

3- هود، 13-14.

(*) إنَّ وجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، 1- اتساق عباراته ومعانيه وأحكامه ونظرياته، 2- انطباق آياته على ما يكتشفه العلم من نظريات علمية، 3- إخباره بوقائع لا يعلمها إلاَّ علام الغيوب، 4- فصاحة ألفاظه وبلاغة عباراته وقوة تأثيره. ينظر، عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، الزهراء للنشر والتوزيع، ط2،- الجزائر، 1993م، ص، 27-31.

(*) التصوير الفني هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل. ينظر، سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، القاهرة، ط10، 1986م، ص، 34

4 - عيسى بن سديرة، الخصائص التركيبية والأسلوبية في المكي والمدني من القرآن الكريم، ص، 80.

* وفي هذا الإطار توجد - على سبيل المثال لا الحصر- دراسات محمد عابد الجابري في أثره "اللفظ والمعنى في البيان العربي ودينية العقل العربي"، محمد أبو القاسم حاج حمد في كتابه "العالمية الإسلامية الثانية"، وجابر عصفور، وأحمد شيخ عبد السلام في مقال

له، "نحو علم لغة خاص بالعلوم الشرعية... وذلك بالاستفادة -ولو ضمنيا- من الرؤية المنهجية اللسانية الحديثة في تناول القرآن، وتجاوز ثنائية الظاهر والباطن.

5- عبد الحليم بن عيسى، اللسانيات والخطاب القرآني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد، 03، قسنطينة، 2003م، ص، 294.

5- محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان، المجلد الأول، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان، ط2، 1996م، ص، 55-56.

7- المرجع نفسه، ج1، ص، 56-57.

8- عبد الحليم بن عيسى، اللسانيات والخطاب القرآني، ص، 302-303.

9 - صبيح إبراهيم الفقي، علم اللغة بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ص، 32.

10 - اللغة والأدب، ملتقى علم النص، العدد 17، الجزائر العاصمة، جانفي 2006، ص6.

11 - فرانسوا أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ط1، 1987، ص41.

12 - المرجع نفسه، ص41.

13- J. Moeschler et A. Reboul, le dictionnaire encyclopédiques de pragmatique.

Ed de seuil. P, 17.

إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

د. علي زواري أحمد

كلية العلوم الإسلاميّة، جامعة الوادي - الجزائر.

البريد المهنيّ: zouari-ahmed-ali@univ-eloued.dz

البريد الشّخصيّ: soufislam@gmail.com

ملخص

بحثنا يتضمّن الحديث عن الدرس البلاغيّ العربيّ منذ بداية نشأته وعبر مراحل تطوّره وإلى اكتماله ونضجه وعلاقة ذلك بالقرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب التي انبرى فصحاؤها لامتلاك زمام ناصية البيان، لكنهم وقفوا عاجزين على مجاراته، فتوجّهوا لدراسته ومعرفة قضية إعجازه، وبيان معانيه ومجازه، واستظهار نكته ودلالاته، وبذلك صاحبت البلاغة العربيّة القرآن الكريم منذ نزوله واقتربت بعد ذلك بجلّ علومه؛ كالإعجاز، والتفسير، والكثير من مباحث علوم القرآن، ومن كلّ هذا حاولنا معالجة الموضوع في أربعة عناصر تبحت في العلاقة بين الدرس البلاغيّ العربيّ وهذه القضايا التي ذكرناها؛ القرآن الكريم، وإعجاز القرآن، وتفسير القرآن، وعلوم القرآن، وقد خلّص البحث لمجموعة من النتائج، منها أنّ البلاغة العربيّة لها الدور الأبرز في خدمة القرآن الكريم من حيث بيان معانيه وإظهار وجوه إعجازه، كما أنّ القرآن الكريم له الفضل في نشأة الدرس البلاغيّ العربيّ ما جعل مادّته أهمّ مصدر لمباحث البلاغة العربيّة، وأنّ هذه العلاقة بين القرآن الكريم والدرس البلاغيّ العربيّ نتج عنها علاقة تلازميّة بين البلاغة وجلّ العلوم المتعلّقة بالقرآن الكريم، كالتفسير والإعجاز وغيرهما، الشّيء الذي دفع بعلماء علوم القرآن أن يجعلوا البلاغة من صميم مادّتهم في العديد من مباحث علوم القرآن.

الكلمات المفتاحيّة: الدرس البلاغيّ؛ علوم القرآن؛ إعجاز القرآن؛ تفسير القرآن.

مقدّمة

تعتبر مادّة علوم القرآن من المصنّفات الجامعة التي تحوي ثلّة من العلوم التّراثيّة - الشّرعية منها واللّغويّة - الخادمة للقرآن الكريم، والضروريّة للتّعامل مع النّصّ القرآني، سواء من حيث فهم معانيه، أو بيان مفرداته، أو تفسير تراكيبه، أو تحليل أساليبه، أو إظهار إعجازه، ومن تلك العلوم التي شملتها مادّة علوم القرآن الفنون البلاغيّة، وذلك لارتباطها بالقرآن الكريم من حيث اللّغة التي نزل بها، ولتعلّقها بمبحثين مهمّين من مباحث علوم القرآن هما: التّفسير والإعجاز، ومن هذا كان عنوان بحثنا موسوماً بـ "إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغي".

إشكاليّة البحث:

وتتمثّل الإشكاليّة الرّئيسيّة للبحث في مدى العلاقة القائمة بين القرآن الكريم وعلومه وبين الدرس البلاغيّ العربيّ، وأثر هذه العلاقة على خدمة القرآن وعلومه، ونشأة الدرس البلاغيّ وتطوّره.

ويتفرّع عن هذه الإشكاليّة جملة من التّساؤلات الفرعيّة، منها:

ماهي علاقة البلاغة بالقرآن الكريم؟ وماهي علاقة البلاغة بتفسير القرآن الكريم؟ وماهي علاقة البلاغة بإعجاز القرآن الكريم؟ وماهي علاقة البلاغة بمباحث علوم القرآن؟

منهج البحث:

وقد اعتمدنا في بحثنا على المنهج الوصفيّ الذي يتناسب ومثل هذه الدّراسات والأبحاث اللّغويّة، مع الاعتماد على آليتي الاستقراء والتّحليل، لجمع المادّة وتحليلها وترتيبها في مضامنها ضمن صفحات البحث.

خطّة البحث:

تتمثّل خطّة البحث - التي من خلالها عالجت الإشكاليّة المطروحة بتساؤلاتها الفرعيّة

- فيما يلي:

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

المقدّمة: بعناصرها المعهودة؛ تمهيد، الأهميّة، الأهداف، الدوافع، الإشكاليّة، المنهج، الخطة،...

وقد اعتمدنا بعد المقدّمة على خمسة مطالب تجمع جنبات الموضوع المختلفة، تتمثل في:

المطلب الأوّل - العلاقة بين الدرس البلاغيّ والقرآن الكريم؛

المطلب الثّاني - العلاقة بين الدرس البلاغيّ وإعجاز القرآن؛

المطلب الثّالث - العلاقة بين الدرس البلاغيّ وتفسير القرآن؛

المطلب الرّابع - العلاقة بين الدرس البلاغيّ وعلوم القرآن؛

المطلب الخامس - نموذج البرهان والاتقان في بحث الدرس البلاغيّ.

الخاتمة: وفيها ملخّص مجمل لنتائج البحث.

وقبل الشّروع في تفصيل مطالب البحث لا مانع أن ننبّه على أنّ هذه المطالب التي ذكرناها إنّما هي مترابطة ومتعاقبة، ومرتّبة مع الدرس البلاغيّ، بداية من نزول القرآن الكريم، ثمّ الكلام عن الإعجاز وإلى الالتفات إلى التّفسير، وانتهاء بالتأليف في علوم القرآن، وإلى أهمّ موسوعتين في هذا الفنّ، وبعد هذا نشرع في بيان صلب الموضوع.

المطلب الأوّل - العلاقة بين الدرس البلاغيّ والقرآن الكريم

لقد اشتهر العرب - في جاهليّتهم - بفصاحة اللّسان وبلاغة القول، وجمال التّعبير؛ كما اشتهروا بالإيجاز والاختصار في أقوالهم، والبعد عن فضول الكلام في أحاديثهم، حتّى يكون كلامهم مؤدياً للغرض المقصود من أقرب طريق، وقد كانت لهم أسواق فيها يفصحون عن ملكتهم اللّغويّة إبداعاً ونقداً حتّى بلغوا في إتقان أقوالهم، وتهذيب كلامهم. وتنسيق عباراتهم، مبلّغاً جعل الجاحظ يدّعي للعرب الفضل على الأمم قاطبة في الخطابة والبلاغة¹. ولما جاء الإسلام ونزل القرآن بلسان عربيّ مبين انبهر العرب ببلاغته، وعجزوا عن مجاراتها، وسلّموا بعجزهم عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سور القرآن، وقد عرفوا أنّ

بلاغة القرآن الكريم فوق مقدور البشر، وهان أمر بلاغتهم أمام بلاغته، وضعف أمر فصاحتهم أمام فصاحته؛ وصدق الله تعالى القائل في محكم تنزيله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾².

على هذا يقرّر القرآن الكريم في آيات عديدة أنّه عربيّ، ونزل بلسان عربي مبين، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾³. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁴. وقوله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾⁵. وأمثالها من الآيات؛ طه: 113، الشعراء: 192-195، الزمر: 27-28، فصلت: 1-3، الشورى: 7، الزخرف: 1-3، الأحقاف: 12، فصلت: 44. ففي كلّ هذه الآيات دلالة بيّنة على عربيّة القرآن الكريم، وأنّه معجز بلغته التي يعرفها العرب، وأنّها هي مصدر حديثهم وشعرهم ونثرهم.

لذا نجد أمثال الإمام الشافعيّ في رسالته "الرسالة" - التي هي أمّ أسفار علم أصول فقه - قد حرص كلّ الحرص على أن يبيّن في جلاء هذه الحقيقة؛ لأنّها أمّ الحقائق التي تُبنى عليها كافّة الحقائق العلميّة في هذا الباب، فيقول رحمه الله تعالى: "ومن جماع علم كتاب الله: العلم بأنّ جميع كتاب الله إنّما نزل بلسان العرب... وإنّما بدأت بما وصفت، من أنّ القرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنّه لا يعلم من إيضاح جُمَلِ عِلْمِ الكتاب أحد، جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه، وتفرّقها. ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها"⁶. فكان لزاما على كلّ متكلم في معاني القرآن الكريم على تعدد أنواعها وضروبها ومجالاتها الجامعة لكافة شؤون الحياة أن يكون أوّل أمره قائما على كمال تحقيق العلم بلسان العربيّة، والذي منه علوم البلاغة.

ويقول ابن خلدون في تاريخه: "واعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختصّ بالألفاظ في انتفاؤها وجودة رصفها وتركيبها وهذا هو الإعجاز الذي تقصّر الأفهام عن إدراكه. وإنّما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربيّ وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه. فلماذا كانت

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

مدارك العرب الذين سمعوه من مبلّغه أعلى مقاما في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهها بذاته والدّوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه"7.

وعليه أقبل المسلمون على القرآن الكريم، يتزوّدون من معينه الذي لا ينضب، ويرتشفون من رحيقه العذب، ويرتوون من مائه السلسيل، حتّى رقى إحساسهم، وأرهفت مشاعرهم، وسلمت أذواقهم، وعرفوا من خواصّ التراكيب ما لم يكونوا يعرفون، وشهدوا من مظاهر النّظم وخصائصه ما لم يكونوا يشهدون!8.

ومع ما ذكرنا فإنّه - كذلك - بانتشار الإسلام في ربوع المعمورة، واختلاط العرب بالعجم الشّيء الذي أدّى لظهور اللّحن، فكان ذلك دافعا من دوافع عجلة البحث البلاغيّ ما جعل وتيرة البحث والتّدوين تتحرّك للحفاظ على لغة القرآن الكريم، وقد كان للقرآن الكريم أثره الواضح في البحث البلاغيّ المتخصّص؛ وذلك من وجهتين:

الأولى: أنّ ما أُلّف في البلاغة قديما وحديثا - كما سنذكر لاحقا - حوى جهود العلماء في استقصاء فنونها وعلومها التي كان العديد منها مستخلصا من القرآن الكريم، وهي بحوث كثيرة نذكر بعضها منها على سبيل المثال لا الحصر:

بداية من كتاب البيان والتبيين للجاحظ (المتوفّى: 255هـ) وبعده البديع لعبد الله بن محمّد المعتز بالله (المتوفّى: 296هـ)، وديوان المعاني للعسكريّ (المتوفّى: نحو 395هـ)، وتلخيص البيان في مجازات القرآن، والمجازات النبويّة؛ للشّريف الرضيّ (المتوفّى: 406هـ)، وسحر البلاغة وسرّ البراعة للشّعاليّ (المتوفّى: 429هـ)، وسرّ الفصاحة للخفّاجيّ (المتوفّى: 466هـ)، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانيّ (المتوفّى: 471هـ)، وأساس البلاغة للرّمخشريّ (المتوفّى: 538هـ)، ومفتاح العلوم للسّكاكيّ (المتوفّى: 626هـ)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر لابن الأثير الجزريّ (المتوفّى: 637هـ) ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجيّ (المتوفّى: 684هـ)، والإيضاح في علوم البلاغة، و عقود الجمال في علم المعاني والبيان كلاهما للقرظبيّ، (المتوفّى: 739هـ)، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ (المتوفّى: 745هـ).

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

ومن الكتب المتأخّرة، أنوار الرّبيع في أنواع البديع للحسينيّ (المتوفّى: 1119هـ)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشميّ (المتوفّى: 1362هـ)، وعلوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» للمراغيّ (المتوفّى: 1371هـ)، وكتاب في البلاغة العربيّة (علم المعاني والبيان والبديع) لعبد العزيز عتيق (المتوفّى: 1396هـ)، وكتاب البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرّحمن حسن حبنكة الميدانيّ (المتوفّى: 1425هـ)، وغيرها من الكتب. فعندما نلقي نظرة على تلك المؤلّفات المتخصّصة في علوم البلاغة؛ ونتبع تسلسلها الزمانيّ نجدها، تضمّنت الحديث عن المباحث البلاغيّة، حتّى انتهت إلى ما انتهت إليه على صبغتها الحالية المشكّلة لعلوم البلاغة الثّلاثة، فجمعت شتاتها، واستقرّت على تسمياتها، وربّبت علومها، وفرّعت فنونها، وبوّت أقسامها، وبيّنت حدودها وتعريفاتها، ونجدها في كلّ ذلك احتوت كلّ المباحث التي استخلصت من القرآن الكريم.

الثّانية: أنّ القرآن الكريم كان مادّة مثلى للتّدليل على الكثير من المباحث البلاغيّة والاستشهاد لها، وبيان أغراضها ونكتها، حتّى أضحت معروفة ومعلومة ومتداولة، وتلقّاها الأجيال خلفا عن سلف.

فالناظر للفنون البلاغيّة من خلال تلك المؤلّفات البلاغيّة المتخصّصة يلحظ اهتمامها بالاستشهاد لها بمختلف الشّواهد من الشّعْر والنّثر والقرآن وغير ذلك، فكانت كتب معاني القرآن ومجازها والدلائل والإعجاز... مصدرا من مصادر البلاغة؛ من حيث أخذ الفنون عنها أو الاستشهاد بها، كما أنّ الشّعْر مصدر أساميّ لفنونها - أيضا - ولذا لا نجدها تجعل من اهتماماتها الأوّلية البلاغة القرآنيّة، وإن كانت من صلب مادّتها ومن أهمّ مصادرها؛ بل اهتمامها منصبّ حول علوم البلاغة وما تحويه من فنون مختلفة، فذاك هو الغرض الأساس، وعليه أصبحت المادّة القرآنيّة فيها كجزء من تلك الشّواهد وكمصدر من المصادر، حسب ما اقتضاه كلّ فنّ، وتختلف من مصنف لآخر، فهناك الكثير، وهناك المقلّ في ذكر الشّواهد القرآنيّة، وهذا لا تجد في بعض فنون البلاغة إلاّ الشّواهد الشّعريّة أو النّثريّة، وبالتالي يظهر مدى أثر القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغيّ وتطوره من خلال ما عرضنا، ولا يمكن أن نذكر نشأة البلاغة دون الإشارة للقرآن الكريم.

المطلب الثّاني - العلاقة بين الدّرس البلاغيّ وإعجاز القرآن

عندما نرجع لتاريخ نشأة البلاغة نجد أنّ السّبب الأساس في ذلك هو القرآن الكريم - كما سبق وأن ذكرنا - وذلك عندما انبرى علماء الأُمَّة للدّفاع عنه، وحمایته من اللّحن والانحراف، وبيان وجوه إعجازه، وتجليّة جوانب الاختلاف بينه وبين المعهود من كلام العرب الذي خلّده أشعارهم، وبذلك اتجه البلغاء والعلماء لتأليف المؤلّفات والكتب والمصنّفات الكفيلة بتجليّة أوجه البلاغة القرآنيّة قصد بيان إعجاز القرآن، ونذكر من ذلك:

معاني القرآن للفراء (المتوفّى: 207هـ) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (المتوفّى: 210هـ) الذي حاول فيه أن يدرس أسلوب القرآن ويقارنه بكلام العرب؛ شعره ونثره، ونظم القرآن للجاحظ (المتوفّى: 255هـ)، وهو من الكتب التي لم تصل إلينا ولكن بلغ إلينا فحواه ممّا أشار إليه الجاحظ نفسه في بعض كتبه الأخرى، وما نقله عنه من جاء بعده فأطلعونا على مضمونه وفحواه، وكذلك من التّأليفات في هذا المجال كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (المتوفّى: 276هـ)، والنكت في إعجاز القرآن للرّمانيّ (المتوفّى: 384هـ)، وإعجاز القرآن للباقلانيّ (المتوفّى: 403هـ) وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ (المتوفّى: 471هـ)، فالأوّل خصّه بعلم البيان، والثّاني خصّه لعلم المعانيّ، فكانا أوّل كتابين ميّزا هذا العلم عن غيره.

ومن المؤلّفات كذلك نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرّازيّ (المتوفّى: 606هـ) ثمّ مفتاح العلوم للسّكاكيّ (المتوفّى: 626هـ)، والتّبيان في علم البيان المطّلع على إعجاز القرآن لابن الرّمكانيّ (المتوفّى: 651هـ)، وتلخيص المفتاح للخطيب القزوينيّ (المتوفّى: 739هـ) والطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلويّ (المتوفّى: 749هـ)، والفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلوم البيان لابن القيم (المتوفّى: 751هـ)، وغير ذلك من المؤلّفات البلاغيّة التي كان منطلقها الأساس هو الإعجاز القرآنيّ وجعلت من البلاغة مادّة خصبة لدراستها وبيان وجه إعجاز القرآن وعظّمته.

وبهذه المؤلّفات في الإعجاز ظهرت المباحث المختصّة بالفنون البلاغيّة التي استخلصوها من القرآن، مثل: الخبر والإنشاء، والتّقديم والتّأخير، والدّكر والحذف، والشّروط والجزاء، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغيرها من أساليب

المعاني، وفنون البيان، وألوان البديع، ما يدلّ على العلاقة التّلازميّة بين فنون البلاغة المختلفة وقضيّة الإعجاز القرآنيّ.

يقول أبو هلال العسكري مبيناً السرّ في اهتمام علماء الإعجاز بالتركيز على البلاغة: "أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم وأولاها بالتّحفظ - بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى،... وقد علمنا أنّ الإنسان إذا غفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التّأليف وبراعة التّركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللّطيف؛ وضمّته من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها"⁹.

ويقول الرّافعيّ في بيان وجه الارتباط بين الفنون البلاغيّة والتّصنيف في الإعجاز القرآنيّ: "وممن ألقوا في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الإمام الخطابيّ (المتوفّى: 388هـ) وفخر الدّين الرّازيّ (المتوفّى: 606هـ) والأديب البليغ ابن أبي الإصبع (المتوفّى: 654هـ) والرّمّلكانيّ (المتوفّى: 727هـ) وهي كتب بعضها من بعض"¹⁰.

ثمّ يقول: "صنّف فيه جماعة من العلماء المتأخّرين: منهم الإمام الرّازيّ (المتوفّى: 606هـ) فقد لخصّ كتابي (أسرار البلاغة) و(دلّائل الإعجاز) للجرجانيّ، واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن وهو كتاب معروف، أحسن في نسقه وتبويبه، ثمّ الأديب ابن أبي الإصبع (المتوفّى: 654هـ) فقد صنّف كتاب (بدائع القرآن) أورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن، ثمّ ابن قيم الجوزيّة (المتوفّى: 751هـ) وقد أشرنا في غير هذا الموضوع إلى تصنيفه "كتاب الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان" وهو في معناه بتلك الكتب كلّها. هذا إلى أنّ كلّ ما كتبه المتقدّمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كالرّمانيّ، والواسطيّ، والعسكريّ، والجرجانيّ، وغيرهم؛ فإنّما يتحون به هذا النّحو من انزع أمثلته في القرآن، والإضافة في أبوابها، ثمّ ما يداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعره ونثره، ومن أجل ذلك قلنا آنفاً: إنّ القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثمّ صار بعدهم بلاغة هذا العلم"¹¹.

ونجد من المعاصرين من اهتمّ بهذه المسألة وألّف فيها مصنّفًا خاصًا هدفه الحديث عن بيان مدى إثراء تلك المصنّفات للبلاغة القرآنيّة، ما أدّى لتدوين البلاغة العربيّة عموماً، من ذلك كتاب: قضية الإعجاز القرآنيّ وأثرها في تدوين البلاغة العربيّة لعبد العزيز عبد المعطي عرفة، يقول فيه عن جهود أبي عبيدة بحكم أنّها من أوائل الجهود التي عرفت في هذا المجال: "وكانت محاولة أبي عبيدة ناجحة إذ تمكّن من الكشف عن بعض المسائل البلاغيّة، وتعتبر مهمّة في تكوين البلاغة التعلّيميّة، لأنّها تمثل الطّور الأوّل في نشأتها"¹².

ويقول بعدما بيّن الفنون البلاغيّة التي تعرّض لها كلّ من أبي عبيدة والفراء في بيان أوجه الإعجاز القرآنيّ: "هذه هي الألوان البلاغيّة التي أشار إليها كلّ من أبي عبيدة والفراء والتي دفعتهما قضية الإعجاز دفعا وكان الغرض منها فهم القرآن الكريم عن طريق تربية الدّوق الأدبيّ.." ¹³.

وهكذا سار مع باقي من ألّف في الإعجاز القرآنيّ وخدم البلاغة تماشياً مع عصورهم، مثل: الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتزّ، والرّمانيّ، وأبي هلال العسكريّ، وعبد القاهر الجرجانيّ، والرّمخسريّ الذي طبّق في كشافه ما قال به الجرجانيّ.

ومع كلّ هذا الاهتمام بالبلاغة القرآنيّة نستطيع القول بأنّ الهدف لم يكن من أجل استخراج فنون البلاغة القرآنيّة وتنظيمها وترتيبها؛ بل كان المقصد هو بيان الإعجاز والدّفاع عن القرآن ولغته عن طريق فنون البلاغة المختلفة، لأنّها تخدم الإعجاز أولاً وبدرجة رئيسيّة، ولم يكن في صلب منهجهم التّأليف في البلاغة ذاتها، ولكن استعملوها كأداة لإظهار وجوه الإعجاز، وعناوين المصنّفات التي رأيناها تدلّ على ذلك، ومع ذلك فقد صارت تلك الجهود مادّة خامّاً للفنون البلاغيّة بعد ذلك، وأصبح كلّ من جاء بعدها عالمة عليها، ولا يمكنه الاستغناء عنها، وبهذا تبلورت فكرة المصنّفات المختلفة المتخصّصة في علوم البلاغة.

المطلب الثالث - العلاقة بين الدرس البلاغيّ وتفسير القرآن

كما سبق وأن أشرنا بأنّ البلاغة من العلوم التي نشأت وترعرعت في ظلال الدّراسات القرآنيّة لبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وأوّل شيء، وأهمّ شيء يسعى له المفسّر قبل تفسيره هو البحث عن دقائق المعاني، لأنّ وراء كلّ كلمة أو آية في القرآن الكريم معنى مستفاد، هو الرّكيزة في بناء الفهم المراد من كلام الله تعالى، وما ينتج عنه من إعجاز ودلائل وأحكام وغيرها، لذا كانت فنون البلاغة ركيزة من ركائز علم التّفسير لاهتمامها بالمعنى، الذي هو المراد تبليغه وتوصيله للمخاطب، يقول ابن الأثير: "والكلام فيه وإن تضمّن بلاغة، فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمّنته من النكت الدّقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتّسليم، وإذا حقّق النّظر فيه علم أن مدار البلاغة كلّها عليه؛ لأنّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرّائقة، والمعاني اللّطيفة الدّقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"¹⁴.

ومن هنا نرى بأنّ المفسّرين منذ بداية التّدوين في علم التّفسير وهم يركّزون وبعناية فائقة على الجانب البلاغيّ، لأنّهم يدركون مدى الصّلة الكبيرة بين علم التّفسير وعلوم البلاغة، فالمفسّر حتّى يستطيع القيام بهذا الدّور كان لازماً عليه أن يحيط بفنون البلاغة ووجوهها المختلفة ليكشف عن أسرار الإعجاز، ويتمكّن من توجيه الآيات وفق ما يمكن أن يفهم عنه كلام الله تعالى، فكانت فنون البلاغة في مقدّمة العلوم التي لا يُستغنى عنها في تفسير كتاب الله تعالى، وإدراك فصاحته وبلاغته، يقول الرّمخسريّ في تفسيره الكشّاف: "ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلّا رجل قد برع في علمين مختصّين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التّنقير عنهما أزمنة"¹⁵.

وقد كُتبت العديد من الرّسائل العلميّة في دراسة البحث البلاغيّ عند المفسّرين، من ذلك: البلاغة عند المفسّرين حتّى نهاية القرن الرابع الهجريّ لرايح دوب، وهي رسالة دكتوراه من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة بقسطنطينية، سنة: 1994، وأيضا رسالة عن: جهود المفسّرين في البحث البلاغيّ (أبو عبيدة - الفراء - ابن قتيبة) لمنيرة محمّد فاعور، وهي رسالة لنيل درجة الماجستير، بدمشق سنة 1996، وغيرهما كثير، سواء أكانت عامّة عند

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

المفسرين، أو خاصّة ببعضهم، ما ينبئ على الدور الكبير الذي قام به المفسرون من الإسهام في خدمة الدرس البلاغيّ.

ومن أهمّ كتب التفسير التي اهتمت واعتنت بالجانب البلاغيّ، تفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحديّ (المتوفّى: 468هـ)، وتفسير الكشاف المسمّى: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم جار الله الرّمخشريّ (المتوفّى: 538هـ)، فقد حوى الكثير من الفنون البلاغيّة، وساقها مع التفسير بكلّ روعة ودقّة وجمال، قصد الاستعانة بها على فهم كلام المولى عزّ وجلّ.

وللعلم فإنّ الرّمخشريّ قد استفاد من الجرجانيّ فيما تركه من كنز بلاغيّ في الأسرار والدلائل المتعلقة بوجوه إعجاز القرآن، الشّيء الذي دفعه لكتابة تفسيره قصد الكشف عن أسرار آيات كتاب الله تعالى وما تحويه من معاني ودقائق ولطائف وإشارات، فكان من أهمّ كتب التفسير في الجانب البلاغيّ.

وكذلك تفسير المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمّد ابن عطية الأندلسيّ (المتوفّى: 542هـ)، والتفسير الكبير، والمسّمّى - أيضا- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرّازيّ (المتوفّى: 606هـ)، وتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد محمّد الشيرازيّ البيضاويّ (المتوفّى: 685هـ)، وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم ابن جزّيّ الكلبيّ الغرناطيّ (المتوفّى: 741هـ).

ومن أهمّ التّفاسير - أيضا - التي أولت الجانب البلاغيّ بالحديث الكثير؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسيّ (المتوفّى: 745هـ)؛ الذي تكلم فيه طويلا عن الجانب البلاغيّ وأعطاه عناية كبيرة، وكذلك تفسير التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد لأبي العباس البسيليّ التونسيّ (المتوفّى: 830هـ)، وتفسير أبي السّعود (المتوفّى: 982هـ)؛ المسّمّى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتفسير فتح القدير لمحمّد بن عليّ الشوكانيّ (المتوفّى: 1250هـ)، وتفسير محاسن التأويل لمحمّد جمال الدين القاسميّ (المتوفّى: 1332هـ)، ولا يمكن أن ننسى أو نغفل عن الموسوعة الضخمة المتمثلة في تفسير التحرير والتنوير، المسّمّى: تحرير

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغي

المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر بن عاشور
التونسي (المتوفى: 1393هـ).

فكلّ هذه التّفاسير كان لها القسط الأكبر من العناية بالفنون البلاغيّة والتّركيز عليها،
وغيرها ممن اهتمّ بالجانب البلاغيّ وجعله من صميم مادّة تفسيره، مع العلم أنّ منهجية
العرض في تلك التّفاسير تماشت مع تفسير الآيات، فكانت البلاغة مدرجة ضمن التّفسير
ومختلطة معه، وهي الطّريقة القديمة المعهودة عند المفسّرين، ولكن بعض المتأخّرين صار
على النهج الموضوعي في التّفسير، فأفرد البلاغة بعنصر مستقلّ أثناء تفسير الآيات المتعلّقة
بالموضوع الواحد، ومن هؤلاء على سبيل المثال محمد علي الصّابونيّ في تفسيره "صفوة
التّفاسير".

المطلب الرّابع - العلاقة بين الدرس البلاغيّ وعلوم القرآن

قبل أن نذهب للجانب العمليّ للبلاغة في مؤلّفات علوم القرآن؛ فإنّه من الجدير
بالذّكر أن نعرّج على بعض القضايا المهمّة - فيما نرى - التي لا بدّ منها لتوضيح العلاقة
القائمة بين الدرس البلاغيّ وعلوم القرآن، حتّى ندرك ونعرف لماذا خصّ علماء علوم القرآن
البلاغة من ضمن المباحث التي يجب أن تكون حاضرة في طيّات مباحث علوم القرآن
المختلفة، وأيضاً لماذا كانت البلاغة معروضة بهذا الشّكل المتفرّق في مباحث علوم القرآن ولم
تكن مستقلّة بالبحث - رغم أهميّتها - وتتمثّل هذه القضايا في:

أولاً - جمع العلوم المتعلّقة بالقرآن الكريم في مصنّف جامع

إن الدّارس لمادّة علوم القرآن يدرك بجلاء ووضوح عظمة الجهد الذي بذله العلماء
في هذا الميدان خدمة لكتاب الله تعالى، حيث حاولوا جاهدين جمع العلوم المتعلّقة بهذا الفنّ
في مصنّف واحد جامع، لذا ترى وأنت تتصفّح علوم القرآن أنّ في كلّ جزئية علم - ومنها علم
البلاغة - وفي كلّ علم من تلك العلوم - التي أخذوا منها مادّة علوم القرآن - الكثير من المؤلّفات
التي ألّفت فيه، وفي كلّ مؤلّف آراء واجتهادات وأقوال تعبر عن عظمة هذا الثّراث العلميّ
الضّخم، وبخاصّة ما يتعلّق بالدراسات القرآنيّة؛ ومنها علوم القرآن.

وهذا ما أشار إليه الزركشيّ في موسوعته البرهان في علوم القرآن، حيث قال: "ولمّا كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن؛ وممّا فات المتقدّمين وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه، وكما وضع النّاس ذلك بالنّسبة إلى علم الحديث فاستخرت الله تعالى - وله الحمد - في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلم النّاس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه، وضمّنته من المعاني الأنيقة والحكم الرّشيقة ما يهزّ القلوب طرباً، ويهر العقول عجباً، ليكون مفتاحاً لأبوابه، وعنواناً على كتابه، معينا للمفسّر على حقائقه، ومطلّعا على بعض أسراره ودقائقه، والله المخلّص والمعين وعليه أتوكل وبه أستعين وسميّه البرهان في علوم القرآن"¹⁶.

إذا فالتأليف في علوم القرآن لا يتعلّق بعلم بذاته دون غيره من العلوم الأخرى حتّى ينصبغ ذلك العلم بما يستلزم من التّرتيب والتّبويب والتّقييد والتّأصيل... ما يتطلّب العلم من منهجية خاصّة به، وإنّما القصد والغاية هو جامع المادّة العلميّة المتعلّقة بعلوم القرآن من تلك العلوم المختلفة وتوظيفها حسب ما يخدم مادّة علوم القرآن، وتكون بصورتها المجملة في مصنف واحد جامع بعد أن كانت مفرّقة في موضوعات كلّ موضوع منها يتناول جزئية معينة.

ثانياً - علوم القرآن تجمع ما يخدم القرآن من فنون العلوم

علماء علوم القرآن كانت نظرتهم وفكرتهم في التّأليف في هذا المجال تركز على العلوم المتعلّقة - أو ذات الصّلة - بالقرآن الكريم، وأيضا الاعتماد على المهمّ منها الذي يتطلّب التّنبه عليه والإشارة إليه، لهذا تمثّل مادّة علوم القرآن جميع العلوم والمعارف المتعلّقة بالقرآن الكريم، كعلم التّفسير، والإعجاز، والقراءات، وعلوم اللّغة المختلفة، ومنها علوم البلاغة، وغيرها.

والملاحظ أنّ المؤلّفين في علوم القرآن وهم في غمرة هذا المشروع الضّخم، ركّزوا على استدعاء هذه العلوم وجمعها وتركيبها على وجه غلب عليه الإحصاء والتّحصيل والتّعداد والتّفصيل، ولم يعنوا من النّاحية النّظريّة ببيان الأصول المنهجية والقواعد التي تنبغي

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

مراعاتها عند إعمال هذه العلوم مجتمعة عنايتهم بإحصائها وتعدادها وكيفية الاستفادة منها.

ومن أثر ذلك ما يجده الدّارس في مكانة علوم اللّغة - ومنها البلاغة - من علوم القرآن، وهو من أبين المواضع التي تحتاج إلى تحقيق النّظر في صفة التّكامل والتّداخل، وذلك لمركزيّتها ضمن علوم القرآن وأهميّتها في تشكيل قسم كبير منها، بل علوم العربيّة في نشأتها مدينة للقرآن الكريم موضوعاً ومنهجاً ومقصداً، وفي فلكه تأصّلت الدّراسات العربيّة على اختلاف أنماطها.

لهذا فعلاقة البلاغة بعلوم القرآن تنتج من كون علوم القرآن تتعلّق بجميع العلوم والمعارف المتعلّقة والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفهم كتاب الله تعالى، لذا تجد في علوم القرآن الحديث عن المفردات والصّرف والنّحو والإعراب والقراءات والمناسبات وأسباب النّزول... ومنها ما يتعلّق بمباحث البلاغة نظراً لتعلّق البلاغة بمعاني القرآن وأساليبه وتراكيبه، وعلى سبيل المثال فإنّ علم التّفسير الذي تهتمّ به علوم القرآن يعتمد على البلاغة لأنّه العلم الذي يهتمّ بتفسير معاني القرآن وإعجازه ولغته ومجازه، وكذلك الإعجاز الذي هو من اهتمامات علوم القرآن لدلالته على عظمة كتاب الله المعجز، فإنّ ركيزته الكبرى علوم البلاغة. حتى عدّ بعضهم أن الإعجاز هو البلاغة.

ثالثاً - التّركيز على البلاغة كونها من علوم اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم

القرآن - كما نعلم جميعاً - أنّه نزل باللّغة العربيّة، مفرداتها وأساليبها وفنونها وتراكيبها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾¹⁷. ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾¹⁸. ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾¹⁹. وغيرها من الآيات التي تتكلم عن عربيّة القرآن.

والبلاغة العربيّة فرع من فروع علوم اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم، ولفهم القرآن وتدبّر معانيه لا بدّ من البلاغة، مثلها مثل النّحو والصّرف وغيرها من علوم اللّغة؛ بل تكاد البلاغة تكون الأصل في ذلك لتعلّقها بالأساليب والتّوظيف لمكونات اللّغة في تأدية المعنى على

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

الطريقة المختارة التي نزل بها النّصّ القرآنيّ في مخاطبة المتلقّين وفق مراد الله تعالى وعلى طريقة العرب في الكلام.

ولهذا - كما ذكرنا سابقا - فقد كان التّركيز على البلاغة في مبحثين مهمّين من علوم القرآن لعلاقتها باللّغة وعلومها؛ هما مبحث التّفسير ومبحث الإعجاز، ولا يخلو مؤلف من المؤلفات من الحديث عن البلاغة عند البحث والتّدوين في هذين المبحثين المذكورين؛ التّفسير والإعجاز، وعلوم القرآن من تلك المصنّفات.

رابعا - تفرّع فنون البلاغة في مباحث علوم القرآن

علوم القرآن رغم جمعها للعلوم المتعلّقة والخادمة للقرآن الكريم، إلّا أنّها لم تجعلها علوما مستقلة ومنفردة ضمن مصنّفات علوم القرآن، وهذا ما أدّى إلى تجزئتها على مستوى الذّكر والترتيب، وعلى مستوى التّفصيل والتّبيان، حيث لم يجمع المؤلفون في علوم القرآن هذه المباحث اللّغويّة - ومنها البلاغيّة - تحت عنوان واحد كبير، يسمّونه علوم العربيّة أو العلوم البلاغيّة، أو نحوها، وهو أمر يتطلّب التّأليف في هذا المجال المتخصّص، رغم اعتماد علماء علوم القرآن على المصنّفات في تلك العلوم العربيّة - كما ذكروا ذلك في بداية الحديث عن كلّ علم من تلك العلوم - والمطلّع على البرهان والإتقان يدرك هذا بجلاء.

وأیضا الدّافع لهذا التّفرع ما يقتضيه الاقتصاد في التّنظير المتعلّق بمادّة علوم القرآن وليس التّعديد والتّنظير لتلك العلوم التي ذكرناها، فتلك العلوم لها مصنّفات التي أولتها العناية الكافية، والبلاغة واحدة منها، ولذا كان التّركيز في علوم القرآن على إعطاء مداخل محدودة وإرشادات وتنبّهات للتّفسير وبيان القرآن الكريم، لإرشاد المفسّرين والمتعاملين مع النّصّ القرآنيّ لكيفية التّعامل معه لفهم معانيه فهما صحيحا وفق اللّغة التي نزل بها وعلى الأساليب المتعارف عليها بين العرب.

وقد أسهمت هذه المنهجية المتبعة من طرف علماء علوم القرآن في عدم جمع المباحث المنتمية إلى علم واحد في باب واحد، كعلوم البلاغة مثلا، نظرا لتعلقها بمباحث علوم القرآن المختلفة فهي تتفرّع حسب ترتيب تلك المباحث وعلاقتها بالبلاغة، وأمّا فنون علوم البلاغة

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

فيكون ظاهرها عدم الترتيب ترتيباً نسقياً منهجياً، نظراً لتفاوت الحاصل في التوظيف بين العلوم البلاغية حسب مباحث علوم القرآن.

وكما يظهر هذا التفرع جلياً في مصنفات علوم القرآن يظهر ذلك بوضوح في صنيع المفسرين الذين كان يغلب عليهم الفنّ الذي يتخصّصون فيه على غيره من العلوم، فتباينت مستويات حضور هذه العلوم اللغوية - ومنها البلاغية بالذات - في مدوّنات التفسير، وقد حصل التفاوت بينهم من مكثّر من علوم البلاغة ومن مقلّ ومن مقتصر على علم منها دون آخر، نظراً لعدم استحضار جهة العلاقة الضابطة لموقع علوم البلاغة من علوم القرآن.

المطلب الخامس - نموذج البرهان والاتقان في بحث الدرس البلاغيّ

ونختم البحث بهذا المطلب العمليّ لنرى بجلاء ووضوح من خلال هذين النموذجين ما بيّناه سلفاً، ويظهر لنا كذلك العلاقة بين علوم القرآن وعلوم البلاغة، وكيفية تناول علماء علوم القرآن لعلوم البلاغة ضمن مصنفاتهم، وقد اعتمدنا على البرهان والاتقان لكونهما من أهمّ المراجع الجامعة والمعتمدة في علوم القرآن، وذلك لاحتوائهما على جهود السّاقين وما توصّلت إليه علوم القرآن في التصنيف والتأليف، فهما المعولّ والمرجع لكلّ من أتى بعدهما.

أولاً - نموذج البرهان للزركشيّ في بحث الدرس البلاغيّ

النموذج الأوّل كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدّين محمّد بن عبد الله بن بهادر، أبي عبد الله الزركشيّ (المتوفّى: 794هـ)، فقد جمع فيه أهمّ ما يتعلّق بمباحث علوم القرآن من فنون وعلوم مختلفة، ومنها علوم البلاغة، وقد نوّه بنفسه عن العلاقة القائمة بين علوم البلاغة وعلوم القرآن.

وعلى سبيل المثال كلامه في النّوع الحادي والعشرين، الذي خصّصه للحديث عن: "معرفة كون اللفظ والتّركيب أحسن وأفصح" فقال في ذلك: "ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع، وقد صنف النّاس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه الشّيخ شمس الدّين محمّد بن النّقيب مجلدين قدّمهما أمام تفسيره، وما وضعه حازم الأندلسيّ المسعّى بمنهاج البلغاء وسراج الأدباء، وهذا العلم أعظم أركان المفسّر؛ فإنّه لا بدّ من مراعاة ما يقتضيه

د. علي زواري أحمد - _____ - إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

الإعجاز من الحقيقة والمجاز، وتأليف النظم، وأن يواخي بين الموارد ويعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر، وغير ذلك، وأملأ الناس بهذا صاحب الكشاف، قال السكاكي: واعلم أنّ شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة ولا طريق إلى تحصيله لذوي الفطر السليمة إلا إتقان علمي المعاني والبيان والتّمرن فيهما²⁰.

فكلامه واضح وبيّن في بيان علاقة علوم البلاغة - وخاصة ما يرتبط منها بالمعنى؛ كعلم المعاني والبيان - بعلوم القرآن، ونجده يفعل نفس الشيء في حديثه عن النوع السادس والأربعين، المتعلّق بالتّوظيف البلاغيّ للأساليب المختلفة التي جاء بها القرآن الكريم، وقد تناول ذلك تحت عنوان: "في أساليب القرآن وفنونه البليغة" فقال: "وهو المقصود الأعظم من هذا الكتاب، وهو بيت القصيدة، وأوّل الجريدة، وعرّة الكتيبة، وواسطة القلادة، ودرّة التّاج، وإنسان الحدقة على أنّه قد تقدّمت الإشارة للكثير من ذلك. اعلم أنّ هذا علم شريف المحلّ، عظيم المكان، قليل الطّلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرقّ من الشّعْر، وأهول من البحر، وأعجب من السّحر، وكيف لا يكون وهو المطّلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النّظم المبين، ما أودع من حسن التّأليف وبراعة التّركيب، وما تضمّنه في الحلاوة وجلله في رونق الطّلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى، وشدّد بعضهم فزعم أنّ موضع صناعة البلاغة فيه إنّما هو المعاني فلم يعد الأساليب البليغة والمحسن اللفظيّة، والصّحيح أنّ الموضوع مجموع المعاني والألفاظ، إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألّف، ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة، إذ لا يمكن أن توجد إلاّ بها، وها أنا ألقى إليك منه ما يقضي له البليغ عجا ويهتزّ به الكاتب طربا"²¹.

والآن نستعرض باختصار وإجمال - على سبيل التّمثيل لا الحصر والتّفصيل - لبعض ما تعرّض له من فنون بلاغيّة ضمن موسوعته محلّ الدّراسة؛ البرهان في علوم القرآن.

ففي النّوع الحادي والعشرين من مسائل البرهان، نجده قد خصّه لـ "معرفة كون اللفظ والتّركيب أحسن وأفصح". وهو من مسائل ومباحث علوم البلاغة، لذا قال فيه مبيّنا مرجعه: "ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع، وقد صنّف النّاس في ذلك تصانيف كثيرة"²². ثمّ بعدها تعرّض لجزئياته بالبيان والتّفصيل - حسب ما تقتضيه مادّة العنوان في خدمة الموضوع - معتمدا على ما ذكر من علوم البلاغة، ومعطيا النّمادج من مادّة القرآن الكريم التي هي أصل الدّراسة ومقصد التّأليف.

كذلك في النّوع الثّلاثين، الذي خصّه للاقتباس من القرآن الكريم وتضمينه للكلام؛ كالشّعر والنثر والحكم والأمثال والخطب و... حيث أعطى في ذلك النّمادج وعرض الأقوال وأعطى الضّوابط المطلوبة في ذلك، وهذا الموضوع من المسائل البلاغيّة ضمن علم البديع، وقد جعله تحت عنوان: "في أنّه هل يجوز في التّصانيف والرّسائل والخطب استعمال بعض آيات القرآن؟". ثمّ يطرح السّؤال قائلا: "وهل يقتبس منه في شعر ويغيّر نظمه بتقديم وتأخير وحركة إعراب؟"²³. وبعدها يتناول الموضوع بالطريقة التي سبق ذكرها.

وأیضا في النّوع الثّالث والأربعين، الذي خصّصه للحديث عن التّعامل مع الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم، ولذا جعله تحت مسمّى: "في بيان حقيقته ومجازه"²⁴. يقصد القرآن الكريم، ولا ريب أنّ الحقيقة والمجاز من أهمّ موضوعات علم المعاني في البلاغة العربيّة.

كما نجده في النّوع الرابع والأربعين قد تحدث عن الكناية والتّعريض في القرآن الكريم، وجعل ذلك تحت عنوان: "في الكنايات والتّعريض في القرآن". ثمّ قال: "اعلم أنّ العرب تعدّ الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التّصريح"²⁵.

ونفس الشّيء مع النّوع الخامس والأربعين، الذي تحدث فيه عن الخبر والإنشاء في القرآن الكريم، وما يتعلّق بمسائلهما من أحكام وتوجيهات، وقد جعل ذلك تحت عنوان: "في أقسام معنى الكلام"²⁶. حيث تكلم فيه عن الخبر وأقسام الإنشاء؛ من الاستفهام والامر والنّهي والتّمني والتّداء وغيرها، وتعرض فيه لذكر بعض الأغراض البلاغيّة عندما تخرج تلك الأساليب عن أصلها، وفي كلّ ذلك مادّة القرآن الكريم.

ومثال ذلك في حديثه عن النداء، حيث قال: "وقد يستعمل النداء في غير معناه مجازاً في مواضع: الأوّل: الإغراء والتّحذير، وقد اجتمعا في قوله تعالى: (ناقة الله وسقياها) والإغراء أمر معناه التّرجيب والتّحريض، ولهذا خصّوا به المخاطب، الثّاني: الاختصاص، وهو كالنداء إلاّ أنّه لا حرف فيه، الثّالث: التّنبية، نحو: (يا ليتني متّ قبل هذا): لأنّ حرف النداء يختصّ بالأسماء"²⁷.

ونختم بالنّوع السّادس والأربعين، الذي ترجم له بـ "في أساليب القرآن وفنونه البليغة"²⁸. وقد تناول فيه جملة من الفنون البلاغية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وقال في ذلك: "وها أنا ألقى إليك منه ما يقضي له البليغ عجباً، ويمتاز به الكاتب طرباً، فمنه التّوكيد بأقسامه، والحذف بأقسامه، الإيجاز التّقديم والتّأخير القلب المدرج الاقتصار التّرتي التّغليب الالتفات التّضمن وضع الخبر موضع الطّلب وضع الطّلب موضع الخبر وضع النداء موضع التّعجب وضع جملة القلّة موضع الكثرة تذكير المؤنث تأنيث المذكر التّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي عكسه مشاكلة اللفظ للمعنى التّحت الإبدال المحاذاة قواعد في النّفي والصفّات إخراج الكلام مخرج الشّك في اللفظ دون الحقيقة الإعراض عن صريح الحكم الهدم التّوسع الاستدراج التّشبيه الاستعارة التّورية التّجريد التّجنيس الطّباق المقابلة إجمام الخصم بالحجّة التّقسيم التّعدد مقابلة الجمع بالجمع..."²⁹.

فأنت ترى كيف كانت البلاغة حاضرة في جملة من مسائل علوم القرآن، نظراً لتعلّق تلك المسائل بالمادّة البلاغية، وقد أعطى في كلّ ذلك التّمادج من القرآن الكريم، فهو من جهة وظّف البلاغة في مسائل علوم القرآن، ومن جهة ثانية خدم البلاغة بعرضه لتلك التّمادج القرآنية، ولذا نجده قد حرص على تقديم لمحة تعريفية لبعض الفنون التي طرحها، كما اهتمّ بمصطلحات البلاغة القرآنية، وتعرّض لجملة معتبرة من الفنون البلاغية، كالخبر والأمر والتّهي، والاستفهام والنداء والتّمنيّ والتّقديم والتّأخير والحذف والإضمار والتّشبيه والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتّعريض والتّورية والتّجريد والطّباق والمقابلة والتّقسيم والتّعدد والمبالغة والاعتراض والاحتراض والتّدييل والتّميم والاستطراد

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

والالتفات والتجنيس ورد العجز على الصدر، والسجع والتوكيد والتّمكين والتّوشيح والتّصدير والايغال ... غيرها.

ثانياً - نموذج الاتقان للسيوطي في بحث الدرس البلاغيّ

النّموذج الثّاني - الذي لا يقلّ أهميّة عن سابقه - هو كتاب الإتقان في علوم القرآن للإمام عبد الرّحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السيوطي (المتوفّي: 911هـ)، فقد جمع فيه أهمّ ما يتعلّق بمباحث علوم القرآن من فنون وعلوم مختلفة، ومنها علوم البلاغة، وقد اعتمد على ما ذكره البرهان وأضاف عليه، وهو أيضاً قد نوّه بنفسه عن العلاقة القائمة بين علوم البلاغة وعلوم القرآن في موسوعته الإتقان.

فالإتقان كتاب - لا يختلف فيه اثنان - أنّه من المراجع الأساسيّة في مجال علوم القرآن، حيث يعتبر مرجعاً مهمّاً للباحثين والدّارسين في هذا المجال، فهو يساهم في فهم أعمق للقرآن الكريم ومعانيه، ويساعد على تحليل النّصّ القرآنيّ بشكل دقيق وعميق، وقد أجاد فيه صاحبه أيّما إجادة فنقل وأضاف وفصّل وشرح ما يجعل القارئ والدّارس يحسن التّعامل مع النّصّ القرآنيّ بكلّ ثقة وانضباط.

ولذا ما غابت علوم البلاغة عن الإمام السيوطي في ثنايا حديثه عن مباحث علوم القرآن - وهو أحد علماء اللّغة الضّليعين فيها والمطلّعين على أسرارها وعلاقتها بالقرآن الكريم وعلومه - فنجدته في حديثه عن النّوع الخامس والسّتين، المسّعى بـ "في العلوم المستنبطة من القرآن" فبعد حديثه عن بعض العلوم المستنبطة من القرآن، كعلم النّحو، والأصول، ومعاني الخطاب، والحلال والحرام، والقصص، والحكم والأمثال، وأصول التّعبير، وعلم الموارث، والتّفكير في آيات الله، جاء للحديث عن البلاغة، فقال: "ونظر الكتاب والشّعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النّظم وحسن السّياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتّلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز، وغير ذلك فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع"³⁰.

كما نجدته في حديثه عن النّوع الثّامن والسّبعين، من مباحث علوم القرآن، والذي وسمه بـ "في معرفة شروط المفسر وأدابه"، حيث نجده جعل علوم البلاغة الثلاثة في ثلاثة شروط متتالية، فقال: "الخامس والسّادس والسّابع: المعاني والبيان والبديع؛ لأنّه يُعرّف

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

بالأول خواصّ تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالتالي خواصّها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالتالي وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسّر؛ لأنّه لا بدّ له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإتّما يدرك بهذه العلوم³¹. أي الإعجاز.

والآن نستعرض باختصار وإجمال - على سبيل التمثيل لا الحصر والتفصيل - لبعض ما تعرّض له من فنون بلاغيّة ضمن موسوعته محلّ الدّراسة؛ الإتقان في علوم القرآن.

السيّوطي في الإتقان يكاد يكون منهجه نفس المنهج الذي سلكه صاحب البرهان، حيث يوظّف علوم البلاغة بفنونها المختلفة في مسائل علوم القرآن بحسب ما تقتضيه تلك المسائل، فيشرح مفاهيم البلاغة ويذكر مصطلحاتها، ويعطي الأقوال ويضرب النماذج من القرآن الكريم؛ استدلالاً واستنباطاً وتبيناً لها رغم تنوعها وكثرتها في طبّات المصنّف، وإليك بعض ما تعرّض له من الفنون البلاغيّة في مسائل علوم القرآن.

فنجده في النّوع الرابع والأربعين تكلم عن التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم، وجعله تحت عنوان: "في مقدّمه ومؤخّره"، وقال في ذلك: "وهو قسمان؛ الأوّل: ما أشكل معناه بحسب الظاهر فلما عرف أنّه من باب التّقديم والتّأخير اتّضح... الثّاني: ما ليس كذلك - أي لم يُشكّل معناه - وقد أُلّف فيه العلامة شمس الدّين بن الصّائغ كتابه: المُقدّمَةُ في سِرِّ الألفاظ المُقدّمَةِ"³². ثمّ ذكر بعدها أسباب التّقديم وأساره العشرة التي نقلها عن ابن الصّائغ. وكما نعلم جميعاً أنّ التّقديم والتّأخير من مباحث علم المعاني عند دراسة المسند والمسند إليه.

وفي النّوع الثّاني والخمسين، تحدّث عن الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم، وعنون له: "في حقيقته ومجازه". يقصد القرآن الكريم، وقال في ذلك: "لا خلاف في وقوع الحقائق في القرآن، وهي كلّ لفظ بقي على موضوعه ولا تقديم فيه ولا تأخير وهذا أكثر الكلام، وأمّا المجاز فالجمهور - أيضاً - على وقوعه فيه..."³³. ثمّ فصلّ في المجاز وأقسامه ووجوهه في القرآن الكريم، والحقيقة والمجاز من فنون علم المعاني في البلاغة العربيّة.

وفي النّوع الثّالث والخمسين، تحدّث عن التّشبيه والاستعارة في القرآن الكريم، تحت مسمّى: "في تشبيهه واستعاراته". يقصد القرآن الكريم، قال فيه: "التّشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها"³⁴. ثمّ ذهب يذكر الأقوال فيه، وتطرق لأدواته وأقسامه واعتباراته، وبعدها عرّج على الاستعارة وأركانها وأنواعها بحكم ارتباطها بالتّشبيه وكلّها ترتبط بالمجاز، وقد أعطى النّماذج والصّور من القرآن الكريم، وكما نعلم فإنّ التّشبيه والاستعارة من فنون علم البيان في البلاغة العربيّة.

وفي النّوع الرّابع والخمسين، تكلم عن الكناية والتّعريض في القرآن الكريم، تحت مسمّى: "في كنياته وتعريضه" يقصد القرآن الكريم، قال فيه: "هما من أنواع البلاغة وأساليب الفصاحة، وقد تقدّم أنّ الكناية أبلغ من التّصريح، وعرّفها أهل البيان بأنّها لفظ أريد به لازم معناه"³⁵. وتحدّث بعدها عن الأقوال فيها، ثمّ عن أسبابها، ثمّ ذكر من أنواع البديع الذي يشبهها؛ وهو الإرداف، وذكر الفرق بين الكناية والتّعريض.

وفي النّوع الخامس والخمسين، تكلم فيه عن الحصر والاختصاص، وعنوانه: "في الحصر والاختصاص"³⁶. وفي النّوع السّادس والخمسين، تكلم فيه عن الإيجاز والإطناب، وعنوانه: "في الإيجاز والإطناب"³⁷. وفي النّوع السّابع والخمسين، تكلم فيه عن الخبر والإنشاء، وعنوانه: "في الخبر والإنشاء"³⁸. وهذه كلّها من أقسام علم المعاني في البلاغة العربيّة.

وفي النّوع الثّامن والخمسين، تكلم فيه عن فنون من البديع، عنوانها: "في بدائع القرآن"³⁹. وذكر فيه ما أورد ابن أبي الإصبع من موضوعات، حيث أورد فيه نحو مائة نوع، وأضاف عنها هو أنواعا أخرى؛ كالإيهام والتّورية والالتفات والاطراد والانسجام، وغيرها.

ومما ذكرنا من مسمّيات - بحسب المسائل التي تناولها في علوم القرآن - يتبيّن لك قدر الفنون البلاغيّة التي تعرّض لها السيّوطي في الإتقان، وما يتبعها من شروح وبيان ونماذج قرآنيّة وتقسيمات وتفريعات وأقوال، يجدها المطّلع على تلك المسائل التي ذكرناها من الاتقان، وفي ذكرها غنية وإشارة لما تحويه.

الخاتمة

في خاتمة البحث نرصد أهمّ النتائج، والتي نوجزها في النقاط التالية:

1. العلاقة وطيدة بين الدرس البلاغيّ والقرآن الكريم، ويتمثّل ذلك في الرابطة الجامع بينهما، وهو اللسان العربيّ، ولذا كان للقرآن الكريم أثر في نشأة الدرس البلاغيّ وتطوره، ولا يمكن ذكر نشأة البلاغة دون الإشارة للقرآن الكريم، لكونه الدافع الأوّل للاهتمام بالبحث في البلاغة، وأنّ مادته أهمّ مصدر لمباحث البلاغة العربيّة، كما أنّ البلاغة العربيّة لها الدور الأبرز في خدمة القرآن الكريم من حيث بيان معانيه وإظهار وجوه إعجازه.
2. كما أنّ العلاقة قائمة بين الإعجاز القرآنيّ والبلاغة العربيّة، كونهما يجتمعان حول مائدة القرآن الكريم، فالبلاغة وسيلة لبيان وجوه الإعجاز، والإعجاز مطيّة للبحث البلاغيّ واستنباط فنونه واستخراج نكته، وسوق أمثلتها وشواهداها من القرآن الكريم.
3. أيضا العلاقة قائمة بين التفسير القرآنيّ والبلاغة العربيّة، فالبلاغة من علوم الآلة وجزء مهمّ من علوم اللسان العربيّ التي لا يمكن لأيّ مفسر أن يستغني عنها أو يتجاهلها في بيان معاني القرآن واستخراج لطائفه والغوص في مضامينه، كما أنّ التفسير قد أسهم بشكل كبير في إثراء الدرس البلاغيّ بما أفرزه من جهود في بيان الفنون البلاغيّة من النصّ القرآنيّ.
4. العلاقة بين القرآن الكريم والدرس البلاغيّ العربيّ نتج عنها علاقة تلازميّة بين البلاغة وجلّ العلوم المتعلّقة بالقرآن الكريم، كالتفسير والإعجاز والقراءات والوقف والابتداء وغيرها، الشّيء الذي دفع بعلماء علوم القرآن أن يجعلوا البلاغة من صميم مادّتهم في العديد من مباحث علوم القرآن.
5. رغم توقّر الفنون البلاغيّة في مصنّفات علوم القرآن، واهتمام علماء هذا الفنّ بها بيانا وإثراء واستشهادا وتقريرا، إلّا أنّ الغاية لم تكن البحث البلاغيّ؛ وإنّما هي جمع شتات العلوم التي تشكّل مجموعها مادّة علوم القرآن، لذا تفرّعت وتفرّقت فنون البلاغة

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

ومباحثها بين جزئيات وأبواب مادّة علوم القرآن وتمّ تناولها بحسب ما تحتاجه تلك الأبواب.

قائمة المصادر والمراجع

- بدر الدّين محمّد بن عبد الله بن بهادر أبو عبد الله الرّزكشيّ (المتوفّى: 794هـ): البرهان في علوم القرآن: المحقّق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطّبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م.
- حسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرّازق الجناحيّ (المتوفّى: 1429هـ): النّظم البلاغيّ بين النّظرية والتّطبيق، دار الطّباعة المحمّدية القاهرة - مصر، الطّبعة: الأولى 1403 هـ - 1983 م.
- الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران أبو هلال العسكريّ (المتوفّى: نحو 395هـ): الصّناعتين: الكتابة والشّعر، المحقّق: علي محمّد الجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصريّة - بيروت، عام النّشر: 1419 هـ.
- شوقي ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف، الطّبعة التّاسعة.
- عبد الرّحمن بن محمّد بن محمّد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدّين الحضرميّ الإشبيليّ (المتوفّى: 808هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المشهور، بتاريخ ابن خلدون، المحقّق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت الطّبعة: الثّانية، 1408 هـ - 1988 م.
- عبد الرّحمن بن أبي بكر، جلال الدّين السيّوطيّ (المتوفّى: 911هـ) الإِتقان في علوم القرآن، المحقّق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، النّاشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطّبعة: 1394 هـ/ 1974 م.
- عبد العزيز عبد المعطيّ عرفة: قضية الإعجاز القرآنيّ وأثرها في تدوين البلاغة العربيّة، عالم الكتاب، بيروت، الطّبعة الأولى: 1405 هـ، 1985 م.
- ضياء الدّين بن الأثير، نصر الله بن محمّد (المتوفّى: 637هـ): المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الفجالة. القاهرة.

د. علي زواري أحمد - _____ إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ

- محمّد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطّلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكيّ أبو عبد الله الشّافعي (المتوفّي: 204هـ)، الرّسالة، المحقّق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، الطّبعة: الأولى، 1358هـ/1940م.
- محمود بن عمرو بن أحمد، أبو القاسم جار الله الزّمخشرّي (المتوفّي: 538هـ): الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، دار الكتاب العربي - بيروت، الطّبعة: الثالثة - 1407هـ، المقدّمة.
- مصطفى صادق بن عبد الرزّاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرّافعي (المتوفّي: 1356هـ): إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، دار الكتاب العربي - بيروت، الطّبعة الثّامنة - 1425هـ - 2005م.

التّهميش

-
- 1 - ينظر: شوقي ضيف: البلاغة تطوّر وتاريخ، ص: 9 - 13. وينظر: الجناجي: النّظم البلاغيّ بين النّظريّة والتّطبيق، ص: 16 وما بعدها.
 - 2 - الإسراء: 88.
 - 3 - يوسف: 2.
 - 4 - النّحل: 103.
 - 5 - الرّعد: 37.
 - 6 - الشّافعي: الرّسالة، 40/1 - 47.
 - 7 - ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 1/762.
 - 8 - الجناجي: النّظم البلاغيّ، ص: 23.
 - 9 - أبو هلال العسكري: الصّناعتين، ص: 1.
 - 10 - الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 108.
 - 11 - المرجع نفسه، ص: 177.
 - 12 - المعطي عرفة: قضية الإعجاز القرآنيّ، ص: 103.
 - 13 - المرجع نفسه، ص: 137.
 - 14 - ابن الأثير: المثل السائر، 2/205.
 - 15 - الزّمخشرّي: الكشّاف، ص: 2.
 - 16 - الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، 9/1.

- 17 - يوسف: 2.
- 18 - طه: 113.
- 19 - الزّمر: 28.
- 20 - الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، 311/1.
- 21 - المرجع نفسه، 382/2.
- 22 - المرجع نفسه، 311/1.
- 23 - المرجع نفسه، 481/1.
- 24 - المرجع نفسه، 254/2.
- 25 - المرجع نفسه، 300/2.
- 26 - المرجع نفسه، 316/2.
- 27 - المرجع نفسه، 325/2.
- 28 - المرجع نفسه، 382/2.
- 29 - المرجع نفسه، 383/2.
- 30 - السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، 33/4.
- 31 - المرجع نفسه، 214/4.
- 32 - المرجع نفسه، 38/3.
- 33 - المرجع نفسه، 120/3.
- 34 - المرجع نفسه، 142/3.
- 35 - المرجع نفسه، 159/3.
- 36 - المرجع نفسه، 166/3.
- 37 - المرجع نفسه، 179/3.
- 38 - المرجع نفسه، 256/3.
- 39 - المرجع نفسه، 284/3.

الدرس البلاغيّ وأثره في توجيه مشكل القرآن الكريم

عرض نماذج تطبيقه أنموذجا

سعيدة سعدودي

جامعة امحمد بوقرة بومرداس

البريد الإلكتروني: s.sadoudi@uni-boumerdes.dz

ملخص:

إنّ القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز المتعبد بتلاوته، جامعاً لأحكام الإسلام، وقد اهتم المسلمون به حفظاً وتفسيراً واستنباطاً لأحكامه، وبيانياً لأسرار إعجازه. ويعدّ هذا الأخير محور دراسات الكثير من البلاغيين، ومناطق اهتمامهم؛ فقد أُلّفَت الكثير من الكتب وصنفت العديدة من البحوث التي جهدت في الكشف عن أسرار النظم القرآني، وخصائصه البلاغية التي أعجزت فصحاء العرب وخطباءهم وشعراءهم.

وهو ما نعى قدراتهم وحركها ليستلوا منها صفاء إنتاجهم، فاسترسلوا في بيان قيمتها الدلالية التي أسهمت في تقوية بنية القراءة القرآنية لإبراز جمال النصّ القرآني من منابحه اللغوية، وصنوف الكلام، وتولّدت من نباهتهم مباحث بلاغية أملت عليهم طبيعة البحث اللغوي. وهم في ذلك لم يخرجوا عن المنهج اللغوي المتأصل للقرآن الكريم. وبناء على هذا طرح التساؤل الآتي:

- ما علاقة البلاغة العربية بإعجاز القرآن الكريم؟ وإلى أي مدى يمكن أن تفيد في

معرفته؟

- إلى أي مدى أسهم الدرس البلاغيّ في توجيه ما شكّل من القرآن الكريم؟

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، البلاغة، توجيهه، إعجاز.

Abstract:

Address of intervention: The rhetorical lesson and its impact on guiding the problem of the Holy Koran. Displaying models applied by an amygdala. Summary: . The Holy Quran is God's miraculous and worshipped book, encompassing the provisions of Islam. Muslims are interested in it in preserving, interpreting and deducing its provisions, and a statement of the secrets of its helplessness. The latter is the focus and focus of many communications' studies; Many books have been compiled and compiled from numerous research that has worked to uncover the secrets of the Koranic systems, and its rhetorical characteristics that have impaired the health of Arabs and their speeches and poets. As a result, they developed their abilities and moved them away from the serenity of their production. They sent in a statement of their semantic value, which contributed to strengthening the structure of Quranic reading to highlight the beauty of the Quranic text from its linguistic sources and speech varieties. They did not depart from the linguistic curriculum inherent in the Holy Koran. We therefore ask the following question: What does Arabic language have to do with the Holy Koran's miracles? And how useful can it be? - How much did the lesson contribute to guiding what constituted the Holy Koran?

Keywords: Holy Quran, Rhetoric, Guidance, Ejaz

مقدّمة:

لقد رأى علماء البلاغة واللغة والاعراب، وكذا علماء النحو الصرف أنّ مشكل القرآن الكريم هو علم قائم بذاته لا بد له من استعداد، وتسليح كبير بالعلم وأدواته بغية الوصول إلى فهم الآية المشكّلة، مع استخدام آلية التأويل للوصول إلى مقصديه الآية والمعنى المراد من سياقها فكثيرا من الآيات تستشكل على بعضهم دون البعض الآخر. ويرجع ذلك في نظر الكثير إلى مدى مقدرة القارئ للقرآن الكريم في فهم الآية المشكّلة؛ ولهذا تميّز علماء الدّراسات اللّغوية التراثية بمقدرة علمية فائقة أهلّتهم إلى معرفة الآيات المشكّلة ودفع الاستشكال عنها،

ومن أمثلة ذلك وعلى سبيل التمثيل لا الحصر الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: 01]. فيتبادر إلى ذهن الكثير هذا السؤال المحير وهو كيف يقال للرسول المعصوم - صلى الله عليه وسلم - اتق الله؟ وهو سيد الأولين والآخرين بل وسيد المتقين، والإجابة كانت من عند الإمام الرازي (606هـ) حيث قال: بمعنى: يا محمد ابق كما أنت على تقواك ...، فيفهم حينها أن الآية الكريمة كانت مشكلة لدى الكثير من الناس وعلماء التراث أجلوا ذلك المشكل.

أولاً: مفهوم الإشكالات الدلالية في العربية:

تناول علماء اللغة وعلوم القرآن مفهوم مشكل القرآن الكريم قديماً وحديثاً وعرضوا

تعريفات عديدة له منها:

أ. التعريف اللغوي:

مشكل مأخوذ من مادة (ش، ك، ل) وعرفه ابن الأثيري بقوله: (ت328هـ) "قد أشكل عليّ الأمر، معناه: قد اختلط بغيره"¹. وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) قوله: "أشكل الأمر، التبس، حرف مشكل مشتبه ملتبس"². وقد نقل الأزهري (ت370هـ) عن أبي حاتم السجستاني (ت250هـ) قوله: حرف مشكل: مشتبه ملتبس"³.

وكلمة الشين، والكاف، واللام، فهي أصل للمماثلة وكلّ ما يدخل في بابها عند جلّ

العلماء.

أما معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 07]. أنه لما كان من شأن المتشابهين عجز عن التمييز

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة (ش، ك، ل)، دار المعارف، مصر، ج4، ص 2310 / 2311.

² الأزهري تهذيب اللغة، تج: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، مادة (ش، ك، ل)، ج10، ص25.

³ ينظر: ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تج: أحمد صقر، المكتبة العلمية، ط3، 1401هـ / 1981م، ص

سعيدة سعدودي - _____ الدرس البلاغي وأثره في توجيه مشكل القرآن الكريم

عرض نماذج تطبيقه أنموذجا

بينهما، سعى كل ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه، وذلك لإطلاق السبب على المسبب¹. نظيره المشكل: سعى بذلك لأنه أشكل، أي: دخل في شكل غيره فأشبهه وشابهه². ويدور المعنى اللغوي للمشكل حول المماثلة، والاشتباه والاختلاط، والالتباس.

ب. التعريف الاصطلاحي:

اختلفت التعريفات الاصطلاحات للمشكل انطلاقا من تباين الآراء والتخصصات فقد عرفه الدبوسي (ت430هـ) بقوله: هو الذي أشكل على السامع طريق الوصول إلى المعنى الذي وضعه له واضح اللغة، أو أرادته المستعير³. وعرفه الباجي (ت474هـ) بقوله: " ومعنى التشابه: هو المشكل الذي يحتاج في فهم المراد به إلى تفكير وتأمل"⁴. نخلص مما سبق أن المشكل يدخل في المتشابه.

ويرى علماء التفسير، وعلماء القرآن أن مصطلح المشكل عام يشمل كل إشكال يطرأ على آية من آيات القرآن الكريم سواء أكان في اللفظ أم في المعنى أم في الإعراب أم في القراءات وفي هذا الصدد يقول ابن تيمية (ت728هـ): " ولا قال قط من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين، إنّ في هذا القرآن آيات لا تعلم معناها، ولا يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أهل العلم، والايمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس وهذا لا ريب فيه⁵.

نستشف من هذا القول أنّ ابن تيمية قد أدرك أن أهل العلم يفهمون ما يتعلق بالآية والسورة ويعلمون خفاياها ومعناها الظاهر والخفي فما بالك رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ المصدر السابق، ص 102.

² محمد صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ، ج1، ص 253.

³ الباجي، أحكام الفصول في أحكام الأصول، تج: عبد المجيد تركي، دار المغرب، الإسلامي، ط2، 1415هـ، ج1، ص 16.

⁴ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبع: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ، ج13، ص 285.

⁵ حمد المنصور، مشكل القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ، ص81.

الذي كان قرآنا يمشي ومفسرا يترجم آيات الله على الواقع المعيش والملموس، ومع ذلك يبقى بعض الناس لا يفهمون معنى بعض الآيات من آيات القرآن الكريم وهذا من الطبيعي جدا ومما ينبغي معرفته: " أن الإشكال لا يكون في أصل الآيات، وإنما هو متعلق بفهم القارئ لهذه الآيات، فهو أمر نسبي، فعلى هذا لا مانع من وجود المشكل في القرآن الكريم"¹.

2 .مسألة وجود المشكل في القرآن الكريم وتمثالاته في آياته وسوره:

من أوصاف القرآن الكريم بأنه محكم، ومشتق، فهو الحق وأخباره صدق، لا يأتيه الباطل بين يديه هو الوحي العظيم، وأوامره بشرى وخير وهداية في الدارين الدنيا والآخرة، ونواحيه تعود بالضرر فهو: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]. ووصف بأنه ﴿كتابا متشاهبا﴾ [الزمر: 23]، وقال أيضا: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: 23]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. الله عزوجل ينفي عن كلامه أن يكون فيه اختلافا؛ لأنه المنهج الرباني القويم.

كما ورد أيضا أن القرآن ما هو محكم، ومنه ما هو متشابه قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]. هاهنا ربط الكثير من العلماء بين المتشابه في القرآن الكريم وبين المشكل يقول ابن قتيبة في هذا الصدد (ت 276هـ): "ثم قد يقال لكل ما غمض ودق متشابه وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطعية في أوائل السور: متشابه وليس الشك فيها والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها"².

ففي هذا المقام يرى العديد من العلماء أن المتشابه مشكل وسمي بالمشكل لأنه أشكل؛ أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله³. نستنتج مما سبق أن المتشابه يحتاج لمعرفة استخدام القرائن لإزالة الإشكال؛ لأنه أينما وجد المتشابه وجد الإشكال معه فهذا أبو يعلى

¹ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 102.

² ينظر: حمد المنصور، مشكل القرآن، ص 83.

³ أبو يعلى الحنبلي، العدة في أصول الفقه، تح: أحمد المباركي، ط1، 1410هـ، ج1، 152.

(ت 458هـ) يذهب إلى أن المتشابه هو: المشتبه المحتمل الذي يحتاج إلى معرفة معناه إلى التأمل والتدبر وإعمال الفكر، والقرائن هي تزيل إشكاله وتبينه"¹

ثانيا: دور البلاغة في توجيه ما استشكل من القرآن الكريم:

1. أسلوب الالتفات في القرآن الكريم ودوره في توجيه الآيات المستشكلة:

جاء معناه اللغوي بمعنى اللفت من مادة (ل، ف، ت) "لفت عن القوم أي صرفه، والتفت التفتا، والتلفت أكثر منه، وتلفت عن الشيء والتفت إليه أي صرف وجهه إليه...اللفت: الصرف. يقال ما لفتك عن فلان أي ما صرفك عنه؟"²، فاللفت هو تبديل النظر إلى وجهة مخالفة. أما اصطلاحا: فالالفتات ظاهرة لغوية اهتم بها العلماء عبر حقب وعصور مختلفة فتعددت مفاهيمه وهو: "نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع، وتجديدا للنشاطه، وصيانة لخاطره من الملل والضجر، بدوام الأسلوب الواحد على مسمعه"³، وفي تعريف آخر يعرف على أنه "انصراف المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات والانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"⁴.

نستشف من هذا التعريف أنه أسلوب بلاغي يوظفه المتكلم بطريقة جمالية مبدعة التركيب إذ به ينصرف إلى الإخبار بطريقة لطيفة تزيد المتلقي حماسا وتشوقا لاستقبال وتلقي اللاحق من الكلام؛ كما أنّ الالتفات هو ابداع لغوي تمكن به البلاغ أن يفاجؤوا المتلقي بالتنقل إلى طرق الكلام المتنوعة؛ فهو من الاساليب البلاغية المتكررة في القرآن الكريم فهو: "نوع من فنون القول وهو ما يحقق للبليغ الفوائد في نفس المتلقي وفكره، ويحقق

¹ ابن منظور، تيج: عامر أحمد حيدر، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، د.ت، د.ط، باب التاء، مادة (ل.ف.ت)، ج3، ص 84.

² الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بيروت دار المعرفة، 1410هـ-1990م، ط1-3، ص380.

³ ابن المعتز، البديع دار الميسرة، بيروت، 1402هـ-1982م، ط 3، ص15.

⁴ الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار قلم، دمشق، 1996م، ط1، ص480.

الاقتصاد والاجازة في العبارة"¹؛ أي أنه من جماليات الأساليب البلاغية التي يوظفها البلغاء قصد غاية واضحة ألا وهي الأثر الابداعي المتميز.

وبعد الالتفات من الأساليب البلاغية التي درسها علماء البلاغة ومن الآية القرآنية المستشكلة قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: 53]. فسّر الامام الشوكاني هذه الآية فقال: فالآية المستشكلة في الفعل أخرجنا هل هو منسوب إلى الله تعالى أم إلى موسى إن الله - جلّ وعلا- يمن على عباده بقوله: وأنزل من السماء ماء والمقصود هل هنا ماء المطر النافع؟ أي الغيث؛ إلى هنا ينتهي كلام النبي موسى عليه السلام ثم تأتي الآية الكريمة ﴿فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ وهنا كلام الله عزوجل، ويقال أيضا في هذه المسألة أن الذي يحكي هو موسى عليه السلام والحكي هو صاحب الأمر الله جلّ وعلا².

واخترنا هذه الآية تحديدا لأنها تحتوي على إشكال فمن الذي يسند إليه الفعل في أخرجنا هل هو الله - جلّ وعلا- أم موسى عليه السلام، ويرى الزمخشري أن الآية فيها انتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم، وهو صاحب الأمر سبحانه فقوله أخرجنا، إما أن تكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام مسند إلى الله عزوجل، والصحيح أنه ليس من كلام موسى لأنه عبد الله - جلّ وعلا- وإتّما الإخراج هو من أمر الله تعالى، وليس في وسع موسى أن يصرف المياه إلى سقي الأراضي الجذباء وإنزال المطر"³. وتأويل الآية الكريمة هو أن الفعل أخرجنا يستند لله تعالى، وأن الذي يحكي عنه هو موسى عليه السلام، أمّا صاحب الأمر فهو الحكي للجميع، وهذا كتأويل للآية المستشكلة.

¹ ينظر: الشوكاني، فتح القدير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط2، 1418هـ، ج3، ص 507.

² ينظر: الزمخشري، الكشاف، ترجمه وضبطه وراجعه يوسف الحمادي، الناشر مكتبة مصر، (دت)، ج3، ص 149 / 150.

³ أحمد المنصور، مشكل القرآن الكريم، ص 292.

2. المجازي القرآن الكريم ودوره في توجيه المستشكل من كلام الله تعالى:

جاء معناه اللغوي يدل على مكان الجواز، تقول جزت الوادي إذا عبرته

أما اصطلاحا: فعرف بأنه اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. وهو ما يسمى بالمجاز اللغوي وأما علاقته فهي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي. وقد تكون العلاقة مشابهة أو غيرها، فإذا كانت مشابهة؛ فالمجاز: استعارة، وإلا فهو: مجاز مرسل. والقرينة: قد تكون لفظية مثل: رعت الماشية الغيث. وقد تكون حالية مثل: قول الله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: 19] فالقرينة حالية وهي استحالة إدخال الاصبع كله في الأذن.

وقد استعمل القرآن الكريم المجاز وأورده في سياقات مختلفة، ولما كان المجاز بأقسامه فيه نوع من الغموض؛ لأنّ المجاز يعدّ من أساليب التعبير غير المباشرة وهو نوع من الإيجاز والاختصار، مما يلزم سعة البيان لتدبر المضمون وفهمه فالمجاز عدّ في باب ما تستشكل الآيات لأجله¹. ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 37]. قال أبو بكر العربي (ت 543هـ): " فنقول: إنّ قيل: كيف قال: فاقطعوا أيديهما" وإنّما هما يمينان؟ قلت: ذكر أهل اللغة وتابعهم الفقهاء بأنّ هذا السؤال ثلاثة أوجه:

1. أنّ أكثر ما في الانسان من الأعضاء اثنان، فحمل الأقل على الأكثر، ألا ترى أنك تقول بطونها وعيونها، وهما اثنان فجعل ذلك مثله.
2. أنّ العرب فعلت ذلك للفصل بين الشيء منه واحد وبين ما فيه منه الاثنان، فجعل ما في الشيء منه واحد جمعا إذا ثني ومعنى ذلك أنّه إن جعل جمعا، بالإضافة تثنية،

¹ أبو بكر بن العربي، أحكام القرآن، تج: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م، ج2، (د. ط)، ص 70...83.

لاسيما والتثنية جمع"¹. والمعنى هنا لأيدهما معنى الايمان جمعا أي: لإيمانهم، ففي السياق نفسه يقول ابن الأنباري " فلما كان معنى أيديهما إيمانهم، والإنسان ليس له إلا يمين واحدة فنزل منزلة ما ليس في البدن منه إلا عضو واحد، فأتى في تثنيته بلفظ الجمع"². ولم يخرج عن هذا التخريج باقي العلماء والمفسرين.

3. الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في توجيه ما أشكل من المعنى المراد:

جاء معناها اللغوي بمعنى: طلب الإعارة أما اصطلاحا: فهي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. أو هي: مجاز لغوي، علاقته المشابهة. أو هي: تشبيه حذف أحد طرفيه

مثال ذلك: زار الرعد. شبه الرعد بالأسد، فذكر المشبه، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه وهو "زار" وعليه تنقسم الاستعارة باعتبار ذكر المشبه به أو ذكر ما يخصه إلى قسمين: تصريحية ومكنية

1 - الاستعارة التصريحية: وهي ما صرح فيها بالمشبه به. أمثلة ذلك:

- قال الوأواء دمشقي:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتُ وزدأً وعضتُ على العنابِ بالبردِ

ففي هذا البيت خمس استعارات: شبه الشاعر الدموع باللؤلؤ بجامع الصفاء، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به؛ فالاستعارة تصريحية.

وشبه العيون بالنرجس بجامع الجمال، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به؛ والاستعارة تصريحية. وشبه الخد بالورد بجامع الحمرة وشبه الأنامل المخضوبة بالعناب بجامع الحمرة

¹ أبو بكر بن العربي، المصدر السابق، ص 290.

² الرازي، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ت)، (د.ط)/ المجلد 14، ج 7، ص 17.

ووشبه الأسنان بالبرد بجامع البياض بحيث صرح بالمشبه به وحذف المشبه، في كلها استعارات تصريحية.

2. الاستعارة المكنية: هي ما حذف فيها المشبه، ورمز له بشيء من لوازمه. مثال ذلك:

- قال الحجاج في بعض خطبه: إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها. شبه الحجاج الرؤوس بالثمار، فذكر المشبه (الرؤوس)، وحذف المشبه به (الثمار)، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (أينعت)، فالاستعارة: مكنية.

والاستعارة من أبرز الظواهر البلاغية التي تحدث عنها العلماء في القرآن الكريم وبينوا أسرارها وخفاياها وعلاقتها بالصورة البلاغية الأخرى كالمجاز والتشبيه، وعلاقة ذلك كله بالإشكالات اللفظية، وهي كثيرة في القرآن ومن مظاهرها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]

فسرها الرازي: ولي فلان الشيء يليه ولاية فهو وال وولي، وأصله من الولي الذي هو القرب، والولي؛ لأنه يقرب منك بالمحبة والنصرة، ولا يفارقك، ومنه الولي، لأنه يلي القوم بالتدبير والأمر والنهي، ومنه الولي... والمنتفع بولاية الله هو المؤمن عن الكافر... والولاية لها هنا تعني المحبة وأن المحبة إعطاء الثواب¹. وتفسيره في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: 257]. يحل الاشكال العالق في الذهن عن معنى الظلمات والنور، فيقول: أجمع المفسرون على أن المراد في قوله الظلمات والنور: الكفر والإيمان فتكون الآية صريحة في أنّ الله تعالى هو الذي أخرج الإنسان من الكفر وأدخله في الإيمان، فيلزم أن يكون الإيمان بخلق الله، لأنه لو حصل بخلق العبد لكان الذي أخرج نفسه من الكفر إلى الإيمان. وهو عنده على قولين²:

¹ المصدر السابق، ص 17.

² المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

1. أنّ يجرى اللفظ على ظاهره، إن الآية مختصة لمن كان كافرا ثم أسلم، ويستشهد الرازي بقول مجاهد: هذه الآية نزلت في قوم آمنوا بعبسى عليه السلام وقوم كفروا، فلما بعث الله محمدا عليه الصلاة والسلام آمن به من كفر بعبسى عليه السلام"¹.
وأما الإخراج من الظلمات إلى النور فهو من عمل الله تعالى في حين الإخراج من النور إلى الظلمات هو من عمل الإنسان؛ لأنّ الله تعالى منحه العقل ليتدبر به.

أما الزمخشري فإنه يفسّر الآية الكريمة مختصرا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنَ﴾ أي: أرادوا أن يؤمنوا، يُلطف بهم حتى يخرجهم بلطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان "والذين كفروا" أي: صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك، أو الله ولي المؤمنين يخرجهم من الشبه في الدين وإن وقعت لهم بما يهددهم، ويفقههم له من حلها؟ حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين"²
نستنتج مما سبق أن البلاغة أدت دورا مهما في توجيه الآيات التي تشتمل على الإشكال وبيان وجه الإشكال فيها، ومسالك العلماء في دفعه وما تفتضيه قواعد البلاغة في ذلك.

الخاتمة:

بعدما عرضنا بعض النماذج البلاغية التي أسهمت في توجيه دلالة المعنى من خلال تأويل المعنى المراد، وحل مشكل القرآن خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- إن معرفة المشكل في القرآن الكريم، وكيفية دفعه من العلوم الجليلة التي وجب توفرها في المفسر والمؤول لفهم الأسرار العجيبة للقرآن الكريم.
- البحث في المشكل يتطلب معرفة دقيقة بالعلوم المختلفة كالفقه والتفسير والبلاغة وعلوم اللغة من أجل دفع الإشكال وهو الذي بسببه وجدت هذه العلوم.

¹ الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 272.

² وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، ط2، 2002م، ص55.

- إن مسألة وجود المشكل في القرآن الكريم، مسألة فيها حكمة إلهية عظيمة وسر من أسرار القرآن الكريم ومعجزة تحتاج إلى فهمها وإدراك كنهها.
- إن لعلم البلاغة نصيب كبير في فهم وتخريج النص القرآني فالإلمام باللغة وقواعدها ونحوها وصرفها وبلاغتها يتسنى له الوصول إلى المعاني المخفية في التركيب الواحد.
- إن إعجاز القرآن الكريم يكمن في الصور البيانية والأساليب التركيبية التي توضح المعنى وتوجيه دلالاته.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الانباري، الزاهر في معاني كلام الناس، تح: عبد السلام هارون، المؤسسة الرسالة، ط1، ج2، 1412هـ.
- ابن تيمية، مجموع الفتاوي، جمع عبد الرحمن بن قاسم، طبع: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416هـ، ج13.
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: أحمد صقر، المكتبة العلمية، ط3، 1401هـ/ 1981م
- ابن المعتز، البديع، دار الميسرة، بيروت، 1402هـ-1982م، ط3.
- ابن منظور، لسان العرب، مادة (ش، ك، ل)، دار المعارف، مصر، ج4.
- أبوبكر بن العربي، أحكام القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1426هـ/ 2005م، ج2، (د. ط).
- أبو يعلى الحنبلي، العدة في أصول الفقه، تح: أحمد المباركي، ط1، 1410هـ، ج1.
- الباجي، أحكام الفصول في أحكام الأصول، تح: عبد المجيد تركي، دار المغرب.
- الأزهري تهذيب اللغة، تح: عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر، مادة (ش، ك، ل)، ج10.
- حمد المنصور، مشكل القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، ط1، 1426هـ.

سعيدة سعدودي - _____ الدرس البلاغي وأثره في توجيه مشكل القرآن الكريم
عرض نماذج تطبيقه أنموذجا

- الرازي، التفسير الكبير، حققه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ت)، (د.ط)/المجلد 14، ج7.
- الزمخشري، الكشاف، ترجمه وضبطه وراجعه يوسف الحمادي، الناشر مكتبة مصر، (د.ت) ج2.
- الإسلامي، ط2، 1415هـ، ج16. الشوكاني، فتح القدير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، ط2، 1418هـ، ج3.
- عبد الرحمن الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، 1996م، ط1.
- محمد صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ، ج1.

² الزمخشري، الكشاف، ص 50.

بلاغة التشبيه في سورة النور

د/عبد الوهاب تيايبية

أستاذ محاضراً .

جامعة محمد الشريف مساعديّة سوق أهراس - الجزائر -

البريد الإلكتروني: abdelwaheb.tiaibia@univ-soukahras.dz

الملخص

التشبيه من فنون علم البيان التي تصور المعنى وتوضّحه ويهدف هذا البحث إلى تحليل شواهد التشبيه التي جاءت في سورة النور وبين دوره في إبراز المعنى البلاغي والنفسي والاجتماعي الذي جاء في سياقه؛ فسورة النور كانت دستوراً لتنظيم الحياة الاجتماعية للمجتمع المسلم في المدينة وقد تنوعت الآداب والمعاني الاجتماعية التي جاءت فيها. ومنها الاستئذان والعفاف وصون اللسان عن الحديث في أعراض الناس واستشعار نعم الله وحمده عليها. واليقين بأن أحكام الله هي الأصلح للمجتمع. وهذا البحث يقتصر على شواهد التشبيه التي جاءت في هذه السورة الكريمة ويحللها تحليلًا بلاغيًا وبين أثر التشبيه في إبراز المعنى النفسي الاجتماعي كما أنه يُلقى الضوء على بعض فنون البلاغة الأخرى التي جاءت في الآية موضع الشاهد.

الكلمات المفتاحية: التشبيه، البلاغة، سورة النور.

Summary

Simile is one of the arts of rhetoric that depicts and clarifies the meaning. This research aims to analyze the evidence of the simile that came in Surat An-Nur and shows its role in highlighting the rhetorical, psychological and social meaning that came in its context. Surah Al-Nour was a constitution to regulate the social life of the Muslim community in the city, and the etiquette and social meanings that it included were diverse. Among them are seeking permission, chastity,

keeping one's tongue from speaking about people's honor, and sensing God's blessings and praising Him for them. And the certainty that God's rulings are the best for society. This research is limited to the evidence of simile that appeared in this noble Surah, analyzes it rhetorically, and shows the effect of the simile in highlighting the psychological and social meaning. It also sheds light on some other rhetorical arts that came in the verse in question.

Keywords: simile, rhetoric, Surat Al-Nur.

مقدمة:

لقد بلغ النص القرآني مقام الكمال والشرف، نظرا لتلك السلطة البيانية والفنية والروحية، وإجازا لذلك التركيب البليغ، ونظرا لتبياناه زمن نضوج البيان العربي، كما أنه استطاع بالحكمة الالهية أن يحافظ على قداسته، وأن يكون مغزى بيانيا تقاس عليه الأساليب زمن ضعف الملكة البيانية، مع مرور الوقت، فهو معجز نظرا لطريقة سبكه ونظمه ونسجه، وتساميه في براعة التصوير وقوة الإيحاء ومناسبة كل موضع لما وضع له، كما ارتبط الأمر بما تضمنه النص القرآني من صور وحجج بيانية راقية أضفت على الأسلوب ميزة وبيانا خاصا، كما أن النص القرآني وعند طرحه للقضايا يتسامى بالمضمون على مستوى يتفجر السياق فيه بالدلالات والإيحاءات في حين تكمن الجمالية الأدبية في البنية الخطابية، فالنص القرآني يرقى إلى مستوى القوة والفخامة بمختلف مكوناته ونظمه ولقد حظيت البلاغة بنصيب وافر من جهود المهتمين بالتراث العربي، قديما وحديثا لأنها نشأت في ظل القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة وظلت البلاغة يحتمل مفهومها العام حسن البيان وقوة التأثير، كما أنها صفة الكلام الجيد. إلى أن أصبحت علما ذا قواعد ومباحث تجلت مباحثه في ثلاث مباحث هي علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. أما علم البيان فهو جزء من علم البلاغة، ويعد من أرقى وأشرف علومها، وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. ولعلم البيان أربعة مباحث حددها علماء البلاغة وهي التشبيه والكناية والمجاز والاستعارة، هذه المباحث وسيلة من وسائل التعبير لبيان المعنى وتأكيدهِ. ولا شك في أن التشبيه يعد من أهم مباحث علم البيان لما لقيه من اهتمام وعناية

البلاغيين والنقاد والفلاسفة على اختلاف مشاربهم واللسانيين، وعلماء الدلالة. لهذا فقد ظهرت تصنيفات وتقسيمات متعددة للتشبيه تعكس في جلها التوجهات المعرضة التي يستند إليها هؤلاء العلماء في بحثهم هذا الموضوع، وكان شأنه عظيماً عند الشعراء كذلك، ومن هذا المنطلق اتخذ البلاغيون والنقاد العرب القدامى من التشبيه مقياساً للمفاضلة بين الشعراء. ومن هنا نجد أنفسنا منطلقين من عدّة إشكاليات تسيج هذا العلاقة الوطيدة بين علم البلاغة والنص القرآني المعجز في لفظه ومعناه. ومن هنا حاول البحث الإجابة على جملة من التساؤلات الإشكالية: ما حد التشبيه وأدواته؟ وماهي أنواعه وأغراضه؟ ما هي الأبعاد الجمالية للتشبيه؟ وما هو الأثر البلاغي والفني والدلالي للتشبيه في سورة النور؟

أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة في كونها تسعى للكشف عن مفهوم التشبيه، ودوره المهم في إبراز الطاقات المعنوية الكامنة خلف كل آية من سورة النور.

أهداف الدراسة

بيان روعة التشبيه في النص القرآني

بيان التجليات الفنية والجمالية في النص القرآني من خلال سورة النور.

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، لأن طبيعة الموضوع مرهون بفعل القراءة التحليلية المسؤولة عن إعطاء القيمة الأدبية للنص الأدبي، وذلك ما سنحاول الوقوف عليه من أجل فهم أكثر في قراءة النص القرآني والبحث فيه عن مواطن التشبيه وجمال التصوير. التصوير.

نبذة عن الدرس البلاغي:

ماهية البلاغة

استأثرت البلاغة بنصيب وافر من جهود المهتمين بالتراث العربي، فمنذ القرن الماضي بدأت حركة تأليف نشيط تسارع نسقها شيئاً فشيئاً حيث أصبح من العسير الإمام بكل ما

نشر في الموضوع بل إن المنشور جدير بأن يجمع ويقيم في بحث مستقل¹. حيث تتألف البلاغة العربية من علوم ثلاثة هي: المعاني، البيان والبديع، وميدان البلاغة الذي تستعمل فيه العلوم الثلاثة متضافرة هو نظم الكلام وتأليفه على نحو يخلع عليه نعوت الجمال. وإدراك سمات الكلام البليغ لا يتأتى إلا عن طريق الدرس والبحث والتأمل، ومن أجل هذا تبدو الحاجة إلى دراسة البلاغة، فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي ترقى بالتعبير صعودا نحو الجمال الفني، كما تضع بين يديه الأدوات التي يستطيع التمرس بها والتدرب عليها أن يأتي بالكلام البليغ، وهي في الوقت ذاته جزء مكمل لثقافة الناقد والأدب. إن دراسة البلاغة ليست ضرورية فقط لمن يريد أن يجعل اللغة وآدابها ميدان تخصصه، وإنما هي ضرورية له وللناقد والأديب على حد سواء². وإضافة إلى ذلك فقد قسم السكاكي أيضا البلاغة إلى علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع.

مفهوم البلاغة:

لغة: "هي أبلغت الشيء إبلاغا وبلاغا، وبلغته تبليغا، وإذ أوصلته إلى غايته ونهايته"³ وهي تعين أن يكون الكلام فصيحاً قويا فنيا يترك في النفس أثرا قويا ويناسب الشخص والحال والزمان⁴. وقال بعض المحدثين: "أن البلاغة هي إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ وهذا يعني أن البلاغة هي التوافق بين اللفظ والمعنى"⁵، وقال بعضهم: "هي من أحسن ما اجتبيناه ودوناه". وبما أن البلاغة هي النظم عند الجرجاني، والتشبيه كظاهرة حية من مباحث علم البيان يعد من علوم البلاغة. فالبلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضي الحال مع فصاحته. هي خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها⁶. إذا فالبلاغة هي فن، والفن يعني هذا الصنعة. إن نتاج هذه الصنعة أمر مدبر أي أنه لا يرجع إلى الطبيعة، بل هو نتاج العقلانية المنهجية الإنسانية. وبعبارة أخرى البلاغة منهج يمس خاصية ملازمة للإنسان هي الكلام، وبصفة ليست مصروفة بطريقة تعسفية بل لقد ربط بينهما من زوايا نظر قائمة على أساس منطقي. ثم كان منهجه في بيان إعجاز القرآن من جهة البلاغة، أن جعل البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم،

الفواصل، التجانس، التصريف التضمنين، المبالغة، وحسن البيان"⁷. نستنتج أن البلاغة هي توافق بين اللفظ والمعنى وأن كلامها يحققان التكامل.

نشأة البلاغة: اهتم العرب بالبحث الخطابي والنقدي بعد نزول القرآن الكريم، والاهتمام بقضاياها ومعانيه، ونشأة علم البلاغة مع انتشار الاسلام والدعوة إلى كافة الدول القريبة من شبه الجزيرة العربية، في هذه المرحلة اهتم العلماء العرب بدراسة القرآن وتفسيره، وكان العرب مهتمين بتجميع لغتهم الخاصة المشتتة، بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية والشام. ونشأ علم البلاغة على يد أبي يعقوب السكاكي ومدرسته، ولم يطرأ عليه أي تغيير أو تطور منذ مطلع القرن السابع الهجري، ومثل هذا الاستقرار العلوم الثلاثة التي كانت مرتبطة بها، وهو علم البيان، وعلم البديع، وعلم المعاني، وسائر الفنون المتفرعة عن هذه العلوم، علاوة على أن مناهج البحث البلاغية والأساليب البلاغية التي استخدمت نفس المنهج الذي وضعه السكاكي واتبعه طلابه من بعده، كما أن التطور الوحيد الذي حدث في علوم البلاغة خلال تلك الفترة تم تطوير الفنون الأخرى للفنون الموجودة في العلوم الثلاثة، ولا سيما علم البديع الذي نتج عنه عدة فروع⁸. اهتم العرب بالخطاب النقدي ولم يطرأ تغيير .

البلاغة والدين

لعل أهم الدوافع التي دفعت الباحثين للتحقيق في البلاغة هو الفكر الديني، بقرانه الكريم وحديثه الشريف، وذلك لسببين: تفسير آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة لمعرفة المقاصد السماوية، وجاءت معظم الدراسات الدينية التي أجريت من أجل معرفة معنى القرآن الكريم، فلقد أثر الحديث الشريف بطريقة أو بأخرى على العلوم البلاغية أثناء التفسير، وذلك لأن معرفة البلاغة شيء أساسي لمعرفة المعاني الدينية-معرفة إعجاز القرآن الكريم، وأسراره، وإعجاز أسلوبه، لهذا السبب كتب العرب العديد من الكتب التي بحثوا فيها بلاغة القرآن وأسراره، فهناك علاقة وثيقة بين البلاغة والدين، حيث استمدت البلاغة وجودها من الفكر الديني ومن خلاله حاول باحثو البلاغة تفسير الآيات

والأحاديث النبوية الشريفة وشرح أسرار معجزات القرآن الكريم.⁹ إذن دوافع تحقيق البلاغة في الفكر الديني هي تفسير آيات القرآن والحديث ومعرفة إعجاز القرآن وأسراره.

ماهية التشبيه

تعريف التشبيه لغة واصطلاحاً.

أ- لغة التشبيه في اللغة التمثيل، وهو مصدر مشتق من الفعل شبه، يقال: شبهت هذا بهذا تشبيهاً أي مثلته به، وفي لسان العرب: "التشبيه والشبه والشبيه: المثل والجمع أشباه وأشبه الشيء ماثله وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبته على، وتشابه الشيطان واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه وشبهه به مثله، والتشبيه التمثيل." وجاء في لسان العرب في مادة (مثل) والمثل: الشبه: يقال مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد¹⁰ وعلى هذا يكون التشبيه والتمثيل مترادفين لغويًا وإن كانا مختلفين اصطلاحاً. نستنتج أن التشبيه والتمثيل كلمتان مختلفتان في معنى واحد.

ب- اصطلاحاً: للتشبيه في اللغة العربية مكانة عظيمة فهو عنصر فصيح وأصيل تغنى به الشعراء في أبياتهم لكي يكون للقصيدة جمالية ثم جاء القرآن الكريم ليعطينا أجمل ما في الشعر بل قل أجمل ما في اللغة والحياة أما التشبيه في الاصطلاح فقد تضاربت أقوال البلاغيين حول تعريف التشبيه لكن عموماً: التَّشْبِيهُ وَاضِحٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَصْفُ الشَّيْءِ بِمَا قَارِبِهِ وَشَاكِلِهِ مِنْ جِهَةٍ أَوْ أَوْجِهٍ وَلَيْسَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَهَذَا التَّعْرِيفُ لِابْنِ رَشِيْقِ الْقَيْرَوَانِي فَإِذَا قُلْنَا أَنَّ الْمَرْغَبَ كَالْبَحْرِ فِي الْعَطَاءِ فَالْمَشْبَهُ هُوَ الْمَرْغَبُ وَالْمَشْبَهُ بِهِ الْبَحْرُ بِأَدَاةِ الْكَافِ أَمَا وَجْهَ الشَّبهِ هُوَ الْعَطَاءُ فِي الْبِدَايَةِ أَوْ أَنَّ أَقُولُ أَنَّ الْمَشْبَهُ وَالْمَشْبَهُ بِهِ هُمَا الرِّكَانَانِ الْأَسَاسِيَانِ لَا بَدَّ مِنْ وَجُودِهِمَا يَسْمِيَانِ طَرَفَا التَّشْبِيهِ فَإِذَا حَذَفَ أَحَدُهُمَا أَصْبَحَتْ اسْتِعَارَةٌ وَإِذَا قُمْنَا بِحَذْفِ الْأَدَاةِ أَوْ وَجْهَ الشَّبهِ زِدْنَا لِتَشْبِيهِنَا جَمَالِيَةً أَكْثَرًا حَذَفَ طَرَفِي التَّشْبِيهِ فَهَذَا تَشْبِيهِ حَذَفَ أَحَدَ طَرَفِيهِ وَهِيَ الْاسْتِعَارَةُ. ومنه أدوات التشبيه مهمة وكل واحدة لها تأثيرها الخاص على الجملة.

التعريف الجامع:

التشبيه هو صورة تقوم على تمثيل شيء (حسي أو مجرد بشيء آخر حسي أو مجرد لاشتراكها في صفة حسية أو مجردة أو أكثر. مثال: هي كالبدن في الحسن. يقوم التشبيه على مبدأ أساسي هو "المقارنة"، وذلك أن كل مقارنة تشبيهية. يتميز التشبيه بالخروج عن المألوف وبالقصد إلى إحداث الطرافة بالتخييل أو التمثيل في حين تسعى المقارنة إلى إثبات الشبه بين طرفي المقارنة.

أركان التشبيه.

يشتمل التشبيه على أربعة أركان وهي:

المشبه:

وهو كالتالي: مثلاً: هذا الرجل كالأسد في جرأته وصدقي
كأنه حاتم في كرمه، قلب المجرم في قسوته مثل الصخر.

ففي المثال الأول أعجبنا بجرأة الرجل، فبحثنا عن إنسان أو حيوان يمتاز بهذه الصفة، فلم نجد أوضح منها لدى الأسد، واستخدمنا حرف الكاف للمضاهاة أو المشابهة. وفي المثال الثاني امتاز الصديق بصفة حسنة هي الكرم، فأردنا أن نبرزها لديه فشبهناه بحاتم الطائي المضروب به المثل في هذه الصفة، واستخدمنا حرف التشبيه كأن لبيان المضاهاة. وفي المثال الثالث أردنا أن ننفر الناس من المجرم، فبيننا قسوة قلبه مشبهين تلك القسوة بالصخر، واستخدمنا للمضاهاة (مثل) ومن هنا نستنتج أن المشبه هو في المثال الأول (الرجل) وفي المثال الثاني (صديقي) وفي المثال الثالث (قلب المجرم).

المشبه به: وهو في الأمثلة السابقة: الأسد، حاتم والصخر.

أداة التشبيه: وهي في الأمثلة السابقة: الكاف، كأن، مثل.

وجه الشبه: وهو الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به، وهو في الأمثلة السابقة: الجرأة، الكرم، القسوة. ومن هنا نستنتج أن التشبيه له أربعة أركان وهي: المشبه والمشبه به ووجه الشبه وأداة التشبيه، ويسمى المشبه والمشبه به طرفي التشبيه، ولا بد في كل تشبيه من

وجود الطرفين، ولكن قد يحذف وجه الشبه وقد تحذف الأداة، وقد يحذف وجه الشبه والأداة معا¹¹.

طرفا التشبيه: طرفا التشبيه هما المشبه والمشبه به، وهما ركناه الأساسيان، ولا يقال تشبيه إلا إذا كانا فيه. وطرفا التشبيه يكونان حسيين أو عقليين أو مختلفين¹². إما حسيان كالخد والورد والصوت والهمس والنكهة والعنبر والريق والخمر، والجلد الناعم والحريز، أو عقليان كالعلم والحياة، أو مختلفان؛ كالمنية والسبع، والعطر وخلق كريم. والمراد بالحسي ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس الظاهرة؛ ومعنى هذا أنهما قد يكونان من المبصرات، أو المسموعات، أو في المذوقات أو المشمومات، أو الملموسات. فيكونان من المبصرات: أي مما يدرك بالبصر من الألوان والأكل والمقادير والحركات وما يتصل بها، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾، فالجامع البياض والحمرة¹³. وعليه نقول أهمية أركان التشبيه في الجملة وأهمية كل ركن في مكانه وكل ذلك للاتساق والانسجام وجمال الصورة.

بلاغة التشبيه. بالغ القدماء في الاهتمام بالتشبيه واعتبروه أهم لون بلاغي لأن فائدته التوضيح، ذلك أنه كما يرى ابن الأثير: "يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظ أفعل، أي يشبه بما هو أبين وأوضح أو بما هو أحسن أو أقبح"¹⁴ وكذلك يشبه الأقل بالأكثر والأدنى بالأعلى، ولعل هذه النظرة إلى التشبيه ساهمت في جعل الشعراء يحفلون به أكثر من أي لون آخر. ولكنها نظرة تفعل شيئا أساسيا في عملية التصوير الشعري لأنها تعتبر الشاعر يتعامل مع صفات موضوعية مشتركة بين الأشياء في الوقت الذي نجده يتعامل معها في الحقيقة انطلاقا من ذاتية وبعيدا عن المنطق والعقل، مما يفسر جمع بعض الصور بين أشياء متباعدة في صفاتها الموضوعية، لكنها تمتلك دون شك علاقة خفية قد يدركها الشاعر بحدسه الخاص، ولعل عبد القاهر الجرجاني انتبه إلى هذا الأمر حينما قال: "إن الحدق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهاة ليس أصل في العقل وإنما المعنى أن هناك متشابهات خفية دقيقة المسلك"¹⁵.

-البعيد الغريب: هو ما يحتاج في الانتقال من المشبه إلى المشبه به فكر ودقة نظر لخفاء وجهه، والسبب كونه كثير التفصيل، ومثال على ذلك هو تشبيه الشمس بالمرأة في كف الأشل. فإن هذه الهيئة لا تقوم في نفس الناظر للمرأة الدائمة الاضطراب إلا أن يتمهل في نظرة ويستأنف التأمل مليا حتى يتجلى له وجه الشبه فيهما، بالإضافة إلى ندور حضور المشبه به في الذهن إما عند حضور المشبه لبعده المناسبة بينهما كما في تشبيه البنفسج بنار الكبريت، وإما مطلقا لكونه وهميا كما سبق من تشبيه نصاب السهام بأنياب الأغوال أو مركبا خياليا كما مر من تشبيه الشقيق بأعلام الياقوت المنشورة على رماح من زبرجد، أو مركبا عقليا كما في تشبيهه مثل أحبار اليهود بمثل الحمار يحمل أسفارا¹⁶. ومن أقسام التشبيه أيضا ما عرف بالتشبيه المقلوب والتشبيه الضمني والتشبيه البليغ

أ- التشبيه المقلوب: الأصل في التشبيه أن يكون المشبه به أقوى وأظهر من المشبه، لتتم العملية الفنية، فحين نقول: هذا كلام كالعسل، نكون قد شبهنا حلو الكلام بالعسل، وحلاوة العسل أقوى وأظهر من حلاوة كل شيء آخر. كذلك حين نقول: أنت بحر، نكون قد شبهنا المخاطب وهو رجل قد يكون واسع العلم، أو واسع الكرم بالبحر، وطبيعي أن البحر أكبر من الإنسان، وأوسع مدى من جميع اليابسة على هذه الدنيا¹⁷. ومن هنا قال العلماء: يجب أن يكون المشبه به أقوى من المشبه، ليتم التشبيه ويصح. ولكن قد يخرج بعض الأدباء على هذه القاعدة، فيشبهون الأعظم بالأصغر، والأبعد بالأقرب، والأقل بالأكثر، والأضعف بالأقوى، يقول قائلهم: "البدر يشبه وجه أمي"، في الحقيقة وجه أمه هو الذي يشبه البدر، لأنه أشد ضياء وأكثر نورا، وأتم استدارة، لكن القائل من فرط حبه لأمه، وإعجابه بها، يتبادل فيه طرفا التشبيه مواقعهما هو ما دعاه البلاغيون بالتشبيه المقلوب. ويضربون على ذلك مثلا ببيت محمد بن وهيب الحميري:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

فإن الشاعر قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضياء¹⁸.
إذا فالتشبيه المقلوب هو جعل المشبه مشبها به بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر. وأبو الفتح عثمان بن جني في كتابه الخصائص يسمي هذا النوع من التشبيه غلبة

الفروع على الأصول، يقول: "هذا فصل من فصول العربية طريف، تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الأعراب، ولا تكاد تجد شيئا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة"، فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرمة قلب التشبيه؛ فجعل الكبير صغيرة والصغير كبيرا، وشبه البدر هذا التشبيه الذي

ارمل كأوراك العذاري قطعته إذا ألبسته المظلمات الخنادس

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا؟ وذلك أن العادة والعرف في نحو هذا أن أعجاز النساء بكثبان الأنقاء أي الرمال¹⁹. "والخلاصة أن الأصل في التشبيه أن يجري على السنن المعروفة عن العرب، والذي يتمثل في أن يلتمس المشبه به مما هو معروف، ومألوف في حياتهم، حتى ولو كان المشبه أقوى وأعظم في الصفة التي يشترك فيها مع المشبه به. فالعرب مثلا قد اشتهر بينهم حاتم بالجود، أحنف بن قيس بالحلم، وإياس بالذكاء، وأصبح كل واحد من هؤلاء مثلا عاليا في الصفة التي اشتهر بها، فالأسلوب العربي يقتضي على الشاعر أن يجعل كل واحد من هؤلاء الأعلام مشبها به، سواء أوجد بعده من هو أعظم منه في الصنعة وأقوى أم لم يوجد"²⁰. ومنه نقول أن التشبيه عند العرب لم يلق تطورا بل كان يتماشى مع المعروف.

تعريف سورة النور:

سورة النور تعد سورة النور من السور المدنية التي تحتوي على 64 آية من آيات الذكر الحكيم، وهي من السور المثاني التي نزلت بعد سورة الحشر، وترتيبها الرابعة والعشرون بين سور القرآن الكريم، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تحتوي على إشعاعات من النور الرباني، ففيها تشريع للأداب والأحكام والفضائل الإنسانية والتي هي بمثابة نور من الله على كافة عبادته وفيض من رحمته عليهم، وقد تحدثت عن حادثة الإفك المعروفة، وتقع في الجزء 21 من القرآن الكريم، وقد احتوت آياتها على بعض التوجيهات التي تتعلق بالأسرة كونها النواة الأولى في المجتمعات. فالبيان هو الطريق الموصل لاستجلاء مضامين السورة التي بدأت (بتوضيح الجانب الاجتماعي ثم بيان الجوانب الأخرى، وقد جاءت مضامينها معبرة عن مقصدها الأساس في خمسة أشواط هي:

-الإعلان الحاسم الذي بدأت به في بيان حد الزنا وعرض حادثة الإفك-

-بيان طرق الوقوع ووسائل الوقاية من الإثم والكبائر وتجنب أسباب الغواية والاغراء
وآداب الاستئذان صور تشبيهه بيانية²¹ . ومشاهد كونية الحديث عن مجافاة المنافقين
وآدابهم، ثم تمكين الله للمؤمنين ونصرهم عودة إلى آداب الاستئذان عموماً ومع الرسول
صلى الله عليه وسلم

مظاهر التشبيه في سورة النور:

أسباب نزول سورة النور:

يوجد العديد من الأسباب لنزول سورة النور، علمًا أنَّ هذه الأسباب قد تبينَّ سبب
نزول آية أو آيتين، إذ لا تتناول السورة ككل، وهذه السورة تناقش الكثير من القضايا التي
يعاني منها المجتمع الإسلامي وكيفية علاجها، كما تضم العديد من الآيات التي تحتوي على
القيم الأخلاقية الحميدة، ما يعني أنها تتناول مواضيع تربية المجتمع على الطهارة والأخلاق،
وفيما يلي توضيح لبعض الأسباب الأخرى لنزول سورة النور، من أهمها: تحريم الآية الثالثة
من سورة النور الزواج من زانية أو مشركة، والسبب في نزول هذه الآية الكريمة هو عزم
بعض الرجال من فقراء المهاجرين على الزواج من بعض بغايا المدينة لكونهن غنيمات إلى أن
يغنيهم الله عنهن، واستأذنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، فنزلت هذه الآية تحريم هذا
الفعل.

نزلت الآية الرابعة من سورة النور لتبرئة السيدة عائشة -رضي الله عنها- من حادثة
الإفك التي اتهمها المنافقون بها، وقد أنزل الله في تبرئتها آيات من القرآن من فوق سبع
سماوات تُتلى إلى يومنا هذا. مقاصد سورة النور يعد محور التربية هو الموضوع العام لسورة
النور، ويوجد العديد من المقاصد لهذه السورة الكريمة، ففيها بيان للكثير من المبادئ
والأحكام التي أمر الله بها، والتي يتوجب على المسلم الالتزام بها؛ وذلك لعلم الله الكامل فيما
يحقق مصالح العبد الدنيوية بما يوصله إلى السعادة في الآخرة، كما بيّنت السورة عقاب
بعض الجرائم الخطيرة كالقذف والزنى، وبرأت الآيات الكريمة أمنا عائشة من حادثة الإفك
وحدّرت من نشر الفواحش في المجتمع كونها سبباً رئيساً في دماره وخرابه، بل نصّت أيضاً

على أهم طرق الوقاية من حدوث الجريمة، وذكرت لذلك العديد من الآداب كأداب الدخول إلى البيوت والاستئذان وغض البصر، وغيرها، ثم حذرت من اتباع الشيطان، وأشارت أيضاً إلى أن بيت العبادة هو نقطة البداية لصلاح المجتمع، بالإضافة إلى أنها وجّهت الأنظار إلى خضوع جميع المخلوقات لله سبحانه وتعالى، ووضّحت بعض الأحكام التي يجب أن يلتزم بها النساء الكبيرات في السنّ. تضمّنت سورة النور كذلك وعد الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين بالتّصر على الكافرين والتمكين في الدّين والاستخلاف في الأرض، وقد تحدثت عن أهم آداب الضيافة وآداب الجماعة، ثم ختمت السورة بالإقرار بمُلك الله لكل ما في الأرض والسموات، وأنه عالم بكل ما يدور في قلوب الناس وظاهرهم، وأنهم سوف يحاسبون على ما يعلمه الله من أمرهم، فهو عليهم بكل شيء.

مظاهر التشبيه في سورة النور.

-شواهد التشبيه:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾²²

سبب نزول الآية

ذلك أن اليهود قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: كيف يخلص نور الله من السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال تعالى (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، أي بنوره يهدي من في السماوات والأرض فهو المدبر في شمسها ونجومها وقمرها، كما أنه جل في علاه النور الهادي والمرشد وهو النور الذي يقتبس المؤمن منه الإيمان من نور كلام الرحمان أي القرآن، وعليه فقد ضرب الله مثله فقال جل في علاه أنه نور السماوات، فبنوره أشرقت وأضاءت النجوم والكواكب وقلوب المؤمنين، وعليه فقد قرأ الآية كل من "أبي بن كعب" و"ابن العباس" مثل "نور من آمن بالله وعليه يكون الضمير في نوره إما عائدا على الله تعال نور الله مثل الهدى الذي في قلب المؤمن، أو أن يكون الضمير عائدا إلى المؤمن أي أن ذلك النور هو مثل المؤمن

في صفاته وتقواه²³ وحيث تتضمن هذه الآية خمس تخلصات، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تظهر منه إلى ذكر الزجاج وصفاتها، ثم تخلص منه ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص إلى نعم الله بالهدى على ما يشاء. وعندما ننظر إلى تلك الآية ندرك أن المعاني الواردة بها متألفة خلصت إلى تمثيل الهداية بالنور عندما جرت مجرى المثل في آخر

الآية، وهذا نوع من التخلص يدور حول فكرة واحدة²⁴. كما قرأ الآية كل من زيد بن علي وأبي جعفر وعبد العزيز المكي "الله نور السموات والأرض" على صيغة الفعل الماضي وفاعله ضمير مستتر يعود على الله عز وجل والسموات مفعوله، فمعنى ذلك أنه سبحانه صيرها منيرتين باستقامة أحوال أهلها أو كمال تديبره عز وجل لمن فيها، وقد يراد بالمصدر اسم فاعل وذكره للمبالغة في المعاني التي تتضمنها كلمة نور "أي نور السماوات والأرض"، وعلى ذلك يصبح إطلاق اسم النور على الهداية وقد مثل الله عز وجل لنور هدايته في قلب المؤمن فقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾، والمشكاة هي الكوة في الحائط غير النافذة، وهي أجمع للضوء والمصباح فيها يكون إنارة فصار المعنى كمثل نور المصباح في المشكاة في زجاجة، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء والمشكاة وعاء من آدم كالدلو، يبرد فيها الماء وهو على وزن مفعلة²⁵ وقيل المشكاة هي موضع القبلة من القنديل ومن ثمة فإن هذه المشكاة فيها مصباح والمقصود به ذلك النور النابع من الفتيلة ويقابل ذلك في قلب المؤمن من نور الإيمان والقرآن ومن ثمة قال الله تعالى: (المُصْبِحُ فِي زُجَاجَةٍ)، أي في قنديل من زجاج صاف وهي نظير قلب المؤمن، وقد أجمع القراء على ضم زجاجة وفيها لغات، وفي ذلك يقول أبو الفتح فيها ثلاث لغات، زجاجة، وزجاجة بالفتح والضم والكسر، وفي جمع زجاج، وزجاج وزجاج. وفي قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) هو تشبيه بليغ، والمراد به المضمرة الأداة وقد سبق ذكره مع أقسام التشبيه، وإنما سمي بليغا لحذف واسطة الأداة ولو جازته بسبب هذا الحذف، وقد تكلم علماء البيان مطولا في هذا التشبيه وحالوا تجسيد الكيفية التي ساغ فيها هذا التشبيه، لأن النور كما هو معلوم كيفية أو عرض يدرك بالبصر فلا يصح حمله على الذات المقدسة، وأحسن ما يقال فيه أن التشبيه جار على التقريب للذهن، أي به تعالى وبقدرته

أنارت أضواء السماء والأرض واستقامت أمورها لأن ظهور الموجودات حصل به كما حصل بالضوء جميع المبصرات، والمراد بذلك أنه الهادي لأهل السماوات والأرض المبين لهم أمر دينهم، وهذا ما وصف في كثير من المواضع الإيمان بالنور والكفر بالظلمة²⁶. وإذا أكملنا (مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ) يصبح تشبيهه تمثيلي، حيث شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرّي في الصفاء والحسن، سمي تمثيلاً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وهو من روائع التشبيه²⁷. وهناك تشبيه آخر في قوله تعالى (الزجاجة كأنها كوكب دري) وهو تشبيه مرسل وهنا بواسطة الأداة وهي "كأنها"، فشبهت الزجاجة وهي المشبه بالكوكب (المشبه به)، ووجه الشبه وتقديره في صفائها وحسنها. ووصف كوكب بأنه دري على وزن فعلي، ويجوز أن يكون أصله درئ بهمزة آخره، كما قرأ "حمزة" و"أبو بكر" فقلبت الباء وأدغمت في الياء فوزنه فعيل، وهو من الدرء أي الدفع، فإنه يدفع الظلام بضوئه أو يدفع بعض ضوئه بعضاً لمعانه، وأصل درئ وهو "درؤ" فجعلت الضمة كسرة للاستثقال، والواو ياء لانكسار ما قبلها..ومن ثمة فإن هذا الكواكب يوقد من شجرة، فهذب إلى الزجاجة، كما قرأ نافع وابن عامر وحفص "يوقد" من شجرة فتذهب إلى المصباح، كما قرئت أيضاً ويقد برفع الياء ونصب الواو ورفع الدال²⁸. إلا أن هناك وجهة نظر في "يوقد" وذلك أن أصله يتوقد فحذفت التاء الاجتماع حرفين زائدين في أول الفعل هما الياء والتاء المحذوفة، والعرب في هذا إنما يتحذف التاء إذا كان حرف المضارعة قبلها تاء نحو "تفكرون" والأصل "تتفكرون"، فيكره اجتماع المثلين الزائدين، فيحذف الثاني منها طلباً للخفة، وليس في يتوقد مثلان فيحذف أحدهما، لكن شبه حرف المضارعة بحرف مضارعة آخر أي شبهت الياء بالتاء الأولى، وبذلك كانا زائدين²⁹. وإذا أكملنا الآية في قوله تعالى (الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ) يصبح على سبيل التشبيه التام أي استوفي كل شروط التشبيه التام من مشبه ومشبه به والأداة ووجه الشبه. وأيضاً هناك تشبيه آخر في قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾³⁰.

فشبه نور الله سبحانه وتعالى، وهو بلا شك أقوى الأنوار، بنور المصباح في المشكاة، لأن العرب جروا على عادة أن يجعلوا نور المصباح أكبر الأنوار وأعظم الأضواء. وكذلك اطردت العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى، فإذا جاء الأمر على خلاف ذلك فهو التشبيه المعكوس أو المقلوب طلبا للمبالغة بادعاء أن وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به. وقد أفادت المبالغة والكثرة والزيادة في التصوير، كما يقول ابن الأثير في كلام العرب واتسع حتى صار كأنه الأصل في التشبيه، والواقع أن هذا الضرب من التشبيه حسن الموقع لطيف المأخذ، وهو مظهر من مظاهر الافتتان والإبداع في التعبير، والشرط في استعمال التشبيه المقلوب ألا يرد إلا فيما جرى عليه العرف والإلف لدى العرب، وذلك حتى تظهر فيه بوضوح صورة القلب والانعكاس³¹. ويرى آخر أن الآية الأولى من سورة النور توضح أن هذا النور هذا النور إنما هو إجمال وتوضيح للصور التشبيهية التي جاءت لتبين هذا النور وتحدد مساره واتجاهه وبيان أثره في النفوس، وهي صور تشبيهية تمثيلية، وهي صورة مركبة من عدة صور جزئية تتضح فيها أركان التشبيه.

المشبه-نور الله- المشبه به - مشكاة فيها مصباح -الأداة - مثل + الكاف وجه الشبه-
البياض والإشراق والمشبه - هو حصيلة تفاعل النور المنعكس في المصباح، الأداة - كأن،
المشبه به- كوكب دري، وجه الشبه- صورة الإنارة بأشد مستوياتها بياضاً وأشد مستوياتها
لمعاناً³²، وعليه نقول أن هناك إقرار بربوبية الله تعالى وقدرته. على هذا الأساس يحسن
التشبيه المقلوب ويقبل، أما إذا ورد في غير المعهود المؤلف فإنه يكون معيباً لأن المبالغة فيه
تصيب بالغموض، وتؤدي إلى التداخل بين طرفيه. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ
كَسْرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ
حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ۗ ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾³³ فقد تم في الآيتين الكريمتين عقد تشبيهات إذ أمعنا النظر وجدناها
وكأنها تابعة للمثل الأول في الآية الخامسة والثلاثون، فبعدهما ضرب الله عز وجل للمؤمن من
ضرب الله في الآيتين مثلاً للمنافقين والكافرين فالأول كان مثل الكفار الذين يحسبون أنهم

على شيء من الأعمال والاعتقاد، فمثل أعمالهم كالسرّاب الذي يرى القيعان والقيعة جمع قاع والقاع أيضا واحد القيعان، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيها يكون السرّاب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السرّاب من هو محتاج إلى ماء فيحسبه ماء فيقصدّه ليشرب منه، فلما انتهى إليه لم يجده شيئا³⁴. فيخيّب سعيه وكذب حدسه وكذلك الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يجنون من ورائها شيئا، وإنما يحقّق بهم الخسران المبين فينقلبون خاسئين، وعليه يكون الله تعالى قد وفاهم حسابهم ومن ورائها ثمة يبدأ المثل الثاني من قوله (أو كظلمات في بحر لحي)، ففي هذا المثل تتضّاف عناصر الطبيعة لتبرز الأحوال التي يصوف بها الكافرون فقد قضوا حياتهم كلها في جهل كامل فهم في خضم ظلمات يسبحون في غمارها فغظتهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لُحِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾³⁵. تنقطعت عنهم أسباب الخلاص، ويئسوا من أن ينشلوا منها، وقد اجتمعت عليهم ظلمات الأموات وظلمة السحاب ويوازي كل ذلك لدى الكافرين ظلمة أعمالهم ومعتقداتهم وخسرانهم يوم القيامة، فإن لهم يبصروا أو يستنبروا في ليج الظلام. إذا ففي الآية التاسعة والثلاثون من سورة النور، يتجلى سطح الصحراء العربية المنبسط والخداع الوهمي للسرّاب، فنحن هنا أمام عناصر مجاز عربي في نوعه، فأرض الصحراء وسماؤها قد طبعا عليها انعكاسها فليس ما نلاحظ مما يتصل بالظاهرة القرآنية التي تشغلنا سوى ما نجده في الآية من بلاغة حين تستخدم خداع السرّاب المغم لتؤكد بما تلقيه من ظلال تبدد الوهم الهائل لدى إنسان مخدوع يكتشف في نهاية حياته غضب الله الشديد في موضع السرّاب الكاذب، سرّاب الحياة³⁶. وفي قوله تعالى: (كسرّاب بقيعة)، شعاع يرى ظهرا بمنبسط مستوي من الأرض متسع فلا يستفيد المرء من عمله الصالح أجزا عند الله تعالى إذا لم يعتقد العقيدة الإسلامية. وقوله (بحر لحي)، عميق كثير الماء، - شبه سبحانه أعمال الكافرين الصالحة في ظلمتها وسوادها بكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من ليج البحر والأمواج والسحاب³⁷. وإنما كان ما لهم

ذاك لأن الله لن يجعل لهم نورا فقال: ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾. ففي هذا القول بيان من الله عز وجل للمعنى المقصود والذي مهد له من قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾. فلما لم يكن في الكون كله نور غير نور الله تعالى فإن الحقائق لا تظهر إلا بنوره ولا تتجلى إلا من كان بعيدا عن تلك الظلمات المتراكمة.³⁸ - التشبيهات الموجودة في الآية ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل، وقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف، حيث شبه هيئة أعمال الكفار بصورة السراب، ووجه الشبه محذوف تقديره في خسرانها وعدم الانتفاع. ويرى اخر أعمال الكافرين ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ فالمشبه يتخذ من المشبه به بؤرة للمعاني النفسية والفكرية ويكون أجلى وأوضح منه . المشبه -أعمال الكافرين، المشبه به = سراب بقيعة، الأداة = الكاف، وجه الشبه = ذهاب النفع لا يدرك من الشيء المرتجى إلا الرؤية الخادعة إذن نلاحظ بعض تمثيل صورة الإيمان با النور يقابلها معنى مضاد يتمثل بالكفر.

خاتمة

يمكن تلخيص النتائج التي توصل اليها البحث في العناصر التالية

- البلاغة علم يرتكز على علوم ثلاثة هي: المعاني البيان، البديع.
- التشبيه يشتمل على أركان هي: المشبه، المشبه به، الأداة، ووجه الشبه . أدوات التشبيه.
- أغراض التشبيه هي بيان مكان وجود المشبه، بيان حال المشبه، تقرير حال المشبه تزيين المشبه.
- انفردت سورة النور بتكاثف الصور البيانية التي تعد محورا أساسيا وبؤرة اجتمعت فيها العديد من المعاني والدلالات وكان لفن التشبيه الحظ الأوفر في هذه الفنون إلى جانب التشبيه والاستعارة مع أن السورة لم تخل من فنون بلاغية أخرى.
- جمعت هذه السورة بين الخطاب المباشر لتوضيح قضايا اجتماعية وأخلاقية ورسمت طريق النهج الاخلاقي للمجتمع الإسلامي، والخطاب الفني غير المباشر عبر صور بيانية جسدت عقيدتين متضادتين هما الإيمان والكفر

الهوامش والاحالات

- ¹ محاذي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، تونس، مجلد عدد 12، د ط 2812، ص 68.
- ² -عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية) علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، 2813، ص 63.
- ³ -الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق، عبد المنعم خفاجي، دار الجليل، بيروت، لبنان، 2880، ص2.
- ⁴ -هنري بليت، البلاغة والأسلوبية نموذج سيميائي لتحليل النصوص، تر: حمد العمري، أفريقيا الشرق للطبع والنشر، بيروت، لبنان، د ط، 2888، ص 10.
- ⁵ -حمد كرمي الكوز، البلاغة والنقد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1660، ص00.
- ⁶ -المرجع نفسه، ص 68.
- ⁷ --عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية) علم البديع، ص145.
- ⁸ - أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1988، ص20.
- ⁹ -عبد العزيز عتيق، تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، دت، ص12
- ¹⁰ -ابن منظور، لسان العرب، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط مج 13، 2014 .
- ¹¹ -نبيل عبد القادر الزين: المرشد في البلاغة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط، -21. 2880م، ص 20 .
- ¹² -ابن عبد الله شعيب، الميسر في البلاغة العربية (دروس وتمارين)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د ط، دت، ص 10 .
- ¹³ -السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة (في المعاني والبيان والبديع) ، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط، دت، ص236.
- ¹⁴ -عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية في علم البيان، مكتبة الآداب، القاهرة، 1666 م، ص 11 .

- 15 - علي فراحي، محاضرات وتطبيقات في علم البيان، دار همومة للطباعة والنشر، د ط، الجزائر، 1626 م ص51.
- 16 - أحمد مصطفى المرافي، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط2، 2000م، ص278.
- 17 - بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طأ، 2811 م، ص11 .
- 18 - بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، المرجع السابق، ص43.
- 19 - عبد العزيز عتيق، علم البيان، المرجع السابق، ص11 .
- 20 - بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد، المرجع السابق، ص46.
- 21 - وفاء فيصل اسكندر محمد، سورة النور، رؤية بيانية، كلية التربية، جامعة الموصل، دار النشر 1668، ص20 .
- 22 - سورة النور، الآية 35.
- 23 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2003م، ص116 .
- 24 - أحمد عبد الغفار، قضايا في علوم القرآن، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، دت، ص263.
- 25 - محمد السيد حسن التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية، دط، 1662 م، ص206.
- 26 - عبد الفتاح لأشين بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، دار الفكر العربي، د ط، دت، ص133 .
- 27 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مج1، المرجع السابق، ص346.
- 28 - محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم، المرجع السابق، ص122.
- 29 - ابن جني، المحتسب في القراءات الشاذة، ج1 المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، دط، 2808 م ص222.
- 30 - سورة النور، الآية 35.
- 31 - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية (علم البيان)، المرجع السابق، ص325.
- 32 - أبو القاسم جار الله محمود بن الزمخشري 101 هـ 301 هـ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 2100 هـ 1661 م اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه، خليل مأمون شيحا، دار المعارف، بيروت - لبنان، ط1، 2002 ص.

³³-سورة النور الآية (39-40).

³⁴ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المرجع السابق، ص2212 .

³⁵-سورة النور الآية (39-40).

³⁶-محمود السيد حسن، التعبير اللغوي في الأمثال القرآن الكريم، المرجع السابق، ص

³⁷ - غسان حمدون، تفسير من سمات القرآن (كلمات وبيان)، دار السلام، مصر، ط-010.

، ص2811م، 011 ،

³⁸-أبو الأعلى المودودي تفسير سورة النور، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، د ط، دت، ص

.160

مفهوم العدول وعلاقته بأفاق الإعجاز القرآني

الأستاذة: زهرة عميري

Zouzouamiri2@gmail.com

جامعة امحمد بوقرة بومرداس، كلية الآداب واللغات

الملخص:

انطلق البحث من تهافت الطروحات الفكرية بدعوى السطحية في التناول وضرورة النظر في الجانب التأسيسي لمناهج وأصول المفسرين؟ وانشق عن هذه الإشكالية تعجب منهجي مفاذه: كيف يُستفز البحث في علم التفسير انطلاقاً من موارد البحث فيه كاللغة وعلم الحديث وهما موردان صافيان في غاية الدقة العلمية، بالعودة إلى المباحث اللغوية بتفاصيلها وفروعها من جهة، وبالعودة إلى مصادر تخريج الأحاديث النبوية التي تتوخى سبل الدقة بالبحث في قضايا دقيقة كمسائل الجرح والتعديل من جهة أخرى.

ولتوضيح أفاق التفسير وقضاياها العميقة، ارتأينا تناول مسألة العدول في القرآن الكريم وعلاقتها بعلم المعاني والبيان.

الكلمات المفتاحية: العدول، البيان، الإعجاز، التفسير، التأويل.

Abstract

The research started from the flimsiness of the intellectual arguments on the issue of the shortcomings of the exegetical work by claiming the superficiality of the approach and the need to consider the foundational aspect of the methods and origins of the exegetes: How to provoke research in the science of exegesis from the sources of research in it, such as language and the science of hadith, which are pure sources of scientific accuracy, by returning to linguistic investigations with their details and branches on the one hand, and by returning to the sources of authentication of hadiths that seek ways of accuracy by researching delicate issues such as the issues of jarh and taqlid .

Abdul Jawad al-Suyuti explained in his book, *The Method of Adoul in the Holy Qur'an - An Analytical Study* - that

The purposes of the Qur'an vary widely, including threatening, intimidating, honoring, elevating the status of the speaker, energizing the listener, and exaggerating the purpose of urging something

Key words, Manifesto, Miracle, Interpretation, Exegesis .
Transliteration

مقدمة

ترتبط مسألة العدول البياني بأفاق التفسير الممتدة في الزمان والمكان، وذلك بأن تستنبط المفاهيم بالتدبر عند التأويل وتوجيه الفهم، للوصول إلى المقاصد المتحكمة في منهج التفسير وضوابطه، وذلك لا يتأتى إلا بربط التفسير بمخرجاته، كتوضيح علاقة المفهوم الكلي بالجزئي وعلاقة الفرع بالأصل، إلى جانب مسائل التعارض وغيرها..

حاولنا في هذا البحث الوقوف عند فروع العلاقات وتمفصلاتها بتناول العدول

البياني في باب المقاصد بالارتكاز على النقاط الآتية:

- العدول /التأويل / علم البيان.

-الإخبار في معنى النهي/ المبالغة في الحث على الفعل.

- العدول/ التقديم والتأخير/ التشريف.

- العدول وعلاقته باللزوم والتكليف.

-العدول وعلاقته بالروابط الخفية بين الدوال.

وجاء مدار حول العدول البياني انطلاقاً من بعض الرؤى التي عرفت تجاذبا ومدا

وجزرا حول الأطر الوصفية لمنهج التفسير، إذ نجد خليل محمود اليماني في حديثه عن

تأسيس علم التفسير وأسبابه وأهميته، يرى أن مسار البحث الذي يُعنى بمنهج المفسرين،

يعاني قصوراً هائلاً في العمل، ولم يتمكن من تحقيق غاياته من بيان أصول المفسرين

وقواعدهم ومفاهيمهم التي انطلقوا منها في العمل التفسيري، حيث يدور في فلك رصد بعض

الأستاذة: زهرة عميري - - - - - مفهوم العدول وعلاقته بأفاق الإعجاز القرآني

الأطر الوصفية العامة عند المفسرين، مما يبرز استعمالهم لموارد تفسيرية معينة كاللغة والحديث وغيرها، دون التغلغل في استكشاف البنى المنهجية التي صدرت عنها في إنتاج التفسير من خلال توظيف هذه الموارد، مما يجعل مناهج المفسرين وأصولهم وقواعدهم في إنتاج التفسير لا تزال بحاجة لاستكشاف واستقراء منهجي مدقق.

الإشكالية:

انطلق البحث من تهافت الطروحات الفكرية حول قضية القصور في العمل التفسيري بدعوى السطحية في التناول وضرورة النظر في الجانب التأسيسي لمناهج وأصول المفسرين، وانشق عن هذه الإشكالية تعجب استفهامي مفاده: كيف يُستفز البحث في علم التفسير انطلاقاً من موارد البحث فيه كاللغة وعلم الحديث وهما موردان صافيان في غاية الدقة العلمية؟

ويتضح صفاء هذين الموردين بالعودة إلى المباحث اللغوية بتفاصيلها وفروعها من جهة، وبالعودة إلى مصادر تخريج الأحاديث النبوية التي تتوخى سبل الدقة بالبحث في قضايا دقيقة كمسائل الجرح والتعديل.

وفي هذا نجد القرآن يرتبط بقدرة التأمل والتبصر في ظاهر المعنى وخفائيه، إذ نجد علماء التفسير قد شحذوا الهمم وشدّوا الرِّحال لتفهّم كنوز هذا الكلام الكوني وهو على تدرّجٍ مكين عند الحق سبحانه، فهو يعلم السرّ وأخفى، "فالمشكلة ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما أن يشعر بوجوده وتملاً به نفسه باعتباره مصدراً"¹

وكونه مصدراً هذا يعني أن انطلاق التفسير يكون فيه، وفي أفانينه، بالعودة إلى تفسير القرآن بالقرآن وعندها تأتي أضرب التفسير مؤسسة على هذا المنطلق، إذ يكمن سرّ الإعجاز فيه بالتدبّر ويتجلّى ذلك في القول والفعل، ولقد صنّف علماء التفسير القرآن الكريم إلى محكم ومتشابه و.....، فجاء التصنيف منه وإليه.

أغراض العدول:

لقد وضّح عبد الجواد السيوطي في كتابه أسلوب العدول في القرآن الكريم - دراسة تحليلية - أنّ العدول جاء في مواضيع كثيرة في القرآن الكريم، وقد تنوعت أغراضه تنوعا واسعا، ومن هذه الأغراض التهديد والتخويف والتشريف والرفع من شأن المخاطب، والتنشيط للسامع وقصد المبالغة في الحث على الشيء.

نحاول في هذه المداخلة الوقوف على بعض منها:

1- الإخبار في معنى النهي/ المبالغة في الحث على الفعل:

قال الله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا".

أصل الكلام حسب ما أشار إليه الزمخشري 538 هـ في الكشف هو أن تعبدوا إلا الله، لكنه عدل عن هذا إلى المضارع وهو إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا، تريد الأمر هو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه إلى الامتثال والانتهاج فهو يخبر عنه، ومن هنا تتراءى الدلالات المتضمنة في القول التي تمثل قطبا نوويا للمفهوم الكنائسي البياني التي تتأسس من أضرب الخبر.

2- العدول/ التقديم والتأخير/ التشريف:

قال الله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن

يُنِيبُ" سورة غافر، الآية 13

ولقد بين الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير في هذا الموضوع ارتباط الدلالة بالتشريف وجعلها من كمال الامتنان موضعا بأن جعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أُخّر المجرور لصار صفة ل-رزق- فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين، بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين وبين المعنيين بون بعيد، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر، لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل وإنما حُوِّل الظاهر لهذه النكتة.

3- العدول وعلاقته باللزوم والتكليف:

قال الله تعالى: " قَلَّ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا " الآية 75، سورة مريم.

إن أصل الكلام من كان في الضلالة- سيمدد له -الرحمان مدا، ولتوكيد الخبر فقد ورد الفعل في صيغة الأمر، ويرشح من "الأمر معنى الخير لتضمنه اللزوم نحو إن زرتنا فلنكرمك يريدون تأكيد إيجاب الإكرام عليهم".²

نستشف سبيلا للمقاصد انطلاقا من علاقة العدول بدلالة اللزوم، وهذا يدخل في باب معاني الخبر.

4- العدول /التأويل / علم البيان:

ولقد وضّح ضياء الدين صاحب المثل السائر أنّ معرفة علم البيان مرتبطة "بالعدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكال ضروب علم البيان وأدقها فهما وأغمضها طريقا.

قال الله تعالى " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ " سورة البقرة، الآية 143

جاء العدول في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ بصيغة الغيبة حيث عدل عن صيغة الخطاب في قوله تعالى: ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، ومقتضى الظاهر أي يقال: مَنْ يَتَّبِعُكَ، وذلك تماشيا مع سابقه.

الأستاذة: زهرة عميري - _____ مفهوم العدول وعلاقته بأفاق الإعجاز القرآني

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن السبب في العدول هو التفضيم والتهويل والإشهار بأن شهرته وكونه علما معلوما مسلما به، وهذا ما ستبينه الدراسة من خلال آراء العلماء.

إذ قال أبو حيان موضحاً سرّ العدول: «هذا من باب العدول، لأنه قال تعالى " قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام " ثم قال: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ ﴿ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فهذه كلّها ضمائر خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، وحكمة هذا العدول، أنّه لما فرغ من الإقبال عليه بالخطاب، أقبل على الناس فقال: الذين آتيناهم الكتاب واخترناهم لتحمل العلم والوحي، يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآية السابقة وأمرناه ونهيناه، لا يشكون في معرفته.

5-ثنائية العدول والمتشابه:

إنّ العلوم التي تعرّض لها القرآن هي من العلوم العليا: وهي علوم فيما بعد الطبيعة، وعلوم مراتب النفوس، وعلوم النظام العمراني، والحكمة، وعلوم الحقوق. وفي ضيق اللغة الموضوعية عن الإيفاء بغايات المرادات في هاته العلوم، وقصور حالة استعداد أفهام عموم المخاطبين لها، ما أوجب تشابهاً في مدلولات الآيات الدالة عليها. وإعجاز القرآن: منه إعجاز نظمي ومنه إعجاز علمي... فلما تعرّض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها، فيما تعرّض إليه، جاء به محكيّاً بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربما كان إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولاً لأقوام، فيعدّون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه، فإذا جاء من بعدهم علموا أنّ ما عدّه الذين قبلهم متشابهاً ما هو إلا محكم³. والعدول وجه من وجوه أفانين القول وجواهر التصرف اللغوي، إذ تتدفّق المعاني يانعة تعلقو إلى مصاف الحكمة في مرونة من غير التواء ولا تكلف.

³ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار ابن حزم، م 3 ص 157 .

6- العدول وجه من وجوه الإعجاز:

يقول ابن عاشور: "وتفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل، كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعاً إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات مفيدة في نظمه ومعان دقيقة ونكت من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكيمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة"⁴

إن ظاهرة إخراج القول على غير مخرج العادة وثيق الصلة بخصوصية العمل الأدبي باعتباره عملاً إبداعياً إذ يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره من خلال ما تفرزه عصاره القرائح وما تبدعه، ممّا يستدعي مرونة لغوية فنية فيها اختراق وتوسع في التصرف عن الاستعمال العادي، وهنا تكمن أسرار البلاغة في القول فكانت الذهنيات العربية مهيأة لاستقبال بل والتفاعل مع جواهر ومكنون هذه الأسرار واللطائف القرآنية.

وآل الأمر أمام الإشكالات التي يطرحها تفسير القرآن الكريم والإبانة عن إعجازه، وفك بنية الخطاب الشعري خاصة، إلى محاولة تجلية مغالق الإعجاز وترسيخ الوعي بخصوصية الصياغة الأدبية التي ليست إلا إفرازاً لظاهرة الانزياح عن الاستعمال العادي، حيث أشاروا إلى هذه الظاهرة بمصطلحات عدة أبرزها، المجاز أو التجوز، ومنها العدول، أو إخراج القول غير مخرج العادة، والتوسع وغيرها⁵.

⁴ التحرير والتنوير، 1/ ص 104.

⁵ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 396.

وهذا المنحى المنزل للظاهرة الأدبية في خانة المجاز بقدر ما ينم عن الوعي بالكيفية التي تتحقق بها الدلالة في هذا القول المتميز فإنه يرسخ الفهم بخاصية التكامل بين طرفيها، ذلك أن الثنائية التي آلت إليها اللغة في قضية اللفظ والمعنى لم تكن الغاية التي انتهت إليها القسمة عند البلاغيين كأنهم يفرقون بين المعنى في ذاته مجرداً عن البعد الإستطريقي والمعنى الذي يتأتى فيه ذلك البعد⁶.

ولقد وضّح الكاتب جمعي في حديثه عن اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب أننا نلاحظ مبدئياً أن مجمل آراء الجاحظ في البنية العامة كان نتيجة تحسسه مشكلة التأليف في القرآن أساساً، وهذا إذ يدعم فكرة توزع مقاييس الجاحظ الأسلوبية بين أكثر من نوع من أنواع الكلام البليغ، يؤكد استقلال القرآن بقطاع مهم من هذه المقاييس وهو النظم أو التأليف والبنية العامة.

مما يرسخ الاقتناع باحتلال الوعي بالصياغة وبخصائص بنية الكلام ذاتها مكاناً عميقاً في بلاغة الجاحظ، ويعمق الدليل على وعيه بالمستوى الفني من الكلام الذي يقصد في إخراجه تجنب المألوف من الاستعمال، وتجاوز وظيفة الإفهام إلى وظيفة الإطراب والتعجيب، ومن هذا المنفذ تتجلى وتترأى أبعاد العدول الدلالية في أي القرآن الكريم.

كما أنّ الجاحظ قد فرق " ما بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه؛ فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من الرجز، والمخمس من الأسجاع، والمزاج من المنثور، والخطب من الرسائل، وحتى يعرف العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات. فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام"⁷. وما يوضّح ويكشف مدى عمق البحث في ميدان التفسير من خلال بيان نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه، بتدقيق النظر في صروف البنية اللغوية بتباين أصناف الأجناس الأدبية.

⁶ لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، ص 3.

⁷ الجاحظ، العثمانية، ص 16.

7 - العدول وعلاقته بالروابط الخفية بين الدوال اللغوية:

وتأخذ العلاقة أحياناً خاصية "التلميح" التي تحقق كثافة في المعنى بحيث "يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها"⁸. وعدم التكافؤ بين الطرفين لا يعني الإخلال، وإنما هو استغلال الإمكانيات التعبيرية الكامنة في اللغة التي تنفي عن صلوات الطرفين كل مباشرة وتغدو الدلالة بموجب هذا البناء المتكاثف محصلة الروابط الخفية بين الدوال والمدلولات ويتعمق ذلك في الإرداف "وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع"⁹.

خاتمة:

- يمكننا أن نورد عصارة مفهوم العدول ودلالته في القرآن الكريم فيما يأتي:
- إنَّ ما أبدعه القرآن من أفانين التصريف البياني في نظم الكلام لم يكن معهوداً في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عمّا تسمح به اللغة.
 - بلوغه كفاءات ومعان دقيقة في نظمه ارتبطت بعلم المقاصد.
 - تنضوي آي القرآن الكريم دلالات إعجازية وأسرار بيانية ولمحات فنية جمالية تؤكد خصوصية النص القرآني. فخرقت الإلف وفاقته حدّ العرف.
 - تفرز دلالة العدول تدفقاً للغة بالمعاني الحكيمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية، والتي لا تتأتى إلا لمخلص متدبّر في كلام الله تعالى.

⁸- ص 55 المصدر السابق ، ص 54.

⁹قدامة بن جعفر، نقد الشعر ص 157.

الهوامش:

1. وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، دار الفكر، ط2، 2002م، ص55.
2. الزمخشري، الكشاف، ص 50 .
3. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار ابن حزم، م 3 ص 157 .
4. التحرير والتنوير، 1/ ص 104.
5. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 396.
6. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، ص 3.
7. الجاحظ، العثمانية، ص 16.
8. ص 55 المصدر نفسه ص 54 .
9. قدامة بن جعفر، نقد الشعر ص 157.

المصادر والمراجع:

- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، ط2، 2002م
- الزمخشري، الكشاف، تح: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة، 2010، ط 1،
- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 3، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1984.
- حمّادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1981.
- التركيب اللغوي للأدب، لطفي عبد البديع، دار المريح للنشر، الرياض 1989.
- الجاحظ 159هـ-255هـ، العثمانية، تح: عبد السلام محمد هارون .

د/ فاطنة سوّح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

د/ فاطنة سوّح. د/ أبو بكر زروقي.

جامعة محمد خيضر بسكرة.

fatna.souiah@univ-biskra.dz

[aboubaker zeroki@gmail.com](mailto:aboubaker_zeroki@gmail.com)

محور المداخلة: البلاغة الجديدة في ضوء علم التفسير.

ملخص المداخلة:

نروم من خلال هذا البحث إلى تسليط الضوء على نوع من أنواع الحجاج - الحجاج اللغوي - الذي يستخدم مختلف الآليات اللغوية كالروابط والعوامل الحجاجية والسلم الحجاجي وذلك بغرض استمالة المتلقي وإذعانه وإقناعه، والخطاب القرآني خطاب حجاجي بامتياز، لاشتماله - وبكثرة - على مختلف الأساليب والآليات اللغوية، كيف لا وهو الخطاب المعجز المقنع، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هنا كان حريا بنا أن نقف عند مختلف الآليات الحجاجية في الخطاب القرآني وكيفية توظيفها في كلام المولى عز وجل، وكيفية إسهامها في إقناع المخاطب والتأثير فيه واستمالاته، واعتمدنا في ذلك على تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

الكلمات المفتاحية: الحجاج اللغوي؛ التفسير؛ القرآن الكريم؛ الطاهر بن عاشور؛

الإقناع.

د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

1. مفهوم السلم الحجاجي:

جاء في كتاب السلميات الحجاجية أنّ السلم الحجاجي عبارة عن (علاقة ترتيبية للحجج المنتمية إلى فئة حجاجية واحدة، بحسب القوة الحجاجية لكلّ حجة، ومعلوم أنّ الحجج اللغوية متفاوتة في قوتها الحجاجية، فهناك الحجة الضعيفة والحجة الأضعف، وهناك الحجة القويّة والحجة الأقوى)¹.

2. قوانين السلم الحجاجي:

ذكر ديكرودucrot قوانين ثلاثة للسلم الحجاجي وهي كالآتي:

أ. قانون تبديل السلم (النفى): ويقضي هذا القانون أنّه إذا كان القول دليلاً على مدلول معيّن، فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله، بمعنى إذا كانت (ب) تنتهي إلى الفئة الحجاجية المحددة بالمدلول (ج) فإنّ (ليس ب) تنتهي إلى الفئة المحددة بالمدلول (ليس ج)² ونمثّل لذلك بالمثالين التّاليين: (زيد مجتهد، لقد نجح في الامتحان، زيد ليس مجتهداً، إنّه لم ينجح في الامتحان، فإنّ قبلنا الحجاج الوارد في المثال الأوّل وجب أن نقبل كذلك الحجاج الوارد في المثال الثالث)³.

¹ أ. زفالديكرو، السلميات الحجاجية، ترجمة وتقديم: أبو بكر العزاوي، مطبعة وراقة بلال، فاس - المغرب،

الطبعة الأولى، 2020م ص12

² - مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي - تنظير وتطبيق على السور المكية، دار عدنان،

لبنان، الطبعة الأولى، 1436هـ 2015م، ص118

³ - أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1426، 2006م، ص22

د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

ب - قانون القلب والنسخ الأوسط: يتمّ النسخ (الأوسط) عند قيام مانع يسوغ
تخلّف الحكم الشرعي وهو ما يُعرف بـ "الترخيص" ومن قواعده أنّه:

- إذا رُخص في الواجب، انتقل إلى مرتبة إباحة الترك أو إلى مرتبة الحرام.

- إذا رُخص في الحرام، انتقل إلى مرتبة إباحة الفعل أو مرتبة الواجب، ولما كان قانون
القلب يقضي بانقلاب قوّة الدليل عند دخول النّفي، فإنّ النسخ الأوسط ينضبط به، تحوّل
القياسين: الأوّل والأدنى، أحدهما إلى الآخر، فما كان في قياس الأوّل دليلاً أقوى على التحريم
مثلاً، يصير بإدخال النّفي في قياس الأدنى دليلاً أخس على إباحة الفعل، والعكس بالعكس،
وهكذا بالنسبة للجهات الشرعية الباقية.

ج - قانون الخفض: وهذا القانون يوضّح الفكرة (التي ترى أنّ النّفي اللغوي الوصفي
يكون مساوياً للعبارة (Moins que) فعندما نستعمل جملاً من قبيل: - الجو ليس بارداً - لم
يحضر كثير من الأصدقاء إلى الحفل . فنحن نستبعد التأويلات التي ترى أنّ البرد قارس
وشديد (المثال الأوّل) أو أنّ الأصدقاء كلّهم حضروا إلى الحفل (المثال الثاني)، وسيؤول القول
الأوّل على الشكل التالي: - إذا لم يكن الجو بارداً، فهو دافئ أو حار. وسيؤول القول الثاني كما
يلي: - لم يحضر إلا القليل منهم إلى الحفل)² كما أنّه (يرتبط بمفهوم السّلم الحجاجي مفهوم
آخر هو مفهوم الوجهة أو الاتّجاه الحجاجي ويعني هذا المفهوم أنّه إذا كان قول ما يمكن من
إنشاء فعلٍ حجاجي، فإنّ القيمة الحجاجية لهذا القول يتمّ تحديدها بواسطة الاتّجاه
الحجاجي)³.

¹ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى،
1998 م، ص 289.

² أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، ص 24.

³ أبو بكر العزاوي الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن كتاب: التحايج طبيعته ووظائفه، تنسيق: حمو
التّقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط، المملكة المغربية جامعة محمد الخامس، مطبعة
التّجّاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م، ص 62.

د/فاطنة سوّيح د/أبو بكر زروقي... الجِجَاج اللّغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

3. الروابط والعوامل الججاجية:

إنّ الروابط والعوامل الججاجية هي بمثابة (مفاهيم أساسية في التّصور الججاجي اللّساني، بل إنّ النظرية الججاجية في جوهرها تقوم على دراسة هذه العوامل والروابط الججاجية)¹.

يُعرّف الرابط الججاجي على أنّه: « صريفة تصل بين ملفوظين، أو أكثر جرى سوقهما في إطار الإستراتيجية الججاجية نفسها² كما أنّ الروابط « تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر) ويستند لكلّ قول دوراً محدداً داخل الإستراتيجية الججاجية العامة، ويُمكن التمثيل للروابط بالأدوات التّالية: بل، لكن، لاسيما، إذن، لأنّ، أن، إذ ... إلخ³» أمّا العامل الججاجي فيُعرّف على أنّه « صريفة (مورفيم) إذا جرى تطبيقه في محتوى أو ملفوظ معيّن، يُؤدّي إلى تحويل الطاقة الججاجية لهذا الملفوظ⁴» فالعوامل الججاجية «لا تربط بين متغيّرات ججاجية (أي حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج) ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الججاجية التي تكون لقول ما، وتضمّ مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، ما ... إلّا، وجلّ أدوات القصر⁵»

¹-رشيد الراضي، الججاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، عالم الفكر، العدد 1، المجلد 34، يوليو - سبتمبر 2005، م، ص 233 .

²-رشيد الراضي، الججاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، ص 235 .

³-أبو بكر العزاوي، الججاج والمعنى الججاجي، ضمن كتاب: التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 64 .

⁴-رشيد الراضي، الججاجيات اللسانية عند أنسكومبر، ص 235 .

⁵-أبو بكر العزاوي، الججاج والمعنى الججاجي، ضمن كتاب: التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 64 .

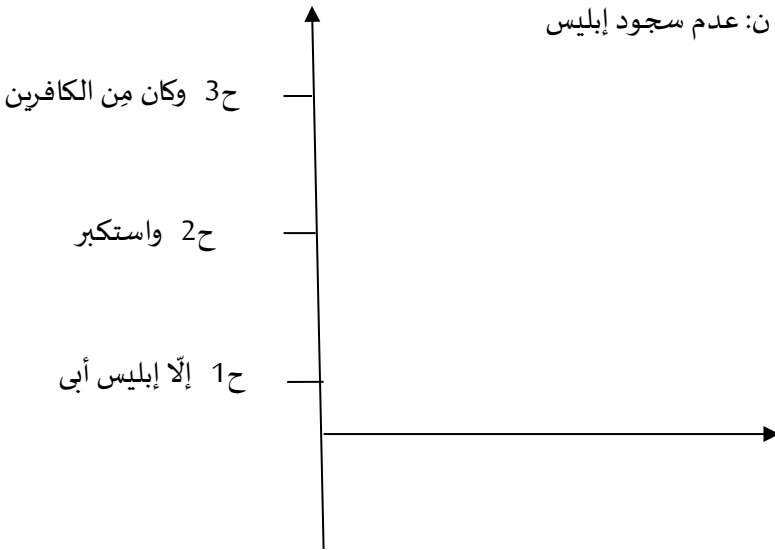
د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

4. الحجاج اللغوي في كتاب التحرير والتنوير:

- السلم الحجاجي:

فلنتأمل قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (34) البقرة

ونمثل لهذا السلم بالشكل الآتي:



يمثل السلم الحجاجي « صلب الحجاج في تدافع الحجج وترتيبها بحسب قوتها، إذا لا يلبث غالبًا إلا بالحجة التي تفرض ذاتها على أنها أقوى الحجج في السياق، ولذلك يرتب المرسل الحجج التي يرى أنها تتمتع بالقوة اللازمة التي تدعم دعواه¹ وجاء في تفسير الطبري أنّ «أبي» يعني جل ثناؤه بذلك إبليس، أنه امتنع من السجود لآدم فلم يسجد له، "واستكبر" يعني بذلك أنه تعظم وتكبر عن طاعة الله في السجود لآدم وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، - استراتيجيات - مقارنة لغوية تداولية -، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004 م، ص 123.

د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

خبراً عن إبليس، فإنّه تقرّيع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله¹ ونلاحظ في الشكل أعلاه أنّ الجمل الواردة فيه تمثّل حججاً تنتهي إلى نفس الفئة الحجاجية، وتنتهي كذلك إلى نفس السلم الحجاجي، والقول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السلم الحجاجي، وكون "إبليس" من الكافرين هو بالتّالي أقوى دليل على تكبر وغرور إبليس" ورفضه للسجود² وجاء في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور قوله: «... والذي أراه أحسن الوجوه في معنى "وكان من الكافرين" أنّ مقتضى الظاهر يقول: "وكفر" كما قال: "أبى واستكبر" فعُدل عن مقتضى الظاهر الخبر في اسمها، والمعنى أبى واستكبر وكفر كفراً عميقاً في نفسه³»

نلاحظ في الجمل الثلاث الواردة في الشكل السابق والتي هي كالاتي: "إلا إبليس أبى"، "استكبر"، "وكان من الكافرين" تخدم النتيجة "ن" والمتمثلة في "عدم سجود إبليس".

فالحجاج عبارة عن تقديم الحجج والأدلة إلى نتيجة معيّنة، إذ يتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى هو يتمثّل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تُستنتج منها، وإنّ كون اللّغة لها وظيفة حجاجية يعني أنّ التسلسلات الخطابية محددة⁴

- العامل الحجاجي "إنّما":

"إنّما" ههنا هي - كما نعلم - "إنّ" التي تفيد التوكيد و"ما" الكافة، وقد اختلف المفسّرون في النّظر إلى معناها، فرأى أغلبهم أنّ دخول "ما" على إنّ قد أخلصها للحصر أو

¹ - الطبري محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تهذيب وتحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معرف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1994 م، ص 173 .

² - ينظر: العزاوي، أبوبكر، اللّغة والحجاج، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1426 هـ - 2006 م، ص 21 .

³ - الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء الأول، الدار التونسية للنشر، تونس، دون طبعة، 1984 م

⁴ - ينظر: أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، ص 16

د/ فاطنة سوّح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

القصر، والحصر ضرب من التوكيد، وذهب بعضهم إلى أنّها لا تفيد الحصر بل المبالغة في التوكيد، واستدلّ كلّ مذهبه بالنصوص والأدلة اللغوية¹ «قال الله تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} (13) البقرة، يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير قولهم: "إنّما نحن مستهزئون" الآتي: «وقولهم: إنّما نحن مستهزئون" قصروا أنفسهم على الاستهزاء قصرا إضافيا للقلب أي مؤمنون مخلصون، وجملة "إنّما نحن مستهزئون" تقرير لقوله "إنّا معكم" لأنّهم إذا كانوا معهم كان ما أظهره من مفارقة دينهم استهزاء أو نحوه»² طبعاً هذا يدخل ضمن مغالطاتهم، ففي قولهم: "إنّا معكم إنّما نحن مُستهزئون" مغالطة نفاق، فهم يُخفون ما لا يُظهرون وجاء في إعراب القرآن الكريم وبيانه الآتي: «كأنّه قيل لهم عند قولهم: "إنّا معكم" فما بالكم تُشايعون المؤمنين بكلمة الإيمان؟ فقالوا: إنّما نحن مُستهزئون»³، وقولهم "إنّما نحن مستهزئون" معناه: "إنّما نحن ساخرون" وقد أجمع على هذا المعنى أهل التأويل جميعاً -لا خلاف بينهم- «فمعنى الكلام إذاً: وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مردهم من المنافقين والمشركين قالوا: إنّّا معكم على ما أنتم عليه من التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبما جاء به، ومُعاداته ومُعاداته أتباعه، إنّما نحن ساخرون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلّم، بقولنا لهم إذا لقيناهم: آمنا بالله وباليوم الآخر»⁴.

وعندما نتكلّم من وجهة حجاجية فيمكن القول أنّ دخول العامل "إنّما" على جملة "نحن مستهزئون" جعلت الجملة جملتين وهما:

1 - نحن مستهزئون.

¹ - محمود أحمد الصغير، الأدوات التحوّية في كتب التفسير، دار الفكر، دمشق سوريا، الطبعة الأولى، رجب

1422 هـ، سبتمبر 2013 م، ص 587

² الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء الأول، ص 292.

³ محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الأول، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة،

1412 هـ. 1992 م، ص 51.

⁴ الطبري، جامع بيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، المجلد الأول، ص 117.

د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الججاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

2 - لسنا متبعين للرسول.

وهذا يجعل الكلام ذا طابع ججاجي واضح في حين أنّ غياب "إنّما" يجعله لمجرد الإبلاغ والإعلام وتكتفي اللّغة بوظيفتها الإعلامية (الإخبارية) لا تتعداها إلى الججاجية، فبغيباب هذا العامل "إنّما" يكون الكلام حينئذ وصفا لما عليه الأشياء في الكون "نحن مستهزئون" وليس عملاً قولياً مفيداً معنى تقلب رأيهم¹ كما أنّ العامل الججاجي "إنّما" يُسهّم في التوجيه الججاجي وتقويته نحو النتيجة «والتوجيه توجيهان، توجيه إلى المفهوم الذي يروم المتكلم إقناع مخاطبه به وتوجيه ثانٍ يتمّ فيه قدح الموضوع وإبرازه، ولولا هذا التوجيه الثاني لما حصل توجيه إلى النتيجة²»

- العامل الججاجي "كاد":

إنّ الفعل "كاد" لا يدلّ على المقاربة فحسب، وإنّما يدخل ضمن العوامل الججاجية، فوجوده في الجملة يوضح الملفوظ ويؤكدّه، كما أنّه - وكبقية العوامل الججاجية - يقوم بحصر الإمكانيات الموجّهة للمتلقّي وتقريبها إليه، وهذا العامل الججاجي ذكر بكثرة في القرآن الكريم، ومن ذلك نذكر قوله تعالى: { وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَمْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ } (51) الزخرف.

يقول صاحب التحرير والتنوير: «معنى قوله: "ولا يكاد يبين" ويكاد أنّ يبين³» ومن وجهة ججاجية يمكن القول أنّ «الخطاب الذي يحتوي على العامل الججاجي قد يهيمن على ذهن المتلقّي إلى درجة تصل إلى التأمّل في محتواه، وحمله على الإذعان له، ولاسيما أنّ العامل

¹ - ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الججاجية في اللّغة العربية، دار نهى، تونس، الطبعة الأولى، 2011 م، ص56.

² - عز الدين الناجح، العامل الججاجي والموضوع، ضمن كتاب: الججاج والاستدلال الججاجي - دراسات في البلاغة الجديدة - دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، المغرب، الطبعة الأولى، 2011 م، من 114.

³ - طاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء الخامس والعشرون، ص231.

د/ فاطنة سوّج د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

الحجاجي يقارب فكرة واحدة، يسعى إلى تكثيفها والتركيز عليها برسم موقف شعور عند المتلقي، يؤدي إلى نتيجة يريدتها المرسل¹»

نلاحظ في الآية الأنفة الذكر، في قوله تعالى: "ولا يكاد يبين" فإنّ الحجة "لا يكاد يبين" تسير في الاتجاه الذي تؤدي إليه الحجة "لا يبين" وتخدم النتيجة التي تخدمها هذه الحجة، ولنمثل لهذه العلاقة كالآتي:

1- لا يبين ← استصغار فرعون لموسى.

2- لا يكاد يبين ← استصغار فرعون لموسى.

نلاحظ أنّ هناك فارق ما بين الجملة الأولى والجملة الثانية إذ أنّ "عدم" الإبانة حصلت في الجملة الأولى، بيد أنّها لم تحصل في الجملة الثانية، وبالتالي فهناك فارق قضوي وإخباري، فإنّ الجملة الأولى والثانية تشتركان في نفس الوجهة الحجاجية، وكذا في النتيجة التي تخدمانها وتقصدان إليها²؛ أي أنّ الجملة التي ورد فيها العامل الحجاجي "لا يكاد" تسير في الاتجاه الذي تؤدي إليه الحجة من الاقتراب من "عدم الإبانة"³.

- الرابط الحجاجي "الواو":

تعدّ "الواو" من الحروف الهوامل كونها تدخل على الأسماء والأفعال فلا تختص بأحدهما، فافتضى ذلك ألا تعمل شيئاً، كونها ليست بالعمل في الأسماء أحق منها بالعمل في الأفعال⁴ كما أنّ هذه الأداة قد عرض المفسّرون لمعانها، كما «أوضحوا مرامها وافترقوا في التعبير عنها، وذكروا أنّها تنوب عن بعض أخواتها العاطفات مثلما تنوب أخواتها عنها، وقد

¹ - مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي - تنظير وتطبيق على السور المكية، ص 107.

² - ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن كتاب: التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 57.

³ - ينظر: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، ص 105.

⁴ - ينظر: أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، معاني الحروف، حققه وخرج حديثه وعلق عليه: عرفان بن سليم العشاب حسونة دمشقي، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، دون طبعة، دون سنة، ص 37.

د/ فاطنة سويح د/ أبو بكر زروقي... الججاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

اتفقوا على أنّها قرين "الفاء" و"ثمّ"، ولكنّها لا تُرتّب ولا تُعقّب، وعلى أنّ معناها الأساسي هو مُطلق الجميع¹، أمّا من الجانب الججاجي يُمكن القول أنّ حرف العطف "الواو" هو كذلك رابط ججاجي، إذ «يربط بين وحدتين دلالتين (أو أكثر) في إطار إستراتيجية ججاجية واحدة، وهذا في إطار الصيغة الجديدة للنظرية الججاجية²» ولنتأمّل قوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْدَرُونَ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكُوا أَبْهَتَكُمْ ۚ قَالَ سَنُقَاتِلُ أبنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } 126 الأعراف

في الآية الأنفة الذكر نلاحظ أنّ الرابط الججاجي المتمثّل في الواو جاء ليربط بين ثلاث جمل أو فلنقل حججا وهي كالآتي:

الحجة الأولى من قبيل: " سنقتل أبناءهم "، والحجة الثانية من قبيل: "نستحي نساءهم"، والحجة الثالثة من قبيل: "إنّا فوقهم قاهرون"، فهذه الحجج قد تمّ الربط بينها بالرابط الججاجي المتمثّل في "الواو" الذي تضمّن هذه الحجج، المتعلقة بالطريقة التي يتمّ بها توجيه هذا القول (قول فرعون) وجهة ججاجية تسير في إطار إستراتيجية ججاجية واحدة، متمثلة في تهديد فرعون لموسى ومن آمن معه،

ومن وجهة ججاجية يُمكن القول أنّ حرف العطف "الواو" هو كذلك رابط ججاجي، «فهو يربط بين وحدتين دلالتين (أو أكثر) في إطار إستراتيجية ججاجية واحدة، وهذا في إطار الصيغة الجديدة لنظرية الججاجية³»، فقوله: "سنقتل أبناءهم" بضم النون وفتح القاف وتشديد التاء للمبالغة في القتل مُبالغة كثيرة واستيعاب وقوله: "نستحي نساءهم" والاستحياء: مُبالغة في الإحياء، فالسين والتاء فيه للمبالغة، وقوله: "إنّا فوقهم قاهرون"، والقاهر: الغالب بإذلال، وفي الآية اعتذار فرعون للملأ من قومه عن إبطائه باستئصال

¹ - محمود أحمد الصغير، الأدوات التحوية في كتب التفسير، ص 554.

² - أبو بكر العزاوي، الججاج والمعنى الججاجي، ضمن كتاب: التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 65.

³ - أبو بكر العزاوي، الججاج والمعنى الججاجي، ضمن كتاب: التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 65. النقاري، ص 65.

د/ فاطنة سوّيح د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

موسى وقومه¹، فنلاحظ أنّ كلّ الحجج - أو فنقل المغالطات - جاءت تسير في اتجاه واحد يتمثل في تهديد وتوعدّ فرعون لموسى وقومه، وقد أسهمَ الرابط الحجاجي "الواو" في الربط والجمع بين هذه الحجج، كما وجّه التسلسل الحجاجي وجهة واحدة، بصرف النظر على المحتوى الإخباري للملفوظ²، كما أنّ هذا الرابط - كغيره من الروابط والعوامل الحجاجية - قد أسهم في تأويل الأقوال الحاضنة له، كما أنّه يقوم على بيان القيمة الحجاجية لتلك الأقوال، كما يُسهم في تأمين عملية الترجيح بين الحجج، وهذه الوظائف الثلاث تمنح الرابط الحجاجي - ولاسيما الواو - بُعداً تداولياً³.

الخاتمة:

وفي الأخير نُجمل ما توصلنا إليه في الآتي:

- أنّ الروابط والعوامل الحجاجية موجودة بكثرة في القرآن الكريم: ممّا يدلّ على أنّ الخطاب القرآني خطاب حجاجي بامتياز.
- أنّ كثرة العوامل في الخطاب القرآني يدلّ على أنّه خطاب حجاجي إقناعي تأثيري.
- أنّ الروابط والعوامل الحجاجية تُسهم في تأويل الأقوال الحاضنة لها، كما أنّها تقوم على بيان القيمة الحجاجية لتلك الأقوال، وتُسهم كذلك في تأمين عملية الترجيح بين الحجج، وهذه الوظائف الثلاث تمنح الرابط الحجاجي بُعداً تداولياً.

¹. ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء التاسع، ص 59.

². ينظر: جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 159.

³. ينظر: عامر خليل الجراح، الإجراءات التداولية التأثيرية في التراث - البلاغي العربي بين التأويل والحجاج والإنجاز، دار سنابل، تركيا، الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م، ص 158.

د/ فاطنة سوّج د/ أبو بكر زروقي... الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أزفالد ديكر، السّلميات الحجاجية، ترجمة وتقديم: أبو بكر العزاوي، مطبعة وراقة بلال، فاس - المغرب، الطبعة الأولى، 2020م.
2. أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1426 هـ. 2006 م.
3. أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، معاني الحروف، حققه وخرّج حديثه وعلّق عليه: عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، دون طبعة، دون سنة.
4. حمو النّقاري، التحاّج طبيعته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المملكة المغربية جامعة محمد الخامس، مطبعة النّجاج الجديدة، الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م.
5. عامر خليل الجراح، الإجراءات التداولية التأثيرية في الثّراث - البلاغي العربي بين التأويل والحجاج والإنجاز، دار سنابل، تركيا، الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م.
6. حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج والاستدلال الحجاجي - دراسات في البلاغة الجديدة - دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، المغرب، الطبعة الأولى، 2011 م.
7. محمود أحمد الصغير، الأدوات التّحوية في كتب التفسير، دار الفكر، دمشق سوريا، الطبعة الأولى، رجب 1422 هـ، سبتمبر 2013 م.
8. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الجزء الأوّل، الدار التونسية للنشر، تونس، دون طبعة، 1984 م.
9. الطبري محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تهذيب وتحقيق وضبط وتعليق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحمرستاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1994 م.
10. العزاوي، أبوبكر، اللّغة والحجاج، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1426 هـ - 2006 م.

د/ فاطنة سوّج د/ أبو بكر زروقي... الججاج اللغوي في الخطاب القرآني
من خلال كتاب التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

11. عبد الهادي بن ظافر الشهري، - استراتيجيات - مقارنة لغوية تداولية -، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، 2004 م.
12. رشيد الراضي، الججاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، عالم الفكر، العدد 1، المجلد 34، يوليو - سبتمبر. 2005 م.
13. مثنى كاظم صادق، أسلوبية الججاج التداولي والبلاغي - تنظير وتطبيق على السور المكية، دار عدنان، لبنان، الطبعة الأولى، 1436 هـ 2015 م.
14. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998 م.
15. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الأول، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، 1412 هـ. 1992 م.

التأثير والتأثر بين البلاغة والقرآن الكريم

د. محمد فريحة

جامعة بومرداس

الملخص:

البلاغة علم متشعب العلاقات مع العلوم الأخرى، فكثيرا ما نقرأ مقالات وكتبًا عن العلاقة الوطيدة الراسخة بين البلاغة والقرآن الكريم، أو بين البلاغة والتفسير القرآني، أو بين البلاغة والحديث الشريف، أو بين البلاغة وعلي النحو والصرف. فالبلاغة تطبع آثارها العميقة في ذلك كله. فتفسير النصّ الديني، وتحليله ودلالته يتقاطع تقاطعًا ضروريًا مع مرحلة فهم النصّ، وهل استعمل النصّ تعبيراته على نحو الحقيقة أم المجاز؟ إلى سائر الدلالات الكامنة فيه والمخبوءة في ألفاظه وأساليبه، والتي تكون البلاغة المحدّد الأساس لمعناه ودلالته.

وتظهر أهمية البلاغة في القرآن من خلال عدة أمور منها: أن علوم البلاغة من بيان ومعاني ومحسنات بديعية من الوسائل الأساس لفهم القرآن الكريم، فعلم البلاغة يظهر فصاحة القرآن الكريم وجودة صياغته، وروعة أساليبه اللفظية والبيانية، وعليه الإمام بعلوم البلاغة سبب رئيس في إدراك أحكام القرآن الكريم ومعانيه. وللقرآن الكريم أثر عظيم في البلاغة، فقد شُغل الناس به، وأخذوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتراكيبه، وما فيه من فنون وقف العرب أمامها مهورين، فكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة، وجعلوها أحق العلوم وأولها بالحفظ؛ لأنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع. وهكذا كان تأثير القرآن واضحاً في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية، وكانت آياته البيّنات الشاهد البلاغي الرفيع.

بناء على ما سبق، نروم من خلال هذه الورقة البحثية إلى بيان مظاهر التأثير والتأثر بين البلاغة العربية والقرآن الكريم معتمدين في ذلك على مجموعة من الشواهد التي تؤكد ذلك.

1- القرآن والعلوم: " للقرآن وجه اجتماعي من حيث تأثيره في العقل الإنساني، وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصيلة في تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله"¹.

فلقد اهتم الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين. وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا في التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل والمحكم والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه. وأحكمت طائفة النظر الصحيح فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفروعه، وبسطوا القول في ذلك وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضا. ورأت طائفة إلى ما فيه من قصص القرآن السابقة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول النشأة، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص كما استنبطوا منه علم المواعظ وعلم الموارد وتعبير الرؤيا، وعلم الفلك والتوقيت... ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم وحسن السياق والتلوين في الخطاب والتقطيع فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع².

فالبحث في القرآن يمكن أن يتناول الناحية الفكرية، فيدرس ما أثار القرآن من موضوعات ومسائل وما بث من عقائد واختلط من خطط، ويمكن أن يجمع من ذلك ما تفرق في سورة في مختلف المناسبات والحوادث، وتصنف بحسب أنواعها وأصنافها، فيخرج

¹ الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، ط 9، بيروت: 1393 هـ/ 1973، ص 114.

² السيوطي جلال الدين، الإكليل في استنباط التنزيل، دار الكتب العلمية، ط 2، دب: دت، ص 1405.

الباحث من ذلك بفكرة عامة عن نظرة القرآن واتجاهه في كل ميدان من ميادين الحياة. ويمكن أن ينظر إلى القرآن من ناحية فنه وطرائق تعبيره، فقد عرف القرآن بفن خاص انفرد به. ومع ذلك فالقرآن في واقعه التاريخي ليس بنظريات فيلسوف أو خيال شاعر، هذا عند أهله وأصحابه الذين نزل بينهم، وإنما هو كتاب حياة، فلا ينفصل فيه الفكر عن الفن ولا الفن عن الفكر؛ لقد فهمه العرب ودخل في وعيمهم على أنه كل لا أجزاء¹.

2- أسلوب القرآن: لقد جاء القرآن بأسلوب متميز، لا هو بالثر ولا يجري على طرائقه وأنواعه، ولا هو بالشعر ولا يركب أوزانه وخياله... وإنما هو أثر من الآثار الإلهية، فهو مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، وجمله لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركتها فيها الكلام العربي كله². ويمكن للمتتبع لأسلوب القرآن أن يلحظ فيه ما يلي: التنوع اللفظي، والتنوع البياني³.

التنوع اللفظي: وهو ما كان في الفواصل، وهي أواخر الآي، وقد يكون باتفاق السورة في كل الفواصل المقفاة كسورة القمر، وسورة الشمس، والأعلى، والقدر، والإخلاص، والناس، وقد يوجد في بعض الفواصل لزوم ما لا يلزم، وهو التزام أن يكون ما قبل القافية حرفاً معيناً وهو اتحاد ما قبل الحرف الذي تتواطأ عليه الفواصل نحو ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ (28) ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [الواقعة، 28] ونحو ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق، 5] ﴿ أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق: 1-2].

ويكون التنوع باتفاق السورة في أكثر الفواصل كما في سورة الضحى، وبورود فواصلها على أنواعها من التقفية كما في سورة الشرح، والعاديات. ومن تنوع الأسلوب ختم السورة ذات الفواصل المقفاة بفاصلة على غير قافيتها كما في سورة الرحمن ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: 78] وفي سورة الضحى المتفقة في أكثر الفواصل: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: 11] وذلك لتنشيط السامع وإرهاف فكره. ومن ذلك حفظ روي

¹ محمد المبارك، من مهمل الأدب الخالد (نسخة مصورة ليس فيها ذكر مكان وتاريخ الطبع).

² محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، دب: 1984، ج 1 ص 110.

³ محمد السائح، إعجاز القرآن، دعوة الحق، 7ع، أبريل 1959، ص 20.

الفاصلة التي تبني عليها السورة، وإن تخللتها فواصل مختلفة، وهي نوع غريب من التنسيق يحكيه الفن المسمى بالتوشيح، ويوجد في سورة الرحمن وسورة (ص) [الرحمن: 15]، وسورة ص: [54].

وأما التنوع البياني: فهو أن القرآن الكريم ينوع التعبير ويصوغ المعاني في قوالب مختلفة للإيدان بالتمكن في عقر البلاغة والجري على ما عرف عن العرب من تصريف المعنى الواحد على أساليب متعددة، وتقليبه على وجوه متنوعة من التعبير¹. من ذلك تنويعه التعبير عن سفينة نوح مرة بقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسْرٍ﴾ في [سورة القمر: آية 13]. ومرة في سورة الحاقة بقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الآية: 11] فقد نوع التعبير مراعاة للواصل.

وفي حال الناس عند قيام الساعة ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 3] ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ﴾ [القارعة: 4]. وفي حالهم عند البعث ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 95] ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 50] ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ سَيِّئِهِ نَكْرًا خَشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّطْعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: 6-7] ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 24] ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13-14] ﴿ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 65] ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44]. وقد وقع هذا التنوع في القسم تارة بعظيم مخلوقاته تعالى مثل النجوم ومواقعها ﴿والنجم...﴾ ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أو بأماكن معينة ﴿لَا أُفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أو بمشاهدة منتظرة كالقسم بيوم القيامة ﴿لَا أُفْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

¹ محمد السائح، إعجاز القرآن، ص 7.

كما وقع هذا التنوع في القرآن على أبلغ وجه وأكمله، بطريق الإطناب تارة، والإيجاز أخرى. ثم إنك "إذا أمعنت النظر في وصف يوم القيامة والجنة والنار، والاستدلال على المعاد الأخروي بآيات الله في الأنفس والآفاق المسوق في سورة التنزيل بالإسهاب تارة وبالإشارة والإيجاز أخرى لرأيت من أنواع التفنن في البلاغة وغرائبه ما يدهش ويخرس. وهذا ما نجده في سور: المرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس والتكوير، والانفطار، والمطففين، والانشقاق، والغاشية، والفجر، والبيّنة، والزلزلة، والقارعة، وغيرها حيث يتحقق ذلك عن عيان"¹.

3- التعريف ببلاغة القرآن وأنواعها: البلاغة لغة هي: الفصاحة. وبلغ الرجل -

بالضم- أي: صار بليغاً. ورجل بليغ أي: حسن الكلام فصيحاً² والبلاغة اصطلاحاً هي: إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة³. أو هي التعبير عن المعنى الصحيح لما طابقه من اللفظ الرائق، من غير مزيد على المقصد، ولا انتقاص عنه في البيان⁴. وبلاغة القرآن يقصد بها فصاحة مفرداته، ومتانة نظمه، وانتظام دلالاته واستيفاءه للمعاني وحسن بيانه، ودقة تعبيره⁵. وقد اعترف العرب عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ببلاغة القرآن حتى وقفوا في حيرة من أمر هذا الكتاب؛ فقد وجدوا له في أنفسهم تأثيراً بالغاً، لا يجدونه لغيره من ألوان الكلام⁶. وقد استعمل القرآن أقسام البلاغة الثلاثة في تعبيراته وسياقته ونظمه، وهي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع⁷. وتنقسم البلاغة إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

أولها: علم المعاني الذي يهتم بمعرفة أحوال تركيب الكلام ومطابقتها للإطار المصاحب له، ويسهم هذا النوع في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم من حيث قوة السبك،

¹ محمد السائح، إعجاز القرآن، ص 22.

² ابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، ط1. دار الكتب العلمية، ج 5، ص 536.

³ أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، دط، دار العلم والثقافة، دب: دت، ج. 1، ص 65.

⁴ أبو البقاء الحنفي، الكليات، دط، مؤسسة الرسالة، دب: دت، ج، ص، 236.

⁵ كاتب غير محدد، النبأ العظيم، دط، ددن، دب: دت، ص 153.

⁶ أحمد البيبي البدوي، من بلاغة القرآن، دط، نهضة مصر، دب: 2005م، ص 43.

⁷ المؤيد بالله العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط1، المكتبة العصرية، بيروت: 1423هـ،

ج1، ص 11.

وجمال الوصف، وروعة التركيب وحسن الإيجاز وما شابه ذلك¹، وثانيها: علم البيان الذي يهتم بمعرفة أسرار التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة مع مراعاة مقتضى الحال، ويسعى هذا النوع إلى إيضاح الأصول والقواعد اللغوية التي يعتمد عليها القرآن الكريم لإيراد المعنى الواحد بأساليب متعددة ومتنوعة، مع وضوح الدلالة كالاستعارة، والكنائية، والتشبيه². وثالثها: علم البديع الذي يهتم بمعرفة كيفية تحسين الكلام، وجعله مطابقاً للإطار الوارد فيه، ويسعى هذا النوع إلى استكشاف الأوجه التي تضيفي على القرآن الكريم رونقا وحُسناً وجمالاً، وتكسوه بألوان بديعة من الجمال اللفظي والمعنوي³. ومن الأمثلة على بلاغة القرآن الكريم نذكر:

- مثال الاستعارة: قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [سورة البقرة، آية: 257]؛ فقد استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان على طريقة الاستعارة التصريحية⁴.
- مثال التشبيه: قوله تعالى: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [سورة الأعراف، آية: 179]، شبه الكفار بالأنعام، إذا دعاها راعها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ومن كفر بالله من البشر، كانت الدواب أتم منه⁵.
- مثال الإيجاز والإطناب: قوله تعالى: {وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَبِي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى} [سورة طه، آية: 17، 18]؛ فالإيجاز

¹ المرجع نفسه، ص 11.

² المرجع نفسه، ص 10.

³ أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دط، المكتبة العصرية، بيروت: دت، ج 1، ص 298.

⁴ أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ج 7، ص 298.

⁵ محمد الأمين الهري، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ط 1، دار طوق النجاة بيروت: 1421 هـ، ج 7، ص 199.

أن يكتفي موسى عليه السلام بذكر العصا، ولكنه استطرد في كلامه عن أهمية العصا، وهذا هو الإطناب¹.

- مثال الكناية: قوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [سورة البقرة، آية: 187]، استعمل لفظ اللباس كناية عن العلاقة الزوجية²
- مثال المحسنات البديعية: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي 43 وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا 44﴾ [النجم: 43-44] فيه طباق، وهو الجمع بين المتقابلين، فالضحك والبكاء ضدان، والموت والحياة ضدان.

4- شواهد على بلاغة القرآن: الشواهد على بلاغة القرآن الكريم كثيرة، فحكي: أن عمر بن الخطاب كان يومًا نائمًا في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم، ممن يُحسن كلام العرب وغيرها، فقال: سمعت رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم، فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [سورة النور، آية: 52].³ ويحكي أن أعرابياً سمع قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [سورة الحجر، آية: 94]، فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد، فسئل عن سبب سجده فقال: سجدت في هذا المقام لفصاحة هذا الكلام⁴ وسمع آخر قوله تعالى: {فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خُلَصُوا نَجِيًّا} [سورة يوسف، آية: 80] فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام⁵.

¹ محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، [تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن](#)، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط1، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان: 2001، ص199.

² ابن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ط2، دار طبية للنشر والتوزيع، دب: 1420 هـ، ج. 3، ص 514.

³ القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط2، دار الفيحاء، عمان: 1407 هـ، ج1، ص507.

⁴ الفيروزآبادي مجد الدين، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ج1، ص70.

⁵ أحمد البيبي البدوي، من بلاغة القرآن، ص43.

5- موقف العرب من بلاغة القرآن: كان في العرب عند مبعث النبي محمد ﷺ نوابغ الشعراء ومصارع الخطباء، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج، واللفظ المنثور، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة والذلاقة، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم، حتى إن القرآن نفسه ذكر لَدَدَهُمْ وشدة خصومتهم، فقال عنهم: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [سورة الزخرف، آية: 58]، ولكنهم وقفوا في حيرة من أمر هذا الكتاب، فقد وجدوا له في أنفسهم تأثيراً بالغاً، لا يجدونه غيره من ألوان الكلام¹. والقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة، وهو أحسن الحديث، وهو في أعلى درجة من الفصاحة، وأرفع رتبة في البلاغة، وبلاغة القرآن وجه من وجوه إعجازه، ولفصاحته العالية، وبلاغته الرفيعة، قال عنه الوليد بن المغيرة أحد المشركين حين سمعه من النبي ﷺ: إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته².

5-1 العرب والبلاغة: البلاغة على وزن فعالة مصدر من بلغ بالضم (بلاغة) فهو (بليغ) إذا كان فصيحاً طلق اللسان³. وقال في لسان العرب: ورجل بليغ: حسن الكلام، فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه.

وفي البيان والتبيين: "سئل العتابي، ما البلاغة؟ فقال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ... فقليل له: قد عرفنا الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث، قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، يا هيه، وسمع مني، واستمع إلي، وأفهم عني، أو لست تفهم، أو لست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه عي وفساد"⁴. ثم علق الجاحظ على جواب العتابي بكلام نفيس وطويل نقتبس منه ما يأتي: "... فنحن قد نفهم

¹ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1990، ص. 3872.

² أحمد البيلي البدوي، المرجع نفسه، ص. 45.

³ الفيومي أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الجموي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دط، دار المعارف، القاهرة: دت، مادة (بلغ).

⁴ الجاحظ، البيان والتبيين، دط، دار الكتب العلمية، دب: دت، ج1، ص. 113.

بحممة الفرس كثيرا من حاجاته، ونفهم بصغاء السنور كثيرا من إرادته، وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع وإنما عني العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء... لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة... ولفقد الخلطاء من جميع الأمم¹. فقولته: "ولفقد الخلطاء من جميع الأمم" يعني لما كانت اللغة تتشكل وتتأصل في الحضن العربي، وهو لا يناقض ما تقدم من هذه اللغة خصوصا اللهجة القرشية منها، قد استفادت تهذيبا وصقلا بسبب العلائق التي يقيمها العرب فيما بينهم كالمواسم والأسواق، وعقد المجالس الشعرية والنقدية، فهذا إغناء تهذيب وانتقاء، وليس سبيلا إلى الرطانة والعجمة التي تأتي من اختلاط التركيبة الاجتماعية بعناصر أجنبية عن اللسان العربي، والتي يحذر منها الجاحظ كما حذر منها غيره من كبار العلماء الذين تصدروا إلى ضبط علم البلاغة واستنباط أمثلته من فصيح كلام العرب ومن التفننات البيانية للقرآن الكريم، خصوصا بعد أن دخل الأعاجم في الإسلام.

لقد اعتنى العرب قبل الإسلام بلغتهم واحتفوا بها أيما احتفاء ورفعوا من قدر من ملك ناصيتها منهم خصوصا وأنها وسيلة لرفع الشأن أو خفضه بالتفاخر والسجال، وحتى لما بدأ يغزوهم الاختلاط تحرزوا وبعث أولادهم إلى البادية، وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو أفصح العرب، ممن بعث إلى البادية لتصفوا لغته ويتقوى عوده.

فقد كانت حياة العرب قبل الإسلام ذات صلة وثيقة وخاصة باللغة والبلاغة والفصاحة، فحياتهم حياة أدبية، واللغة سلاح في أيدي القوم ولذلك كانوا يحملون أفانين القول إلى أسواقهم "فيحمل على السوق التهامي، والحجازي، والنجدي، والعراقي، واليمامي، واليميني، والعماني كل ألفاظ حيه، ولغة قطره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلا واصطفاء حتى يبقى الأنسب الأرشق، ويصرح المجفو الثقيل..."². ولذلك عد مؤرخو الأدب أن وحدة العرب اللغوية بدأت تتشكل بأكثر من قرن قبل الإسلام بسبب مؤتمرات عكاظ ومعارضة اللسانية، وفيه تهيأت لقريش تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء، فسلمت اللهجة

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص ص 161-162.

² سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دط، ددن، دب: دت، ص 242.

القرشية من عيوب اللهجات¹؛ كالكشكشة والكسكسة وغيرها. وهذه الوحدة اللغوية هي التي نزل القرآن فرسخها وأرسي قواعدها، وذلك حين تنزلت آياته على ما عرف العرب، في نموذج اللغة الموحدة، من سنن القول وأساليب الخطاب. ولو لم تكن لغة القرآن هي نفسها اللغة الموحدة التي تعارفوا عليها قبل نزوله لما واجههم حين أنكروا بالتحدي الصارخ الذي واجههم به خاصة وأن هذا التحدي كان للقبيلة التي نزل بلسانها وهي قريش².

2-5 البلاغة في ظلال القرآن: سمع العرب آيات الكتاب المبين، فدهشوا بما عرفوا فيها من أساليب البلاغة، وحراروا في تعليل دهشتهم وإعجابهم وهم أهل اللغة وأرباب البلاغة، لقد سمعوا لغة من لغتهم وجملا من حروفهم³ ولكنهم لم يسمعوا قبلها مثيلا لا في نثر نائر ولا في شعر شاعر، ولا في سجع كاهن. ولذلك لما رشحوا كبيرهم للحكم على القرآن أدرك بلاغة القرآن وخضع وأذعن في أول الأمر، وقاموا يستفرونه بحمية الجاهلية، حتى قال لهم دعوني أفكر، فلما فكر وقدر قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: 24] ولذلك وصفه القرآن بقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: 16].

وعمر بن الخطاب أسلم بسماعه آيات من مطلع سورة طه وشكل سماع القرآن خطرا على مصالح المشركين لأنه بمجرد سماعه ترق له النفوس وتطمئن وتوقن بأنه من عند الله ولذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: 25]، "وإذا كان في استطاعتهم أن يتواصوا بالبعد عنه، فإن في ذلك إقرارا منهم بسلطانه وروعة بيانه، ولكن كيف يظنون بعيدين عنه وعن الاستماع إليه وهو يناديهم متحديا أن يأتوا بمثله" ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 32]، وإن عجزوا، وهم الفصحاء البلغاء، فليأتوا بعشر سور مثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ

¹ المرجع نفسه. ص 242.

² إبراهيم الوافي، "أثر القرآن الكريم في الدراسات البلاغية"، مجلة الإحياء، مجلة إسلامية جامعة، رابطة علماء المغرب، ع 19.

³ مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دط، دار الفكر، دب: د.ت، ص ص 34-35.

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [هود: 13] ثم يعجزون، ويلاحقهم صارخا في وجوههم متحديا ﴿أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:
38]. حتى إذا انقطعوا عاد عليهم ملحا من جهة، وحاكما بعجزهم عن مجاراته في اللغة التي
هي لديهم وسيلة كل فخر، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا
النَّارَ الَّتِي وُقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23]. وعادوا إلى الصمت،
فعاد صوته يعلن نتيجة التحدي: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]. وهكذا لم تبق أمامهم
وسيلة للصمم أو التصامم فيما الإيمان وإما الإنكار والعناد...¹

وهكذا اتضح للعالم والخاص، أن القرآن معجز ولم يجادل في ذلك أحد، ولم يكابر
فيه مكابر، ولكن الاختلاف الذي بسببه تعددت المذاهب والآراء هو وجه الإعجاز وسره، لا
الإعجاز في حد ذاته. ومن أجل ذلك ظهرت كتب كثيرة، ومؤلفات جليلة تتناول موضوع
الإعجاز، إلى جانب مؤلفات أخرى تتناول جوانب القرآن الأخرى بالبحث والدراسة، وساهم
القرآن الكريم مساهمة فعالة في ازدهار اللغة العربية وقت نزوله، وحفاظا على بقائها
وخلودها بعد ذلك عبر العصور والقرون.

3-5 أطوار التأليف في علم البلاغة: يذكر المؤرخون لعلم البلاغة أن أقدم كتاب

اعتنى بتحديد معاني القرآن، وكان النواة الأولى للبحوث البلاغية كتاب مجاز القرآن لأبي
عبيدة معمر بن المثنى (ت 207هـ) تقريبا الذي حاول أن يدرس أسلوب القرآن ويقارنه بالأدب
العربي شعره ونثره، ولا ننسى أن هذا العمل قد سبق إليه الصحابي الجليل سيدنا عبد الله
بن عباس والمتجلي في سؤالات نافع ابن الأزرق له². ثم تعاقب التأليف في البلاغة مستمدا
جذوره ومقوماته من القرآن الكريم، قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في "موجز
البلاغة" متحدئا عن أوليات هذا العلم في الظهور وتدرج التأليف فيه: "كان هذا العلم منثورا

¹ إبراهيم الوافي، "أثر القرآن الكريم في الدراسات البلاغية".

² جلال الدين السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، دط، دار الثقافة، بيروت: 1973، ج 2، ص 117-118.

في كتب التفسير عند بيان إعجازه وفي كتب شرح الشعر ونقده، ومحاضرات الأدباء من أثناء القرن الثاني من الهجرة، فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى سنة 144 كتاب "مجاز القرآن" وألف الجاحظ عمرو بن بحر (ت 244هـ) كتباً كثيرة في الأدب. وكان بعض من هذا العلم منثوراً أيضاً في كتب النحو مثل كتاب سيبويه ولم يخص بالتأليف إلا في أواخر القرن الثالث إذ ألف عبد الله بن معتمر (ت 296هـ) كتاب البديع أودعه سبعة عشر نوعاً وعد الاستعارة منها.¹

ثم جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني الأشعري الشافعي (ت 471هـ) فألف كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة أولهما في علم المعاني والثاني في علم البيان، فكانا أول كتابين ميزا هذا العلم عن غيره ولكنهما كانا غير مخلصين ولا تامي الترتيب، فهما مثل در متناثر كنزه صاحبه لينظم منه عقداً عند تأخيه فانبرى سراج الدين يوسف بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي المعتزلي (ت 626هـ) إلى نظم تلك الدرر فألف كتابه العجيب المسمى مفتاح العلوم في علوم العربية وأودع القسم الثالث منه، الذي هو المقصود من التأليف، مسائل البلاغة، دونها على طريقة علمية صالحة للتدريس والضبط، فكان الكتاب الوحيد اقتبسه من كتابي الشيخ عبد القاهر ومن مسائل الكشاف في تفسير القرآن للزمخشري فأصبح عمدة الطالبين لهذا العلم، وتتابع الأدباء بعده في التأليف في هذا العلم الجليل.² "على أنهم لم يزيدوا على الترتيب والتهديب والتبويب"³. وفي مقدمتهم السكاكي نفسه.

ويظهر أن في كلام ابن عاشور إيجازاً شديداً وقفراً واضحاً على المعارك العلمية الساخنة التي دارت بشأن تعليل وجوه الإعجاز والمؤلفات الجمّة فيه مثل ما كتب الجاحظ في كتابه المفقود "نظم القرآن" والرماني، والخطابي، والواسطي، والباقلاني، وهذا الرعييل كله كان قبل عبد القاهر الجرجاني المميز لعلم البلاغة، ولا ننسى كذلك الجدال الذي دار حول قضية البلاغة بين اللفظ والمعنى، وما دار حولها في كتب النقد الأدبي التي كانت تستنير

¹ إبراهيم الوافي، المرجع نفسه.

² محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، ط1، ددن، تونس: د.ت، ص 6.

³ محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، دط، تونس: 1967، ص 222.

بالحس البلاغي في كل ما تأتي به. وكان الذي حسم في هذا الأمر شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني الذي حاول أن يخرج بقضية الإعجاز من وضع خطير تردت فيه، حين أرجع سر الإعجاز إلى النظم، ولخص فكرته هذه في أن النظم ما هو إلا توفى معاني النحو، واستطاع أن يرسي دعائم علم المعاني في كتابه الدلائل. كما أنه في أسرار البلاغة أوضح كثيرا من أسرار الجمال في الصورة الأدبية، وبين معالم التشبيه والاستعارة، وكان له فضل كبير في تحديد معالم الفن الذي عرف فيما بعد بعلم البيان. وعبد القاهر يريد أن يصل إلى أن يجعل للذوق أساسا من العلم يرتكز عليه، فلا استحسان إلا بعلة، ولا استقباح إلا بعلة... وبذلك اتجه بالبلاغة نحو التقنين، وتحديد المعالم، فكانت له في الدلائل نظرة كاملة في المعاني، وكانت له في الأسرار نظرة كاملة تقريبا في علم البيان.

ويرى شوقي ضيف أن عبد القاهر بحث فيما سبق إليه من فصول، ولكنه وجدها غير محررة فحرر ودقق بحسه المرهف، وبصيرته النافذة. وتسلم الزمخشري إرث الجرجاني الضخم وما اشتمل عليه من آراء بلاغية شرح بها وجوه إعجاز القرآن، فانصرف إلى وضع تفسير للقرآن يكشف به عما في آيات الكتاب المعجز من أسرار البلاغة، ودقائق معنوية، وأتى في ذلك بما لم يسبق إليه.

فقد كان الزمخشري يدرك أن تفسير القرآن أمر لا يدرك إلا عن طريق علمي المعاني والبيان، وهو نفس الرأي الذي أثبتته عبد القاهر في دلائل الإعجاز، ولذلك سار على نهجه في التحليلات العقلية الذوقية وأخذت البلاغة على يديهما بعدا تطبيقيا تجلى في النماذج البليغة والنصوص الرفيعة. وقد تفرد الزمخشري بصنيعه العلمي في الكشف، إذ لم يعلم الناس تفسيرا للقرآن مؤسسا على علمي المعاني والبيان سواه، ولم أر فيما أعلم من التفاسير تفسيرا سار على نهجه، في هذا الصدد واحتذى حذوه في صنيعه إلا تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي أخذ على نفسه أن يتتبع نظرات الزمخشري البلاغية وتطبيقاته الفنية ويدل على مواطن التوفيق فيها، وبنه على مواطن الضعف والهتات.¹

¹ إبراهيم الوافي، "أثر القرآن الكريم في الدراسات البلاغية".

نخلص مما سبق أن البلاغة كانت فنا يدرك بالحس الجمالي، أو كانت جمالا يدرك بالذوق فأصبحت على أيديهم أحكاما أو معارف صاغوها في حدود وتعريفات، وهذا أمر صاحب العلوم العربية في نشأتها، فقد بدأت بشكل عملي في كلام العرب، ثم لاحظها العلماء الحدقون والمتذوقون واستنتجوها من كلام أولئك ودللوا عليها ثم جاءت مرحلة الحدود والتعريفات، والتأثر بالمنطق والفلسفة، والابتعاد عن اللغة الحية والنصوص الأصلية..

وفي العصر الراهن أدرك علماء النهضة أهمية البلاغة ونجاعته وأدركوا أنها ليست شيئا زائدا يمكن الاستغناء عنه، وإنما البلاغة أداة مساعدة لنا كفيلة بأن تعلمنا كيف نتكلم بلسان عربي مبين وكيف ننشئ بأسلوب عربي صحيح، وكيف نفهم ما أنشئ في هذه اللغة من بليغ القول ورائع الكلام، إنها ترشدنا إلى الطريقة التي نوضح بها أغراضنا، ونبين بها عن المعاني الكامنة في نفوسنا. ولذلك اتجهت الجهود إلى عملية البعث والإحياء، ومن جملة ما اتجهت إليه الاشتغال بتفسير القرآن الكريم وتقريبه من الناس وتقريب الناس منه باعتبار أنه كتاب هداية وإرشاد من جهة، والمنهل الوحيد الذي يمكن أن تهمل منه اللغة العربية في كل وقت وحين، لأنه أهم مقوماتها، ولا يمكن أن تستمد العربية إلا منه فهو المثل الأعلى الذي سار عليه كل المشتغلين في هذه اللغة على مر العصور من كتاب وأدباء وشعراء، وظل يشكل خميرة ملكاتهم اللغوية، ومن ثم يمكن اعتبار أن اللغة العربية مطروحة في القرآن الكريم ولا العكس... يقول الرافي: لقد كان لهذا النظم عينيه يقصد نظم القرآن هو الذي صفى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم... ولولا القرآن... لما بقيت اللغة نفسها.

لقد استقر في أذهان بعض الناس أن البلاغة أصبحت مادة (متحفية)، وأن دراستها اليوم والرجوع إليها لا يعني أكثر من جولة بين الآثار القديمة أو وقفة بين الأطلال. وهذه الحقيقة استقرت في أذهان الكثيرين إن لم نقل إنها تكاد تمثل رأي جيل جديد في هذه المادة من علوم العربية. فالبلاغة التي عرفها العربي بطبعه كما عرفها بعقله لن تصل إلينا على ما عرفها عليه... إنها وصلت إلينا بعد أن مرت عبر تاريخ طويل بعصور طبعتها بالكثير من سماتها، وشابتها بالكثير من آثارها وخصائصها، فإذا هي على ما نراها عليه اليوم من تأثر

بالمنطق، وإيغال في الفلسفة، وبعد عن الطبع واتسام بذوق عصور الدول المتتابعة، ونحن أنفسنا لم نصل إليها إلا بعد أن تأثرنا إلى حد بعيد بالأدب الغربي وفنون القول فيه، وتأثرنا بمذاهبه النقدية ونظرتها إلى الأمور البلاغية، وكانت لغتنا يوم اتصل الشرق العربي بالغرب، عاجزة على القيام بنفسها، وأحرى استيعاب ما جاءنا عنه، ولم يكن بد من تطوير اللغة وبدأ هذا التطوير فعلا، لكن غلب الانفتاح على التفتح، حسب قاموس محمد عزيز الحبابي، في كتابه من المغلق إلى المنفتح.

إن طبيعة العقل العربي طبيعة وثابة، فالعربي حين ينطق بالكلمة فإن عقله يثب بين مفهومين لها بينهما بون بعيد... إنه يبدأ بالكلمة الدالة على الشيء المحسوس ثم لا يلبث حتى يقفز إلى مدلول معنوي آخر... إنه سرعان ما يترك المرحلة الابتدائية الأولى في التعبير، لينتقل على مرحلة فكرية راقية، فإذا قال "الحقد" لم يذكر معناه الحقيقي الذي هو انحباس المطر في السماء، ولكنه ذكر انحباس الغيظ في الصدر وإذا قال "المجد" لم يذكر امتلاء بطن الدابة بالعلف، وهو معنى المجد أصلا ولكنه ذكر امتلاء الإنسان بالصفات الكريمة، من خلال مراعاة هذه الخصائص في كلام العربي ينبغي أن ننظر إلى الألفاظ التي يستعملها، ومن خلالها ينبغي أن نقدر جمال صورته وما تقوم عليه من تشبيهات واستعارات، أما إذا كنا ننظر إلى البلاغة على أنها هي الإرث الذي وصل إلينا من عصور الانحطاط، ومن خلال قوالب وحدود منطقية وشروح واستطرادات فلسفية، ثم نوازن كل ذلك عند الغربيين من مذاهب النقد وفنون القول، فإن ذلك قتل لطبيعة البلاغة العربية وتزييف لحقيقتها، ثم هو قبل ذلك جهل بوظيفة البلاغة ومهمتها وصلتها باللغة التي هي بلاغتها. فما أحوجنا إلى استثمار علوم البلاغة وتطوير الدرس البلاغي وجعله يستجيب لطموحات الباحثين في الدراسات النصية العربية، لأن هذا الدرس يرشد المتكلم والمنشئ إلى التأليف وفق الاستعمال العربي الرصين. فكل ذلك من أجل بعث دم جديد في أوصال الدراسات العربية بشكل عام، ولن يحصل شيء يذكر في ذلك إلا بإدخال الاستعمال القرآني في مجال الدراسات البلاغية، فلا مناص من وضع القرآن الكريم في مقدمة الأولويات، فمنه خرجت علوم البلاغة وإليه تعود.

ختاما نرى أن للبلاغة أهمية في القرآن الكريم تظهر من خلال عدة أمور:

د. محمد فريحة... التأثير والتأثر بين البلاغة والقرآن الكريم

- إن بلاغة القرآن سبب في إعجازه؛ فهي أول ما تحدى به النبي صلى الله عليه وسلم مشركي العرب.
- إن علوم البلاغة من بيان ومعاني ومحسنات بديعية من الوسائل الأساسية لفهم القرآن الكريم.
- إن القرآن نزل بلغة العرب، ولا يمكن فهم القرآن إلا من خلال تعلم فنون بلاغة العرب.
- علم البلاغة يظهر فصاحة القرآن الكريم وجودة صياغته، وروعة أساليبه اللفظية والبيانية.
- الإمام بعلوم البلاغة سبب رئيس في إدراك الأحكام، والقضايا، ومعاني القرآن الكريم¹.

قائمة المراجع

- 1- إبراهيم الوافي، "أثر القرآن الكريم في الدراسات البلاغية"، مجلة الإحياء، مجلة إسلامية جامعة، رابطة علماء المغرب، ع 19.
- 2- ابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، ط1. دار الكتب العلمية، ج 5.
- 3- ابن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، دب: 1420 هـ، ج 3.
- 4- أبو البقاء الحنفي، الكليات، دط، مؤسسة الرسالة، دب: دت.
- 5- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت: 1990.
- 6- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، دط، دار العلم والثقافة، دب: دت، ج 1.
- 7- أحمد البيلي البدوي، من بلاغة القرآن، دط، نهضة مصر، دب: 2005م.
- 8- أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، دط، المكتبة العصرية، بيروت: دت، ج 1.
- 9- الجاحظ، البيان والتبيين، دط، دار الكتب العلمية، دب: دت، ج 1.

¹ مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة: البيان والبدیع، جامعة المدينة العالمية، ص ص 9-12.

د. محمد فرجة .._____ التأثير والتأثر بين البلاغة والقرآن الكريم

- 10- جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، دط، دار الثقافة، بيروت: 1973، ج2.
- 11- الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، ط 9، بيروت: 1393هـ/1973.
- 12- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دط، المكتبة الهاشمية لأصحابها محمد هاشم الكتبي وشركته، دب: دت.
- 13- السيوطي جلال الدين، الإكليل في استنباط التنزيل، دار الكتب العلمية، ط 2، دب: دت.
- 14- الفيروزآبادي مجد الدين، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية. ج1.
- 15- الفيومي أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دط، دار المعارف، القاهرة: دت.
- 16- القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ط2، دار الفيحاء، عمان: 1407هـ، ج1.
- 17- كاتب غير محدد، النبأ العظيم، دط، ددن، دب: دت.
- 18- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دط، دار الفكر، دب: د. ت.
- 19- محمد الأمين الهري، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ط1، دار طوق النجاة بيروت: 1421هـ، ج7.
- 20- محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، ط1، دار طوق النجاة، بيروت – لبنان: 2001.
- 21- محمد السائح، إعجاز القرآن، دعوة الحق، ع7، أبريل 1959.
- 22- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دط، الدار التونسية للنشر، دب: 1984، ج1.
- 23- محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، دط، تونس: 1967.
- 24- محمد الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، ط1، ددن، تونس: د. ت.

د. محمد فريحة... التأثير والتأثرين البلاغة والقرآن الكريم

25- محمد المبارك، من مهمل الأدب الخالد (نسخة مصورة ليس فيها ذكر مكان وتاريخ الطبع.

26- مناهج جامعة المدينة العالمية، البلاغة: البيان والبدیع، جامعة المدينة العالمية.

27- المؤيد بالله العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط1، المكتبة العصرية، بيروت: 1423هـ، ج1.

الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

الدكتورة الوناس نصيرة

كلية الآداب واللغات/ قسم اللغة العربية/ جامعة محمد بوقرة بومرداس

البريد الإلكتروني: n.lounnas@univ-boumerdes.dz

ملخص:

إنَّ عظمة القرآن الكريم مستمدة من عظمة قائله في المقام الأول، وتتجلى فيما نطالعه فيه من حسن بيان، ودقّة نظم، وحسن سبك، شملت مختلف المستويات، وما تفرّدت به مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، وهي تعكس بقوة وجوه إعجازه اللفظية والمعنوية، ممّا أهّله ليتميّز عن سائر فنون الكلام العربيّ. وفي هذا الإطار يتأتّى الحديث عن موضع من مواضع الوقف مستودع البيان ومكمن الإعجاز ألا وهي الفواصل القرآنية باعتبارها إحدى المحطّات الإيقاعية التي تعزف للنظم نغماته.

وبالنظر إلى مفهوم الفاصلة القرآنية يمكن اعتبارها محطة من محطات الاستراحة في مجرى الكلام، ثم إنّها بمثابة الأوتار الحسّاسة التي يضرب عليها الإيقاع نغماته. انطلاقاً من هذه المعطيات تأتي هذه الورقة البحثية لاستقصاء جانبين اثنين، يتعلّق الأول بتحديد الأبعاد التأثيرية للصوت في الفاصلة القرآنية. ويتعلّق الثاني بتحديد الأبعاد التأثيرية للأساليب البلاغية فيها. ممّا لا ينفصل عن استقصاء وجوه الإعجاز البياني للقرآن الكريم. وعليه فقد جاءت هذه الورقة البحثية لتجيب عن الأسئلة التالية: ما مفهوم الفاصلة القرآنية وما أبعادها الدلالية؟ وما مظاهر الجمال الإيقاعيّ والبلاغيّ لها؟ ثم ما هي الأبعاد التأثيرية للأساليب البلاغية في الفاصلة القرآنية؟

وإذا كانت الفاصلة موضعاً من مواضع الوقف القرآني، فما الذي يميّز هذا الموضع

الوقفيّ عن غيره من مواضع الوقف؟

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

وقد انتقينا نماذجنا من سورة البقرة على وجه التّحديد، باعتبارها تحوي أصنافا مختلفة من الفواصل، والأساليب البلاغية.

مقدمة:

القرآن الكريم معجزة خالدة على امتداد العصور والأزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها، كيف لا وهو أجمل قيل وأفصحه، وأعظم قول وأبينه، هو قول الرحمن الرحيم المتزل على المبعوث رحمة للعالمين بلسان عربيّ مبين، متحدّيا لأمة عنيت كثيرا بفنون القول شعرا ونثرا؛ إذ حلّ القول عندهم محلا عظيما في النفوس، إلى حدّ عدت فيه الأشعار ديوان العرب. وعليه فقد جاء القرآن الكريم متحدّيا لهم في فصاحتهم وبلاغتهم، مجاوزا لهم؛ حيث أفحم أرباب الفصاحة والبيان، وأعجزهم عن الإتيان بمثله، على الرّغم من مجاراته أساليبهم في أصواته ومفرداته وتراكيبه. وأمام تعدّد الوجوه البيانية للقرآن الكريم فقد عجزت عن مجاراته كل محاولات التقليد والمحاكاة.

ولعلّ من أبرز تلك الوجوه البيانية الفاصلة القرآنية، مكن الجمال الشكليّ والمعنويّ معا، الممتدة على امتداد القرآن، لذلك فهي عنصر ضروريّ تقوم عليه الآية، والسورة، والقرآن ككل. ولهذا لا يمكن لأيّ دارس يعنى بالوجوه البيانية للقرآن الكريم أن يغفلها. وعلى هذا الأساس ارتأينا أننعرض في هذه الورقة البحثية جانبا من جوانب ذلك الموضوع المتشعب والمترامي الأطراف؛ حيث خصّصنا الحديث عن الأبعاد التأثيرية للفاصلة القرآنية، من منطلق أنّ الفاصلة القرآنية باعتبارها مظهرا من المظاهر البلاغية في القرآن، تعتبر أهمّ المظاهر الشكلية على الإطلاق، وجماليتها غير مستمدة من توافق الحروف ووصف الكلمات فحسب، بل ما يؤدّيه ذلك الرّصف من وجوه معنوية إعجازية، لا يمكن أن تتحقّق في أيّ جنس من أجناس الكلام العربيّ. والحديث عن الأبعاد التأثيرية لا يمكن أن ينفصل البتّة عن الأبعاد الدلالية، باعتبارها شاملة لها.

من هنا تكتسي هذه الدّراسة أهمّيّتها. ضف إلى ذلك لما كان القرآن الكريم أعظم كتاب سماويّ تتلوه البشر، فإنّ قيمة أيّ دراسة متعلّقة به مستمدة من ذلك، ودراسة من

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

هذا القبيل من شأنها خدمة القرآن الكريم باستجلاء وجهمن وجوهه الإعجازية. إضافة إلى إكساب الباحث ثقافة دينية. وبالتالي فالبحث في القرآن هو بحث مثمر على جميع الأصعدة.

بناء على هذه الطرّوحات فإننا نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى تحقيق

مجموعة من الأهداف الأساسية نختزلها في النقاط التالية:

- الوقوف على ملمح يعدّ من أبرز ملامح الإعجاز التي تميّز النّظم القرآني عن سائر الكلام البشري.

- إبراز الدّور الذي تلعبه الفواصل لا على الجانب الشّكليّ فحسب، بل المعنويّ أيضا. وبالتالي فهي قيمة تستمدّها من خدمتها كلا الجانبين.

- إنّ جمالية الإيقاع القرآني هي جمالية متفرّدة لا يخلقها توافق النّغمات والإيقاعات فحسب، بل ما يؤدّيّه ذلك التّوافق من آثار دلالية تأثيرية على المتلقّي.

ولتحقيق ما نصبو إليه من خلال هذه الدّراسة فقد جاء تناولنا للموضوع عبر

مجموعة من العناصر؛ حيث عرضنا لمفهوم الفاصلة القرآنية وأنواعها. كما عرضنا أهمّ الظواهر الجمالية -الشّكلية والمعنوية- للفاصلة القرآنية، وبعض نماذج الظواهر البلاغية في الفاصلة، مستندين في كلّ ذلك إلى آليتي الوصف والتّحليل، ممّا تستدعيه طبيعة الدّراسة؛ من حيث استقصاء مواضع الفاصلة في السّورة -مدوّنة الدراسة- وتحليلها ببيان أهمّ أبعادها الدلالية والتأثيرية.

1- تعريف الفاصلة:

يرتبط موضوع الفاصلة القرآنية ارتباطا وثيقا بعلوم الدّين، وعلى وجه التّحديد علم

الوقف والابتداء.

1-1- لغة: الفاصلة في اللّغة مشتقة من الفعل فصل يفصل فصلا، «والفصل بون

ما بين الشّيئين، والفصل من الجسد موضع المفصل»¹. ويضيف "ابن منظور" «والفصل

¹ - الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّمراي، دار وكتبة الهلال، دط، مادة فصل، ص 125.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

الحاجز بين الشئيين، فصل بينهما يفصل فصلا فانفصل.... والفاصلة الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النّظام.... والفصل القضاء بين الحقّ والباطل.... وقوله عزّ وجلّ: "كتابٌ فصلّناه" له معنيان، أحدهما تفصيل آياته بالفواصل، والمعنى الثاني في فصلّناه بيّناه. وقوله عزّ وجلّ: "آيات مفصّلات" بين كلّ آيتين فصل تمضي هذه وتأتي هذه، بين كلّ آيتين مهلة¹. وهكذا تلتقي المعاني اللغوية للفاصلة على التّمييز بين الشئيين بحائل.

1-2-اصطلاحا: لا ينفصل المعنى الاصطلاحيّ للفاصلة عن المعنى اللغويّ لها، فمفهومها مرتبط بالوظيفة التي تؤدّيها في القرآن الكريم بما تتميّز به من جمالية النّظم وحسن الختم، إذ ينفصل عندها الكلام فصلا شكليا ومعنويا في الوقت نفسه.

لقد تعدّدت التّعريفات التي قدّمت للفاصلة القرآنية باختلاف تحديدها عند الدّارسين، فهي في نظر أبي عمرو الداني(ت444هـ)"الكلام المنفصل عمّا يليه، «والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكثر رؤوس آي وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة وليست كلّ فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعمّ النّوعين وتجمع الضّربين»². ووفق هذا القول يتحدّد معنى الفاصلة عند "أبي عمرو الداني" خارج إطار الآية لأنّه يشمل آخر الجملة التّامة المعنى التي لا يؤثّر الوقوف عندها لا على الجملة السّاري فيها الكلام ولا على التي تليها. وهذا على اعتبار «الآية قرآن مرّكب من جمل ولو تقديرا»³، ممّا يجعل عدد الفواصل عنده يفوق عدد الآيات، بناء على أنّ كلّ رأس آية فاصلة وليست كلّ فاصلة رأس آية. هذا في مقابل الرّأي القائل بأنّ تحديد الفاصلة يتوقّف على آخر الآي، وهذا ما نلمسه في تعريف "الزركشي(794هـ)" لها بأنّها «ما ينفصل عندها الكلام، وذلك أنّ آخر الآية فصل

¹ - محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلّد 11، مادة فصل، ص 521، 524.

² - أبو عبد الله بدر الدين بن محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء العلوم، ط01، بيروت، 1376هـ، ج01، ص 53.

³ - أبو عمرو الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، تج: غانم القدوري الحمد، مركز التراث والمخطوطات، ط01، الكويت، 1994، ص06.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

بينها وبين ما بعدها»¹. وعلى هذا الأساس يكون عدد الفواصل موافقا لعدد الآيات بناء على أن رأس كل آية فاصلة والعكس صحيح.

وفي تعريف آخر لها «الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشّعر وسجعة النثر، والتّفصيل توافق أو آخر الآي في حروف الروي، أو في الوزن، ممّا يقتضيه المعنى وتستريح إليه التّفوس»². فالفاصلة وفق هذا التعريف تنحصر في آخر كلمة في الآية شأنها في ذلك شأن القوافي في الشّعر والأسجاع في النثر ممّا يكون محلّه آخر الكلام سواء تعلّق الأمر بتمائل الحرف الأخير أو بتمائل الوزن. وعلى هذا الأساس سميت أواخر الآيات فواصل «لأنّها تفصل بين الآيتين»³.

وإذا كانت الفواصل في القرآن تقابل القوافي في الشّعر والأسجاع في النثر فإنّه لا يجوز تسميتها قوافي أو أسجاع؛ «لأنّ الله تعالى لما سلب عنه اسم الشّعر وجب سلب القافية عنه أيضا، لأنّه منه وخاصة به في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر، لأنّها صفة لكتاب الله فلا تتعدّاه»⁴. وهذا ما أشار إليه "الرماني (384هـ)" في معرض حديثه عن الفاصلة القرآنية، معرّفا إياها بأنّها «حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها»⁵. وهو قول يشير إلى علاقة التلازم القائمة بين الأداء الشكلي والآخر المعنوي للفاصلة القرآنية، ممّا سنعمل على توضيحه في النماذج التطبيقية.

¹- أبو عمرو الدّاني، المصدر السابق، ص 54.

²- محمد الحسنواوي، الفاصلة في القرآن، دار عمان، ط02، عمان، الأردن، 2000، ص 29.

³- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، ط02، بيروت، لبنان، 1974، ص 190.

⁴- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تج: أحمد شمس الدين، المجلّد 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 25.

⁵- أبو الحسن الرماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، الجرجاني، تج: محمد زغلول سلام وآخرين، مصر، 1376. ص 97.

الدكتورة الوناس نصيرة.. الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

بناء على ما سبق تعدّ الفاصلة القرآنية موضعا من مواضع الوقف الذي تختلف محطاته بين رؤوس الآيات ووسطها. والوقف كما يعرفه العلماء هو «قطع الصوت على كلمة زما يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة»¹، وما لذلك من أثر كبير على المعنى والمبنى، حيث يؤدي الوقف الصحيح على تأدية المعنى المقصود، أما إذا كان في غير موضعه فسيؤدي حتما إلى إفساد المعنى. وإذا تعلق الأمر بالوقف عند الفواصل فإنّ ذلك يضفي علاوة على ما سبق من تحقيق سلامة المعاني معان صوتية إضافية لرويّ الفواصل المتوافقة، ممّا يحمل بعدا تأثيريا.

ونظرا لاختلاف التعاريف الضابطة للقافية في القرآن فقد اختلفت معها طرائق تحديدها بين طريقة قياسية وأخرى سماعية. ففيما يخصّ الطريقة السماعية فهي تقوم على ما ثبت نقله عن النبيّ عليه السّلام أنّه كان يقف عنده، ووقف عليه أصحابه من بعده، كان موضع وقف لازم «لأنّه توقيفي من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم»². وموضع الوقف دليل على أنّه يمثّل فاصلة. هذا في مقابل الطريقة القياسية التي تقوم على اجتهاد علماء الدّين واللّغة، «فقد ثبت عن النبيّ أنّه كان يقف على بعض الآيات تارة، ولا يقف عليها تارة أخرى، فاحتمال وقوفه عليها أحد أمرين:

- أن يكون فاصلة. والثاني أن يكون المعنى احتمال ذلك، ومن هنا جاء القياس في الوقف»³. لذلك اجتهد بعض العلماء على غرار "أبو عمرو الداني" في تحديد مواضع الفصل بالاعتماد على مجموعة من الضوابط لا تخرج عمّا ثبت في القياس السّماعي. ومن تلك الضوابط نذكر:
- مساواة الآية لما قبلها وما بعدها طولا أو قصرا.
- مشاكلة الفاصلة لغيرها ممّا هو معها في السّورة في الحرف الأخير منها، أو فيما قبله.

¹- أبو الخير ابن الجزري، التّشريح في القراءات العشر، ج1، دار الكتب العربية، دط، مصر، ص240.

²- حسين شحاتة، محمد كرار، الوقف القرآني وأثره في التّرجيح عند الحنفية، مؤسسة المختار، ط01، القاهرة، 2003، ص21.

³- المرجع نفسه، ص21.

- الاتفاق على عدّ نظائرها في القرآن.

- انقطاع الكلام عندها¹.

2-أنواع الفواصل:

إذا كانت الفاصلة موضعا من مواضع الوقف في القرآن الكريم، فإنّه يتبدى لنا مع كلّ فصل صنف جديد من أصناف الفواصل تبعا لاختلاف أو تماثل حروف الفصل أو الروي، مع اختلاف أو تماثل الوزن، وسنعرض فيما يلي لتلك الأصناف:

2-1-1-من حيث الروي

2-1-1-1-الفواصل المتماثلة: التماثل هو التوافق ويعني هنا اتفاق حرفين في الوصف والمخرج، وعليه يقصد بالفواصل المتماثلة «ما تماثلت حروف رويها»². وهو تماثل ناتج عن تكرار الحرف نفسه في عدّة فواصل متتالية، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ (الإخلاص)، أو تكرار عدّة حروف، من شاكلته قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ (الشرح). وقد يتمّ التماثل بتكرار الكلمة نفسها في عدّة فواصل متتالية مثل ما نجده في سورة الناس.

2-1-1-2-الفواصل المتقاربة: هي الفواصل التي «تقاربت حروف رويها»³ من حيث

المخرج، وهو تقارب ينجم عنه توليد إيقاع متناسق لهذه الفواصل، مثل التقاء حرفي "النون" و"الميم" في سورة الفاتحة، وهما حرفان يقتربان في المخرج كون الأول لثوي والثاني شفوي⁴.

¹- أبو عمرو الداني، البيان في عدّ أي القرآن، ص 06.

²- محمد الحسنواوي، الفاصلة في القرآن، ص 145.

³- المرجع نفسه، ص 147.

⁴- محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات، ص 185، 186.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

2-1-3- الفواصل المنفردة: هو نوع يخالف النوعين السابقين، لأنها كل فاصلة «لم تتماثل حروفها ولم تتقارب»¹ مع بقية الفواصل. على غرار ما نصادفه في الفاصلة "الثاقب"، من سورة الطارق، قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿٢﴾ النَجْمِ الثَّاقِبُ﴾ ﴿٣﴾ (الطارق). نلاحظ في هذه الآيات الكريمة أنّ حرف روي الفاصلة تنوع بين القاف والباء، والمعلوم أنّهما حرفان غير متماثلين؛ فالقاف حرف مخرجه أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، والباء مخرجه الشفتين. وهما مخرجان غير متقاربين.

2-2- من حيث الوزن:

2-2-1- الفواصل المطرّفة: يشمل هذا النوع «ما اتفق في حروف الروي لا في الوزن»². وهو ما نجده في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ﴿٥﴾ (العلق). الملاحظ هنا أنّ الفاصلتين (القلم-يعلم) اشتركتا في حرف الروي الذي هو الميم، ولكنهما اختلفتا في الوزن؛ حيث جاءت الأولى على شكل: متحرك-متحرك-ساكن، وجاءت الثانية على شكل: متحرك-ساكن-متحرك-ساكن.

2-2-2- الفواصل المتوازنة: هي على عكس المطرّفة لأنها تمثل الفواصل المتشابهة من حيث الوزن وحرف الروي³. على غرار قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿٢﴾ (الفلق)؛ حيث جاءت الفاصلتان (الفلق) و(خلق) على وزن واحد، من الشكل: متحرك-متحرك-ساكن، وعلى روي واحد هو القاف.

2-2-3- الفواصل المتوازنة: هي الفواصل المتوافقة في عدد المقاطع والوزن⁴، بمعنى أن تكون مقاطع الكلام متساوية وأن يكون الوزن موحد، مثل الفواصل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ﴿٢٠﴾ (الغاشية)؛ حيث نلاحظ وجود تقابلات

¹ - محمد الحسنواي، الفاصلة في القرآن، ص 148.

² - نفسه، ص 149.

³ - عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، دار المريخ، دط، 1982، ص 19.

⁴ - محمد الحسنواي، الفاصلة في القرآن، ص 149.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

بين الكلمات المكوّنة للآيات الكريمة، مثل كلمة الإبل في مقابل السماء، والجبال، والأرض، وكلمة خلقت في مقابل كلمات رفعت، نصبت، سطحت. هذا مع توافق فواصل الآيات من حيث الوزن الذي ورد على وزن: متحرك-متحرك-ساكن.

4-2-2- الفواصل المرصّعة: ينظر فيها إلى ثلاثة عناصر أساسية: القافية، والوزن، وتوافق توزيع العناصر اللغوية، وهو المشار إليه في تعريف "السيوطي (911هـ)" لها: «والمرصّع أن يتّفا وزنا وتقفية، ويكون ما في الأولى مقابلا لما في الثانية»¹. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١٤) (الانفطار)، حيث نلاحظ اتّفاقا في الوزن بين (نعيم-وجحيم) لأنّ كليهما من الشّكل: متحرك-متحرك-ساكن-ساكن على اعتبار الوقف على الميم الساكنة في آخر الكلمة. كما نلاحظ كذلك اتّفاقا في القافية (الياء والميم)، إضافة إلى التّوافق الحاصل في توزيع العناصر اللغوية بناء على خاصية التّقابل بين (إِنَّ الْأُبْرَارَ) و(إِنَّ الْفُجَّارَ)؛ فكلاهما لفظتان متقابلتان إفراديا ومعنويا، ومعنى التّقابل في هذا المستوى «أن تتقابل كلّ وحدة لغوية مع سواها من الوحدات في نفس المستوى، تقابلا يحدث تغييرا في المعنى عند استبدال واحدة محلّ أخرى»².

5-2-2- الفواصل المتماثلة: يقصد بالتّمائل «أن يتساويا في الوزن دون التقفية، وتكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية»³. انطلاقا من هذا التعريف تكون الفواصل المتماثلة مقاربة للفواصل المرصّعة من حيث التّمائل في الوزن وتقابل القرائن بأن تكون مجموع العناصر اللغوية المتعلقة بالفاصلة الأولى مقابلة لمجموع العناصر المتعلقة بالفاصلة الثانية، كأن يقابل الاسم اسما والفعل فعلا، وإن اختلفتا في التقفية، وكمثال على ذلك نسوق قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ (١١٧) ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١٨) (الصفات). ففي هاتين الآيتين هناك اتّفاق في الوزن بين الفاصلة الأولى والثانية إذ كلاهما من الشّكل: متحرك-ساكن-متحرك-متحرك-ساكن-ساكن على اعتبار

¹ - جلال الدّين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تج: محمد أبو الفضل، المجلد 03، دط، ص 311.

² - محمد علي الخولي، معجم علم الأصوات، ص 44.

³ - جلال الدّين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، ص 311.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

الوقف على الساكن طبعاً. أما بالنسبة للقرائن اللغوية فجاءت متوافقة كذلك؛ حيث قابل الفعل (آتيناً) الفعل (هدينا) وقابل المفعول به (الكتاب) المفعول به (الصراط) وقابل الوصف (المستبين) الوصف (المستقيم)، وإن لم يكن هناك توافق في القافية التي تنوعت بين النون والميم.

3- الفاصلة القرآنية بين الوظيفة الشكلية والمعنوية:

من المعلوم في اللغة العربية أن لكل صوت خصائص تطبعه ووظائف دلالية تميزه عن باقي الأصوات. انطلاقاً من هذا المعطى يتفرد الصوت القرآني بميزات خاصة لا سيما ما يتعلّق بالفواصل التي تظهر أهميتها البالغة في أداء المقصود، والتعبير عن مضامين الخطاب الظاهرة والمضمرة، وفق نمط صوتي يصفه "الباقلاني" بأنه إذا «قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى»¹، فحقّ له بذلك أن يكون أكثر تأثيراً في النفوس.

تعتبر الأصوات المتوقّفة عليها في الفواصل القرآنية ذات أهمية كبيرة في مسار الإيقاع بالدرجة الأولى، لأنّها محطّ الوقف الذي يعمل على إظهار النغم، ما يدلّ على أنّ الفواصل قد وضعت بحكمة ولحكمة إلهية.

ومع اختلاف مواضع الوقف في القرآن الكريم يحسن بقارئه أن يكون على دراية بتلك المواضع، لا سيما ما يتعلّق بالفواصل على وجه التحديد، لما لذلك من أهمية كبيرة في تحديد المعنى. وإن دلّ هذا فإنّما يدلّ على أنّ القرآن الكريم ليس مجرد أصوات تسمع، ومفردات وجمل ترتّل، بل إنّه معان يأخذ بعضها بأعناق بعض، في سلاسة ودقّة متناهية إلى آخر السورة.

¹- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، ج 01، تح: أحمد صقر، دار المعارف، دط، مصر، 1997، ص 17.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

واللآفت للنظر وأنت تطالع الحروف الموقوف عليها في القرآن هو اكتشافك أنّها جاءت على نحو ما تعودته العرب في كلامها؛ حيث «مالت العرب في سجعها وقوافيها إلى استعمال حروف المدّ واللّين والغنة... وعلى هذا الأساس جاءت فواصل القرآن الكريم»¹.

وعليه يتحقّق البعد الشكلي الجمالي للفواصل القرآنية وهو بعد يعمل على لفت انتباه المتلقّي والتأثير فيه، ممّا يصنع تكاملاً بين الجانب الشكلي والمعنوي معاً، رداً على الرأى القائل بأنّ القرآن مجرد إنشاء منظوم بطريقة عشوائية، وأنّ خواتيم آياته إنّما وضعت لتنمिम السجع والقافية، فهي ذات غرض لفظي لا غير². وهو ما تصدّى له طائفة من الباحثين على غرار "عباس حسن" الذي يرى أنّ الفاصلة القرآنية «إنّما جاءت لغرض معنويّ ما، يتّصل بجمال اللفظ وبديع الإيقاع»³.

نخلص للقول أنّ الفواصل القرآنية هي فواصل تجمع بين البعد الشكلي الجمالي الذي يعدّ معياراً مهمّاً من معايير استمالة المتلقّي، والبعد الدلاليّ التّأثيري، ممّا يفرض على كلّ قارئ ودارس للقرآن أن يقف عندها مليّاً لاستجلاء مكان من الإعجاز البياني القابعة خلفها.

4- أنواع الفواصل في سورة البقرة:

سورة البقرة سورة مدنية، من أطول السور في القرآن، وقد تعدّدت مضامينها وتنوّعت، غير أنّه يمكن اختزالها في قسمين اثنين: «قسم يثبت سموّ هذا الدّين على ما سبقه، وعلوّ هديه وأصول تطهيره النّفوس، وقسم يبيّن شرائع هذا الدّين لأتباعه»⁴ من قصاص، ووصية، وصيام، وحجّ، وجهاد، ومعاشرة، وإنفاق، وميراث، وبيع، ودّين، وطلاق..... فكانت السّورة بذلك بيانا لتشريعات الإسلام. ومع تعدّد موضوعات السّورة تعدّدت الفواصل

¹ - السيّد خضر، فواصل الآيات القرآنية، دراسة دلالية بلاغية، مكتبة الآداب، ط02، القاهرة، 2009، ص 05.

² - ينظر: عباس حسن، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، دط، الأردن، 1991، ص 222.

³ - المرجع نفسه، ص 222.

⁴ - الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج01، الدار التونسية، دط، تونس، 1984، ص 203.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

وتنوعت هي الأخرى سواء من ناحية الروي أو من ناحية الوزن. وفيما يلي عرض لأهم الفواصل التي نعثر عليها في ثنايا السورة.

4-1-1 من حيث الروي: يتنوع الروي أو الأحرف التي ختمت بها فواصل سورة البقرة اختلافا من حيث عدد الذكر، والنوع، والمخرج، والصفة، وهي على الترتيب التنازلي لها كالتالي: حرف التّون (193 مرّة)، حرف الميم (54 مرّة)، حرف الرّاء (19 مرّة)، حرف الباء (09 مرّات)، حرف الدّال (08 مرّات). ممّا أنتج تنوعا في الفواصل. وبالنظر إلى هذه الأخيرة من ناحية الروي والوزن يمكن الحديث عن الأنواع التالية:

4-1-1-1 الفواصل المتماثلة: أكثر الفواصل جاءت متماثلة في حرف التّون، على غرار ما نصادفه في الفواصل الأولى من السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ٣ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ٤ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ٥...، حيث ختمت هذه الفواصل بالحرف ذاته وهو التّون. ومن تلك الفواصل ما اتفق في حرفين، حرف الروي وما يسبقه، في مثل فواصل الآيات (70-88) ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَةَ شَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ٧٠ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٧١ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ٧٢...، التي اتفقت في حرفي النون والواو. وكذلك الأمر في فواصل الآيات (89-91) ﴿وَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩ ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ٩٠...، التي اتفقت في حرفي النون والياء.

هذا كما وردت فواصل متماثلة في حرف الرّاء مسبوqa بحرف الياء كما في الفاصلتين (قدير- نصير) من قوله تعالى (106-107) ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ

الدكتورة الوناس نصيرة.. الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾.

إلى غير ذلك من وجوه التماثل في حرف الميم والباء والدال.

4-1-2- الفواصل المتقاربة: أي ما تقاربت مخارج حروفها مثلما نجد في فواصل

الآيات (178-181) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ فالفواصل: أليم، تتقون، المتقين عليهم لم تتوافق في حرف الروي الذي تراوح بين النون والميم، وهما حرفان متقاربان في المخرج، كون الأول لثوي والثاني شفوي.

4-1-3- الفواصل المنفردة: نعثر على هذا النوع في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ حيث تفرّدت فاصلة الآية (بعيد) عن الفواصل التي سبقتها (رحيم- أليم)، والتي تلتها (المتقين)، ذلك أنّ حرف الدال ذو المخرج الأسنانّي لا يتقارب مع حرف الميم ذو المخرج الشفويّ والنون ذو المخرج اللثويّ، وهذه المفارقة وإن أحدثت تغييراً على مستوى إيقاع الفواصل، إلا أنّ ذلك لا يعدو المستوى الشكلي لأنّها ارتباطاً وثيقاً بمعنى الآية الدالة على الشقاق البعيد لأولئك الذين اختلفوا في الكتاب ولم يؤمنوا به.

4-2- من حيث الوزن:

4-1-2- الفواصل المتوازية: نعثر في السورة الكريمة على عديد الفواصل المتماثلة في

الوزن والرويّ، نحو ما جاءت عليه فواصل الآيات (277-281) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ

الدكتورة الوناس نصيرة.. الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾.

الملاحظ إذن أنّ الفواصل (يحزنون- مؤمنين- تظلمون- تعلمون...) ختمت بروي
واحد هو النون، وجاءت على وزن واحد: متحرك-ساكن-متحرك-متحرك-ساكن-ساكن على
اعتبار الوقف. ممّا صنع طبعا تماثلا في الإيقاع يشدّ إليه الأسماع.

4-2-2- الفواصل المطرّفة: جاءت هذه الفواصل على الروي ذاته مع الفواصل
السابقة لها وإن خالفها في الوزن، على غرار قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا
مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٣٦﴾، حيث نجد الفاصلة (إلى حين) تتماثل مع الفواصل السابقة لها (تكنتمون-
الكافرين- الظالمين) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ من حيث الروي، وهو النون،
وتختلف معها في الشكل: متحرك-متحرك-ساكن-متحرك-ساكن-ساكن، في حين نلفي
الفواصل الأخرى من الشكل: متحرك-ساكن-متحرك-متحرك-ساكن-ساكن على اعتبار
الوقف طبعا. ولا يمكن أن نعدم جمالية التماثل هنا في خلق تناسق موسيقيّ ناتج عن تكرار
النغمات ذاتها.

4-3- الدلالة الصوتية لبعض حروف الفواصل: إنّ لكلّ صوت في القرآن دلالات
معبر عنها بما لا يزيد عن المعنى المطلوب ولا يقصر عن أدائه، كيف لا وهو المنزّل من حكيم
خبير. وقراءة إحصائية متفحّصة لسورة البقرة تجعلك تلاحظ أنّ حرف النون كان حرفا
طاغيا على فواصل الآيات، إذ تكرر ذكره (193 مرّة)، وقد جاء في أغلبه مسبوقا بحرف من

الدكتورة الوناس نصيرة.. الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

حروف المدّ (الألف أو الياء). ووفقا لما يطبع هذا الصّوت اللّثوي من جهر¹ فقد تجلّى أثره في «إظهار الغنة والترنم»²، اللذان يستلذهما السّمع ويميل إليهما، مضافا إلى ذلك ما أضفته حروف المدّ السابقة لحرف الروي (التّون) من جمال إيقاعي ناتج عن الإطالة في مدّ الصّوت، ما يعمل على لفت الانتباه وشدّ الأسماع والقلوب معا، وتعميق الأثر في النّفوس لا سيما إذا كان مصحوبا بترتيل، الأمر الذي يعمل لا محالة على تبليغ المقاصد وتمرير فحوى الرّسالة الرّبانية؛ بتبليغ أحكام الله وتشريعاته.

ومن الحروف الأخرى المشحونة دلاليا ذات الوظائف الإيحائية التي نعثر عليها في خواتيم الآيات كحرفي روي "حرف الدال" (205-207) ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٢٠٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (٢٠٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧) وحرف الدال كما هو معلوم من الحروف الانفجارية المجهورة³، ناتج عن انطلاق تيار الهواء بعد حبسه، لأنّه صوت «ينجس معه تيار النّفس ثم ينطلق بشكل انفجار طفيف»⁴. ممّا نجده يتوافق والمعنى المعبر عنه في حبس المنافقين الحقيقة في صدورهم، حالهم حال من «إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع ويؤكّد ما يقوله بأنّه (ويشهد الله على ما في قلبه) بأن يخبر بأنّ الله يعلن أنّ ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك لأنّه يخالف قوله فعله»⁵. فكان إظهار الآية الكريمة لحقيقة أولئك المنافقين المحبوسة في دواخلهم يستدعي الجهر بذلك حتى يخرج للعلن، وهي مهمّة عبّر عنها حرف الدال الانفجاريّ الجهوريّ. فكما ينطلق الهواء المحبوس مع الدال كذلك يظهر القرآن الحقيقة المحبوسة لدى المنافقين.

¹- ينظر: محمد الخولي، معجم علم الأصوات، ص 184، 185.

²- سيّد خضر، فواصل الآيات القرآنية، ص 78.

³- ينظر: محمد الخولي، معجم علم الأصوات، ص 184.

⁴- المرجع نفسه، ص 25.

⁵- السعدي، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المتّان، ص 78.

الدكتورة الوناس نصيرة.. الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

وهكذا لا تقف الأبعاد التأثيرية للفاصلة القرآنية على الناحية الشكلية لأن لها دلالة على المعاني المعبر عنها. وبالموازاة مع الدلالة الصوتية لروي الفواصل القرآنية فإنه يمكننا الحديث عن مستوى آخر من مستويات بلاغة الفواصل، متمثلاً في بلاغة الأساليب التعبيرية الموظفة على مستوى الفواصل، نخص بالذكر: التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتكرار.

5- الأبعاد التأثيرية للأساليب البلاغية في الفاصلة القرآنية:

أ- التقديم والتأخير ومقام الكلام: من الأساليب العدولية التي تدخل ضمن أحوال الطرفين المسند والمسند إليه، إذ يولد المرسل خطابه بعيداً عن مجرد ضم العناصر اللغوية إلى بعضها البعض مما يقتضيه علما النحو والدلالة، إلى الضم وفق طريقة مخصوصة يستدعيها سياق الحال. وهو باب «كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»¹. وإذا كان هذا حال التقديم والتأخير الواقع في كلام البشر، فما بالك بوروده في القرآن الكريم. الأكيد أن ذلك لا يكون إلا تحقيقاً لجملة من المقاصد الخطابية.

1-5- أسلوب التقديم والتأخير:

يتعلق الأمر في هذا السياق بالحديث عن تقديم وتأخير أسماء الله الحسنى في موضع الفواصل، مع ما يستتبعه تغيير موقع من مواقع المفردات من دلالة جديدة، نذكر من ذلك:

1-5-1- تقديم العليم على الحكيم: قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢). الملاحظ في هذه الآية الكريمة تقدم اسم الجلالة (العليم) على (الحكيم) فهل في هذا التقديم بعد دلالي مقصود؟

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص 143.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

هذان الاسمان من أسماء الله المقترنة، وهو اقتران يمنحهما دلالات خاصة، كما يمنحهما الترتيب أبعادا دلالية إضافية. ففي هذه الآية الكريمة «تناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لأنه المتصل به في قوله: وعلم، لا علم لنا، فالذي ظهرت به المزية لأدم والفضيلة هو العلم، فتناسب ذكره متصلا به، ولأن الحكمة هي من آثار العلم وناشئة عنه»¹. وبالتالي فالترتيب هنا هو ترتيب في غاية الدقة المعنوية، وبالنظر إلى ذلك الاعتبار فإن أكثر ما ورد في القرآن الكريم كان من باب «تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة»².

وبالتالي فتقديم صفة العلم على الحكمة في هذه الآية الكريمة له أثر في تحديد الدلالة، لأنه يوجي بقصد معين. وعلى هذا الأساس فإن «الفروق بين التراكيب والاختلاف بين الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات من تغييرات، وإنما الفرق في معاني العبارات وما يحدثه هذا الوضع وذلك النظم، فليس القصد معرفة قواعد النحو وحدها، ولكن فيما تحدثه هذه القواعد وما تستتبعه من معنى، وما يتولد عن النظم من مدلول»³.

5-1-2- تقديم السميع على العليم: من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) المتمة في فاصلة هذه الآية مع فاصلة الآية التي سبقتها أو لحقتها يرى أن هناك توافق شكلي بين رؤوس الآيات؛ إذ جاءت الفاصلة (عليم) متوافقة مع الفاصلة التي سبقتها (المسلمون) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) والتي تلتها (عابدون) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ

¹- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ص239.

²- المرجع نفسه، ص 239.

³- عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ، الرياض. ص85.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾، نظرا لتناسب حرف الميم مع حرف النون باعتبارهما حرفان متقاربان.

ومن الناحية الدلالية تقدّمت لفظة السّميع على لفظة العليم لأنّ السمع يشمل فقط المسموع، أما العلم فإنّه يكون عاما ويشمل المسموع وغير المسموع، لذلك كان اسم العليم «صفة من صفاته الذاتية سبحانه تقتضي علمه بالظواهر والسرائر، فلا يغيب ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر»¹. في حين يختصّ وصف السّميع بما يتعلّق بالمسموعات فقط، فهو «المدرّك لجميع الأصوات باختلاف اللّغات»².

وهكذا تتعدّد المعاني البلاغية المرتبطة بهذه الآلية الأسلوبية، «... فاستعمال هذا الترتيب أو العدول عنه إلى ترتيب آخر، أي إعادته، يعدّ مؤشرا على حضور عنصر سياقي يفرض على المرسل أخذه بعين الاعتبار عند إنتاج الخطاب»³، حتى تؤدّي العملية التواصلية الغاية المرجوة وهي تحقيق الفهم والإفهام. لذا يعدّ الإلمام بمعطيات السياق مطلباً أساسياً في فهم فحوى الخطاب. إضافة إلى ما يحقّقه كذلك من اتّساق صوتي وتناغم إيقاعي بين الفواصل من خلال المشاكلة لرؤوس الآيات، ممّا يعمل على جذب انتباه المتلقّي. الأمر الذي يجعله بمثابة مثير يشدّ إليه الأسماع. وهو ملمح من ملامح الإعجاز البياني للقرآن، وحجّة على مصدره الإلهي.

2-5-التّعريف والتّنكير: يعدّ باب التعريف والتّنكير من الأبواب اللّغوية الهامة في

الدّراسات النّحوية ونظيرتها البلاغية، نظرا لما تنطوي عليه هذه البنية اللّغوية من أبعاد دلالية وتأثيرية تداولية. وعليه فإنّ الهيئة التي ترد عليها الكلمة بين تعريف حيناً، وتنكير حيناً

¹ - سعد بن عبد الرحمن ندا، مفهوم الأسماء والصفات، مجلّة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الجزء 45، العبيكات للتعليم ص60.

² - أحمد بن عثمان المزيّد، عادل بن عليّ الشدي، تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، إدارة الشؤون الدّينية، ط06، 2014، ص48.

³ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب. ص146.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

آخر، يحمل عدّة مؤشرات لورود معان مختلفة، ممّا يحتمله سياق القول، لا سيما ما تعلق بالفواصل القرآنية.

5-2-1- تعريف السميع العليم: من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧) ﴿١﴾ اقترنت فاصلة هذه الآية الكريمة باسمين من أسماء الله الحسنى وهما السميع والعليم. وكلاهما ورد معرّفًا بالألف واللام، وللتعريف دلالة خاصة في موضعه، لأنّ من الأسماء ما ورد نكرة.

بالعودة إلى السياق العام للآية الكريمة الذي يمثل خطابا من الله تعالى لعباده المؤمنين مفاده «إن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به وأسلموا لله وحده ولم يفرّقوا بين أحد من رسله (فقد اهتدوا)... وضدّه الضلال عن العلم والشقاق الذي كانوا عليه لما تولّوا وأعرضوا، فكان من علامات إعراضهم إظهار العداوة البليغة التي من لوازمها بذل ما يقدرّون عليه من أذية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. فلهذا وعد الله رسوله أن يكفم بإياهم»¹، لأنّه وحده القادر على ذلك دون سواه، ووحده «السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات، العليم بما في أيديهم وما خلفهم بالغيبة والشّهادة، وبالظواهر والبواطن»². لذلك جاء تعريف الاسمين المقترنين نظرا لما يستدعيه مقام تخصيص الإله بالوصفين دون أن يشركه أحد من خلقه، وما يستتبعه ذلك من تعظيم له.

5-2-2- تعريف العزيز الحكيم: في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩) ﴿٢﴾ جاءت فاصلة الآية الكريمة متكوّنة من اسمين من أسماء الله الحسنى المقترنة (العزيز الحكيم)، وقد جاء الاسمان معرّفان بأل التعريف. والملاحظ أنّ الاسمين جاءا وصفا لضمير الفصل (أنت) الذي يعود على المولى عزّ وجلّ، والذي استتبع ذكره ذكر الوصفين الكريمين، فخصّ بذلك المولى عزّ وجلّ بالعزّة والحكمة دون سواه. والفرق بين تعريف الوصفين وتنكيرهما أنّه

¹- السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص 54.

²- المرجع نفسه، ص 54.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

«إذا قيل لله عزيز فإنما يراد الاعتراف له بالقدم الذي لا يهتياً معه تغيره عمًا لم يزل عليه من القوة والقدرة، وذلك عائد إلى تنزيهه عمًا يجوز على سواه من المصنوعين»¹. والأمر سيان بالنسبة لوصف "حكيم" «فهو الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك؛ لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا حكيم»².

وبالتالي فقد دلّ تعريف الوصفين على قصر صفتي العزّة والحكمة الأزلتين على الله وحده دون سواه، وتفريده وحده بالقدرة والقوة المطلقة، والصنع المتقن، وهو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه.

5-2-3- تنكير وليّ ونصير: التنكير في اللغة العربية يؤتى به «للدلالة على ما شاع في جنسه دون أن يدلّ على معيّن»³. في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧). الملاحظ من خلال الآية الكريمة أنّ الوصفين "وليّ" و"نصير" قد وردا نكرتين. وهو تنكير يفيد عدّة معان وفق بعض المفسرين؛ فهو في تفسير "السعدي" يفيد خمسة معان أساسية، هي: الشمول، والتبئيس، والتحقير، والتعظيم، والقصر. وشرح هذه المعاني يكون كالآتي:⁴

- معنى الشمول يفهم من استغراق النّفي لكل ما يزعمه الكفار من أولياء أو ناصرين، ذلك أنّ معنى الآية ومالككم من دون الله من ولي يتولّاكم، ولا نصير ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

- التبئيس هو تبئيس من وجود الوليّ والنصير.

- التحقير هو تحقير من شأن من هم دون الله عزّ وجلّ.

- التعظيم هو تعظيم الله سبحانه وتعالى بإثبات كونه هو الوليّ والنصير.

¹ - سعيد بن علي بن وهب القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، تح: عبد الله الجبرين، مطبعة سفير الرياض، الرياض، ص 41.

² - سعيد بن علي بن وهب القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، ص 30.

³ - فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الأردن، 2000. ص 342.

⁴ - ينظر السعدي، تيسير الكريم الرحمن. ص 599.

-القصر هو قصر الوصفين على الله وحده وتخصيصه بهما دون سواه.

5-2-4-تنكير أليم: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٤). في هذه الآية الكريمة «وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله من العلم الذي أخذ الله به الميثاق على أهله أن يبَيِّتوه للناس ولا يكتُموه»¹. فمصير هؤلاء عذاب أليم من الله؛ وقد وردت كلمة عذاب نكرة «للدلالة على فضاة حالهم لعظم هذا الألم الذي يشتمل عليه العذاب»². وبالتالي فقد ناسب سياق الكلام مجيء الوصف نكرة بغرض التهويل من شدة وقع الألم، كون العقوبة موجعة، مما يجعل العبد ينفر خوفا منها. نكتفي بهذا القدر فيما يخص تحديد الأبعاد التأثيرية للأساليب البلاغية في الفاصلة القرآنية، والتي مثلنا لها بأربعة نماذج أسلوبية فقط هي: التقديم، والتأخير، والتعريف، والتنكير.

خاتمة:

نخلص بعد جملة المعطيات المقدمة إلى استخلاص النتائج التالية:

- لقد وظّف القرآن الكريم لغة العرب بأصواتها وكلماتها وتراكيبها ليكون متحديا لهم بلسانهم.
- بالعودة إلى تعريف الفاصلة وتعريف السجع يتحدّد الفرق بين الاثنين، كما يتحدّد الفرق بين كلام الله عزّ وجلّ وكلام البشر. فالسجع وظّف عند العرب على ما تماثلت حروفه، وهو كظاهرة إيقاعية، ونظريه الفواصل القرآنية التي تطلق كذلك على ما تماثلت أواخره، ولكن شتان بين هذا وبين ما ألفته العرب من استعمال القوافي في الشعر، والسجع في النثر. وبالتالي فمن غير المعقول تشبيه القرآن بالشعر أو بالنثر.

¹ - ينظر السعدي، تيسير الكريم الرحمن. ص 34.

² - مقبولة علي مسلم الحصيبي، أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت، رسالة ماجستير، إشراف عبد الحفيظ بن إبراهيم البكري، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أم القرى، 2007. ص 35.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

- إنّ توظيف هذه الظاهرة الإيقاعية في القرآن هو توظف لافت استوقف عديد العلماء والباحثين، ولعلّ الاختلاف الذي دار بينهم حول توظيف مصطلح السّجع للتدليل علما هو اختلاف شكليّ في أساسه.
- إنّ تميّز القرآن عن سائر كلام البشر لا نقاش فيه، لذلك وجب تمييزه بمصطلحات خاصة مثل توظيف الفواصل بدل الأسجاع؛ ذلك أنّ الأسجاع يعتدّ فيها بالجانب الصوتي مع تهميش الجانب المعنويّ، وهذا على خلاف الفواصل القرآنية التي تجمع بين الجانب الشكليّ والآخر المعنويّ.
- تتعدّد أنواع الفواصل في القرآن وإن كانت ترجع في أصلها إلى نوعين أساسيين هما: الفواصل المتماثلة والفواصل المتقاربة.
- إنّ إطلالة متأنّية لفواصل سورة البقرة تجعلنا نلاحظ مدى عناية القرآن الكريم باختيار فواصله بما يتناسب وأداء الدلالة المقصودة، بحيث يكثر توظيف حروف اللين والمدّ، وحر في النون والميم بما تنطوي عليه من أبعاد دلالية تتوافق وموضوع الآيات من جهة، والسّورة ككل؛ في مقام الوعيد والتهديد يوظّف القرآن فواصل معيّنة بحروف معيّنة ونغمات معيّنة تختلف عن الفواصل الموظّفة في مقام الثناء والمدح.
- يحقق توافق الفواصل في عديد الآيات نغما موسيقيا عذبا يشدّ إليه الأذان ويستميلها، ولعلّه أكثر سمة صوتيّة تطبع القرآن الكريم ككل. والأمر هنا يتجاوز تكرار الفواصل ليشمل تكرار الكلمات في احيان كثيرة، ممّا يعمل على تحقيق انسجام صوتيّ بين الآيات في إطار السورة الواحدة.
- إنّ توافق الفواصل القرآنية قبل أن يكون خاصية جمالية شكلية فهو توافق له علاقة بتأدية المعنى، ممّا جعلها تجمع بين النواحي الدلالية والنواحي التأثيرية.
- إنّ الأمر في الفواصل القرآنية يتجاوز مجرّد توافق الحروف وما تثيره من جرس موسيقيّ، إلى خاصية أخرى تتعلّق بالأساليب البلاغية الموظّفة من خلالها وما تؤدّيه من مقاصد دلالية، وللتقديم دلالتة، وللتأخير دلالتة، وللتعريف دلالتة، وللتنكير دلالتة، لا سيما ما يتعلّق بأسماء الله الحسنى.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

- لقد أكدت الدراسة أنّ الفاصلة القرآنية هي ملمح فقط من ملامح الإعجاز البياني للقرآن الكريم مع تعدّد وجوه إعجازه.

مراجع البحث:

- أبو الحسن الرماني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني، الخطابي، الجرجاني، تح: محمد زغلول سلام وآخرين، مصر، 1376.
- أبو الخير ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، ج01، دار الكتب العربية، دط، مصر.
- أبو بكر الباقلائي، إعجاز القرآن، ج01، تح: أحمد صقر، دار المعارف، دط، مصر، 1997.
- أبو عبد الله بدر الدين بن محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء العلوم، ط01، بيروت، 1376هـ.
- أبو عمرو الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، تح: غانم القدوري الحمد، مركز التراث والمخطوطات، ط01، الكويت، 1994.
- أحمد بن عثمان المزيد، عادل بن عليّ الشدي، تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، إدارة الشؤون الديّنية، ط06، 2014.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي، دار وكتبة الهلال، دط.
- السيّد خضر، فواصل الآيات القرآنية، دراسة دلالية بلاغية، مكتبة الآداب، ط02، القاهرة، 2009.
- الطاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج01، الدار التونسية، دط، تونس، 1984.
- جبور عبد النور، المعجم الأدبيّ، دار العلم للملايين، ط02، بيروت، لبنان، 1974.
- جلال الدّين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل، المجلّد03، دط.
- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، المجلّد01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الدكتورة الوناس نصيرة... الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة-

- حسين شحاتة، محمد كرار، الوقف القرآني وأثره في الترجيح عند الحنفية، مؤسسة المختار، ط01، القاهرة، 2003.
- سعد بن عبد الرحمن ندا، مفهوم الأسماء والصفات، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الجزء 45، العبيكات للتعليم.
- سعيد بن علي بن وهب القحطاني، شرح أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، تح: عبد الله الجبرين، مطبعة سفير الرياض، الرياض.
- عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ، الرياض.
- عبد الفتاح لاشين، الفاصلة القرآنية، دار المريخ، دط، 1982.
- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، الأردن، 2000.
- محمد الحسن اوي، الفاصلة في القرآن، دار عمان، ط02، عمان، الأردن، 2000.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11.
- مقبولة علي مسلم الحصيبي، أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت، رسالة ماجستير، إشراف عبد الحفيظ بن إبراهيم البقري، قسم الدراسات العليا العربية، جامعة أمّ القرى، 2007.
- عباس حسن، إعجاز القرآن الكريم، دار الفرقان، دط، الأردن، 1991.

التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

د. نعماني آسيا، أستاذ محاضراً جامعة امحمد بوقرة بومرداس

البريد المهني: a.namani@univ-boumerdes.fr

مقدمة:

إن المتأمل في الكثير من المدونات البلاغية واللغوية يجد أنها نمت وتطورت في أحضان علوم القرآن، وأخص منها علم البلاغة بما أنها موضوع المقال، وبالنظر إلى الأدوات التي اشتغل عليها علماء علوم القرآن، فإنها أدوات لغوية بالدرجة الأولى فاستعملوا منها الأدوات النحوية والصرفية والبلاغية، قصد الوصول إلى مقصدهم سواء لغوي أو غير لغوي، بل إن علوم القرآن قدمت خدمة جليلة للبلاغة العربية، حين كانت ميدانا فسيحا للتطبيقات البلاغية وأخرجتها من المادة النظرية المتعلقة بمباحث البلاغة الثلاث علم البيان وعلم البديع وعلم المعاني، وأعطتها دفعة قوية إلى الأمام لتكون في صدارة العلوم اللغوية التي لا يتم فهم النص القرآني إلا بها.

إشكالية البحث:

وهذه المداخلة تعنى بالوقوف عند مواضع التطور والتجديد الحاصل في استخدام الأدوات البلاغية من خلال علوم القرآن المختلفة، وتطرح الإشكالية التالية: ماذا أضافت علوم القرآن للبلاغة العربية، وما مظاهر التجديد في البلاغة العربية التي ظهرت من خلال علوم القرآن؟ فمن خلال الاجابة عن هذه الإشكالية، يمكننا الوقوف على مدى تطبيق الأسس النظرية البلاغية وتطبيقاتها في مصنفات علوم القرآن، والتطور الحاصل في الدرس البلاغي انطلاقا من هذه المصنفات القرآنية.

وتندرج ضمنها أسئلة أخرى منها: ما هي أكثر علوم القرآن تأثيرا في البلاغة العربية؟، وكيف استثمرت البلاغة العربية مباحث علوم القرآن في تجديد مباحثها وموضوعاتها؟.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

الكلمات المفتاحية: علوم القرآن، البلاغة العربية، التجديد البلاغي، علم التفسير، الاعجاز القرآني.

وقبل البدء في عرض مضمون هذه المداخلة وجب الوقوف أولاً عند مفهوم علوم

القرآن

علوم القرآن: مركب إضافي مؤلف من كلمتين، العلوم والقرآن.

أما العلوم: فجمع علم والعلم مصدر علم يعلم، وهو مرادف للفهم والمعرفة واليقين، والجزم على الجملة، وبينهما فروق دقيقة، والعلم مصدر يصح إطلاقه على المفرد والجمع، فإن أريد الكثرة، جمع على علوم، ولهذا سميت المباحث القرآنية: علوم القرآن، لكثرتها وتشعب مسائلها، كما يقول الفقهاء في كتبهم، باب البيع، فإن أرادوا الكثرة قالوا باب البيوع¹.

أما القرآن: فهو مصدر قرأ، وجعل مصدراً للكلام المعجز المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، من باب إطلاق المصدر على مفعوله، فالقرآن على هذا يكون بمعنى مقروء، وهذا ما اختاره أكثر العلماء استناداً إلى موارد اللغو وقوانين الاشتقاق.²

أما تعريف علوم القرآن: كمركب إضافي فيقصد به طوائف المعارف المتصلة بالقرآن الكريم، فتشمل العلوم المتصلة بالقرآن الكريم ويقصد بها العلوم الشرعية من علم التفسير، والمحكم والمتشابه والمكي والمدني، وعلم القراءات القرآنية، وعلم أسباب النزول، وعلم القصص القرآني، وعلم الاعجاز القرآني، علم المناسبات بين الآيات، الوجوه والنظائر والفواصل، ولغات العرب في القرآن، والتصريف واختلاف الألفاظ، وعلم توجيه القراءات، والغريب، وقد أحصاها الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن³ وفاقت 47 علماً عنده وأشهر من كتب في علوم القرآن، الزركشي في البرهان والسيوطي في الانتقان في علوم القرآن⁴ وقد جعلها في 80 نوعاً ولعل أولها وأشرفها علم التفسير ذلك أنه على المفسر أن يكون ملماً بأكثرها ليكون قادراً ومؤهلاً لتفسير كتاب الله، فلا يكاد يخلو علم من هذه العلوم من أدوات بلاغية اعتمدها صاحبها في مصنفه، وسنعرض لبعض منها في هذه المداخلة.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

وقبل البد في عرض مظاهر التجديد نقف أولا عند مفهوم التجديد

مفهوم التجديد: جاء في لسان العرب التجديد لغة تصيير الشيء جديدا، يقال جد الشيء يجد واستجد، أي صار جديدا وهو خلاف القديم، ونقيض الخلق، والتجديد التحديث، يقال جدد فلان الشيء وأجده واستجده: أحدثه، والتجديد الإصلاح، يقال جدد البيت أصلحه.⁵

أما اصطلاحا نعني به مراجعة ألفاظ اللغة وتراكيبها وقواعدها، وطرائق استخدامها ومناهج تعليمها وتيسيرها والنهوض بها وتطويرها، فتجديدها ضرورة ملحة لأنها أداة التفكير ووعاء المعرفة.⁶

وبالنظر إلى نقاط التقاطع بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للتجديد نجد أن مفهوم التجديد البلاغي يتحدد في محاولة تلافي العيوب والجمود الذي ميز البلاغة العربية بعد التطور الذي عرفته في مختلف مراحلها، ومحاولة اكتشاف خصائص بلاغية جديدة تعبر عن سهولة التعبير والبلاغة والدقة في إيصال المعنى، ولا أنسب لذلك من كتب التفسير التي تعتبر ميدانا نشطا في ميدان التعبير القرآني، والذي من خلاله يمكن تطوير التفكير البلاغي وتسييل الضوء على نقاط وأساليب جديدة لم يسبق التطرق إليها، ففي كتب علوم القرآن الكثير من الكنوز المعرفية المتعلقة بعلم البلاغة، والتي تعتبر قراءة جديدة للبلاغة العربية خاصة في شقها التحليلي البعيد عن الجدال والطرح الفلسفي، وتقرير القواعد، فكتب علوم القرآن كانت مرتعا ومسرحا للشواهد البليغة والأساليب البديعة واللطائف العجيبة، فالمفسر مثلا أدرك جمال لغة القرآن، ومزاياها الفنية، وراح يربي ملكة الذوق الفصيح في ثنايا مصنفه، ولذا فإن علم التفسير هو أول علم من علوم القرآن جدد البلاغة العربية وسيعرض المقال تباعا لأكثر علوم القرآن تأثيرا وتجديدا في البلاغة العربية.

أولا علم التفسير:

التفسير لغة: مصدر فسر، أي بين ووضح، يقال فسرته تفسيراً، أي بينه ووضحه،

مأخوذ من الفسر أي البيان والكشف، وأكثر استعمال الفسر لبيان المعنى المعقول.⁷

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

أما اصطلاحاً: فهو العلم الذي يبحث في دلالة القرآن الكريم ومقاصده، عرفه الزركشي بقوله: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه⁸.

وعرفه ابن العثيمين بأنه بيان معاني القرآن الكريم⁹.

والملاحظ أن تعريف ابن العثيمين يلتقي مع التعريف اللغوي في معنى البيان والايضاح للمعنى، وبيان معاني القرآن الكريم لا يتم إلا بالأدوات النحوية والبلاغية والأحكام الفقهية، وبمعناها ما تعلق بالبلاغة في هذا الموضوع. ونوع التفسير مرتبط بالأدوات التي يشتغل عليها المفسر، فقد أثرت الأدوات اللغوية والبلاغية المدونات التفسيرية وأخص منها التفسير اللغوي لماله من خصوصية في هذا المقام، فكما يحسن أن يكون المفسر نحويًا لغويًا ملماً بجوانب اللغة كافة، يحسن أيضاً أن يكون بلاغياً ذواقاً للمعاني ومواضع الحسن والشرف فيها، ليحيط بجميع المعاني ويقف على اللطائف والفوائد التي تدل وتنعكس إمامه بالجانب البلاغي.

وتعد مدرسة التفسير البياني أكثر مدرسة بلاغية تفسيرية أثرت البلاغة العربية وشكلت محطة فارقة في مسارها، فبينما كانت البلاغة العربية تستند إلى أحكام نقدية وتوجيهية لها هي في نهاية القرن الثاني الهجري وعلى يد ثلة من المفسرين على رأسهم الزمخشري تشق لها طريقاً آخر وأصولاً جديدة، تستند إلى الإعجاز القرآني فتتبع كتب الإعجاز الواحدة تلو الأخرى، وكان المنشغل بالتفسير القرآني لا يستغني عن البلاغة العربية ليظهر موضع الحسن ويستخرج المعنى الكامن بين الحروف والآيات والسور، وها هو الزمخشري يقول مقراً بحاجة المفسر إلى علم البلاغة وهو البلاغي المفسر صاحب مدرسة التفسير البياني: " لا يدرك حقائق التفسير ولا طرائقه إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن الكريم، هما علم المعاني وعلم البيان، أخذنا من سائر العلوم بحظ، فارسنا في علم الاعراب، ذا دراية بأساليب النظم والنثر، فضلاً عن أن يكون، جامعاً بين ملكة الحفظ وملكة الدوق¹⁰..

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

ومن المحدثين نستند إلى كلام العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير إذ يرى: أن لعلي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير، لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز¹¹.

ولعل المزية التي قدمتها كتب التفسير للبلاغة العربية هي أنها كانت فضاء ملائما جدا لتطبيق تلك الاحكام البلاغية وتحليل التراكيب، وإبراز محاسن الصياغة ودلالاته وخصوصياته، والمنهج العلمي الصحيح مع الزمخشري والجرجاني.

ولعل المزية الثانية التي قدمتها كتب التفسير للبلاغة العربية هي السعة التأويلية والقدرة على القراءة والتأويل الواسعة كما عند فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير إذ يقول: وحيث عجزت الألفاظ بظاهر معناها عن تحديد الدلالة المناسبة، تطلب الأمر حضور المجاز، وحيث حضر المجاز هيمن التأويل¹². فالملاحظ أن التأويل عند الرازي مقترن بالمجاز وهو قسم من أقسام علم البيان.

ومن أمثلة التأويل عند الرازي تأويله للفظه وجه على اختلاف ورودها في القرآن الكريم، فتراه يمضي الفخر الرازي معززا العلاقة بين المضاف والمضاف إليه في بيان إضافة لفظه الوجه إلى اسمه العظيم الله في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أن يكون المراد منه ثم مرضاة الله، ونظيره قوله الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لُؤْجِهَ اللَّهِ﴾ يعني لرضوان الله، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني ما كان لرضا الله، ووجه الاستعارة أن من أراد الذهاب إلى إنسان فإنه لا يزال يقرب من وجهه وقدامه، فكذلك من يطلب مرضاة أحد فإنه لا يزال يقرب من مرضاته، فلهذا أسمى طلب الرضا بطلب وجهه، أن الوجه صلة كقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ويقول الناس هذا وجه الأمر لا يريدون به شيئا آخر غيره إنما يريدون به أنه من ههنا ينبغي أن يقصد هذا الأمر.¹³

والمزية الثالثة لعلم التفسير هو التحول من التفسير بالكلمة واللفظ، والانتقال من بلاغة الكلمة إلى بلاغة التركيب بالاعتماد على السياق الخارجي انطلاقا من أسباب النزول، فكانت فضاء كبيرا لتطبيق وتنويع الممارسات البلاغية، بعلمها كافة البيان، البديع، المعاني.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

علم أسباب النزول:

ويقصد بأسباب النزول العلم الذي يعنى بالبحث عن مكان أو زمان وقوع حادثة تحدثت عنها آية أو سورة، كخصوصية، أو سؤال حصل في الماضي أو سيحصل في المستقبل، وهكذا.¹⁴

فكان المفسر يعتمد في فهم النص القرآني، وما حول النص على أسباب النزول، وهذا عامل يستأنس به لمعرفة ما تكون العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية.

أما في بلاغة اللفظة أو الكلمة فانتقلت كتب التفسير من البحث في الدلالة اللغوية للكلمة وبلاغتها في السياق الواقعة فيه، وأيضا في مختلف استعمالاتها خارج السياق.

فكان لا بد من إخضاع النص المفسر إلى دراسة سياقية مقامية خارجية وداخلية لتحليله والتعرف على بنيته مبنى ومعنى.

والمقصود بالسياق المقامي عامة جملة العناصر المكونة للكلام، فهو خارجي لأنه يستعين بالقرائن والمؤثرات الخارجية، التي أنتجت الخطاب زمانا ومكانا ومناسبة، إذ أن القرآن كل مركب، تجتمع فيه العناصر اللغوية مع العناصر غير اللغوية، التي يوفرها السياق الخارجي بما في ذلك الظرف الزماني والمكاني للخطاب، وعليه يمكن القول أنه لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، فالسياق الخارجي تكمن أهميته في أنه يمنح الخطاب امتدادا في الواقع الذي يصوره¹⁵، "وافتقاد المقام يؤدي إلى ورود مفردات متناثرة لا تمثل مقالا بالمعنى اللغوي".¹⁶

ولعل المفسرين إذ احتكموا للنص القرآني ولأسباب النزول لمعرفة صلاحية القواعد البلاغية إنما فعلوا ذلك لمعرفة قواعد تسوية الصنعة النحوية والبلاغية ذلك أن القرآن الكريم هو الذروة العليا في أصلاته وإعجاز بيانه، فكانت الخدمة التي قدموها للبلاغة العربية خدمة لا تضاهيها خدمة من أي علم آخر.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

كما أن التنوع في استعمال المناهج التفسيرية بالانتقال من المنهج الاستقرائي الذي يتقصى مواضع الكلمة والمفردة في النص القرآني، ويعرض لبلاغتها في كل موضع، والمنهج السياقي أيضا بنوعيه السياق الداخلي والخارجي أيضا كانا عاملين من عوامل تطور وتجديد البلاغة العربية. ونمثل لذلك ما ساقه علماء التفسير في تفسير آيات من القرآن الكريم موجّهة للرسول صلى الله عليه وسلم في مقام العتاب.

إنّ معاتبة الله لرسله بيان لعباده أنّه لا يجامل في الحق أحدا، ولو كان من أعز الرسل عليه وأكرمهم لديه، فتتجلى العدالة الإلهية المطلقة لجميع الخلق. ونجد في موضع معاتبة الرسول ﷺ رقة وحنانا لإلهيا، ينم عن حبه وحرصه على نقاته من كل شائبة يمكن أن تشوبه، وتطهيرا له وصونا من أن يتعرض له أحد بلسانه، أو يقدرح في أخلاقه، وجاء العتاب في عدة مواضع.

الموضع الأول: قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزِيّ (3) أَوْ يَذْكَرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزِيّ (7) وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يُسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)﴾ سورة عبس. والمراد بالأعمى هو ابن أم مكتوم، وقد عبر عنه بالأعمى «ترقيقا للنبي ﷺ ليكون العتاب ملحوظا فيه أنّه لما كان صاحب ضرارة، فهو أجدر بالعناية به، لأنّ مثله يكون سريعا إلى انكسار خاطره»¹⁷

وقد صدر العتاب بصيغة الغائب ليكون أهون على نفسه ﷺ. أمّا إعراضه فلم يكن إلّا رجاء إيمان ذلك النفر من قريش، وليس تكبرا منه ﷺ وحاشاه من ذلك، وهو الذي بعث متمما لمكارم الأخلاق.

الموضع الثاني: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لِهَمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ (43) لَا يَسْتَنْدُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّمَا يَسْتَنْدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ (45)﴾ سورة التوبة. وهذا عتاب تल्पف مسبوق بعفو. وفي

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

قوله "لم أذنت لهم" أي في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ولا نية صادقة، أو في القعود لما اعتلوا به من أعدار¹⁸.

وهم فريق من المنافقين الذين استأذنوا الرسول في التخلف عن الغزوة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي سلول، وقدّموا أعدار كاذبة وأذن النبي ﷺ لمن استأذن منهم حملاً للناس على الصدق، إذا كان ظاهر حالهم الإيمان¹⁹.

الموضع الثالث:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (69) الأنفال.

ورد في سبب نزول الآية "أن الرسول ﷺ استشار أبا بكر في أسرى بدر فقال: قومك وعشيرتك خلّ سبيلهم، واستشار عمر فقال: اقتلهم. ففداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض»... إلى قوله «فكلوا مما غنتم حلالاً طيباً»²⁰.

وهذه الآية نزلت عقب ما أنكره الله تعالى على الصحابة حينما أسروا المشركين في بدر ولم يقتلوهم طمعا في الفداء ثم اشتد العتاب في قوله: لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم²¹. على أن رسول الله ﷺ اختار الفداء لما فيه من يسر ورحمة ورأفة بالمسلمين خاصة وأتهم كانوا في أمس الحاجة إلى المال «والكلام موجه للذين أشاروا بالفداء وليس لرسول ﷺ في ذلك حظ»²².

ويرى الطاهر بن عاشور أن الرسول ﷺ غير معاتب لأنه إنما أخذ برأي الجمهور. أما القرطبي فقد أورد في تفسيره عن عمر بن ميمون قوله «اثنان فعلمهما النبي ﷺ ولم يؤمر بهما؛ إذنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه، ولم يكن له أن يمضي في شيء إلا بوجي، وأخذه من الأسارى فدية فعاتبه الله»²³.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيَّ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (23) الكهف.

حكاية عن القوم الذين سألوا النبي ﷺ عن أهل الكهف، وعن أعلم أهل الأرض، وعن ذي القرنين، قال ﷺ سأجيبكم عنها غدا، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي خمسة عشر يوما، وفي رواية أخرى أربعين يوما²⁴ فكان تأخير الوحي عتابا رمزيا من الله لرسوله ﷺ²⁵

وقد جمعت هذه الآية ثلاث كرامات للنبي ﷺ هي «أن الله تعالى أجاب سؤاله فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف عادة الله تعالى مع المكابرين، وأنه علمه علما عظيما من أدب النبوة، وأنه ما علمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤاله استئناسا لنفسه ألا يبادره بالنبي عن ذلك قبل أن يجيبه»²⁶.

ويظهر من السياقات التي جاءت في مقام العتاب أن العفو عنه ﷺ ومراعاة لحاله، ومقامه عند خالقه، أبرز سمات المواضع التي عاتبه فيها. ليعلم كل إنسان أن جميع أعمال الرسول ﷺ التي عاتبه الله فيها قد عفا الله عنه فيها مسبقا، ذلك أن الرسول يجتهد فيها لله، ولدينه، وللمسلمين.

ومما ذكر سابقا يمكن القول أن لغة القرآن وبلاغته وأسباب النزول تفاعلت وكشفت عن مكانة ومنزلة المخاطب لدى المتكلم، وبيّنت أنه محور الاهتمام مع أن مكانته محفوظة وعظمته معروفة عند الغريب والبعيد من أهل الرأي والمعرفة، من المسلمين ومن غير المسلمين الذي أقروا له أنه على رأس عظماء الإنسانية.

فمن أهم الأدوات التي اشتغل بها علماء علوم القرآن وكانت مدعاة إلى التجديد البلاغي هو التعويل على أسباب النزول أو السياق الخارجي في تحديد دلالة الآيات والسور، وتكمن أهمية هذا العلم في "إشارات كاشفة في فهم بعض الآيات فضلا عن قيمتها البالغة في تقديم تصور دقيق، فيمكن القول هنا أن فكرة استعمال السياق في الوصول إلى الدلالة حتى وإن كانت من أهم مباحث البلاغة لاحقا إلا أنها نمت وتطورت في أحضان علوم القرآن، وبالعودة إلى أبسط تعريف للبلاغة ألا وهو مطابقة مقتضى الحال، وهو ما قصد به علماءنا الأوائل بالسياق أو المقام الخارجي، إلا أن أوسع مجالات التطبيق عليه كانت من خلال مصنفات علوم القرآن، التي كانت فضاء رحبا لذلك.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

ولعل المنحى الذي سار عليه علم التفسير بداية بلاغة النصوص المفردة، والوصول إلى المعرفة الخصائص العامة للتراكيب في مرحلة لاحقة أيضا مؤثر وعامل من عوامل التطور والتجديد البلاغي، وصولا إلى التصوير الفني للقرآن الكريم على يد سيد قطب، الذي نحا بالبلاغة منحى فنيا، جماليا استمد معالمة من الخصائص التعبيرية والتصويرية للقرآن الكريم.

وهو من نماذج التفسير البياني للقرآن الكريم فتفسير سيد قطب يعتبر مجددا في علم التفسير ذلك أنه اعتمد في تفسيره على التصوير الفني يقول في تعريفه: "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن الكريم، فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة وإذ الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذ النموذج الانساني شاخص حي، وإذ الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل"²⁷.

فالتجديد البلاغي في علم التفسير تم في العصر الحديث من خلال الانتقال من بلاغة الجملة أو التركيب إلى بلاغة النص، فانتقل فيه المفسرون من الجزء إلى الكل يقول سيد قطب في هذا الصدد: "لقد كان القرآن جميلا في نفسي، نعم ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق، أما اليوم فهو عندي جملة واحدة، تقول على قاعدة فيها من التناسق العجيبة ما لم أكن أحلم به من قبل، وما لا أظن أحدا تصوره"²⁸.

وما يستفاد من هذا الكلام أن السيد قطب طور نظرية بلاغية في التفسير القرآني حول بلاغة التصوير الفني: "فهي نظرية جديدة من حيث شمولها واتساقها وتطبيقاتها على القرآن بكامله، وقديمة من حيث مكوناتها الأولية وجزئياتها، فكأنما القدماء أعطوا سيذا البذرة فزرعها وسقاها ونماها، وهذا هو التجديد لأن التجديد لا يكون من فراغ، وإنما ينطلق من قواعد وأسس يتم البناء عليها، ويأتي إكمال البناء بعد ذلك"²⁹.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

ومن نماذج التصوير الفني في القرآن الكريم في كتاب سيد قطب:

أما تعبير القرآن الذي يحتوي على هذه الخصيصة، فقال ربّ العزة: " قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا" سورة مريم الآية 4، عبرت هذه الآية أن زكريا يشكو إلى ربه وهن العظم. وحين يهن العظم يكون الجسم كله قد وهن. فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه. ويشكو إليه اشتعال الرأس شيبا. والتعبير المصور الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد. ووهن العظم واشتعال الرأس شيبا كالهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يعانیه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه³⁰.... وهذا نموذج عن دقة البلاغة والابداع في الآية وعن قراءة سيد قطب للبلاغة القرآنية وقدرتها التصويرية.

والآية القرآنية التي تتضمن فيها هذه الخصيصة الثانية – التجسيم الفني – وهي كقوله تعالى: ولا يغتب بعضكم بعضا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه" الحجرات الآية 12. عبرت هذه الآية عن المعنوية المحسوسة وهي نهي عن الغيبة بين الناس، أي "لا يغتب بعضكم بعضا، ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه.. ميتا، ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب! ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة استجاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيء أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة." ³¹

فيظهر من خلال الأمثلة السابقة أن علم البلاغة بأقسامه الثلاث يلعب دورا هاما في تبيان مقاصد الآيات، ويظهر أن جلها متعلق بمعرفة العربية وأسرارها فذهب السمين الحلبي إلى أن أوثق العلوم بكتاب الله بعد تجويد ألفاظه بالتلاوة خمسة علوم، وهي علم الاعراب، وعلم التصريف، وعلم اللغة وعلم المعاني وعلم البيان³²

وملامح التجديد البلاغي من خلال علوم القرآن هو كون الأدوات اللغوية ككل كانت تجتمع في دراسة القرآن الكريم،" فالدراسة اللغوية تتم من خلال موقف القرآن الكريم من

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

القرائن اللفظية الدالة على المعنى النحوي، وهي الاعراب والبنية والربط والترتبة والتضام وقريئة السياق، وهي كبرى القرائن النحوية ثم ما يكون أحيانا في التركيب القرآني من الترخص في إحدى هذه القرائن عند أمن اللبس، وأما الدراسة البلاغية فتبدأ بالنظر في استعمال الأسلوب القرآني للقيم الصوتية كالإيقاع والحكاية والفاصلة والمناسبة الصوتية، وطلب الخفة وحسن التأليف وظواهر التلاوة والترتيل³³.

فكل هذه الأدوات قلما تجتمع في سياق واحد ولكنها كثيرا ما اجتمعت في النص القرآني، وكانت مدعاة لأن يكتب فيها علماؤنا الكثير.

علم الإعجاز: من علوم القرآن التي لها صلة وثيقة بالبلاغة العربية، فالقرآن الكريم هو النص المعجز بنظمه ومفرداته ومعانيه وجمله، وهو معجز بأدائه وترتيب حروفه وبنبراتها ونغماتها، وجرسها وهو معجز بتشريعه وأخباره، وتأثيره وغير ذلك، فالمسألة التي كانت محور قضية الإعجاز هي لغته، وبالتالي فهي بلاغية فقد كان لهذا العلم دور كبير وأساسي في تأسيس علم المعاني، على يد عبد القاهر الجرجاني، والوقوف على اللطائف والنكت القرآنية ودراسة المسائل النحوية من وجهة بلاغية، كما لا ينكر أهمية كتب الإعجاز السابقة لدلائل الإعجاز في هذا المقام- الرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار الذين أثروا علم الإعجاز وأسسوا مباحثه وأصوله، ونظروا له قبل أن يأتي الجرجاني ويؤسس نظرية النظم منطلقا مما حققه سابقوه في هذا الصدد.

ولا يختلف اثنان أن لعلم الإعجاز أثر واضح في تطور البلاغة العربية، وقد بلغت أوج تطورها على يد عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، والذي يعد أحد مباحث علوم القرآن، المتفحص المصنفات البلاغية بعد عبد القاهر الجرجاني يلاحظ ذلك الجمود والضعف الذي أصاب البلاغة العربية بعد عبد القاهر الجرجاني، إذ تحولت من علم له روح ومباحث وأصول إلى علم تعليمي جاف جامد فكان أثر علم الإعجاز كبيرا في البلاغة العربية.

علم التوجيه الصوتي: أو ما يعرف بالبلاغة الصوتية في القرآن الكريم، وهو ملمح آخر من ملامح التطور الحاصل في البلاغة العربية الذي مرده علوم القرآن، ويقصد به وقوف علماء القرآن على القيم الصوتية والفاصلة والمناسبة الصوتية وطلب الخفة وحسن

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

التأليف والايقاع القرآني، وظواهر أخرى متعلقة بالإعجاز الصوتي والتي لم يكن التنظير لها ممكنا لولا أنها وقعت في القرآن الكريم، إذ لم يكتف علماءنا الأوائل بالوقوف على مباحث البلاغة التقليدية إنما كانوا سببا في تشعب أدواتها وآلياتها.

ومن أمثلة البلاغة الصوتية قوله تعالى: "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ" القمر 19، وقوله تعالى: "رِيحًا صَرْصَرًا"، أي عاتية على خزائها، فخرجت من غير بغير مقدار، أو على غير عاد فما قدروا على أن يستتروا منها، ووصفت بذلك لشدة عصفها.³⁴

وقال ابن عاشور: "الصرصر: الرياح الشديدة، يكون لها صوت كالصرير"³⁵. ففي لفظة صرصر أي صيغة " فعلل" تكرار لصوت الصاد والراء، وفي الصاد صفير، وفي الراء تكرار انفجاري، وذلك يوحي بقوة الريح وضرواتها.

ومن ذلك أيضا مناسبة حرف الصاد في قوله تعالى: " فإذا جاءت الصاخة" سورة عبس، فصوت الصاد في لفظ الصاخة ذو جرس شديد، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخبا ملجا، وهو يمهد لهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه". وهو مشهد الانسان وهو يفر من أقرب الناس إليه، من أمه وأبيه وصاحبته وأخيه.

كما أنهم تجاوزوا الحديث عن بلاغة التركيب إلى بلاغة النص، ففي البعد النصي لاحظ المفسرون تكامل النص وإفصاح بعضه عن بعض وأثر بنيته في فهمه، وكيفية صياغة أساليبه وخطابه، وفي كل ذلك مقترنا بأسباب نزوله، فضلا عن قوانين العربية ومفرداتها.

ولعل ظهور مباحث البلاغة الصوتية واكتمال ملامحها وتحديد أنواعها ونقصدها به البلاغة الصوتية في اللفظة المفردة ودورها في اكساب النص ملامحه الصوتية وفيها يهتم المحلل بخصائص الأصوات من حيث المخرج وشدة ورخاوة وازدواج وسيولة، ومن حيث الصفات جهرا وهمسا وتفخيما وترقيقا، ويرتبط بهذا كله من وضوح صوتي أو خفاء وأخراهما كلي وممتد وهو ما يضم أبواب البديع الصوتي مثل السجع والجناس.

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

وقد قلنا سابقاً أن سيد قطب قد تحول من الاهتمام ببلاغة الكلمة إلى بلاغة الجملة فقد كان البلاغيون الأوائل ينظرون إلى بلاغة الكلمة وتعليل فصاحتها وبلاغتها في الموضوع الذي وردت فيه، فيأتي التعليل منفرداً، دون التحول في الحديث إلى الخصائص العامة للنص القرآني موضع التفسير، فكان من الضروري الوصول إلى منهج جديد ووضع أسسه للوصول إلى ما هو أكبر من اللفظة والتركيب، فيما يتعلق ببلاغة النص القرآني، غير أن هذا لا يعني أنه لم تكن محاولة قراءة للنص ككل في عدة مواضع عند الرازي مثلاً أو عند الجرجاني، ولعل أول تفسير سار على هذا المنوال هو تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب، فتراه ينحى بتفسيره منحاً جمالياً ويستمد خصائصه التعبيرية والتصويرية من القرآن الكريم. أما فيما يتعلق بفهم القرآن الكريم، "فلا يستقيم فهم القرآن من غير الأخذ بالاعتبار البعدين النصي واللغوي، ففي البعد النصي لحظ تكامل النص، وإفصاح بعضه عن بعض، وأثر بنيته في فهمه، وكيفية صياغة أساليبه وخطابه وفي البعد اللغوي ينبغي لحظ لغة عصره"³⁶.

أما فيما يتعلق بالفاصلة القرآنية فقد كان لها نصيب كبير من الاهتمام عند البلاغيين والمفسرين وقد اعتنوا بها على حد سواء لأن لها أثر في بلاغة النص القرآني، وقد وقفوا على كثير من الأسرار واللطائف من خلال الفاصلة القرآنية التي جاء بها، وكذا الحذف الجائز مراعاة للفاصلة القرآنية، ورعاية الفاصلة القرآنية في مواضع والخروج عنها في مواضع أخرى، ولا بد أن ذلك كله مرتبط بسياق الآية، وسياق السورة، وسياق النزول، ليتم الوصول إلى الدلالة البلاغية المقصودة من الظاهرة المراد تفسيرها.

إن التجديد البلاغي الذي يقصده هذا المقال يتلخص في الطرح الذي سلكه المفسرون والذي يمس مباحث البلاغة العربية، ولا نعني بذلك أن البلاغة كانت في مرحلة الجمود والانحطاط وإنما ما وثقه علماء علوم القرآن في كتبهم يعتبر قراءة مختلفة لما وضعه وأسس له علماء البلاغة، وما يؤكد ذلك هو أن الكثير من المباحث البلاغية خاصة ما تعلق منها بعلم المعاني طرحت أول ما طرحت في أحضان القرآن الكريم، فالخدمة التي قدمتها علوم القرآن للبلاغة العربية لا يمكن إنكارها لأنها كانت مجالاً فسيحاً للتطبيق، ومعرفة مدى

د. نعماني آسيا... التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن.

صحة ما قدمه علماء البلاغة في الجانب النظري بل فاقت ما جاؤوا به في كثير من المواضيع، فمصنفات علوم القرآن كانت تربي ملكة وتنهي ذوقا وتصنع بليغا فخدمت بذلك البلاغة العربية خدمة جليلة.

1 - ينظر الزرقاني، مناهل العرفان من علوم القرآن، ط عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، دت، ص12-28.

2 - ابن منظور، لسان العرب، مادة قرأ.

3 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل، دار التراث، القاهرة، ط3، 1984، ص

4 - السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تح مركز الدراسات، مجمع الملك فهد، د ط، 1426.

5 - ابن منظور، لسان العرب، مادة جدد.

6 - ا زكي نجيب محمود، تجديد الفكر البلاغي، ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة، 2004، ص205، 223، 221.

7 - ابن منظور، لسان العرب، مادة فسر

8 - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج1، ص13.

9 - أصول التفسير، ابن العثيمين، ص23.

10 - الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3، 1987، المقدمة، ج1، ص96.

11 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص19.

12 - الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، ص26، ص230.

13 - الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، ج4، ص22.

14 - عبد الرحمان حسين، أسباب النزول، ص18، 20.

15 - جمعان عبد الكريم، مشكلات النص، ص405.

16 - ينظر محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص308.

17 - الطاهر بن عاشور، التحرير، ج30، ص104.

18 - ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص227.

19 - ينظر الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج10، ص210.

20 - الواحدي، أسباب النزول، ص136.

-
- 21 - ينظر عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص 212.
- 22 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 10، ص 74.
- 23 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 10، ص 227.
- 24 - ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ص 109.
- 25 - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 15، ص 295.
- 26 - ينظر نفسه، ج 15، ص 296.
- 27 - سيد قطب، التصوير الفني، ص 36.
- 28 - سيد قطب، التصوير الفني، ص 36.
- 29 - التجديد في منهجية التفسير بين الزمخشري وسيد قطب، ص 59.
- 30 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق بيروت، ط 1، 1972، ص 2302.
- 31 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق بيروت، { 6، ص 3347.
- 32 - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط 1، 1986، ج 1، ص 4.
- 33 - التطور والتجديد في الدرس اللغوي والبلاغي للقرآن الكريم، ص 42.
- 34 - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 8، ص 318.
- 35 - ابن عاشور، التحرير والتنوير، كج 29، ص 116.
- 36 - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط 22، 1994، ج 6، ص 3884.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الزرقاني، مناهل العرفان من علوم القرآن، طبعة عيسى البابلي الحلبي، القاهرة، الطبعة 3.
2. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة 3، 1414 هـ.
3. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل، دار التراث، القاهرة، ط3، 1984 م.
4. السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تح مركز الدراسات، مجمع الملك فهد، د ط، 1426.
5. زكي نجيب محمود، تجديد الفكر البلاغي، ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة، 2004.
6. محمد بن صالح العثيمين، أصول في التفسير، المكتبة الإسلامية، الطبعة الأولى، 2001 م.
7. الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3، 1987.
8. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م.
9. أبو عبد الله محمد الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة 3، 1420 هـ.
10. جمعان عبد الكريم، مشكلات النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009.
11. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.
12. أبو عبد الله محمد بن احمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، الطبعة 2، 1484 هـ، 1964 م.
13. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب النزول، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة 2، 1412 هـ، 1992 م.

14. عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير القرآني صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، 1983م.

15. سيد قطب، التصوير الفني، دار الشروق، القاهرة، الطبعة 10، 1988م.

16. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق بيروت، الطبعة 1، 1972.

17. الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تح أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط1، 1986.

18. التطور والتجديد في الدرس اللغوي والبلاغي للقرآن الكريم،

19. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، 2000م.

جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

عبدالله وايني

أستاذ محاضر "أ"

جامعة غرداية الجزائر

البريد: ouaini.abdallah@univ-ghardaia.dz

المحور: إسهامات علوم القرآن في تأصيل الدرس البلاغي العربي.

ملخص المداخلة:

يعد الإمام السيوطي من العلماء الأعلام الأفاضال الذين قدموا خدمة كبيرة للقرآن الكريم، واللسان العربي ذلك أن الرجل كرس حياته للذود عن كتاب الله تعالى وبيان مصدره الرباني، حيث صنف الكثير من المصنفات التي لها علاقة بالقرآن وعلومه المختلفة، منها كتاب الإتقان في علوم القرآن الذي يعد من أهم ما صنف في هذا الحقل، وصنف في علوم اللغة ومختلف المجالات، فهو العالم الموسوعي الذي ولج شتى العلوم بتصانيفه ومصنفاته، ولعلي في هذا الورقة البحثية سأحاول الحديث عن جهود الرجل في الدرس البلاغي، وذلك من خلال ما بث من مباحث لها علاقة بهذا الدرس في كتابه معترك الأقران في إعجاز القرآن، وذلك بالاختصار على جهوده التي لها علاقة بالبلاغة العربية من خلال طرح الظواهر البلاغية وتحليلها وتقسيمها.

الكلمات المفتاحية: الدرس البلاغي، السيوطي، معترك الأقران.

A summary of the statement is made by the Saudi Imam, who has provided a great service to the Holy Koran and the Arabic tongue. The man devoted his life to defending the Book of God and its divine source. He has classified many of the works related to the Koran and its various sciences, including the Book of Excellence in Koranic Sciences, which is one of the most important items in this field and which is classified

in the linguistic sciences and in various fields. He is the encyclopedia of the sea of various sciences by its classification and classification. In this paper, I may wish to try to talk about the efforts of the man in the rhetorical study.

Keywords: rhetorical lesson, sociology, peer retreat.

مقدمة:

ساهم الكثير من العلماء في مسألة الإعجاز القرآني؛ هذه المسألة التي كانت تعد في تقديرهم من أهم المسائل التي ينبغي إثباتها حول هذا النص ذي المكانة العظيمة، لذلك بذلوا قصارى جهدهم في إثبات وجوه إعجازه؛ فهذا أثبت وجه إعجازه بما ينطوي عليه من بيان وفصاحة وبلاغة، وذاك بما فيه من أخبار الأمم السابقة، وآخر بما فيه من الإخبار بالأمور الغيبية... وهكذا، والإمام السيوطي واحد من هؤلاء العلماء الذين بحثوا في وجوه إعجازه؛ هذا الأخير الذي يُعدّ الإمام من أحد أبرز علماء المسلمين في عصره، فقد كان عالماً موسوعياً حيث برز في مختلف العلوم الإسلامية، ومن مجالات اهتمامه العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة هذه الأخيرة التي سنتحدث عنها في هذه الورقة البحثية الموسومة بـ جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال كتابه معترك الأقران، وذلك بالوقوف على جهود الرجل في هذا الدرس وبصمته في هذا المضمون، ونقف على ذلك من حديثه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد تحدث عن مسائل تتعلق بعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع).

وقبل الحديث عن كلام الرجل وجهوده في الدرس البلاغي لا بأس أن نقف وقفة مختصرة نذكر فيها بعضاً من سيرة الرجل وترجمته.

- جلال الدين السيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر المصري، الشهير بالسيوطي، ويقال: الأسيوطي؛ الشيخ الإمام العلامة المتفنن المصنف شيخ الإسلام، جلال الدين بن الإمام كمال الدين بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد بن خليل بن الهمام كان مولده في رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وتوفي في: 09 جمادى الآخرة، سنة (910هـ)، والمشهور أنه مات رحمه الله في سحر ليلة الجمعة 19 جمادى الأولى سنة (911هـ)، وكان مرضه سبعة

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

أيام بورم شديد في ذراعه اليسرى؛ فقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر
وثمانية عشرة يوماً.

وكان له مشهد عظيم، ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة، وصُلي عليه صلاة
الغائب ب(الجامع الأموي) عقب الجمعة سنة: إحدى عشرة وتسعمائة¹.

طلب العلم على يد علماء، وشيوخ كان لهم باع في عصره، وقد خصص معجماً كبيراً
ذكر فيه الشيوخ الذين تلقى عنهم أو أجاز منهم، وبلغوا نحو ستمائة نفس² ومن هؤلاء:
شهاب الدين الشارمساخي (ت865هـ)، وعلم الدين البلقيني (ت868هـ)، وشرف الدين
المنأوي (ت871هـ)، وتقي الدين الشمي الحنفي (ت872هـ)³، ومحيي الدين الكافيي
(ت879هـ) وسيف الدين الحنفي (ت881هـ)⁴، وغيرهم من العلماء.

- أما العلوم التي تبحر فيها فقد قال في حسن المحاضرة: (رُزقت التبخر في سبعة
علوم: التفسير والحديث والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ على طريقة العرب
والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة... ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه،
والجدل، والتصريف، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض، ودونها في القراءات، ولم أخذها

¹ - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. نجم الدين محمد بن محمد الغزي. وضع حواشيه: خليل
المنصور. منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ط1 (1418هـ-1997م).
ج1. ص231/232.

² - الأشباه والنظائر في النحو. جلال الدين السيوطي. تخ: عبد الآله نهان. مطبوعات مجمع اللغة العربية
بدمشق. (د.ط.) (د.ت). ج1. ص12.

³ - كثيراً ممن ترجموا للسيوطي عند ذكر شيوخه يذكرون من شيوخه تقي الدين الشبلي الحنفي وهو في
الحقيقة تقي الدين الشُّمِّي الحنفي وقد ورد هذا التصحيح في حسن المحاضرة، وليس هناك رجل من
طبقة شيوخ السيوطي من الذين ترجم لهم هو أو ترجم لهم السخاوي بهذا الاسم. ينظر الأشباه
والنظائر. 1/15.

⁴ - ينظر حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي. تخ: محمد أبو
الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي. ط1 (1387هـ-1967م). ج1. ص336-338. والأشباه
والنظائر. 1/15.

عبدالله وايني... ————— جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

عن شيخ ودونها الطب، وأما علم الحساب فهو أعسرُ شيء عليّ، وأبعده عن ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنّما أحاول جبلاً أحملة¹.

- جهود السيوطي في علم المعاني: تحدث السيوطي في كتابه معترك الأقران عن جملة من المواضيع التي تدخل تحت مسمى علم المعاني في مواطن متفرقة غير مرتبة في كتابه، ولم يشير إلى المصطلح مصطلح علم المعاني مباشرة، وإنما ذكر هذه المواضيع التي لها علاقة به ومنها: الخبر والإنشاء، والإيجاز والإطناب، والتقديم والتأخير، والقصر والحصر.

1- حديثه عن الخبر والإنشاء: فقد تكلم عنهما في الوجه الثامن والعشرين من وجوه إعجازه، وذكر أن كافة أهل البيان يجمعون على أن الكلام ينحصر فيهما وليس لدهيما قسيم ثالث، إلا ما ورد عن بعضهم من فصل الطلب عن الإنشاء والتحقيق أنه داخل في الإنشاء. يقول في ذلك: (وأهل البيان قاطبة على انحصار الكلام فيهما، وأنه ليس له قسم ثالث. وادعى قوم انقسامه إلى خبر وطلب وإنشاء، قالوا: لأن الكلام إما أن يحتمل التصديق والتكذيب أم لا: الأول الخبر، والثاني إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو الطلب).²، وقد أورد تعريفهما نقلا عن بعض العلماء، ولم يورد تعريفا لهما خاصا به، حيث قال في ذلك: " وقد اختلف الناس في حد الخبر والإنشاء³، فقيل: لا يحد لعسره. وقيل: لأنه ضروري، لأن الإنسان يفرق بين الإنشاء والخبر ضرورة، ورجّحه الإمام في

¹ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي. تج: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية الباي الحلبي. ط1 (1387هـ-1967م). ج1. ص338، ومعترك الأقران. جلال الدين السيوطي. ضبط أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت لبنان. ط (1408هـ-1988م). ج1 المقدمة. هـ.و.

² - معترك الأقران. جلال الدين السيوطي. تج: علي محمد الجاوي. دار الفكر العربي. (د.ط. د.ت). ج1 ص420.

³ - اختلفوا في هذا الأمر وانقسموا إلى فرقتين: فرقة تضع لهما تعريفا، وفرقة تغنيهما عن التعريف يقول السكاكي (ت626هـ): " اعلم أن المعتنين بشأهما فرقتان: فرقة توجههما على التعريف، وفرقة تغنيهما عن ذلك، واختيارنا قول هؤلاء. أما في الخبر فلأن كل أحد من العقلاء ممن لم يمارس الحدود والرسوم بل الصغار الذين لهما أدنى تمييز يعرفون الصادق والكاذب بدليل أنهم يصدقون أبدا في مقام التصديق ويكذبون أبدا في مقام التكذيب" ينظر مفتاح العلوم. لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي. تعليق نعيم زرزور. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.. ط1. سنة"1403هـ - 1983م". ص164

عبدالله وايني... ————— جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

المحصول¹. والأكثر على حدّه، فقال القاضي أبو بكر والمعتزلة: الخبر الذي يدخله الصدق والكذب، فأورد عليه خبر الله تعالى، فإنه لا يكون إلا صادقاً، أجاب القاضي بأنه يصح دخوله لغة. وقيل: الذي يدخله التصديق والتكذيب، وهو سالم من الإيراد المذكور. وقال أبو الحسن البصري: كلام يفيد بنفسه نسبة فأورد عليه نحو: قم، فإنه يدخل في الحد، لأن القيام منسوب والطلب منسوب، وقال بعض المتأخرين: الإنشاء ما يحصل مدلوله في الخارج بالكلام، والخبر²

فنلاحظ أن الرجل اكتفى في تعريف الخبر بذكر حدود من سبقه من العلماء في حد الخبر، ولم يورد تعريفاً خاصاً به له وكل عمله في هذا الموضوع هو جمعه لما ذكره السابقون، أما الإنشاء فقد ذكر له حداً واحداً لبعض المتأخرين على حد قوله، فهو بخلاف الخبر إذ يحصل مدلوله في الخارج بالكلام والنطق ودون ذلك لا يحصل مدلوله، مثل قول السيد للعبد "أنت حر"، وقول الزوج لزوجته: "أنت طالق"، فمدلولها من حصول الحرية ووقوع الطلاق يحصل بها لا بغيرها، عكس الخبر الذي يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به، مثل قولن: "العلم نافع" فصفة النفع للعلم ثابتة بذكر ذلك، أو بعدم ذكره.

2- حديثه عن الإيجاز والإطناب: وهما من المواضيع التي تدخل تحت علم المعاني والسيوطي لم يشر لذلك، ولكنه عداهم من ضروب البلاغة التي بها يتحقق الإعجاز، ويعدان في تقديره من أعظم أنواع البلاغة؛ لأنهما يسهمان في تأدية المعنى بلفظ أقل أو أكثر بحسب ما يستدعيه المقام، وما يلائمه، فيستعمل الإيجاز عند إرادة الاختصار، وهو مما يستحسن في الكلام، وجوامع الكلم الذي هو الكلمات المختصرة الدالة على معان كثيرة، ويستعمل الإطناب للتأكيد وتوضيح المعنى المراد، كان ذلك بتكرار الكلمة أو زيادة حروف أو تأكيد الكلمة بمصدرها، كقوله تعالى: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) [الطور: 9-10]، وقال تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: 164].

¹ - يقصد السيوطي المحصول في علم أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة "606هـ - 1209م".

² - المصدر نفسه. ج. 1. ص 421.

وقد تعرض لمفهوم الإيجاز والإطناب وتعرض لاختلاف العلماء هل بينهما واسطة أو لا؟ حيث ذهب السكاكي وجماعة إلى أن بينهما واسطة وهي المساواة إلا أنهم جعلوها غير محمودة ولا مذمومة، لأنهم فسروها بالمتعارف من كلام أوساط الناس الذين ليسوا في رتبة البلاغة، وفسروا الإيجاز بأداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف. والإطناب أداؤه بأكثر منها لكون المقام حقيقاً بالبسط، وذهب آخرون ومنهم ابن الأثير إلى أنه ليس هناك واسطة بينهما؛ فالإيجاز التعبير عن المراد بلفظ غير زائد، والإطناب بلفظ أزيد.

والسيوطي في فاتحة الكلام عن الإيجاز والإطناب لم يتعرض للمساواة وذلك لأنه يرى بأن النوعين ليس بينهما واسطة- المساواة- لأنها لم ترد في القرآن الكريم والرجل يؤصل لمسألة الإعجاز في القرآن الكريم، وما دامت غير واردة فيه فلم يحفل بها، وقد قال في الإتقان والمعتك: فإن قلت: عدم ذكر المساواة في الترجمة لماذا؟ هل هو لرجحان نفيها، أو عدم قبولها، أو لأمر غير ذلك؟ قلت: لهما، ولأمر ثالث، وهو أن المساواة لا تكاد توجد خصوصاً في القرآن. وقد مثل لها في التلخيص¹ بقوله تعالى: (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) [فاطر: 43]، وفي الإيضاح² بقوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) [الأنعام: 68] وتعبق بأن في الآية الثانية حذف موصوف الذين، وفي الأولى إطناب بلفظ الشيء، لأن لفظ المكر لا يكون إلا سيئاً، وإيجاز بالحذف إن كان الاستثناء غير مفرغ، أي بأحد، وبالقصير في الاستثناء وبكونها حائئة على كف الأذى عن جميع الناس، محذرة عن جميع ما يؤدي إليه، وبأن تقديرها يضربصاحبه مَصْرَةً بليغة، فأخرج الكلام مخرج الاستعارة التبعية الواقعة على سبيل التمثيلية، لأنَّ يحيق بمعنى يحيط فلا يستعمل إلا في الأجسام³، غير أن بعض البلاغاء تحدثوا عنها واعطوا لذلك أمثلة من كتاب الله، ومن بينهم العلوي في الطراز وعددها قسيماً ثالثاً للإيجاز وكذا الإطناب. إذ جعلها

¹ - يقصد السيوطي التلخيص في علوم البلاغة، وهو تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي لصاحبه الخطيب القزويني (ت729هـ).

² - يقصد السيوطي الإيضاح في علوم البلاغة المعاني البيان البديع للخطيب القزويني أيضاً.

³ - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تخ: مركز الدراسات القرآنية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (1426). ج2. ص373، ومعتك الأقران. ج1. ص294-295.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

النوع الثالث بعد الإيجاز والإطناب، وقال فيها: " هي في مصطلح فرسان البيان عبارة عن تأدية المقصود بمقدار معناه من غير زيادة فيه ولا نقصان عنه، ثم إنها جارية على وجهين، أحدهما أن يكون مساواة مع الاختصار، وهذا نحو أن يتحرى البليغ في تأدية معنى كلامه أوجز ما يكون من الألفاظ القليلة الأحرف، والكثيرة المعاني، التي يتعسر تحصيلها على من دونه في البلاغة، ومن هذا قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) [الرحمن: 60] وقوله تعالى: (وَهَلْ يَجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ) [سبأ: 17] فهذه أحرف قليلة تحتها فوائد غزيرة، ونكت كثيرة، فهذا نوع من المساواة.¹

بعد حديثه عن حدهما نبه على الفرق بين الإيجاز والاختصار، وقد عددهما بمعنى واحد على ما سار عليه صاحب المفتاح، والخطيب. وتعرض لمن خالفوا هذا الرأي فرأوا أن: الاختصار خاص بحذف الجمل فقط، بخلاف الإيجاز..

وفرق بين الإطناب والإسهاب، فأورد رأي بعضهم حيث جعلوهم بمعنى واحد، ثم عقب على ذلك برأيه حول المسألة: بأن الإيجاز أخص من الإسهاب، لأن الإسهاب التطويل لفائدة أو لغير فائدة.²

تحدث عن أقسام الإيجاز وهو عنده قسمين كما عند من سبقه، وهما إيجاز قصر، وإيجاز حذف.

- إيجاز القصر: وهو عنده الوجيز بلفظه، وسماه الهاشمي بـ (إيجاز البلاغة) يكون بتضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف، كقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) [البقرة: 179].³

فهذا النوع من الإيجاز في تقدير البلاغيين هو البلاغة لأنه ينم عن مقدرة المنشأ الذي استطاع أن يعبر عن معاني كثيرة بألفاظ قليلة، وهذا لا يتأتى إلا لمن أوتي باع كبير ومقدرة

¹ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحي بن حمزة العلوي. مطبعة المقتطف بمصر سنة 1332هـ - 1914م. ج.3. ص.322.

² - معترك الأقران. ج.1. ص.295.

³ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. أحمد الهاشمي. نشر مؤسسة هنداوي. "د.ط" 2017. ص.224.

تعبيرية كبيرة، فالآية السابقة قليلة الألفاظ ولكن المعاني المنطوية عليها كثيرة. وقد تعرض السيوطي له بقوله: "هو الوجيز بلفظه"¹؛ أي الذي معانيه تطول عن ألفاظه، وقد ساق السيوطي مجموعة من الأمثلة للتدليل عن بلاغة الإيجاز، وكلها مسوقة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: "(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)" [الإخلاص: 01] قال عن هذه الآية بأنها من بديع الإيجاز، فإنها نهاية التنزيه، وقد تضمنت الرد على نحو أربعين فرقة، وقوله تعالى: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) [النازعات: 31] دلّ بهاتين الكلمتين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام من العشب والشجر، والحب والتمر، والعصف والحطب، واللباس والنار والملح، لأن النار من العيدان، والملح من الماء، وقوله: (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُتْرَفُونَ) [الواقعة: 4] جمع فيه عيوب الخمر من الصداع، وعدم العقل، وذهاب المال، ونفاد الشراب. وقوله: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [هو: 44] أمر فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، وقص من الأنباء ما لو سُرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام. وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف"².

- إيجار الحذف: يكون بحذف شيء من العبارة لا يخلُّ بالفهم، عند وجود ما يدل على

المحذوف من قرينة لفظية أو معنوية.³

وهذا النوع من الإيجاز يكون بالاقطاع من العبارة مع ترك ما يدل على المقتطع

ويكون بعدة أشكال ليس المقام لبسطها.

1 - معترك الأقران. ج. 1. ص. 295

2 - المصدر نفسه. ج. 1. ص. 298.

3 - جواهر البلاغة. ص. 224.

وقد تحدث عن أنواعه، وهي: الاقتطاع¹، والاكتفاء²، والاحتباك³، والاختزال⁴.

ولا شك أن لإيجاز الحذف بلاغة وفائدة تتحقق من ورائه وقد ذكر السيوطي بعضاً من فوائده وأهميته وبلاغته. منها: مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره. ومنها: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يُفضي إلى تفويت المهم، وهذه هي فائدة باب التحذير والإغراء، وقد اجتمعا في قوله: (ناقة الله وسُقياها)، فناقة الله تحذير بتقدير ذرؤا، وسقياها إغراء بتقدير الزموا. ومنها: التفخيم والإعظام لما فيه من الإيهام. قال حازم في "منهاج البلغاء"

وكما تحدث عن الإيجاز تحدث عن الإطناب وقسمه إلى قسمين بسط وهو بتكثير الجمل، كقوله: (إنَّ في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [البقرة: 164] في سورة البقرة، أبلغ في إطنابها لكون الخطاب مع الثقلين وفي كل عصر وحين، للعالم منهم والجاهل، والموافق والمنافق. وزيادة⁵، ونلاحظ أن السيوطي أفاض الحديث عن الإيجاز إلا أنه سلك في الإطناب مسلك الاختصار وعدم التطويل.

وتحدث أيضاً عن الحصر "القصر" حيث تعرض لمفهومه، وذكر أقسامه المعروفة عند البلاغيين وعلماء الأصول، وذكر تقسيماً آخر خاصاً بالقرآن الكريم، وفرق بين الاختصاص والحصر، وهذا بيان ما جاء به: أما تعريفه للحصر فهو: "تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص. ويقال أيضاً إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه"⁶

1 - وهو حذف بعض أحرف الكلمة.

2 - وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة.

3 - وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، كقوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ) (التقدير: ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذي يتعق، والذي يُتَّعِقُ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة الذي يتعق عليه، ومن الثاني الذي يتعق به لدلالة الذين كفروا عليه.

4 - ما يسمى بالاختزال، وهو ما ليس واحداً مما سبق.

5 - معترك الأقران. ج. 1. ص. 333.

6 - نفسه. ص. 181.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

فالحصر في تقديره قصر أو تخصيص صفة، أو موصوف بأحد طرق الحصر المعروفة، أو إثبات صفة حكمية للمقصود بالحصر ونفيها عما سواه، فالأول هو المقصور، والثاني هو المقصور عليه.

تعرض أيضا لأقسام الحصر وقسمه إلى قسمين اثنين هما: 1- قصر الموصوف على الصفة 2- قصر الصفة على الموصوف، وكلاهما يقع حقيقيا ومجازيا، وقصر الموصوف على الصفة حقيقياً في نظره عزيز لا يكاد يوجد لعدم القدرة على الإحاطة بجميع صفات الشيء حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي غيرها بالكلية، وعلى هذا لا يمكن أن يكون للذات صفة واحدة ليس لها غيرها، ولهذا هذا النوع لم يقع في القرآن كما ذكر، وقد مثل لكل نوع منهما: الموصوف على صفة "ما زيد إلا كاتب" حقيقيا، ومجازيا "وما محمد إلا رسول"، ومثال قصر الصفة على الموصوف: حقيقيا "لا إله إلا الله"، ومجازيا مثل قوله تعالى: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمًا مِنَ الْأَنْعَامِ: [145]، فالكفار كانوا يحلون الميتة والدم ولحم الخنزير ويحرمون المباحات.

بعد ذلك ذكر له أقساما خصها بالقرآن الكريم وهي ثلاثة أقسام: قصر أفراد، وقصر قلب، وقصر تعيين.

فمثال الأول: قوله تعالى: (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ) [النحل: 51] وهذا النوع عبارة عن خطاب لمن يعتقد الشرك، فالكفار لما كانوا يعتقدون بأن الأصنام تشترك مع الله في الألوهية نزلت الآية لتفي هذا الاعتقاد، ومثال الثاني قوله تعالى: (رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [البقرة: 258] خوطب به نمرود الذي اعتقد أنه هو المحيي المميت دون الله، وهو خطاب يخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير من أثبته المتكلم له، والثالث يخاطب به من تساوى عنده الأمران فلم يحكم بإثبات الصفة لواحد بعينه ولا لواحد بإحدى الصفتين بعينها مثل: يسألك سائل فيقول: يا فلان هل محمد هو القادم، أو أحمد؟ فتقول له لا قادم إلا أحمد فهذا تعيين.

بين الحصر والاختصاص: ذهب بعضهم¹ إلى عدم التفريق بين المصطلحين، ولكن السيوطي فرق بينهما حيث قال في المعترك: "ويَقْهَم كثير من الناس من الاختصاص الحصر، وليس كذلك، وإنما الاختصاص شيء آخر، والفضلاء لم يذكروا في ذلك لفظة الحصر، وإنما عبّروا بالاختصاص. والفرق بينهما أن الحصر نفي غير المذكور وإثبات المذكور. والاختصاص قصد الخاص من جهة خصوصه" الحصر ينفي عن الغير ويثبت للمحصور فيه؛ مثل: "إنما الأعمال بالنيات" فجعل الأعمال المعتبرة شرعا محصورة في الأعمال التي كانت لها نية صحيحة، ونفى الصحة عن غيرها، فهذا حصر لأنه ينفي عن غير المذكور الصحة وهي الأعمال التي ليست لها نية، وعندما أقول زيدا ضربت فأنا لا أنفي إني ضربت غيره، وإنما خصصته بالذكر عن غيره، فالحصر فيه معنى النفي والاختصاص ليس فيه معنى النفي.

هذه بعض النتف من المباحث المتعلقة بعلم المعاني التي أوردها السيوطي في معترك الأقران، وهي في غالبيتها نقلا عن متقدميه إلا ما كان من بعض التنبيهات وبعض الآراء حول بعض المسائل المتعلقة بالمباحث التي درسها في علم المعاني.

جهود السيوطي في علم البيان: تحدث السيوطي في كتابه معترك الأقران عن جملة من المواضيع التي تدخل تحت مسمى علم البيان، فقد تعرض الرجل للمجاز وأفاض واستطرد حول مسأله وما يتعلق به، وتحدث عن التشبيه، والاستعارة وما يتعلق بهما، وتحدث عن الكناية وما يتعلق بها أيضا من مسائل وجزئيات.

أما حديثه عن المجاز فقد تعرض له في الوجه الثالث والعشرين من وجوه إعجازه، وتعرض فيه للحقيقة التي هي قسيمة المجاز ومرور عليه مروراً بقوله وقوع الحقائق والمجاز فيه، ولم يتعرض السيوطي لحد الحقيقة ولا لحد المجاز وأسهب الحديث في المجاز دون الحقيقة على خلاف العلوي مثلا في الطراز، والقزويني في الإيضاح فقد تكلم عن الحقيقة بإسهاب، وتعرض السيوطي لمسألة الخلاف فيه - المجاز - فذهب إلى أن جمهور العلماء على

¹ - ممن ذهب إلى هذا الأمر أبو حيان في تفسيره البحر المحيط، انطلاقا من أن الاختصاص والحصر عنده بمعنى واحد.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

وجوده في اللغة وفي القرآن وأنكره بعضهم وعده أخ الكذب والقرآن منزه عنه، والمتكلم لا يعدل إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله تعالى¹، ومن المنكرين له الظاهرية، وابن القاص من الشافعية، وابن خويز منداد من المالكية.

السيوطي حول المسألة كان له رأي مغاير للمنكرين حيث قال: "وهذه شبهة باطلة، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شَطْرُ الحسن، فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلو القرآن عن المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتكنية القصص وغيرها." فهو يرى أن حجة منكري المجاز باطلة وواهية لا ترقى إلى الصواب؛ لأن المجاز عند أرباب البلاغة والبيان أبلغ من الحقيقة.

وتكلم عن جملة من أنواع المجاز هي: المجاز في التركيب، والمجاز في المفرد، وصف البعض بصفة الكل، وإطلاق لفظ البعض وإرادة الكل، وإطلاق الاسم الخاص على العام، ونسبة الفعل لسبب السبب، وإقامة صيغة مقام أخرى، وغيرها من المسائل المتعلقة بالمجاز، وذكر نوعا للمجاز هو مجاز المجاز ولم يدرج البلاغيون على ذكره ومثل له بقوله تعالى: (وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا) [البقرة: 235] مجاز المجاز، وهو أن يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر، فيتجاوز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينهما، كقوله تعالى: (وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا)، فإنه مجاز عن مجاز، فإن الوطاء تجوز عنه بالسر، لكونه لا يقع غالبا إلا في السر، وتجاوز به عن العقد، لأنه مسبب عنه، فالمصحح للمجاز الأول الملازمة والثاني السببية. والمعنى لا تواعدوهن عقد نكاح. وفي حديثه عن الوساطة بين الحقيقة والمجاز في النوع الثالث لها" ثالثها: اللفظ المستعمل في المشاكلة، نحو (ومكروا ومكر الله) (وجزاء سيئة سيئة مثلها). ذكر بعضهم أنها واسطة بين الحقيقة والمجاز، قال: لأنه لم يوضع فيما استعمل فيه، فليس حقيقة، ولا علاقة معتبرة، فليس مجازاً، كذا في شرح بدعية ابن جابر لرفيقه²

¹ - ينظر الإتيان. ج. 2. ص. 347.، والمعترك. ج. 1. ص. 246

² - معترك الأقران. ج. 1. ص. 267.

فقد تعقب هذا السيوطي برأي مخالف حيث قال: " قلت: والذي يظهر أنها مجاز،
والعلاقة المصاحبة"¹

ومما يحسب للسيوطي وهو يأصل في الحقيقة للإعجاز القرآني عندما تعرض للمجاز لم يدع جزئية إلا ودلل لها بمثال أو مثالين من كتاب الله سبحانه وتعالى وبالمثال يتضح الأمر وينجلي، فمثلا عند حديثه عن المجاز في التركيب قال: " المجاز في التركيب، ويسمى مجازَ الإسناد، والمجاز العقلي، وعلاقته الملابس، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملاسته له، كقوله تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) نسبت الزيادة، وهي فعل الله تعالى، إلى الآيات لكونها سببا لها وقله: (يُدْرِحُ أَبْنَاءَهُمْ) (يا هَامَانُ ابْنِ لِي)، نسب الذبح، وهو فعل الأعوان، إلى فرعون، والبناء وهو فعل العملة، إلى هامان، لكونهما أمرين به. وهكذا كل ما مر بجزئية أجلاها بالأمثلة لتتضح، وهو أسلوب اعتمد في الدرس البلاغي تاليا. هذا عن المجاز باختصار.

أما حديثه عن التشبيه، فقد جمع بينه وبين الاستعارة في باب واحد في الباب الرابع والعشرين من وجوه إعجازه، وهذا الوجه في تقديره من أشرف أنواع البلاغة وأعلها.

لم يورد تعريفا للتشبيه خاصا به واكتفى بإيراد تعاريف علماء لغويين كالمبرد، والسكاكي، وابن أبي الأصبع وغيرهم، وجمع بين التشبيه والاستعارة في هذا الوجه، حيث تحدث عن التشبيه أولا وذكر الغرض المقصود منه: والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جلي، وإدناؤه البعيد من القريب ليفيد بيانا"²، فبواسطة التشبيه بين أمرين يجلى الخفي ويقرب البعيد مما يؤنس النفس.

تحدث أيضا عن أدوات التشبيه، وقسمها إلى حروف وأسماء وأفعال؛ فالحروف "الكاف، وكان"، والأسماء" مثل، وشبه ونحوهما مما يشتم منه المشابهة والمماثلة"، والأفعال

¹ - المصدر السابق. ج.1. ص.267.

² - نفسه. ج.1. ص.269.

"علمت وحسبت" على ما ذكر السكاكي وخالفه في ذلك جماعة من العلماء منهم الطيبي، حيث قالوا أن القول بأن كون هذه الأفعال تنبيء عن التشبيه فيه نوع خفاء.

وكان للسيوطي في هذه المسألة حديث، فهو يرى بأن الفعل ينبئ عن التشبيه لا هو أداة تشبيه، وإنما الأداة محذوفة قال في الشأن: والأظهر أن الفعل ينبئ عن حال التشبيه في القرب والبعد، وأن الأداة محذوفة مقدرة لعدم استقامة المعنى بدونه " فالمعنى في تقديره وحدوث المشابهة لا تستقيم بدون تقدير أداة التشبيه¹

وانتقل بعد كلامه عن أدوات التشبيه إلى الكلام عن أقسامه، وقسمه لعدة اعتبارات هي:

1- باعتبار طرفيه وينقسم إلى أربعة أقسام: - حسيان، أو - عقليان؛ أو المشبه به حسي والمشبه عقلي، أو المشبه به عقلي والمشبه حسي، وساق لذلك أمثلة من القرآن.

2- باعتبار وجهه وينقسم إلى قسمين: - مفرد - مركب.

3- باعتبار آخر وينقسم إلى: - تشبيه ما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه، اعتمادا على

معرفة النقيض والضد، فإن إدراكها أبلغ من إدراك الحاسة، كقوله تعالى: (طَلَعْنَا كَأَنَّهُ

رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) [الصفات: 65]. - تشبيه ما لا تقع عليه الحاسة بما تقع عليه مثل

قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ) [النور: 39] - الثالث: إخراج ما لا

تجري العادة به إلى ما جرت، كقوله تعالى: (وَإِذْ تَتَّقْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) والجامع

بينهما الارتفاع في الصورة. - الرابع: إخراج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بها، كقوله:

(وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ). والجامع العظم، وفائدته التشويق إلى الجنة

بحسن الصفة وإفراط السعة. - الخامس: إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة

فيها، كقوله تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)²

4- باعتبار التأكيد وعدمه وقسمه إلى قسمين: - مؤكد، وهو ما حذف فيه الأداة، نحو:

(وَهِيَ تَمُرٌّ مَرَّ السَّحَابِ)، أي مثل مر السحاب، (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) ، (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

¹ - ينظر ينظر معترك الأقران. ج 1. الصفحة نفسها.

² - نفسه. ص 272 - 273.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ). - مرسل، وهو ما لم يحذف، كالأيات السابقة. - المحذوف الأداة أبلغ، لأنه نُزِلَ فيه الثاني منزلة الأول تجوزاً¹

فلاحظ أن السيوطي قد أسهب واستطرد كثيراً في التحدث عن التشبيهات باعتبارات مختلفة، واستدل على ما ذهب إليه في كل وجه بمثال أو مثالين من القرآن الكريم بما أنه بصدد ضبط وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد استعان بأمثلة منه لتعصيد ذلك. وثابت بلاغة القرآن الكريم.

وختم كلامه في الحديث عن التشبيه بذكر بعض القواعد التي ينبغي التنبه لها، وهذه القواعد هي:

- القاعدة الأولى: الأصل في أداة التشبيه الدخول على المشبه به، وقد تدخل على المشبه، إذا قصدت المبالغة، فينقلب التشبيه فيصير المشبه هو الأصل، والمشبه به هو الفرع، وأشار إلى ذلك بقوله: "...إما لقصده المبالغة فيقلب التشبيه ويجعل المشبه هو الأصل، نحو قوله تعالى: (وَاحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة: 275]، كان الأصل أن يقولوا إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام في الربا لا في البيع، فعدلوا عن ذلك وجعلوا الربا أصلاً ملحقاً به البيع."²

وكذلك إذا كان الحال واضح المشبه والمشبه به؛ أي أن التشبيه واضح الطرفين المشبه والمشبه به، ومثل له السيوطي بقوله تعالى: (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) [ال عمران: 36]، فقد قلب التشبيه من ليس الأنثى كالذكر إلى ليس الذكر كالأنثى، يقول السيوطي عن هذا: "... وإما لوضوح الحال... فإن الأصل: وليس الأنثى كالذكر، وإنما عدل عن الأصل، لأن المعنى: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت."³

- القاعدة الثانية: في المدح والذم المتعارف عليه أنه في المدح يشبه الأدنى بالأعلى كون الأعلى أبين وأظهر من الأدنى، وفي الذم يشبه الأعلى بالأدنى؛ لأن الذم مقام الأدنى، وقد عبر

¹ - ينظر معترك الأقران. ج. 1. ص 273.

² - المصدر نفسه. ص 274.

³ - نفسه. ج. 1. ص 274.

السيوطي عن ذلك بقوله: " القاعدة في الدم تشبيه الأعلى بالأدنى، لأن الدم مقام الأدنى. وفي المدح تشبيه الأدنى بالأعلى، لأن الأعلى ظاهرٌ عليه، فيقال في المدح: حصى كالياقوت. وفي الذم: ياقوت كالزجاج، وكذا في السلب، ومنه قوله تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ) [الأحزاب: 32]: أي في النزول لا في العلو، وقوله: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص: 28]: أي في سوء الحال لا نجعلهم كذلك"¹.

كان هذا حديث السيوطي عن التشبيه في كتابه معترك الأقران ولم يتعرض لتعريفه، وقد تعرض له في شرح عقود الجمان، وحده بأنه: "الدلالة على مشاركة أمر للأمر في معنى لا على وجه الاستعارة التحقيقية نحو: رأيت أسداً في الحمام، ولا على وجه الاستعارة بالكناية نحو: أنشبت المنية أظفارها..."².

وبعد الحديث عن التشبيه انتقل للحديث عن الاستعارة، واستهل هذا الحديث بتعريف الاستعارة، وقد ساق تعريفاً لسابقه بقوله: "يقال في تعريفها اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي"³. فهذا التعريف يشير إلى أن الاستعارة عبارة عن تشبيه، فيشبه اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي لوجود علاقة المشابهة بينهما، كتشبيه الشخص الجريء المقدم الشجاع بالأسد، وقد انتقد السيوطي هذا التعريف ورأى بأن الاستعارة هي: " مجاز لغوي، لأنها موضوعة للمشبه به لا للمشبه، ولا لأعم منهما، ف"أسد" في قوله: رأيت أسداً يرمى - موضع للأسد لا للشجاع، ولا لمعنى أعم منهما، كالحيوان الجريء مثلاً، ليكون إطلاقه عليهما حقيقة كإطلاق الحيوان عليهما. فإطلاق لفظ الأسد على الإنسان الشجاع إطلاق على غير ما وضع له، ولا يصلح لما وضع له ابتداءً لوجود قرينة تمنع إيراد المعنى الحقيقي وتصرفه عنه، وهي في المثال الرمي، وقد أورد تعريفات أخرى في كتابه، ثم ذكر أركانها

¹ - ينظر معترك الأقران. الصفحة نفسها.

² - عقود الجمان في المعاني والبيان. جلال الدين السيوطي. تج: إبراهيم الحمداني، وأمين لقمان الحبار. دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان. ط1"2011م". ص193.

³ - معترك الأقران. ج1. ص276.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

وهي ثلاثة في تقديره: 1- مستعار وهو اللفظ المشبه به 2- المستعار منه وهو المشبه 3- ومستعار له وهو المعنى الجامع¹.

وبعد بسطها الكلام في تعريفات الاستعارة انتقل للحديث عن أقسامها، وقد قسمها باعتبار عدة هي:

1- باعتبار الأركان وتنقسم إلى خمسة أقسام هي²:

أ- استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس: ومثل لها بقوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [مريم: 4]، فالذي وقع منه الاستعارة هو النار، والذي استعير له الشيب، والجامع بين المستعار منه والمستعار له هو الانبساط ومشابهة ضوء النار لبياض الشيب، وكل ذلك مشاهد بالحواس بحاسة العين، وهو أبلغ مما لو قيل: اشتعل شيب الرأس، فتعبير الآية أبلغ في الدلالة على انتشار الشيب في جميع الرأس وسرعة انتشاره به.

ب- استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي: ومثل لها بقوله تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) [يس: 37] فالذي تمت الاستعارة منه هو السلخ وهو نزع الجلد عن الشاة، والمستعار له جلاء الضوء لظلمة الليل وهما حسيان، والجامع بينهما ما يعقل من ترتب أمر على آخر وحصوله عقب حصوله، كترتب ظهور اللحم بعد سلخ الجلد عن الشاة، وظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل. قال ابن أبي الإصبع: وهي ألطف من الأولى.

ج- استعارة معقول لمعقول بوجه عقلي: ومثل له بقوله تعالى: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ) [الأعراف: 154]، فالمستعار منه في الآية الإنسان الساكت، والمستعار له الغضب حيث شبه بالإنسان والجامع بينهما السكوت قال ابن أبي الإصبع: وهي ألطف الاستعارات.

د- استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي: ومثل له بقوله تعالى: (مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ) [البقرة: 214] استعير المس، وهو شيء حسي حقيقة في الأجسام، لمقاساة الشدة، والجامع بينهما اللحوق، وهما عقليان.

¹ - ينظر المصدر السابق. ص 276، و عقود الجمان. ص 220.

² - ينظر المصدر نفسه. ج 1. ص 276 وما بعدها.

عبدالله وايني... ————— جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

هـ- استعارة معقول محسوس، والجامع عقلي: ومثل له بقوله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) [الحاقة: 11] فالشيء المستعار منه هو التكبر وهو عقلي، والمستعار له كثرة الماء وهو حسي، والجامع الاستعلاء وهو عقلي أيضاً.

2- باعتبار اللفظ وتنقسم إلى قسمين: أ- أصلية: وهي التي يكون اللفظ المستعار منه فيها اسم جنس، مثل: آية، حبل الله.

ب: تبعية: مثل لها بقوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) [القصص: 8] شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب غلبة الغائبة عليه، ثم استعير في المشبه اللام الموضوعة للمشبه به. وهي ما كان اللفظ فيها غير اسم جنس، كالفعل والمشتقات.

3- باعتبار الترشيح والتجريد والإطلاق: تنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام هي:

أ- مرشحة: وهي المقرونة بما يلائم المستعار منه ومثل لها بقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [البقرة: 16]: حيث استعير الاشتراء للاستبدال والاختيار، ثم قرن بما يلائم الاشتراء وهو الربح والتجارة

ب- مجردة: وهي المقرونة بما يلائم المستعار له، ومثل لها بقوله تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) [النحل: 112]، فقد استعير اللباس للجوع، وقرن بما يلائم المستعار له وهو الإذاعة.

ج- مطلقة: وهي التي لا تقترن بما يلائم المستعار منه، ولا بما يلائم المستعار له.

4- ذكر تقسيمات باعتبارات أخرى نكتفي بذكرها وهي: باعتبار الحقيقة والتخييل، والتصريحية والمكنية، والتمثيلية.

وختم الحديث عن الاستعارة بالتفريق بين التشبيه البليغ والاستعارة، فالمحققون عنده على أنه تشبيه بليغ لا استعارة؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون، والاستعارة تطلق حيث لا يذكر المستعار له، والذي اختاره السيوطي في نحو "زيد أسد" أنه قسمان: تارة يُقصد به التشبيه. فتكون أداة التشبيه مقدره، وتارة يقصد به الاستعارة فلا تكون

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

مقدرة، ويكون الأسد مستعملاً في حقيقته، وذكر "زيد" والإخبار عنه بما لا يصلح له حقيقة قرينة - صارفة إلى الاستعارة دالة عليها، فإن قامت قرينة على حذف الأداة صرنا إليه، وإن لم تكن فنحن بين إضمار واستعارة، والاستعارة أولى، فيصارع إليها.

وختم الكلام في علم البيان بالحديث عن الكناية، والتي أشار إلى تعريفها عند علماء

البيان بقوله: وعرفها أهل البيان بأنها لفظ أريد به لازم معناه.¹

فالكناية لفظ أريد به المعنى غير الظاهر للمتلقي، ويمكن إرادة المعنى الحقيقي معه

كما ذكر السيوطي في عقود الجمان بقوله: "والكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه كقولك طويل النجاد مريداً طول القامة لجواز إرادة طول حمائل السيف معه أيضاً"²

وتعرض لأسباب الكناية، وهي³: أ- التنبيه على عظم القدرة ومثل لها بقوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) [الأعراف: 189]، وهي كناية عن آدم عليه السلام.

- ترك اللفظ إلى ما هو أجل: ومثل لها بقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) [ص: 23] فكنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك، لأن ترك

التصريح بذكر المرأة أجل منه، ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم. قال السهيلي:

وإنما ذكرت مريم باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة، وهي أن الملوك والأشراف لا

يذكرون حرائرهم في ملاء، ولا يبتذلون أسماءهن، بل يكونون عن الزوجة بالفرس والعيال

ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر.

- أن يكون الصريح مما يستقبح ذكره: ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة،

والإفضاء والرفق، والدخول، والسر، ومثل له بقوله تعالى: (وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا)

1 - معترك الأقران. ج. 1. ص. 286.

2 - شرح عقود الجمان. ص. 235.

3 - ينظر المصدر نفسه. ج. 1. ص. 287 وما بعدها.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

[البقرة: 235]. فالله سبحانه وتعالى يكتفي بما شاء، وقد ساق لذلك مجموعة من الأمثلة يعاد إليها في المصنف.

- قصد المبالغة والبلاغة: ومثل له بقوله تعالى: (أَوْمَنْ يُنَشَأُ فِي الْجِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) [الزخرف: 18]، فقد كنى المولى سبحانه وتعالى عن النساء بأن هن ينشأن في الترفه والتزين والشواغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني، ولو جاء الكلام بلفظ النساء لم يشعر بذلك.

- قصد الاختصار: كالكناية عن أشياء وألفاظ متعددة بلفظ معين، مثل لفظ "عمل"، ومثل له بقوله تعالى: (لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [المائدة: 62].

- التنبيه على مصيره: مثل مصير أبي لهب وزوجه، قال تعالى: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) [المسد]، أي مصيره إلى جهنم، وكذا زوجته.

ثم أشار إلى الفرق بين الكناية والإرداف، وبين الكناية والتعريض، وعد الإرداف من أنواع البديع التي تشبه الكناية، وحدها بأنه هو: "أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بدلالة الإشارة؛ بل بلفظ يرادفه، ومن ذلك قوله تعالى: (وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) [هود: 44]، فقد عبر بلفظ الاستواء بدل المعنى الخاص الجلوس لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زيع فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من لفظ الجلوس.

جهود السيوطي في علم البديع: تحدث السيوطي في كتابه معترك الأقران عن جملة من المواضيع التي تدخل تحت مسمى علم البديع، وقد تعرض لها متفرقة عبر، حيث ذكر بعضها منها في الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن في فواتح وخواتم السور، والمناسبات، والفواصل، ويتعلق الأمر بالسجع، وأفرد لها وجها خاصا سماه وقوع البدائع البليغة فيه، وهو في كل ذلك يحاول إثبات وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وقد عرف السيوطي علم البديع بقوله: " وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة"¹. فعلم البديع علم يتيح للمنشئ طريقة معرفة وجوه تحسين الكلام مع مراعاة المطابقة، واتضح الدلالة.

وقد تكلم السيوطي عن السجع وهو من المحسنات المعنوية في الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن، وأشار إلى مسألة الخلاف حول وجوده في القرآن الكريم، فالجمهور على منعه في القرآن الكريم، وهناك من جوزه فيه يقول في هذا الصدد: " وهل يجوز استعمال السجع في القرآن، خلاف: الجمهور على المنع، لأن أصله من سجع الطَيْرُ، فَشَرَفَ القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك، ولأن القرآن من صفاته تعالى، فلا يجوز وصْفُه بصفة لم يرد الإذن بها"²، ولذلك عدلوا عن تسمية ما في القرآن سجعا وسموه فواصل فالسجع للشعر والفاصل للقرآن الكريم. قال الرماني في إعجاز القرآن: ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقول في القرآن سجع، وفرَّقوا بينهما بأن السجع هو الذي يقصد في نفسه ثم يحال المعنى عليه، والفاصل التي تَبَع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها. قال: ولذلك كانت الفواصل بلاغة والسجع عيباً، وتبعه على ذلك أبو بكر الباقلاني. وقال الخفاجي في سر الفصاحة: قول الرماني: إن السجع عَيْبٌ والفاصل بلاغة غلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يَتَّبَع المعنى - وهو غير مقصود فذلك بلاغة، والفاصل مثله. وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له - وهو مقصود متكلف - فذلك عيب. والفاصل مثله"³.

وقد استطرده كثيراً في نقل حديثهم عن السجع للفاصل والمقام لا يسع لذكر كل تلك التفصيلات.

أما باقي المواضيع المتعلقة بعلم البديع فقد تحدث عنها في الوجه المشار إليه سابقاً ومنها: الإيهام؛ ويدعى التورية؛ وهو أن يُذكر لفظ له معنيان، إما بالاشتراك، أو التواطؤ، أو

¹ - معترك الأقران. ج. 1. ص. 373.

² - المصدر نفسه. ص. 31.

³ - نفسه. ج. 1. ص. 31.

الحقيقة، أو المجاز: أحدهما قريب والآخر بعيد، وثقصد البعيد ونورى عنه بالقرب، فيتوهمه السامع في أول وهلة من ذلك قوله تعالى: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) [الرحمن: 6]، فإن النجم يطلق على الكوكب، ويرشحه له ذكر الشمس والقمر، وعلى ما لا ساق له من النبات، وهو المعنى البعيد له وهو المقصود في الآية.

ومنها الالتفات: "وهو نقل الكلام من أسلوب، إلى آخر، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول، هذا هو المشهور"، وهو أن ينتقل المتكلم من ضمير إلى ضمير آخر؛ لغرض ما يقصده، كالتحول من التكلم إلى الغيبة مثلاً، وعكسه، وهكذا. قال السيوطي: "ويختص كل موضع بنكت ولطائف باختلاف محله"¹، ومثل له بقوله تعالى: (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [يس: 22] وهو التفات من التكلم إلى الخطاب، ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فضل عناية وتخصيص بالواجهة، والأصل: وإليه "أرجع". فالتفت من التكلّم إلى الخطاب. ونكتته أنه أخرج الكلام في موضع مُناصحته لنفسه، وهو يريد نُصَحَ قومه تطفأً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريد لنفسه، ثم التفت لكونهم في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله²، وتحدث عن الاطراد: "وهو أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتبة على حكم ترتيبها في الولادة؛ قال ابن أبي الإصبع: ومنه في القرآن قوله تعالى - حكاية عن يوسف: (وَاتَّبَعْتُ مَلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) [البقرة:] قال: وإنما لم يأت بهم على الترتيب المؤلف، فإن العادة الابتداء بالأب ثم بالجد ثم الجد الأعلى، لأنه لم يُرد هنا مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي اتبعها، فبدأ بصاحب الملة، ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولاً على الترتيب."³

وتحدث عن الانسجام، والافتنان، والافتقار، والجناس، وغيرها من المواضيع المتعلقة بالبديع والتي لا يسع المقام لبسطها وشرحها كاملة لذا اكتفينا بما ذكر، وقد ذكر في

¹ - معترك الأقران. ص378.

² - المصدر نفسه. ص378.

³ - المصدر نفسه. ص385.

عبدالله وايني... جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

بداية هذا الوجه أنه أنهاها بعضهم إلى مائتي نوع، وقد ذكر إحدى وأربعين نوعا من أنواع البديع في كتابه معترك الأقران افتتحها بالتورية وختمها بالإبداع.

- خاتمة:

في ختام هذه الدراسة حول جهود السيوطي في علم البلاغة في معترك الأقران يمكن أن نخلص إلى بعض النقاط التي وصلنا لها من خلالها وتتمثل في:

1- دراسة السيوطي لعلوم البلاغة في كتابه معترك الأقران جاءت انطلاقا من خلال محاولة تبين وجوه إعجاز القرآن والتي تعددت وتنوعت، وكان من بينها إعجازه بما اشتمل من وجوه إعجاز القرآن والتي تعددت وتنوعت، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع، هذه العلوم البلاغية الثلاثة التي كان لها حضور قوي في الكتاب؛ لأنها مثلت جانب من جوانب الإعجاز البلاغي في هذا الكتاب المبين المهيمن.

2- جهود السيوطي البلاغية في كتابه اقتصر في معظمها على نقل آراء السابقين له وجمعها؛ من أمثال السكاكي، والقزويني، والعلوي، والطبيي، والرماني، والباقلاني وغيرهم من العلماء، حيث عالج هذه المواضيع المتعلقة بهذه العلوم الثلاثة بسرد آراءهم في الكثير من الأحيان، أو تلخيصها دون شرح أو تعليق، ولم يضع قواعد بلاغية جديدة لم يكن مسبوqa إليها، وفي بعض الأحيان ينبه لأشياء أو يلفت إلى نكتة من النكت البلاغية.

3- اتخذ السيوطي القرآن الكريم موردا خصبا لشواهد على المسائل البلاغية، حيث أنه اتبع كل مسألة، أو لون من ألوان البلاغة يدل على شواهد من القرآن الكريم، وقد ذكرنا بعضها منها فيما تناولته من مباحث بلاغية في هذه الدراسة.

4- اتسم منهج السيوطي في نقل آراء سابقيه بالأمانة العلمية، حيث إنه التزم بعزو النصوص وإرجاعها لأصحابها، بذكر من قال القول، أو نقل عنه من مصنفه، أو سمع منه.

عبدالله وايني... ————— جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

5- اتسم جهد السيوطي في المعترك المتعلق بوجوه إعجاز القرآن بالدقة والإتقان، حيث غاص في البلاغة القرآنية بعمق محاولة منه لإبراز جمالية هذا النص الأسر الذي يستولي على القلوب والعقول، فيجعلها مدفوعة لتدبره والتمعن فيه.

6- كتاب معترك الأقران كتاب جمع فيه السيوطي بين الإعجاز القرآني، والبلاغة القرآنية جنبا إلى جنب فاتسم بالشمولية في الطرح والدرس لهذين الموضوعين.

هذه بعض النقاط التي توصلنا إليها من خلال تتبع جهود السيوطي البلاغية في رحم إعجاز القرآن الكريم.

- المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

1- معترك الأقران. جلال الدين السيوطي. تح: أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان- ط (1408 هـ-1988 م).

2- الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي، تح: مركز الدراسات القرآنية، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (1426).

3- الأشباه والنظائر في النحو. جلال الدين السيوطي. تح: عبد الآله نهان. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. (د.ط)(د.ت).

4- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. يحي بن حمزة العلوي. مطبعة المقتطف بمصر سنة "1222هـ - 1419م".

5- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة. نجم الدين محمد بن محمد الغزي. وضع حواشيه: خليل المنصور. منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ط1(1418هـ-1997م).

6- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. أحمد الهاشمي. نشر مؤسسة هنداوي. "د.ط" 2017.

عبدالله وايني...———— جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران

7- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية الباي الحلبي. ط1(1387هـ-1967م).

8- عقود الجمان في المعاني والبيان. جلال الدين السيوطي. تح: إبراهيم الحمداني، وأمين لقمان الحبار. دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان. ط1"2011م".

الفهرس

- 07 - طرق تفسير القرآن وأثرها على الخطاب البلاغي د الجمعي شبكية
- 28 - الاتجاه البلاغي في التفسير عند أحمد سعيد د. الطيب صفيّة النقاوسي الجزائريّ (المتوفى بعد 747هـ) من خلال كتابه "الرّوض الأهر".
- 63 - المسائل البلاغية في -كتاب إعجاز القرآن للباقلاني سامية بن زروق
- 84 - "الوقف والابتداء وأثره في إظهار بلاغة القرآن الكريم -عرض نماذج مختارة" أ.د/غنية بوحوش
- 103 - المباحث البلاغية في كتاب "معتزك الأقران في إعجاز القرآن" للعلامة السيوطي (ت911هـ) ط د جمال بوراس
- 130 - ملامح نظريّة السّيّاق في الفكر البلاغيّ العربيّ القديم وتطبيقاتها العمليّة عند المفسرين حبيبة زغلامي
- 149 - جدلية المجاز عند علماء اللغة والمفسرين. المجاز اللغوي أنموذجا. حسين سياسي
- 165 - الحجاج اللغوي في القرآن الكريم - آيات قرآنية مختارة أنموذجا- نعيمة حمو
- 174 - تفسير الخطاب القرآني في ضوء المناهج المعاصرة- التداولية أنموذجا هدية جيلي / رضا زلاقي
- 186 - إسهامات علوم القرآن في تأسيس الدرس البلاغيّ علي زوازي أحمد
- 212 - الدرس البلاغيّ وأثره في توجيه مشكل القرآن الكريم عرض نماذج تطبيقه أنموذجا سعيدة سعدودي
- 225 - بلاغة التشبيه في سورة النور د/عبد الوهاب تيايبيّة
- 245 - مفهوم العدول وعلاقته بأفاق الإعجاز القرآني الأستاذة: زهرة عميري
- 255 - الحجاج اللغوي في الخطاب القرآني من خلال كتاب التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور. د/أبو بكر زروقي

- التأثير والتأثر بين البلاغة والقرآن الكريم 268 د. محمد فريجة
- الأبعاد الدلالية والتأثيرية للفاصلة القرآنية - نماذج مختارة- 286 الدكتوراة الوناس نصيرة
- التطور والتجديد البلاغي من خلال علوم القرآن. 310 نعماني آسيا
- جهود السيوطي في الدرس البلاغي من خلال معترك الأقران 328 عبدالله وايني

علافة تركية مشرق
cover by @reg_sakuria



البلاغة العربية في ضوء علوم القرآن



ISBN: 978-9969-00-620-2



9 789969 005202

